ريتشارد دوكنز

وهم الاله

THE GOD DELUSION

الكتاب الذي غير حياة الملايين من البشر
و سيغير حياتك الى الابد

وهم الإله

بقلم

ريتشارد دوكنز

(إصدار تجريبي)
أيار 2009

Translated by : Geiger & Bassam Al-Baghdady
يرجى تزويدنا بملاحظاتك بخصوص الترجمة على
Al.Baghdady@gmail.com

تصميم الغلاف و مقارنة النسخة العربية
بالنسخة السويدية بواسطة بسام البغدادي

لذكرى دوغلاس ادامز

1952- 2001

الا يكفي النظر للحديقة كي نعرف جمالها

بدون الحاجة للاعتقاد بان هناك جنيات تحتها؟

الفهرس

عندما كانت زوجتي طفلة صغيرة, كرهت المدرسة وتمنت لو تركتها. وبعدها باعوام وعندما كانت في العشرينات صارحت امها بتلك الحقيقة المرة, وبدهشة حزينة قالت الام:"ولم لم تأتي وتقولي لنا ياعزيزتي؟" وجواب ليلى يومها هو عبارتي لهذا اليوم:" لم اعرف اني كنت استطيع ان افعل ذلك"

لم اعرف اني استطيع ان افعل ذلك .

اعتقد – بحزم – ان هناك العديدين من الذين تربوا على دين ما, وليسوا سعداء معه, او قلقين على ما يرتكب بإسمه من شرور, اناس يحنون لترك دين اباءهم ويتمنون لو استطاعوا لذلك سبيلا ولكنهن لايدركون ان ذلك هو احد الخيارات بالفعل. لو كنت واحدا منهم فهذا الكتاب من اجلك. كتاب المراد به لفت الانتباه لحقيقة ان الالحاد هو تطلع واقعي وشجاع ورائع. من الممكن ان تكون ملحدا سعيدا , متوازنا ومقتنع فكريا ومعنويا بشكل كامل. هذه اول رسالة للفت الانتباه. وستأتي ثلاث رسائل اخرى لاحقا .

في كانون الثاني 2006 قدمت برنامجا وثائقيا على التلفزيون البريطاني (القناة الرابعة (بعنوان جذرة الشر ؟ بادئ ذي بدء لم يعجبني العنوان. فالدين ليس اصل كل الشرور وليس هناك من شئ معين بذاته والذي هو اصل لكل شئ اخر. ولكنني سررت بالاعلان الذي وضعته القناة الرابعة على الجريدة الوطنية. وهي عبارى عن صورة لافق مدينة مانهاتن وبعنوان" تخيل العالم بدون دين" وماهي صلة الوصل هنا ؟ البرجين كانا على الصورة .

تخيل مع جون لينون(مغني له اغنية اسمها تخيل – المترجم), عالما بدون دين. لا انتحاريين , لا حملات صليبية, لا مؤامرة بارود, لاتقسيم للهند, لا حرب فلسطينية اسرائيلية, لا مذابح صرب-كروات-اسلام, لااضطهاد لليهود كونهم "قتلة المسيح" , لامشاكل في شمال ايرلندا. لا"جرائم شرف", لا انجيلي بهندام لامع على التلفزيون الامريكي يجز اموال السذج(الرب يريدك ان تعطي حتى الالم). تخيل انه لاوجود لطالبان ليفجروا تماثيل اثرية . لا قطع للرؤس بشكل علني ولا سوط على جلد انثى لان احدا رأى بوصة منه. لقد تصادف ان اخبرني صديق اسمه ديزموند موريس بأن اغنية جون لينون العظيمة تغني بعض الاحيان في امريكا مع تحوير اوحذف العبارة "و بدون دين ايضا" لابل انهم في بعض الاحيان يبدلونها بعبارة "ودين واحد ايضا" وبكل وقاحة .

ربما تفكر هنا بان اللاأدرية هي الموقف المعقول, وان الالحاد هو توجه عقائدي كالدين؟ لو انك كذلك فأعتقد ان الفصل الثاني من هذا الكتاب سيغير رأيك, وذلك بأقناعك بأن "فرضية الاله " هي عبارة عن فرضية علمية عن الكون ويجب تحليلها ودراستها بشك كأي فرضية اخرى. وربما انك درست بأن الفلاسفة وعلماء الدين لديهم العديد من الاسباب الجيدة للايمان بالله. لو انك ممن يفكر بذلك, فربما انك ستستمتع بقراءة الفصل الثالث الذي يناقش" الحجج عن وجود الله " – وفيه يظهر الضعف المدهش لهذه الحجج. ربما تعتقد بأن وجود الاله هو من المسلمات الواضحة وإلا فكيف خلق الكون ووصل الى ما وصل اليه الان؟ وكيف يمكن تفسير الحياة وتنوعها الغني وكل كائن حي يبدو كما لو كان "مصمما" ؟ لو ان تفكيرك طابق ما ذكر في السطور السابقة فأتمنى ان يجيب الفصل الرابع " لماذا من المؤكد تقريبا عدم وجود إله " عن بعض هذه التساؤلات بعيدا عن فكرة المصمم , والوهم عن تصميم الحياة يمكن تفسيره بطريقة اكثر اناقة واقتصادية بكثير بناء على نظرية الانتخاب الطبيعي لداروين. وعلى الرغم من ان نظرية الانتخاب الطبيعي محصورة بتفسير العالم الحي فإن باستطاعتها ان ترفع مستوى الوعي للادراك والقابلية للمقارنة عندنا مما يساعد على فهم الكون نفسه. ان قوة نظرية كالانتخاب الطبيعي وقدرتها على رفع مستوى الوعي هي ثاني رسالة للفت الانتباه من الرسائل الاربعة .

ربما انك تفكر بأنه من الواجب ان يوجد اله لان علماء التاريخ والانسانيون اخبرونا بان المؤمنين كانوا العامل الاكبر في انشاء كل حضارة. لو وجدت هذه الفكرة مقنعة فارجو ان تقرأ الفصل الخامس, عن "اصل الديانات", والذي يشرح سبب انتشار الايمان في كل مكان .

هل انت ممن يفكر بأن الدين ضروري لوجود مبرر ومغزى؟ الا نحتاج لاله لنكون جيدين؟ ارجو قراءة الفصلين السادس والسابع لمعرفة ان الامر ليس كذلك ابدا .لو انك فقدت ايمانك ولكنك لاتزال تفكر بأن لابأس لوجود الدين في الحياة؟ اقرأ الفصل الثامن وسيدعوك للتفكير بأن الدين ليس بالفكرة الجيدة لهذا العالم .

لو فكرت بانك عالق في دين تربيت عليه, فأن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تم ذلك؟ والجواب عادة هو التلقين منذ الطفولة. لو انك متدين فالاحتمال الاعظم انك على دين ابائك. لو ولدت في اركنساس ستفكر بان المسيحية هي الحقيقة والاسلام كذبة ,ونعلم تماما بان العكس هو الاكيد لو كنت مولودا في افغانستان. ولذلك فأنت ضحية تلقين طفولي مسيحي في اركنساس. والعكس بالعكس في افغانستان .

الفصل التاسع يعني بالدين والطفولة بشكل خاص, والذي يتضمن رسالة رفع لفت الانتباه الثالثة. وكما يجفل المنادون بحقوق المرأة عندما يسمعون "هو" عوضا عن "هو أو هي" او "رجل" عوضا عن "شخص" , اريد من الجميع ان يجفلوا عند سماع كلمات مثل "طفل كاثوليكي" او "طفل مسلم". لنتكلم عن "طفل لابوين كاثوليكيين" لو اردنا ولو سمعنا احدا يتكلم عن "طفل كاثوليكي" فلنوقفه ونحاول بلباقة لفت انتباهه لان الاطفال صغار ليكونوا على اي دين او يعرفوا موقفهم منه, تماما كما هم صغار ليعرفوا موقفهم من الاحداث الاقتصادية والسياسية. ولان موقفي هنا هو موقف توعية فلن اعتذر عن التكرار وذكر هذا الامر مرة اخرى في الفصل التاسع. لن نكرر ذلك عددا كافيا من المرات مهما حاولنا. وسأقولها ثانية. ليس هناك طفل مسلم , بل هناك طفل لابوين مسلمين. الطفل صغير جدا على معرفة اذا ما كان مسلما. ليس هناك ما يمكن تسميته بالطفل المسلم ,ليس هناك مانسمية طفلا مسيحيا .

الفصل الاول والعاشر يستهلان ويختمان الكتاب بالشرح وبطريقتيهما المختلفتين, كيف انه , وبواسطة فهم روعة العالم الحقيقي وبدون اي تدين, ان نحصل على ما يكفي من حقنا في الالهام,الحق الذي اغتصبه رجال الدين وحرموا منه الاخرين عبر التاريخ .

الرسالة الرابعة تلفت الانتباه لمسألة فخر الملحد. الالحاد ليس مما يدعو للاعتذار. على العكس, انه شئ يدعو للفخر,مع شموخ لمواجهة مع الافق البعيد, لطالما كان الالحاد مصحوبا بأستقلالية صحية للعقل وبناء عليه تفكير بناء. هناك العديدون ممن يعرفون بأنهم ملحدين ولكنهم لايجرؤون على الاعتراف لعائلاتهم او حتى لانفسهم في بعض الحالات . وسبب ذلك بشكل جزئي هو ان كلمة "ملحد" قد اعطيت من العناية الشئ الكثير لتعني شيئا مرعبا ومخيفا. الفصل التاسع يقتبس مشهدا من الممثلة الكوميدية جوليا سويني وقصتها مع اهلها بعد ان عرفوا عن طريق الجريدة ان ابنتهم ملحدة. لقد تقبلوا على مضض عدم ايمانها بالله, ولكن ان تكون ملحدة .. ملحدة (صوت الام يعلو لحد للصراخ في المشهد)أريد ان اقول شيئا للقراء الامريكان فيما يخص هذه النقطة, ان ظاهرة الدين في امريكا لهي ظاهرة تستحق الاهتمام فعلا. وليس من المبالغة ما قالته المحامية ويندي كامينير عن ان السخرية من الدين في امريكا لهي كإحراق علم امريكي في مركز للجنود الامريكان. وضع الملحدين في امريكا الان يشابه وضع الشاذين جنسيا فيها منذ حوالي 50 عاما. والان, بعد حركة الفخر بالشذوذ, اصبح من الممكن الى حد ما ان ينتخب شاذ جنسيا لمركز حكومي . وفي استفتاء جرى عام 1999 عن الاستعداد لانتخاب شخص بمواصفات ممتازة لتولي منصب اداري كانت النتائج كالتالي: فيما لو كان امرأة 95% و روم كاثوليكي 94% و يهودي 92% و مورمون 79% و شاذ جنسيا79% و ملحد49%.

من الواضح ان هناك طريقا طويلا امامنا. ولكن الملحدين اكثر عددا مما بدواوخصوصا بين النخبة المثقفة. والحال كان كذلك حتى في القرن التاسع عشر, عندما قالجون ستيوارت:"من المحتم انها ستكون صدمة هائلة لوعرف العالم كم هي نسبة المشككين في الدين بين الحاصلين على اعلى الاوسمة لتميزهم اللامع في مجالات العلم والفكر" .وفي ايامنا هذا تصح هذه المقولة اكثر بدون شك ولدي الادلة لبرهان ذلك في الفصل الثالث من الكتاب. ان السبب الرئيسي لعدم انتشار فكرة وجود الملحدين بين عامة الشعب هي اننا نتردد في اظهار انفسنا لهم. واملي ان يساعد كتابي الناس ليتجرأوا على

الظهور . وكما كان الحال مع المثليين, فكلما ظهر عدد اكبر منهم سيصبح من الاسهل للاخرين ان ينضموا للمجموعة. ربما ان هناك مايسمى بالكتلة الحرجة لبدء التفاعل التسلسلي .

استطلاعات الرأي الامريكية تنبئ عن ان عدد الملحدين واللاادريين في امريكا اكثر بكثير من عدد اليهود المتدينين, وحتى اكثر من العديد من المجموعات الدينية الاخرى. ولكن على عكس اليهود كونهم الاشهر في مجال اللوبي في امريكا, وعلى عكس المسيحيين الانجيليين, وقوتهم السياسية التي تفوق تلك التي لليهود, لايوجد تنظيم للملحدين واللاادريين وبالتالي ليس لهم اي تأثير. لاعجب في ذلك, لان تنظيم الملحدين سيكون اشبه برعي قطيع من القطط, لانهم معتادون على التفكير المستقل وعدم الانصياع لاي نوع من السلطة الفكرية. ولكن بناء عدد كاف من الذين يرغبون بأظهار انفسهم وبالتالي تشجيع الاخرين على عمل الشئ نفسه سيكون جيدا بشكل كاف كخطوة اولى. وبرغم اننا لانستطيع تنظيم قطيع من القطط ولكن وجود عدد كاف منهم سيؤدي لضجة كافية ولن يكون من الممكن اهمالهم .

كلمة "الوهم" في العنوان ارقت بعض علماء الطب النفسي والذين يعتبرونها كلمة تكنيكية بحتة يمنع تناقلها بالألسن. وثلاثة منهم اقترحوا في رسائلهم لي استعمال كلمات جديدة تماما ك "دهم – من دين ووهم" للتعبير عن حالة الوهم الديني. ربما ان كلمة كهذه سيكتب لها الانتشار ولكنني سأبقى على كلمة وهم في الوقت الحاضر ولهذا فانا بحاجة لتبرير استعمالي لهذه الكلمة بالذات .

يعرف القاموس كلمة وهم كالتالي"ايمان خاطئ او مزيف". وللمفاجأة, فإن الشرح المصاحب للكلمة هو من مقولة لفيليب جونسون:" الداروينية هي قصة تحرير الانسان من الوهم القائل بأن مصيره مرتبط بقوة اعلى منه. هل من الممكن ان يكون هذا نفسة فيليب الذي قاد حملة الاعتقاد بالخالق وقاضى الداروينية في امريكا ؟ بالتأكيد, وهذا الشرح المصاحب الذي اوردته,كما لاحظتم , لهو مجتزئ من المحتوى. امل بملاحظة انني قد وفيت الحق الكامل للفكرة بأعترافي هذا, لانني لم احصل على نفس الحق من بعض المنادين بنظرية الخالق والذين اجتزأوا بعض الجمل من سياقها في اعمالي,وبقصد ومعرفة كاملة استعملوها لتضليل الاخرين. وبغض النظر عن المعني الذي قصده جونسون, سأكون سعيدا بتبني العبارة كماهي حرفيا. يعرف القاموس المرافق لبرنامج وورد لشركة ميكروسوفت ب" الاعتقاد الخاطئ والمستمر بفكرة بعناد في وجه ادلة قوية معاكسة تنفيها,وبالاخص كحالة نفسية مرضية ". القسم الاول من التعريف ينطبق بدقة على حالة الايمان الديني. وفيما يخص الجزء الخاص بالمرض النفسي فأنا اميل لاتباع روبرت بيرسيغ, كاتب (الزن وفن صيانة الدراجة النارية) في قوله," الجنون صفة لشخص واحد يعاني من وهم ما. اما عندما يعاني العديدون من نفس الوهم فالاسم يصبح الدين .

نيتي في هذا الكتاب, ان القارئ المتدين سينهيه وقد اصبح ملحدا. يالهذا التفاؤل المتعجرف! من المؤكد ان مانطلق عليه اسم العقل المؤمن (والذي نشبهه بالصوف المصبوغ) عنده مناعة هائلة ضد الحجج والنقاش العقلاني. وهذه المقاومة بنيت عبر سنين طويلة من التلقين المستمر في الطفولة بإستعمال طرق نضجت عبر مئات السنين(سواء بالتطور او بالتصميم–لاخلاف هنا). ومن أشد اجهزة المناعة نجاحا تحذيرات خطرة لتجنب حتى فتح كتاب كهذا, والذي هو بالتأكيد من عمل الشيطان. ولكنني اؤمن بأن هناك العديد من العقول النيرة هنا وهناك: ولاسباب عديدة مثل قلة المكر في التلقين الذين تلقوه كاطفال او لأي سبب اخر كأن يكون ذكائهم الشخصي كافيا لخرق هذا التلقين. عقول نيرة لتلك يكفيها القليل من التشجيع للتحرر من كل نواب الدين وتعاليمهم . وعلى اضعف التقدير, امل الا يقول احد بعد قراءة هذا الكتاب"لم اعرف اني استطيع ان افعل ذلك" .

ساعدني في التحضير لهذا الكتاب العديد من الاصدقاء وانا ممتن لهم جميعا وليس بالمستطاع ذكرهم جميعا ولكن وكيل اعمالي جون بروكمان ومحرري مقالاتي سالي غامينارا (ترانسورلد) وايمون دولان(هوغوتان ميفلين), كلاهما قرأا الكتاب بتعمن وحساسية والمعية شديدة واعطوني مزيجا مفيدا جدا من النقد والنصائح. ايمانهم العميق والمتحمس بهذا الكتاب اعطاني الكثير من الشجاعة. جيليان سومرسكايل كانت مثالا للمحرر والناسخ بافكارها واقتراحاتها البناءة كما كانت بعمقها في التدقيق. ممتن ايضا لأخرين ممن ساهموا في تدقيق ونقد المسودات المختلفة, جاري حوين, ج. اندرسون تومسون. ر. اليزابيت كورنويلل. اورسولا غودنو. لاثا مينون واخص كارين اونز, الناقدة المثالية والتي معرفتها بتجزيئ وتكميل المسودات المختلفة يوازي معرفتي بتلك التفاصيل .

يدين هذا الكتاب بأمور(والعكس بالعكس) للبرنامج الوثائقي التلفزيوني جذرة الشر والذي قدمته على القناة الرابعة في كانون الثاني من عام 2006 وادين بالامتنان لكل من شارك في هذا البرنامج , ديبرا كيد و, راسل بارنز, تيم كراغ, ادام بريسكود, للان كليمنت وهاميش مايكورا على سماحهم لي باستعمال جمل استخدمت في البرنامج . اشكر أي دبليو سي والقناة الرابعة . البرنامج حصل على تقدير ممتاز في بريطانيا ,وطلبته هيئة البث الاوسترالية ايضا. بقي ان نرى ان كانت اي قناة في التلفزيون الامريكي ستجرؤ على بثه .

فكرة هذا الكتاب درات في رأسي لسنوات. وبعض الافكار التي فيه طرحتها في بعض المحاضرات كما في محاضرتي في هارفارد, وبعضها طرحته في مقالات صحفية. والذي يقرأ مقالاتي في جريدة التحقيق الحر سيجد بأن بعض الجمل مألوفة. وانا ممتن ل توم فلين, محرر هذه الصحيفة الجديرة بالاعجاب, لدفعي معنويا بعرضه لان اكون كاتبا مستمرا لعمود في الجريدة. وامل ان اعاود الكتابة بعد انقطاعي لفترة انهيت بها هذا الكتاب, وبدون شك سأستعمل عمودي لمجابهة ردود الافعال الناتجة عن الكتاب والرد عليها .

لاسباب مختلفة ادين بالامتنان لكل من دان دانيت, مارك هاوسر, ميشيل ستيرات, سام هاريس, هيلين فيشير, مارغريت داوني, ابن وراق, هيرميون لي , جوليا سويني, دان باركر, جوزفين ولش, يان بيرد وخصوصا جورج سكالز. وفي ايامنا هذه لايكتمل كتاب الا اذا كان نواة لموقع حي على الانترنت وموضع نقاش في منتدى الكتروني لإمداه بمواد وافكار مكملة , ردود افعال, نقاشات , اسئلة واجوبة – ولانعرف مايأتي به المستقبل . امل ان يقوم موقع ريتشارد داوكينز للعلم و المنطق بملئ هذا الدور. وانا ممتن بشدة لجوش تيمونين لعمله الفني والمحترف والجهد الذي بذله لتحقيق ذلك. واليكم العنوان .

http://www.RichardDawkins.net

قبل كل شي اشكر زوجتي ليلا وارد, التي كانت عامل اقناعي الاكبر في معظم حالات التردد والشك , وليس فقط بالدعم المعنوي والاقتراحات المفيدة ولكن بقراءة الكتاب بصوت عال على مسمعي في مرحلتين مختلفتين من تأليفه, والذي ساعدني لافهم وقعه على القراء الاخرين. انصح بهذا التكنيك لكل الكتاب, ولكن علي ان اقول انه للحصول على افضل النتائج , على القارئ ان يكون ممثلا محترفا بأذن مجهزة لاستيعاب موسيقا اللغة .

الفصل الاول

غير مؤمن بعمق

لا احاول تخيل الاله الشخصي, يكفيني الدهشة من هذا البناء المحكم للكون. والانبهار به على قدر ما تسمح به حواسنا.

البرت اينشتاين

احترام مستحق

الطفل منكفئ على العشب, وذقنه بين راحتي يديه. وفجأة يجد نفسه ممتلأ بالدهشة لاحساسه العميق بالجذور المتشابكة, غابة من الاحياء الدقيقة, عالم اخر مكون من نمل وخنافس و–برغم عدم معرفته بالتفاصيل وقتها– مليارات من بكتريا التربة يساندون بعضهم لخلق العالم المجهري .

فجأة يكبرالعالم المجهري للاعشاب ويتوحد مع الكون, ويسرح الطفل بأفكاره بعيدا في ذلك الكون. فسر الطفل ذلك بمصطلحات دينية وقادته ليكون رجل دين. واصبح القسيس الانجيلي في مدرستنا. اعجبت به كثيرا. ورجال دين كرماء كهذا الرجل هم البرهان الاكيد بأني لم ارغم على ان اكون متدينا ابدا .

كان من الممكن –في زمن ومكان اخر– ان اكون ذلك الطفل ينظر للنجوم ويعجب من برج الجوزاء وكاسيوبيا واورسا الكبير وتدمع عيناه من الموسيقا الكونية الغير مسموعة لمجرة درب التبانة, مدفوعا بالرائحة العطرة لازهار الحدائق الافريقية .

ليس سهلا الاجابة عن السؤال –لماذا تدفعني نفس المشاعر لاتجاه غير الاتجاه الذي دفعت به قسيس مدرستي. وشائعة جدا ردود الافعال النفسية والغامضة نحو الكون بين العلماء والمفكرين. وليس لها اي علاقة بالايمان بالغيب. ولم يعرف القسيس في صباه (ولا انا ايضا) بالاسطر الاخيرة والشاعرية جدا من كتاب اصل الانواع – المقطع الشهير الملقب "البنك المشترك"," مع الطيور تشدو في الغابات, ومع رفرفة اجنحة الحشرات فوقها, والدود الذي يسرح زاحفا في ارضها الرطبة . الخ". لو عرف بهذا الاسطر وقتها لشعر انها تنطبق تماما على ما يفكر فيه وربما قاده ذلك ليصف في طرف داروين ووجهة نظره عن ان كل شئ "هو ناتج عن قوانين تطبق حولنا .

هكذا, من الحروب الطبيعية, من المجاعات والموت, ومن الكائنات الاسمى والقابلة للتكاثر والتي هي نحن و يتبعنا بذلك الحيوانات العليا. هنالك الكثير من العظمة في هذه الرؤيا للحياة, بكل انواع القوى فيها, وتشكلها المتعدد. و بينما يستطرد الكوكب في الدوران تماشيا مع قانون قوى الجاذبية , كانت تلك القوى الاخرى تعمل حثيثا . وهكذا , وبدأ من ابسط الاشكال البدائية, تطورت اعداد لامنتهية من الصور والاشكال الرائعة .

كتب كارل ساغان في كتابه النقطة الزرقاء الفاتحة : اعجب انه لم يحصل قط ان نظر دين ما الى العلم واستنتج ان ,"ذلك افضل مما ظننا !الكون اكبر واعظم كثيرا, بل وادهى واشد اناقة بكثير مما اخبرنا عنه الانبياء"؟ وبدلا عن ذلك يقولون" لا. الهي هو ذلك الاله الصغير , واريد له ان يظل كذلك" . لو ان دينا ما , قديما او حديثا قد اصر بشدة على الدهشة بعظمة الكون كما كشفه العلم الحديث لحصل ربما على احتياطي كبير من التقديس وبدون اي ضرورة لوجود اي نوع من الايمان التقليدي المتعارف عليه .

كل نهايات كتب ساغان تصيب نهايات الاعصاب وتسبب دهشة متعالية كانت حكرا على الدين في القرون الماضية. كتبي لها نفس التأثير الطموح. وبالنتيجة اسمع البعض يصفني بالتدين. كتبت احدى الطالبات الامريكيات عن رأي بروفيسور لها عندما سألته عني " .من المؤكد ان علمه لايتطابق مع الدين. ولكنه مشمع بنشوة عارمة عن الطبيعة والكون . وهذا تدين بالنسبة لي.". ولكن هل الدين هو الكلمة المناسبة؟ لااضن ذلك .

هذه النقطة تكلم عنها حامل جائزة نوبل للفيزياء (الملحد) ستيفن واينبرغ في احلام النظرية النهائية : يحمل البعض رؤيا عريضة ومرنة جدا عن الله ومن المحتم انهم سيجدون الاله اينما بحثوا. نسمعهم اقوالا مثل " الله هو النهائي" او " الله هو طبيعتنا المثلى" او "الله هو الكون" . بدون شك, يمكن ان نعطي كلمة الله ,ككل كلمة اخرى, اي معني نريده . وعندما تقول ان "الله طاقة " فستجده في مصباح الفحم .

واينبرغ على حق بدون شك, وحتى لاتكون الكلمة " الله" عديمة المعنى وبالتالي الفائدة علينا ان نضع لها تعريفا عاما يفهمه الجميع: كلمة تدل على خالق من عالم ما وراء الطبيعة و " من المناسب و المفروض ان نعبده"

الكثير من اللغط والحيرة سببها الفشل في التمييز بين ما نسميه الدين الاينشتيني من الدين الغيبي. استعمال اينشتين لكلمة الله (وهو ليس الملحد الوحيد الذي فعل ذلك) بتضرع كان ولايزال سبب لسوء الفهم من قبل العديد من الغيبيين المتدينين والمتلهفين لسوء الفهم ليستطيعوا الادعاء بأن ذالك العالم اللامع هو واحد منهم. كذلك النهاية الدرامية (هل كانت مؤذية ايضا؟) لكتاب ستيفن هاوكينج ملخص تاريخ الزمن . " وبذلك نعرف مكنونات تفكير الاله" يساء فهما بشكل ملحوظ. وسبب ذلك الاعتقاد (الخاطئ طبعا) عند البعض بأن هاوكينج رجل متدين. عالمة البيولوجيا الخلوية ارسولا غودنوف , في كتابها المقدسات في اعماق الطبيعة , تبدو اكثر تدينا من هاوكينج واينشتين. انها تحب الكنائس والمساجد والمعابد, وبعض العبارات في كتبها تبدوا وكأنها تتوسل لان تجتزأ من المحتوى العام وتستخدم كذخيرة للمتدينيني الغيبيين. بل تفعل هي اكثر من ذلك بأن تدعو نفسها "متدينة نصيرة للطبيعية". ولكن قراءة دقيقة لكتبها تكشف بأنها في الحقيقة ملحدة قوية مثلي .

> نصير الطبيعة" كلمة تحمل عدة معاني. وبالنسبة لي فإني اناشد بطل طفولتي, دكتور دوليتل للكاتب هيف لوفتينغ (والذي له تأثير اكثر من ملموس في موضوع "الفيلسوف الطبيعي ل كلب الصيد التي كتبت عنه). لاتزال كلمة طبيعي تعني ماعنته في القرنين الماضيين: دارس للطبيعة. ومنذ عهد جلبرت وايت وفي هذا السياق كان معظم الطبيعيين رجال دين. كان من المقدر على داروين نفسة ان يتلتحق بالكنيسة, املا منه بأن حياة الرغد الريفية سوف تعطيه الامكانية لمتابعة شغفه بالخنافس. ولكن الفلاسفة يستعملون كلمة طبيعي بطريقة مختلفة تماما كمضاد لكلمة "ماوراء الطبيعي.

جوليان باغيني يشرح في الالحاد: مقدمة صغيرة معنى التزام الملحد بالطبيعية: " ما يؤمن به غالبية الملحدون هو انه على الرغم من ان الكون مادي بحت فإن العقل والجمال والعواطف والقيم الاخلاقية وبإختصار كل ما في سلسلة الظواهر التي تعطي الحياة الانسانية قيمتها قد انبثقت منه .

أن عواطف وافكار الانسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المخ .والملحد في هذه الحالة بنظر الفيلسوف الطبيعي هو شخص لايؤمن بأن هناك شي ما وراء العالم الطبيعي الفيزيائي وليس هناك من خالق مفكر ماوراء الطبيعي يتسنط من وراء الكون, ليس هناك روح تبقى بعد بلاء الجسد ولا معجزات – عدا عن بعض الظواهر الطبيعية التي لم نفهمها بعد. وسنتمكن في المستقبل من تقديم تفسيرات لبعض الظواهر الغير مفهومة بشكل كامل حاليا باستخدام القوانين الطبيعية – كما حصل في الماضي عند اكتشاف سبب قوس قزح – ونأمل الا يقلل ذلك من روعتها في تفكيرنا .

عندما نفحص بعمق ايمان العلماء الكبار في ايامنا والذين يبدون كمتدينين في بعض الاحيان, نرى بأنهم ليسوا كذلك. وهذا بالتأكيد صحيح في حالة اينشتين وهاوكينج. عالم الفضاء المعاصر ورئيس الجمعية الملكية الحالي, مارتن ريس, قال لي بأنه يذهب للكنيسة "كإنجيلي كافر... وفقط بسبب ما اطلق عليه تسمية الولاء القبلي". لايؤمن بالمعتقدات, ويستفزه الاحساس الشاعري تجاه الكون ككل الطبيعيين الذين نوهت عنهم. وفي معرض المناقشات التلفزيونية تحديت صديقي طبيب التوليد روبرت وينستون, احد اركان الجالية اليهودية في انكلترا, بأن يهوديته هي جزء من شخصيته وانه لايؤمن بأي شئ ماوراء طبيعي. وكان على قاب قوسين او ادني من الاعتراف بذلك ولكن تغلب عليه خجله في النهاية (الحق يقال, كان من المفترض ان يجري هو المقابلة معي وليس العكس). عندما ضغطت عليه, قال بأنه وجد ان الالتزام باليهودية ساعده على تنظيم حياته وجعلها جيدة بشكل او بأخر. ربما كان ذلك صحيحا ولكن , بالطبع, ليس لذلك اي صلة بصحة مقولة الماورائيات. هناك العديدين من اللامعين الملحدين والذين يلقبون انفسهم باليهود ويؤدون الطقوس

اليهودية, ربما بسبب الولاء لتقاليد قديمة او لاقارب قتلوا, ولكن ايضا بسبب الحيرة والسعي لدمغ اللائحة "متدين" على العلامة المميز المستحق للاحترام الابدي البرت اينشتين. ربما انهم لايؤمنون بالاله ولكن , هنا استعير عبارة دان دينيت, "يؤمنون بالايمان"

احدى اشهر العبارات التي نقلت عن اينشتاين " علم بدون دين هو علم أعرج, ودين بدون علم هو دين اعمى" ولكنه قال ايضا :

> ماقرأتموه عن موضوع تديني هو كذب بالطبع, كذبه تكررت بشكل مدروس. انا لااومن بالاله الشخصي ولم انكر ذلك ابدا بل على العكس ,فقد عبرت عن الموضوع بشكل واضح. لوكان في داخلي شي من الممكن دعوته بالدين فهو الاعجاب الغير محدود ببناء الكون بقدر ما امكننا الكشف عنه بالعلم حتى الان .

هل يناقض اينشتين نفسه؟ بأن يعطينا كلمات نستطيع بها دعم الطرفين النقيضين؟ بالطبع لا. اينشتين يعني بكلمة "الدين" شيئا مختلفا تماما عن المعنى المتعارف عليه .وسأسهب في توضيح التميز بين الدين الغيبي والدين الاينشتيني , ضع في الاعتبار دائما اني القب اللاله الغيبيه ب"الوهميه" . هاك بعض العبارات المنقولة عن اينشتين, لتعطينا فكرة عن نوعية الدين الاينشتيني .

انا متدين بالكفر . وهذا بشكل ما نوع جديد من الدين . لم انسب للطبيعة هدفا او دورا, او اي شي ممكن يمكن فهمه بشكل مشبوه. ماأراه في الطبيعة هو بناء مدهش ونحن نفهمه بشكل ناقص على احسن الاحوال, هذا ما يملأ المفكر التواضع. هذا بشكل عام شعور تدين بدون ان يكون له علاقة بالروحانيات . فكرة الاله الشخصي فكرة غريبة تماما عني, بل واعتبرها ساذجة ايضا .

ومنذ وفاته والمتدينون بالطبع يحاولون الادعاء بأنه واحد منهم وبأعداد متزايدة. ولكن المتدينين المعاصرين له كانت لهم وجهة نظر مختلفة بشكل كبير . في عام 1940 كتب اينشتين مقالا ليبرر مقولته "لاأؤمن بالاله الشخصي" ,تلك المقالة وغيرها اثارت سيبلا عاصفا من الرسائل من المتدينين الاوثودوكسيين, والكثير منهم لمح لاصله اليهودي. المقاطع التالية مأخوذة من كتاب اينشتين والدين (والذي هو مرجعي الاساسي عن المقولات المنقولة عن اينشتين في موضوع الدين . (قال قمص الروم الكاثوليكيين في مدينة كنساس:" من المحزن ان نرى رجلا, يعود اصله لقوم العهد القديم وتعاليمه, ينفي التعليمات العظيمة لذويه" . قديس اخر استغل الموقف :" ليس هناك من اله شخصي! .. اينشتين لايعي ما يقول. وهو مخطئ كليا . البعض يعتقد بانه يحق لهم ابداء الرأي في كل شي فقط لانهم قد وصلوا لدرجة عليا في احد الفروع العلمية. التنويه على ان الدين هو احد الفروع , والتي يحق للبعض ان يدعي الخبرة بها لن تفوت بدون تساؤل. القديس لاينوه عن "خبير الخرافات" وخبرته في شكل اجنحة الجنية هنا.كلا القديس والقمص ظنا بأن كون اينشتين غير متمرس بالاهوت يعني انه فهم طبيعة الاله بشكل خاطئ. والحقيقة عكس ذلك تماما , اينشتين فهم تماما ماذا كان ينفي .

احد المحامين الكاثوليكيين الامريكان, والذي يعمل لصالح منظمة التحالف الدولي, كتب لانشتاين :

> حزنا جدا لتصريحك.. والذي تسخر فيه من فكرة الاله الشخصي. وفي خلال العشر سنين الاخيرة لم يكن هناك ما اعطى مبررا لهتلر لطرد اليهود كتصريحك هذا. اعترف بحقك في حرية التعبير, ورغم ذلك اعتبر تصريحك اعظم مصدر للنزاع في امريكا .

راباي نيويورك صرح بما يلي:" انشتاين بلا شك عالم حاذق , ولكن وجهة نظره الدينية تناقض تماما الدين اليهودي" .

ولكن ؟ ولكن ؟ لماذ ليست (و) فقط (لتصبح الجملة. عالم حاذق , ووجهة نظره الدينية الخ.... المترجم

عميد جمعية التاريخيين في نيوجرسي كتب رسالة ادانة صريحة لاينشتاين وفيها اكثر مما يمكن ان يكون فضيحة عن نقاط الضعف للعقل الديني, وتستحق القراءة مرتين على الاقل :

نحترم علمك د. اينشتاين, ولكن يبدو ان هناك شئ ما قد فاتك تعلمه: ذلك بان الله روح ولايمكنك رؤيته بالمرصد الفلكي او المجهر. تماما كما لن تجد افكارا ومشاعرا من تحليل المخ. وكما يعرف الجميع فإن الدين مبني على الايمان الغيبي وليس على المعرفة. كل شخص مفكر قد مر بفترة هاجمته فيها شكوك في الدين. وايماني انا بالذات قد اهتز
العديد من المرات. ولكنني لم اجهر لاحد بإنحرافاتي ولسببين :

1. لخوفي من ان مجرد الاقتراح يمكنه ان يدمر حياة وامل انسان ما .
2. لانني اتفق تماما مع الكاتب الذي قال " : هناك خيط من الخبث في اي شخص من الممكن ان يدمر ايمان شخص اخر" .. وامل يا د. اينشتاين انه قد اسئ فهمك وانك سوف تقول شيئا لارضاء الشعب الامريكي الذي يسره فعلا تقديرك وتشريفك بينهم .

مأسوأ ماتكشفه هذه الرسالة!. كل جملة فيها تقطر بالجبن الفكري والاخلاقي . الوطء اقل ولكن الصدمة اكبر في رسالة من مؤسس جمعية معبد الجمجمة في اوكلاهوما .

بروفيسور اينشتاين, انا اؤمن بأن كل مسيحي في الولايات المتحدة سيجيبك ," لن نترك ايماننا بإلهنا وابنه المسيح عيسى, وندعوك جميعا بأن تعود من حيث اتيت اذا لم تؤمن بإله هذه الامة". لقد باركت اسرائيل بكل مافي طاقتي, والان تأتي انت وبجملة واحدة من لسانك الكافر لتسبب اذى كبيرا لشعبك واكبر من ان يستطيع المحبون لاسرائيل والساعين لاخماد المعاداة للسامية تحمله في ارضنا .

بروفيسور اينشتاين : كل المسيحيين الامريكيين سيجيبونك مباشرة," خذ نظريتك المجنونة والخاطئة عن التطور وارحل بها عائدا لالمانيا من حيث اتيت, وألا فعليك ان تتوقف عن محاولة هز ايمان الشعب الذي رحب بك عندما اجبرت على الهروب من بلدك" .

الشئ الوحيد الذي اصاب به المؤمنون كان بأن اينشتاين ليس واحدا منهم . كان ساخطا دائما على الاقاويل التي تحاول وصمه بالايمان. فهل كان الوهيا؟ كما كان فولتير وديدرو؟ ام كان خلوقيا , كما كان سبينوزا, والذي كان معجبا بفلسفته اشد الاعجاب:" انا اؤمن بإله سبينوزا والذي يكشف عن نفسه بالتألف المرتب لكل الموجودات, وليس بالاله الذي يشغل نفسه بمصير البشر وتصرفاتهم"؟

لنتذكر التعريفات مجددا: المؤمن هو الذي يفكر بأن هناك خالق ذكي الذي, بالاضافة لخلقه الكون ومافيه, يشرف على مايحصل ويتدخل في احداث ما خلق بالاساس. وفي العديد من الانظمة الالوهية , فالاله يتدخل بشكل حميم في امور البشر. يستجيب للصلوات ويغفر ويعاقب الاخطاء. ويتدخل في العالم بأعاجيب. ويحكم على سوء وحسن الافعال, ويعلم متى نفعلهم (ومتى نفكر بفعلهم ايضا). الالوهي يؤمن ايضا بالخالق الذكي , ولكن نشاطاته كانت بحدود صناعة وضبط قوانين الكون وصياغتها. الهه لايتدخل بعد ذلك في شئ, وبالتأكيد ليس لديه اي اهتمام بأمور الانسان. الخلوقيين لايؤمنون بالاله الغيبي بأي شكل, ويستعملون كلمة الله للدلالة على الطبيعة, او الكون, او الاحكام والقوانين التي تعملان بها. الالوهيين يختلفون عن المؤمنين بأن الههم لايستجيب للصلوات, وليس له اهتمام بذنوبهم او اعترافاتهم, لايقرأ الافكار ولايتدخل بمعجزاته النزوية. الالهي يختلف عن الخلوقي بان اله الالوهي هو نوع من الوجود الكوني الذكي , وقصد ما فعل بعكس الخلقي الذي يطلق التسمية كبديل لقوانين الكون. الخلوقيين من مشتقات الملحدين , واللالهيين نوع مخفف من المؤمنين .

لدينا الكثير مما يدل على ان اينشتاين كان خلوقيا وليس الوهيا مثل" الاله خفي ولكنه ليس خبيثا" او "الاله لايلعب النرد" او " هل كان لله خيار في خلق الكون؟" وبالتأكيد لم يكن مؤمنا. يمكن تفسير "الله لايلعي النرد" ب"العشوائية ليست من صميم الاشياء" . و" هل كان لله خيار في خلق الكون" يمكن تفسيرها ب" هل هناك امكانية لتكون بداية الكون مختلفة

عن التي حصلت؟" اينشتاين استعمل كلمة الله بشكل مجازي ورمزي . وهكذا فعل ستيفن هوكينج والكثيرين من الفيزيائيين الذين عبروا بلغة الدين المجازية .

باول دافيس وفي كتابه عقل الاله يبدو بشكل ما بين خلوقية انشتاين والوهية غامضة .وكتابه هذا اكسبة جائزة تمبلتون (مبلغ كبير من المال يدفع سنويا من منظمة تمبلتون , عادة لعالم مستعد لان يقول اشياء حسنة عن الدين . (دعني الخص دين انشتاين ببعض ما قاله هو نفسه: " الاحساس بأن خلف مانعرفه ونحس به يوجد شيء ما لانستطيع ادراكه وهذا الشئ يمسنا بجماله وسموه بطريقة غير مباشرة وبشكل يكاد يكون غير محسوس, هذا شعور ديني. وانا بهذا المعنى متدين" . حسنا . . بهذا المعنى فأنا متدين ايضا مع التحفظ على عبارة "لايمكننا ادراكه" والتي لايجب ان تعني "لن يمكننا ادركه للابد" . ولكنني لاافضل نعت نفسي بالمتدين بأي شكل لان ذلك سيؤدي لسوء الفهم. حيث ان الدين يعني للغالبية المطلقة "الدين الغيبي". كارل ساغان وضعها بطريقة جيدة:" لو عنينا بكلمة الاله مجموعة القوانين التي تحكم الكون, فهذا الاله موجود بالتأكيد, ولكنه اله غير مرضي عاطفيا .. لانه من غير المنطقي ان تصلي وتطلب غفران الخطايا من قانون الجاذبية" .

المدهش هنا, ان المعني الذي نوه له ساغان , كان بمثابة انذار في الماضي عام 1940 عندما نوه اليه البروفيسور الموقر د. فالتون شين , المدرس في الكلية الكاثوليكية في امريكا , كجزء من هجومه الشرس في الرد على مقولة الاله الشخصي لانشتاين. شين سال بسخرية فيما اذا كان هناك من يريد وهب حياته لمجرة درب التبانه. وظن بأنه في ذلك يناقض مقولة انشتاين ولكن هذا في الحقيقة دعم لها, حيث انه يستطرد قائلا ": هناك خطأ واحد في دينه الكوني: حرف زائد ولو رفعناه لاصبح الدين الكوميدي (لعب بالالفاظ الانكليزية ... المترجم). في الحقيقة انه لاشي كوميدي في معتقدات انشتاين . ولكن وعلى كافة الاحوال امل ان يتوقف الفيزيائيون عن استعمال كلة الله بمعناها المجازي . الاله المجازي للخلوقيين والذي هو بعيد بسنين ضوئية عن معجزلت و تدخل في حياة الانسان وعقابه على اخطائه او الاستجابة لصلواته وعن الاله الانجيلي للقديسين والموالي ورابايات اليهود, وكل ما يعنى به في اللغة المحكية. ان خلط الاثنين معا في رأيي هو غش فكري من اعلى المستويات .

احترام غير مستحق

عنوان كتابي وهم الاله لايرمز لإله انشتاين او اي من الالهه التي نوه اليها العلماء في الفصل السابق. ولهذا اردت ان اوضح نقطة الدين الانشتايني ووضعها جانبا في البداية : لانه من المثبت ان نقطة كهذه لها القدرة على بعث الحيرة. وفي باقي الكتاب سأتكلم فقط عن الاله الغيبية الماورائية , واشهرها يهوه اله العهد القديم. وسأعود اليه لاحقا .ولكن قبل ان اترك هذا الفصل التمهيدي ارغب بأن اناقش نقطة لئلا تكون سببا لإرباك القارئ لاحقا. وهذه النقطة هي السلوك. من الوارد ان يشعر القراء المتدينون بالاهانة لما على ان اقول وسيجدون ربما انه ليس هناك كفاية من الاحترام لمعتقداتهم (او معتقدات من يحترمونهم). سيكون مخجلا لو ان ذلك سيسبب منعهم من الاستمرار في القراءة, ولذلك اريد ان انهي الامر من البداية .

من المسلمات, والتي يقبل بها الجميع تقريبا في مجتمعنا الانساني – والغير متدينون ايضا – بان الايمان الديني هو فكرة هشة وضعيفة امام النقد ويجب احاطتها بجدار سميك من الاحترام , ونوع الاحترام هذا يختلف عن اي مثيل له في اي موضوع اخر. لقد عبر دوغلاس ادام عن ذلك بدقة , في خطاب ارتجالي في كامبريدج ,قبل وفاته بفترة قصيرة :

هناك افكار في قالب الدين تسمى بالمقدسة او ماشابه. وذلك يعني : "اليك هذه الفكرة او الملاحظة والتي لاتستطيع ان ان تقول اي شي سلبي حيالها, اي شيء مهما كان .. لم لا؟ فقط هكذا ....! عندما يصوت احدهم لحزب لاتتفق انت مع افكاره فبأمكانك مناقشة ذلك قدر ما تشاء, كل لديه فكرة يطرحها بدون ان يسبب الحزن لاحد. عندما يفكر احد ما ان الضرائب يجب ان تخفض او ترفع فأنك حر في مناقشته بذلك. ولكن من جهة اخرى وعندما يقول احد ما "أنا لن اشعل مصباح الكهرباس يوم السبت " تقول "وانا احترم ذلك.

لماذا من المقبول جدا ان ندعم حزب العمل او حزب المحافظين, الجمهوريين او الديموقراطيين, هذا المخطط الاقتصادي او ذاك , ماكنتوش او ويندوز – ولكن عندما نصل للتساؤل عن اصل الكون, عن من خلقه.. لا.. هذا مقدس ؟ لقد اعتدنا عدم مناقشة الافكار الدينية ولكن من المدهش ان نرى كمية اللغضب التي سببها ريتشار (الكاتب (عندما ناقش الموضوع!. الكل اصبح مسعورا تجاهه لانك لاتستطيع قول هذه الاشياء .ولكن لو نظرت للموضوع بتعقل فلن ترى من سبب يمنع افكارا كهذه من ان تكون موضوعا للنقاش العام اقل او اكثر من غيرها, عدا اتفاقنا على ان شيئا كهذا لايجب فعله .

اليكم هذا المثال عن غرور مجتمعنا بأحترام الدين , مثال مهم فعلا. التدين هو الطريق اللاسهل للحصول على الاعفاء من الخدمة للمستنكفين في زمن الحرب بدون شك . بإمكانك ان تكون فيلسوفا لامعا بأطروحة دكتوراه نالت العديد من الجوائز وتشرح فيها شرور الحرب , وعلى الرغم من ذلك ستواجه وقتا عصيبا من لجنة الخدمة الالزامية عند تقييم طلبك للاستنكاف . ولكن لو قلت بأن احد او كلا ابويك ينتميان لجمعية الكواكريين) جمعية مسيحية مناهضة للعنف انشئت في القرن السابع عشر) لاعفيت على الفور , ولن يكون هنالك اي اعتبار لعدم كفائتك او معرفتك بحجج الدفاع السلبي ولا حتى طبعا بالنظرية الكواركية نفسها .

وعلى النقيض من ذلك, هناك تردد جبان من وسم فصائل متقاتلة بأسماء دينية. في شمال ايرلندا,يسمون الكاثوليكيين والبروتستانتيين ب "القوميين" و"الموالين". نقحت الكلمة "دين" بشكل ما لتعني "المجموعة" كما هو الحال في كل "الحروب الداخلية .العراق , وبنتيجة الغزو الامريكي الانكليزي في , 2003 تحلل الى مجموعات ونشأت الحرب الاهلية بين السنة والشيعة . وهذا اوضح الامثلة على النزاع الديني – بالرغم من ذلك فإن جريدة الاندبندنت في عددها الصادر في 20 ايار 2006 وبالخط العريض وفي الصفحة الاولى والموضوع الرئيس وصفت ما يحصل ب"التطهير العرقي" . ارادو تلطيف الموضوع بإحلال كلمة عرقي , بينما ما نراه في العراق هو تطهير ديني واضح. التلطيف لهذه الكلمة بدأ أصلا في "التطهير العرقي" الذي وصمت به الحرب في يوغوسلافيا جدلا لتعني تطهير ديني اطرافه الصرب الاورثودوكس , الكروات الكاثوليك, والبوسنيين الاسلام .

لقد نوهت سابقا لنقطة الدعم الذي يلقاه الدين في مناقشات عامةعن الاخلاق في الاوساط الاعلامية والحكومية .عند نشوء اي خلاف على موضوع له علاقة بأخلاقيات الجنس او الانجاب فإنه من المؤكد ان قادة فصائل دينية من مختلف الاتجاهات سيكونون احد الاطراف في لجنة النظر في هذا الخلاف, او في اي برنامج يناقش هذا الموضوع في الراديو او التلفزيون. انا لا اقترح هنا ان نكمم افواه هؤلاء او نستبعد وجهة نظرهم من المجتمع. ولكن اسأل , لماذا يطرق مجتمعنا باب هؤلاء ويعتبر ان لديهم الخبرة في مواضيع كهذه بل ويضع ارائهم جنبا الى جنب مع اراء فلاسفة ومحامين واطباء؟ .

هاكم مثالا اخر على الدعم الذي يلقاه الدين. في 21 شباط 2006 وفي المحكمة العليا في الولايات المتحدة صدر الحكم بأستثناء اعضاء الكنيسة في نيو مكسيكو من قانون يسري على الاخرين جميعا, ضد تناول عقار للهلوسة. اعضاء هيئة "اسبريتا بييفسينته اونياو دو فيجيتال" يعتقدون بأنهم يفهمو الله فقط عندما يتناولون نوعا من شاي الهواسكا, والذي يحتوي على عقار الهلوسة الغير قانوني واالممنوع استخدامه المسمى ديميثيلتريبتامين. لنلاحظ بأنه من الكافي ان يعتقدوا بأن المخدر يؤدي لتحسين تفهمهم . وليس عليهم ان يقدموا اي ادلة على ذلك. وعلى العكس من ذلك هنالك العديد من الاثباتات على ان الحشيش يخفف من الام ومعاناة المصابين بالسرطان الخاضعين للمعالجة الكيماوية. ولكن المحكمة العليا حكمت في , 2005 بأن كل الذين يستعملون الحشيش لاغراض صحية معرضون للاتهمام والملاحقة الحكومية (وحتى في الولايات القليلة التي تسمح قوانينها المحلية بهذه الممارسة). الدين , كالعادة هو الفائز .

تخيل اعضاء مجموعة من المشتغلين بالفن يدعون في محكمة ما بأنهم بحاجة لعقار مهلوس ليحسن فهمهم للوحات الانطباعيين او السرياليين. ولكن عندما تطلب الكنيسة ذلك فأنها تلقى الدعم من اعلى هيئه قانونية في الدولة. هذا مثال على القوة السحرية للدين .

منذ سبعة عشر عاما, كنت احد اعضاء لجنة مكونة من 36 كاتبا وفنانا مكلفين من مجلة نيو ستايسمان بكتابة مقال لدعم الكاتب المميز سلمان رشدي, والذي كان محكوما بهدر الدم لكتابته رواية. استبد بي الغضب وقتها من "التعاطف" ضد "ايذاء" شعور المسلمين والتهجم الذي ابداه بعض رجالات المسيحية وحتى بعض العلمانيين واستنتجت الخلاصة التالية :

لو ان دعاة التمييز العنصري استعملوا ذكائهم وادعو-بصدق كالعادة- بأن خلط الاجناس منافي لديانتهم, لانسحب قسم كبير من من معارضيهم على رؤوس اصابعهم. والادعاء بأن هذا التشبيه في غير محله لن يفيد هنا, فالعنصريين لايملكون تفسيرا منطقيا لنظريتهم. و كل موضوع الايمان الديني, وقوته وانتصاراته, لايعتمد على اي تفسير منطقي. و لكن من المتوقع منا "نحن الاخرين" ان نبرر اجحافنا بحقه. و لو سألنا احد المتدينين ان يبرر تدينه لاعتبرنا مخالفين ل"حرية الاديان" .

لم اتوقع وقتها بأن شيئا مماثلا سيحصل في القرن الواحد والعشرين. لوس انجلوس تايم 10 نيسان 2006 كتبت تقريرا عن اعداد من مجموعات مسيحية في البعض من المدن الجامعية في الولايات المتحدة اقاموا دعوات قضائية ضد جامعاتهم لان الجامعات فرضت قوانين عدم التمييز فيها, مما يتضمن منع مضايقة المثليين او التحامل عليهم.

واليكم مثال اخر, جيمس نيكسون ,2004 , صبي في الثانية عشرة من العمر من اوهايو , ربح بواسطة القضاء الحق في ارتداء قميص تي شيرت يحمل الكلمات التالية "المثلية ذنب ,الاسلام كذبة, الاجهاض جريمة. بعض الاشياء فيها اسود وابيض فقط". المدرسة طلبت منه الا يلبس هذا القميص فرفع اهله دعوى قضائيةعلى المدرسة. ربما سيكون للاهل الحق لو بنوا قضيتهم على البند الاول من الدستور والذي يعطي حق حرية الرأي. ولكنهم لايستطيعون ذلك طبعا لان حرية الرأي لاتعني الحق في "خطابات الكراهية". ولكن بمجرد ان تبرهن ان الكراهية دينية فلن تبقى كراهية . وبالتالي فأن محامي العائلة, بدلا من الاعتماد على حرية الرأي في بناء قضيته ,اعتمد على حرية الاديان. والنصر في هذه القضية كان مدعوما من جمعية الاصدقاء المدافعين في اريزونا, وهي جمعية هدفها "الضغط لربح المعارك القانونية لحرية الاديان .

ريك سكاربورو الموقر, وبدعمه لموجة القضايا المسيحية القضائية وصل لحد المطالبة باعتبار الدين سببا كافيا لممارسة التمييز الطبقي ضد المثليين والمجموعات الاخرى ,وسمى ذلك حركة (التحرير للقرن الحادي والعشرين). "المسيحيون سيجبرون على اخذ موقف للدفاع عن حقهم ليعيشوا كمسيحيين" ومرة اخرى, لو ان هؤلاء اعتمدو في مواقفهم على مبدأ حرية التعبير فلربما حصلوا على تعاطف حذر من نوع ما. ولكن ليس هذا لب الموضوع. فالقضية المرفوعة لصالح التمييز العنصري ضد المثليين رفعت على اساس انها دعوى نقض لدعوى مزعومة تطالب بالتمييز العنصري ضد المتدينين! ويبدو ان القانون احترم هذا .

لن تفلت من القانون لو ادعيت بأنني " حاولت وقفك عن اهانة انسان شاذ جنسيا وحرمتك من حريتك في الاجحاف بحق الاخرين" . ولكنك تفلت حتما لو قلت ان هذا حرمان من " حرية ممارسة العقيدة". لنفكر ماهو الفرق هنا؟ ومرة اخرى , الدين هو البوق الاعلى صوتا .

سأنهي هذا الفصل بدراسة تلقي المزيد من الضوء على المغالاة من قبل المجتمع في احترام الدين, وجعله فوق كل مستويات الاحترام للانسان. قضية احدثت ضجة في شباط- 2006 قضية سخيفة تأرجحت بين الكوميديا والتراجيديا. في شهر ايلول , 2005 اصدرت صحيفة جيلياند بوسطون 12 رسما كاريكاتوريا يصورون به النبي محمد. و خلال الثلاثة اشهر التالية , وبطريقة مدروسة بدقة تم دس النقمة والامتعاض عبر العالم الاسلامي من قبل مجموعة صغيرة من المسلمين الذين يعيشون في الدانمارك, وبقيادة امامين اثنين كانوا قد منحوا حق اللجوء فيها . في نهاية 2005سافر هذان المنفيان الحقودان من الدانمارك الى مصر ومعهم مصنف طبع ووزع من هناك لكل العالم الاسلامي, ومن ضمنه اندونيسيا لاهميتها. المصنف تضمن معلومات باطلة عن المعاملة السيئة التي يلقاها المسلمون في الدانمارك , والكذبة المتحيزة والتي تقول بان صحيفة جيلياند بوسطون هي صحيفة حكومية. ويتضمن ايضا الرسوم الاثني عشر والتي ارفقها اللائمة بثلاث صور اخرى غير معروفة الاصل ولكن بدون شك ليست لها اي صلة بالدانمارك. وهذه الرسوم الثلاث كانت بحق اكثر هجومية من الرسوم الاخرى – او بالاحري ستكون اكثر هجومية لو

كان القصد فيها محمد كما ادعى دعاتنا المتحمسون . احدى هذه الصور والاكثرها هجومية لم تكن رسم كارتوني على الاطلاق بل كانت صفحة مرسلة بالفاكس فيها صورة رجل ملتحي يلبس انف خنزير مزيف مربوط بمطاطة .وبالنتيجة وبعد التحريات كانت هذه الصورة مأخوذة من الاسوشيتد برس وهي عبارة عن صورة رجل فرنسي يشترك في مسابقة محلية لتقليد صوت الخنزير في احد معارض القرى في فرنسا. وليس لتلك الصورة علاقة بالنبي محمد او حتى بالاسلام على الاطلاق , وبالتأكيد لاعلاقة لها بالدانمارك ايضا. ولكن هؤلاء المسلمون المتحمسون رتبوا كل شي لرحلتهم المضللة للقاهرة مع معرفة مسبقة بالنتيجة .

واثمرت الزراعة المتقنة للشعور بالاذى الى انفجار أمتد بعد حوالي خمسة شهور من نشر الصور. متظاهرين في باكستان واندونيسيا احرقوا اعلام دانماركية(اعجب من اين اتو بها ؟) . وبصيحات هستيرية طالبوا الحكومة الدانماركية بالاعتذار. (لماذا تعتذر الحكومة الدنماركية؟ فليست هي التي رسمت الكارتون او نشرته. الشعب لدنماركي يعيش في ظل حرية كاملة للصحافة, وهذا بحد ذاته صعب الاستيعاب بشكل كبير للكثيرين ممن يعيشون في البلاد الاسلامية). وتضامنا مع الصحيفة الدنماركية اعادت صحف سويدية ونرويجية وفرنسية وحتى امريكية (ولكن ولا صحيفة بريطانية) نشر الكارتون, مما ادى لصب الزيت على النار. فخربت سفارات وقنصليات, وقوطعت البضائع الدنماركية, وتعرض الدانماركيون خصوصا وكل الغربيين عموما لتهديدات , احرقت كنائس مسيحية في الباكستان ليس لها اي علاقة بالدنمارك او حتى اوروبا. 9 قتلوا في الهجوم الذي حصل على القنصلية الايطالية في بنغازي. وكما كتب جرمان غرير ,مايحبه هؤلاء ويجيدون فعله حقيقة هو اثاره الضوضاء فقط .

احد الائمة في باكستان وضع مكافأة بقيمة مليون دولار ثمنا لرأس "الرسام لدنماركي –على ما يبدو لم يعرف حتى ان هنالك 12 رساما كارتون من الدانمارك, وبدون شك لايعرف بأن الصور الثلاثة الاكثر اثارة للغضب ليس لها اي علاقة بالدنمارك لامن قريب ولامن بعيد (وعلى فكرة هنا .. من اين سيأتي هذا الامام بالمليون دولار؟). في نيجيريا , احرق المتظاهرون المسلمون عدة كنائس مسيحية, واستعملوا المناجل للهجوم وقتل مسيحيين(نيجيريين سود البشرة) في الشوارع. احد المسيحيين وضع في دولاب مطاطي, واغرق بالسوائل البترولية واضرمت النيران فيه. اخذت صور عديدة لمتظاهرين في انكلترا يحملون لافتات كتب عليها "لنذبح الذين اهانوا الاسلام" , "اوروبا: ستدفعين الثمن, وستهدمين قريبا" اضافة الي , وبدون اي سخرية اومبالغة ,"لنقطع رأس كل من يقول ان الاسلام دين عنف" . على اثر ذلك, اجرى الصحفي اندرو موللر مقابلة مع قائد المسلمين "المعتدلين" في انكلترا. السيد اقبال ساكراني. ربما انه معتدل في مقاييس المسلمين في هذه الفترة , ولكن بالنسبة لموللر فأن ماقاله يوم صدور فتوى الاعدام على سلمان رشدي بسبب روايته لايزال مأخذا عليه حيث انه قال "الاعدام قليل عليه". تصريح مخذ جدا ويضعه على نقيض سلفه الشجاع والذي كان اكثر من اثر في المسلمين في انكلترا وقتها الدكتور زكي بدوي , والذي عرض على سلمان رشدي ملجأ في بيته. ساكراني صرح لموللر كم هو قلق من موضوع الصور الدنماركية. وموللر كان بدوره قلقا, ولكن لاسباب مختلفة: " انا قلق من ان رد الفعل السخيف والغير متكافئ بالمرة مع موضوع نشر صور في جريدة دنمركية غير معروفة الذي حصل هو اثبات .. بأن الاسلام والغرب متناقضان بشكل جذري". من الجهة الاخرى كان ساكراني يمتدح الصحف الانكليزية لانها لم تعيد نشر الصور, وجواب موللر على ذلك برأيي يعكس الحقيقة في تفكير كل البريطانيين بأن "منع نشر الصور ليس نتيجة التعاطف والحساسية تجاه شعور المسلمين بقدر ماهو عدم الرغبة بان تكسر نوافذنا.

ساكراني شرح بأن "تقدير شخصية النبي ,عليه السلام, من الاساسيا ت في العالم المسلم, والحب والمودة له لايمكن التعبير عنها بالكلمات. انها تذهب لابعد من حب الاهل والاحباب , وحتى الاولاد. ذلك جزء من الايمان. وهناك تعليمات في الدين الا يصور النبي برسوم" واستنتاج موللر كان كالتالي: " يفترض اي مسلم بأن قيم الدين الاسلامي تعلو على اي شيء اخر. تماما كما يفترض ان مؤمن بأي دين اخر بأن طريقه هو الطريق الوحيد, الحقيقة والنور. ولو اختار البعض ان يحبوا واعظا من القرن السابع اكثر من محبتهم لعائلاتهم فهذا شأنهم, ولكن لا احد مجبر ان يأخذ موضوعا كهذا بجدية ". ولكن لو انك ان لم تأخذ الموضوع بجد وتصرفت حياله بإحترام فستكون مهددا بالعنف لدرجة لم يعرفها اي دين منذ العصور الوسطى. ولااستطيع فهم ضرورة هذا العنف, وهنا نوه موللر لإدعائهم ذاته بقوله :" ايها المهرجون لو صح انكم مقتنعين بأي شئ مما تدعون فأن هؤلاء الرسامين سيذهبون لجهنم على كل الاحوال– اليس هذا كافيا لكم؟ ولو اردتم اشعال غيرتكم وحماسكم على الاسلام والاهانات التي يتعرض لها المسلمون فلتقرأؤو تقارير هيئة العفو الدولية عن السعودية وسوريا .

الكثيرون لاحظوا التباين بين الادعاء الهستيري بجرح الشعور الذي صرح به المسلمون والجاهزية والسرعة التي اتمت بها اجهزة الاعلام العربية نشر صور معادية لليهودية . في احد المظاهرات في الباكستان حملت امرأة ترتدي البرقع لافتة مكتوب عليها "ليبارك الله هتلر" . كردة فعل على هذه الضوضاء المسعورة, قامت بعض الصحف المحترمة بإستهجان العنف واقامت بعض الضجة الرمزية مطالبة بحرية الرأي . ولكن بنفس الوقت ابدت "الاحترام" و" التعاطف" ل"الاهانة العميقة" و"الاذى" الذي حل بالمسلمين وجعلهم "يعانون". لنتذكر ان "الاذى" و "المعاناة" المقصودين هنا لايعنيان ممارسة العنف الجسدي والحاق الالم بشخص ما: ليس هنالك اكثر من بعض طلاء الحبر على ورق جرائد لم ولن يراها احد خارج الدنمارك لولا الحملة المتعمدة لاثارة الفوضى التي دبرها هؤلاء .

أنا لست مع الاذى والاهانة لاي احد . ولكنني مفتون بسر الامتيازات الغير منطقية المعطاة للدين في مانسميه مجتمعاتنا العلمانية. على كل السياسيين ان يعتادوا رؤية رسوم ساخرة لوجوههم, ولااحد يهتز للدفاع عنهم. ماهو الشي المميز للدين والذي يجعلنا نعطيه نوعا فريدا من الاحترام؟ اورد ما قاله مينكين في هذا الصدد:" عليك بأحترام دين الاخر ولكن لااكثر من احترامك لاعتقاده بأن زوجته جميلة واولاده اذكيا في ضوء هذه النظرية الفريدة لاحترام الدين سأبدأ اولا بالقول: لن احاول الاهانة ولكن في نفس الوقت لن اعطي اعتبارات للدين لااعطيها لاي موضوع اخر. ولن اعامل الدين بطريقة مختلفة عن معاملتي لاي شي اخر .

الفصل الثاني

فرضية الإله

الدين في زمن ما هو التسلية الادبية للزمن الذي يليه

رالف والدو ايمرسون

لاجدال بأن اله العهد القديم هو اسوأ الشخصيات الخيالية : غيور وفخور بذلك , تافه , ظالم , عديم الرحمة مجنون بالسيطرة , حقود, متعطش للدم , مبيد للشعوب, معقد من النساء والمثليين ,عنصري , قاتل اطفال ,ساحق, ذابح ابناء, ضار, مصاب بداء العظمة , سادي ومازوشي ,نزوي حقود شرس . العديدين منا والذين لقنوا عنه منذ الطفولة اعتادو على ارهابه. ولو اخذنا وجهة نظر من نعتبره انسانا ساذجا بأمور التدين لرأيناها مختلفة تماما . بشكل ما استطاع ابن ونستون تشرشل تدبر امره ليبقى جاهلا بالنصوص المقدسة حتى اليوم الذي راهنته فيه ايفلين فوش وضابط اخر معه في الخدمة خلال الحرب بأنه لن يستطيع قراءة الكتاب المقدس كله خلال اسبوعين وعن ذلك يقول الضابط:" لخيبة الامل لم نحصل على النتيجة التي املناها. انه لم يقرأ اياً من الكتب الدينية مسبقا والان ,يواظب على القراءة بحماس واحيانا يقول بصوت عال" اراهن انك لم تكن تعرف بأن ذلك مذكور في الكتاب المقدس" او يضرب على ساقه براحة يده و ويترنم " الله .. ما هذا القذر" . توماس جفرسون – قارئ افضل عن هذا الموضوع – كان رأيه مشابها ": الاله الانجيلي شخصية مرعبة– قاس, حقود, نزوي ظالم.

ليس من العدل ان نهاجم هدفا سهلا كهذا. ونظرية الاله لا يجب ان تسقط او تثبت من خلال يهوه ,وجهه الكريه , ولا من خلال الوجه المسيحي المعاكس له,"يسوع اللطيف الوديع والمعتدل". (لنكون عادلين علينا ان ننوه بأن الشخصية المخنثة التي يوصف بها المسيح تدين لاتباعه الفيكتوريين اكثر منه شخصيا, هل يمكن لاي شئ ان يكون مثيرا للغثيان كتصريح السيدة س. ف. الكسندر " الاطفال المسيحيين يجب ان يكونوا لطيفين ,مطيعين, جيدين كما كان هو "؟) لن اهاجم اي من الموصفات المحددة ليهوه او المسيح او الله او اي اله اخر مثل زيوس ,بعل او فوتان. سأعطي تعريفا محددا للإله في البدء :يوجد هناك شخص, خارق القدرات, والذي تعمد خلق الكون وكل شيء فيه بما فيه الانسان. وهذا الكتاب سيحامي عن وجهة نظر اخرى الا وهي : اي قدرات على الخلق بتعقيد كاف لتصميم اي شئ, تأتي كنتيجة لتراكم تدريجي طويل الامد لعملية تطورية .واي تطورات للقدرات الخلقية, يجب ان تكون بالضرورة قد حصلت في وقت متاخر من تاريخ الكون, وبالتالي لا يمكن ان تكون مسؤولة عن تصميمه. وبهذا المعنى فأن الاله سيكون وهما, وفي فصل اخر سأبين بأنه وهم خبيث ايضا .

ليس من المفاجئ ,بأعتبار ان الامر كله مبني على ايحاءات محلية عوضا عن ادلة مثبتة , ان يكون لنظرية الاله عدة نسخ. ودارسي التأريخ الديني يعرفون عن التطور لهذه السلسلة والذي يبدا بالروحانيات القبلية البدائية ,مارا بتعدد الاله كالاغريقيين, الرومان ,وغيرهم , حتى الوصول للتوحيد في اليهودية ومشتقاتها , المسيحية والاسلام .

تعدد الالهه

ليس من الواضح لماذا يعتبر الانتقال من نظام تعدد الالهه للتوحيد كتطور بديهي وواضح وليس بحاجة لنقاش. التعليق الذي كتبه ابن وراق (كاتب لماذا لست مسلما) فيه الكثير من النباهه, ان التوحيد بدوره سيصاب بنفس نكبة انقاص عدد الالهه واحدا اخر ليصبح الحادا .

الموسوعة الكاثوليكية تكذب كلا من التعددية والالحاد في عبارة واحدة وبدون اي مبالاة :" الاعتقاد الالحادي يدحض نفسه بنفسه, ولعدم واقعيته لم يحصل على مصداقية الا من فئة قليلة العدد. وكذلك الامر فلن تستطيع التعددية, رغم شيوعها بين العوام ان تنال من عقل فيلسوف مفكر وتجعله يؤمن بها .

كان التعصب للتوحيد ظاهرا حتى فترة قريبة في قوانين التبرعات في انكلترا واسكتلندا , التمييز ضد التعددية كان واضحا في قوانين الاعفاء من الضرائب لمن اخذ على عاتقه الدعوة لدين توحيدي, وعدم التدقيق الصارم والمطلوب في حالة التبرعات لجهات علمانية . اطمح بعض الاحيان في خيالي بأن اقنع احد اعضاء الجالية الهندوسية لرفع دعوى قانونية ضد هذا التكبر المعادي للتعددية .

الحل الافضل بالطبع هو ان نترك موضوع التبرعات للدعوة الدينية برمته. سيكون لذلك فوائد كبيرة وخصوصا في الولايات المتحدة حيث الاموال الممتصة من قبل الكنائس , ولتلميع احذية الدعاة الانجيليين في محطات الدعوة التلفزيونية, تصل لحد من الممكن وصفه بالبذائة بدون ان نكون ظالمين. الداعية اورال روبرتس قال لمشاهديه في التلفزيون بان الله سوف يقتله ان لم يعطوه 8 ملايين دولارا. و صدق او لاتصدق, فقد حصل عليها .

وبدون ضرائب!. فإن روبرتس يزيد قوة يوما بيوم. جامعة "اورال روبرتس" في تولسا بأوكلاهوما ,والتي تقدر قيمة ابنيتها ب 250 مليون دولار, بنيت بتكليف من الله نفسه كما في الخطاب التالي:" لترفع تلاميذك حتى يسمعوا صوتي , وليذهبوا حيث يشع نوري بشكل خافت ويسمع صوتي كالهمس, الى اقاصي حدود الارض. عملهم سيتجاوز عملك , وعندها سأكون راضيا .

وبذلك,فمن الافضل ان يلعب صديقي الهندوسي التخيلي لعبة "اذا لم يكن بإمكانك ان تهزمهم, فالافضل ان تنضم لهم". التعددية ليست في الحقيقة الا توحيدا متنكرا في شكل تعددية. هناك اله واحد فقط. الرب براهما الخالق, اما الرب فيشنو الحافظ , والرب شيفا المدمر, والربات ساراسفاتي ولاكسمي وبارافاتي (زوجات براهما, فيشنو وشيفا , (والرب غانيش اله الفيلة, والمئات الاخرين, فهم ليسوا الا تجسيدا ووجوها متعددة لهذا الاله الواحد .

على المسيحيين ان يتعاطفوا مع سفسطاء كتلك. فقد اريقت انهار من الحبر, ان لم نقل الدم ايضا, في العصور الوسطى على "سر" الثالوث الاقدس واي تغيير فيها جوبه بالقمع كما حصل مع اريوس الاسكندري في القرن الرابع ميلادي, حيث انه نفى ان يكون المسيح من جوهر الاله. ربما انك تسأل, هل هناك معنى لجملة كهذه؟ جوهر؟ اي جوهر؟ ماذا تقصد بذلك؟ الاجابة الاكثر اقناعا هي "لاشئ تقريبا". الخلاف على المعنى شطرالعالم المسيحي لمدة قرن, وامر الامبراطور قسطنطين بحرق كل كتب اريوس. هذه طريقة اللاهوت منذ الازل,... التفرقة .

هل هناك اله بثلاثة اقسام , ام ثلاثة اله في قسم واحد؟ الموسوعة الكاثوليكية تنير الاجابة في مقطع يشع فكرا وحكمة :

"في رأس الاله الموحد يوجد ثلاث اشخاص, الاب , الابن, والروح القدس, كل مميز عن الاخر. ولهذا, وفي عقيدة اغناطيوس : الاب اله, الابن اله, والروح القدس اله ايضا ,وبالرغم من ذلك فليس هناك ثلاثة الهه بل هناك اله واحد . الموسوعة تضيف مقولة القديس غريغوري صانع المعجزات من القرن الثالث, كما لو ان ماسبق لم يكن واضحا بشكل كاف .

> "ولهذا لايوجد اي شي مخلوق, ولاعلاقة للواحد بالاخر في الثالوث الاقدس: ولاشئ اضيف لاحقا كما لو انه لم يكن موجودا قبلا: ولهذا فإن الاب لم يكن ابدا بدون ابن , ولم يكن الابن بدون الروح القدس ابدا: وهذا الثالوث منيع للتغير والتبديل منذ الازل والى الابد"

مهما كان نوع المعجزات التي اكتسب بها القديس غريغوري اسمه الحركي, فمن المؤكد انها ليست معجزات عن الوضوح والصدق. فكلماته محملة بطعم الرجعية اللاهوتية ,والتي هي –على عكس العلم والفروع الاخرى للثقافة الانسانية– لم تتغير خلال 18 قرنا . توماس جفرسون اصاب,كعادته غالبا, عندما قال " السخرية هي السلاح الوحيد الواجب استخدامه ضد المقترحات الغير واضحة. يجب ان تكون الافكار واضحة قبل الاقبال على اي تصرف بناء عليها, ولا احد على الاطلاق عنده فكرة واضحة عن الثالوث الاقدس. انها الابرا كادابرا للنصابين ممن يسمون انفسهم كهنة المسيح .

شئ اخر لايمكن عدم الاشارة اليه الا وهو الثقة العمياء والتي يصرح الدين بها عن تفاصيل دقيقة لأمورشتى لم ولن يستطيعوا تقديم دليل واحد لبرهانها. وربما ان هذا هو السبب في تبنيهم العداوة المتشددة تجاه كل من له اراء اخرى مختلفة عن ارائهم , ونلحظ ذلك بوضوح في مجال الثالوث المنوه عنه سابقا . جفرسون يسخر بشدة من المذهب, الذي وصفه في معرض نقده لنظرية كالفن الدينية بقوله " هناك ثلاثة الهه". ولكن الفرع المسيحي الممثل بالكنيسة الكاثوليكية

ومغازلتها المستمرة لتعدد الالهه هو ما يدفع هذا التعدد في اتجاه التضخم . الثالوث يضم (يضممون؟) مريم "ملكة السماء", الهة في كل شي ماعدا الاسم, وثاني شخصية الوهية بعد الله في مواضيع الدعاء والصلوات. ومجموعة هؤلاء المهمين تتضخم وتنتفخ بجيش من القديسين, وان لم ترقى بهم قواهم المتوسطة ليكونوا انصاف الهه, فهم على الاقل مستحقين للتقدير في مجالاتهم التخصصية .

توجد قائمة عند مجمع المنتدى الكاثوليكي ب 5120 قديسا مع اختصاصاتهم المختلفة ,والتي تضم اوجاع البطن, ضحايا العنف,فقدان الشهية, تجار الاسلحة, الحدادين, العظام المكسورة, المشتغلين بالمواد المتفجرة و اصابات الامعاء, ولن نذهب ابعد من ذلك .وعلينا الا ننسى جوقة المضيفين الملائكيين الاربعة, مصفوفين في تسع ترتيبات مختلفة : سيرافيم, شيروبيم, ثرونيس, دومينيونس, قيم, طاقة, مبادئ, وكبير الملائكة(رئيس جميع المضيفين), وعدد من الملائكة العاديين, متضمنين ملاكنا القديم الذي يرعانا عبر الاجيال , الملاك الحارس. إن قلة الذوق في هذه الاساطير تترك عندي انطباعا ما بشكل جزئي ولكن مايثيرني بشكل خاص هو اللامبالاة الغبية للتفاصيل التي يطورونها مع الزمن. والتي ليست الا ادعاءات وقحة .

لقد خلق البابا جان بول الثاني من القديسين اكثر من جميع من سبقه لقرون مضت مجتمعين, ولديه صلة خاصة مع مريم العذراء. ورغبته في تعدد الالهه ظهرت بشكل درامي عام 1981 عندما تعرض للاغتيال في روما. ونسب الفضل في نجاته لتدخل سيدتنا الام فاطمة:" ان يدا امومية وجهت الرصاصة." . هلا توقفنا عن التساؤل هنا لماذا لم توجه تلك اليد الرصاصة لكيلا تصيبه على الاطلاق. وربما نفكر بأن فريق الجراحين الذين عملوا لست ساعات لانقاذه يستحقون بعض التقدير, ولكن ربما ان يديهم ايضا كانت موجهه بواسطة يد نفس الام. النقطة هنا ان اليد في رأي البابا ليست يد اي سيدة من سيداتنا ولكن يد السيدة الام فاطمة بالتحديد هي التي وجهت الرصاصة لكيلا تصيب مقتلا منه. وعلى ذلك فسيدتنا لورد, وسيدتنا غوادالوب, وسيدتنا اكيتا, وسيدتنا غاراباندال وسيدتنا نوك كانوا مشغولين وقتها بمهام اخرى .

كيف تمكن الاغريق والفايكينج من التوافق مع الغاز التعددية؟ هل فينوس هو اسم اخر لافروديت, ام كان هناك الهتين متميزتين للحب؟ هل كان ثور وجها اخر لفوتان, ام كان الها منفصلا؟ ولكن من الذي يهتم لذلك؟ الحياة اقصر من ان ننفقها بين معرفة التلفيق الخيالي. لقد تكلمت عن التعددية هنا فقط حتى لا اتهم باغفالها, ولن استطرد اكثر من ذلك. وللاختصار سأسمي كل الاله سواء كانت متعددة او موحدة ب "الله" او "الاله" او "الرب". وسأراعي بأن الاله الابراهيمي (لنضع الامور بشكل بسيط) هو مذكر واستعمل الضمائر المناسبة لذلك. بعض علماء الدين المتطورين يدعون بعدم وجود جنس للاله .وبعض المؤمنين بمساواة الجنسين يلبسون الالهة بلباس الانثى لاسترجاع حقوقهم التي هضمت عبر التاريخ. ولكن بالنتيجة , ماهو الفرق بين ذكر غير موجود وانثى غير موجودة؟ وفي ملتقى الطرق الافتراضي بين التدين وحقوق المرأة يبدو وجود الاله موضوعا ثانويا واقل اهمية من تحديد جنسه .

ادرك بأن من الممكن لبعض نقاد الدين ان يتعرضوا للهجوم لفشلهم في اعطاء الحق والاعتبار للتنوع الخصب للتقاليد او وجهات النظر العالمية المسماة بالدين. هناك العديد من الاعمال العلمية المتعلقة بعلم الاجناس البشرية, من جيمس فرازير "الغصن الذهبي وحتى باسكال بوير "شرح الدين" وسكوت اتران "نثق بالله", توثق بشكل ساحر ظواهر عن الغيبيات والطقوس الغريبة. اقرأ كتبا كهذه وستدرك كم هي عظيمة سذاجة الانسان .

لن اتبع هذه الطريقة في هذا الكتاب. سوف انتقص كل اشكال الخوارق, واكثر الطرق عملية لذلك تكون بالتركيز على الاشكال الاكثر الفة لقرائي – الشكل الاكثر تهديدا لمجتمعاتنا. معظم قرائي سيكونون ممن تربوا على واحد من الديانات التوحيدية الاكثر انتشارا(اربعة لو تضمنت المورمونيين). وكلها تعود بالاصل لاسطورة النبي ابراهيم . وسيكون من المفيد ان للا تغيب تقاليد عائلته عن ذهن القارئ خلال قراءة بقية هذا الكتاب .

ارى الوقت مناسبا الان لأحباط محاولة حتمية للرد على الكتاب, والتي ستأتي بلاشك كملاحظة مرجعية:" انا لاأؤمن بالاله الذي يدعي دوكنز عدم الايمان به. أنا لاأؤمن بعجوز ذو لحية بيضاء يسكن في السماء" . هذا العجوز ليس اكثر من تشتيت لعقل المستمع ولحيته مضجرة وليست بيضاء طويلة فقط. سخافة تعليق كهذا تهدف للايماء للمستمع بأن القائل يؤمن بإله اقل سخافة من ذاك. انا اعلم انك لاتؤمن بعجوز يعتلي الغيوم ,فلنترك ذلك التخيل ولانضيع الوقت. انا اهاجم اي نوع من الاله او الأله, كل ماهو خارق اينما وحيثما وجد او سيوجد .

ديانات التوحيد

اكبر شر يمنع ذكره في قلب حضارتنا هو ديانات التوحيد.وقد بدأ بكتاب من العصر البرونزي البربري يسمى العهد القديم, انبثقت ثلاث ديانات – اليهودية, المسيحية والاسلام. هذه ديانات اله السماء. انها ديانات ابوية حرفيا – الله هو الاب القدير– لذلك ينتشر بغض النساء في تلك البلدان المصابة باله السماء ووكلائه الارضيتن من الذكور

غور فيدال

اليهودية اقدم الديانات الثلاثة وهي بدون شك سلف الديانتين الاحقتين, اليهودية: طائفة عشائرية تابعة لاله غليظ جدا, مهووس بالقيود الجنسية بشكل سقيم, كما هو برائحة اللحم المفحم, يتفوق بشكل كبير على اي من الاله المنافسة ويخص فقط تلك العشيرة الصحراوية التي اختارها. وفي عهد الاحتلال الروماني لفلسطين, نشأ الدين المسيحي على يد بول الطرطوسي كدين توحيدي مشتق من اليهودية ولكن اقل عنفا وخصوصية منها, وانفتحت المسيحية من الخصوصية اليهودية للدعوة العامة. وبعد ذلك نشأ في العديد من الدول كما في حال محمد واتباعه, اتباع لديانة توحيدية يهودية المنشأ , بدون ان يأخذوا خصوصيتها العرقية , ونشأ الاسلام على كتاب مقدس جديد اسمه القرأن ,والذي اضاف ايديولوجية جديدة الا وهي نشر الدين بالقوة العسكرية. المسيحية ايضا انتشرت بالسيف, مارسها الرومان بعد ان حولها الامبراطور قسطنطين من طائفة صغيرة لامركزية وملاحقة الى الدين الرسمي للدولة, ونشرت بالحملات الصليبية و بعدها بحملات اوروبية اخرى مرافقة بحملات تبشيرية. وفيما يخص هدفي هنا, فأن الديانات الابراهيمية الثلاث يمكن اعتبارها واحدا , مالم يكن منصوصا بعكس ذلك. و سيتمحور تفكيري حول الدين المسيحي ليس لشئ الا لكونه مألوفا لدي اكثر من غيره والفروق لاتهم بقدر التشابهات بين الديانات الثلاث. ولن اناقش الديانات الاخرى كالبوذية او الكونفوشيه. الحق يقال بأن هذه المذاهب يجب ان تناقش كفلسفات وانظمة اخلاقية للحياة وليس كديانات .

في البداية اريد ان اعطي تعريفا لاغنى عنه لنظرية الاله, وازيل اي سوء فهم عن تعريف الاله الابراهيمي. انه ليس الذي خلق الكون وفقط, بل انه اله شخصي من ضمنه او خارجه (مهما عنى ذلك), ويمتلك الصفات الغليظة التي اشرت اليها سابقا .

الاله الذي دعا له فولتير وتوماس باين لايمتلك صفات شخصية على الاطلاق مقارنة مع الجانح الذهاني في العهد القديم, رب الالوهيين في القرن الثامن عشر المسمى بعصر النهضة هو اعظم مايمكن ان يكون: جدير بخلقه للكون, متعال عن الامور الانسانية ,مترفع عن افكارنا وامالنا, لايهتم بذنوبنا الملخبطة او ندمنا المغمغم عليها بأي شكل من الاشكال. اله الربوبيين فيزيائي لاقصى حدود الفيزياء, هو الفا واوميغا الرياضيين ,المصمم المؤله, وافضل من يضع القوانين الهندسية وثوابت الكون, يضبطها بدقة لامتناهية ومعرفة مسبقة بدقائق الامور, وبعد ان قدح ما نسميه الان الانفجار الكبير, ترك كل شي وذهب للتقاعد ولم يسمع احد عنه شيئا بعد ذلك .

في ازمنة الايمان القوي , اعتبر الالهيون صفا لصف مع الملحدين بدون اي تمييز. سوزان جاكوبي في كتابها المفكرين الاحرار: تاريخ العلمانية الامريكية, ذكرت قائمة من المسبات التي اطلقت على توم باين : "حيوان زاحف, خنزير, كلب مسعور, قملة, وحش كبير, عنيف , كذاب وبالطبع كافر ايضا". باين مات فقيرا ومهملا من كل اصدقائه السياسيين (بأستثناء مشرف لجفرسون) الذين احرجوا بشدة من تصريحاته المعادية للمسيحية. اما اليوم فقد تغيرت المقاييس بشكل كبير واصبح معنى الربوبية معاكسا للالحاد ويصنف في صف المؤمنين. انهم –رغم كل شيء– يؤمنون بخالق خارق للكون .

العلمانية و الاباء المؤسسين والدين في امريكا

الافتراض المتعارف عليه بأن مؤسسي الدولة الامريكية من المؤمنين , وليس هناك من شك في ان الغالبية كانوا كذلك. ولكن هناك ما يدعونا للجدال بأن اعظمهم كانوا من فئة الملحدين. وكتاباتهم عن الدين في زمنهم لاتترك مجالا للشك في انهم سيكونون من الملحدين في زمننا. وبغض النظر عن وجهات نظرهم الدينية في وقتهم , فإن ما يجمعهم انهم كانوا جميعا علمانيين, وهذا ما اريد ان اتحدث عنه هنا وسأبدأ –ربما يبدو ذلك مفاجئا– بمقولة للسناتور باري غولدواتر عام 1981, والتي تثبت تشبث الرؤساء المحافظين الامريكيين بتقاليد العلمانية المرساة في اساس جمهوريتهم .

"ليس هناك من تعنت يصيب البشر كما في حالة الاعتقاد الديني. وليس هناك حليف اقوى في اي نقاش من المسيح او الله اوما شابه من مسميات الخوارق. ولكن كأي سلاح قوي, فإن استعمال اسم الله يجب ان يكون بشكل مقنن. والجماعات الدينية التي تنمو في ارجاء وطننا لاتستعمل نفوذها الديني بحكمة. انهم يحاولون الضغط على قادة الحكومة لاتباع مذهبهم . 100% وان اختلفت مع مبادئهم الدينية في اي مسألة اخلاقية فإنهم يشكون ويهددونك بخسارات مالية او انتخابية او كلاهما معا. وبصراحة فأنا سئمت وتعبت من هؤلاء الوعاظ المنتشرين اينما كان واقوالهم لي كمواطن بأني لو اردت ان اكون اخلاقيا فعلي ان اؤمن بكذا وكذا وكذا. من يظنون انفسهم؟ وماالذي يعطيهم الحق لاملاء معتقداتهم علي؟ ومايثير غضبي اكثر كمشرع هو تحمل تهديد اي فئة دينية ممن يظنون بأن لديهم حق الهي في السيطرة على صوتي في مجلس الشيوخ. انا احذرهم اليوم: سأحاربهم في كل خطوة يحاولون فيها املاء معتقداتهم الاخلاقية على المجتمع الامريكي بأسم التحفظ" .

ان اظهار المؤسسين الاباء بمظهر ديني يهم الدعاة الامريكيين اليوم والذين يريدون نشر نسختهم من التاريخ الامريكي. وعلى عكس وجهات نظرهم , فالواقع بان امريكا لم تؤسس كدولة دينية مسيحية منصوص في مرحلة مبكرة في معاهدة طرابلس , مخطوط عام 1796 من قبل جورج واشنطن وموقع عليه من جون ادامز : 1797

"فيما تشكل الحكومة الامريكية على اي اسس مسيحية, ولا تحمل في طابعها اي عداوة للقوانين او الدين او الاستقرارللمسلمين , وكما هو مخطوط فأن الدولة لم تدخل في اي عداوات مع القوميات المحمدية, وبنص القانون وبالاتفاق مع الطرف الاخر فانه لن يسمح بخلق مشاكل لاسباب تتعلق بذرائع دينية وافساد التوافق بين الدولتين" .

ان كلمات الافتتاح في هذه المقولة كافية لخلق ضجيج مزعج في واشنطن في هذه الايام. ولكن إد بروكنر لديه ادلة مقنعة بأن ذلك لم يتسبب بأي معارضة في وقتها من اي من السياسيين او الشعب .

هناك تناقض ملحوظ وقد اشير اليه العديد من المرات وهو ان الولايات المتحدة التي نشأت كدولة علمانية, هي الان الدولة الاكثر تدينا في العالم المسيحي, بينما انكلترا, مع كنيستها المؤسسة والمرؤوسة من الملكة بالقانون, هي من اقلهم تدينا. السؤال يطرح علي باستمرار , ولااعرف اجابة له. من الممكن ان التاريخ المروع للعنف بين الطوائف هو السبب, والسلطة تتأرجح بين الكاثوليكيين والبروتستانت والفئة الحاكمة تنظم حملات ابادة للفئة الاخرى. والرأي الاخر هو ان امريكا دولة مهاجرين. احد الزملاء اشار لان المهاجرين يستعملون الكنيسة كبديل في ارض الغربة للعائلة والاقارب الذين فارقوهم في اوروبا . تلك الفكرة تستحق التمحيص. ليس هناك شك على اي حال بأن العديد من الامريكيين يرون في الكنيسة جزأ من هويتهم, وفي ذلك ما يدل على ان الموضوع متعلق بالعائلة .

الفكرة الاخرى لشرح التناقض تأتي من ان القانون الامريكي اتى من اصل علماني .وبسبب علمانية امريكا القانونية اصبح الدين مؤسسة عملية. الكنائس تتنافس على الجمهور – ناهيك عن الماديات هنا– والمنافسة حامية في الدعاية وتقنيات التسويق .مايسري على صابون مضاد للقشرة يسري على الله ايضا, والنتيجة تقترب من هوس ديني بين الفئة

الاقل ثقافة في المجتمع. وعكس ذلك في انكلترا ,حيث الدرع الكنسي الرسمي , اصبح التدين اقرب للتسلية وبالكاد يعتبر تدينا على الاطلاق. وقد عبر غيل فرايزر, كاهن انجيلي ومعيد مشرف في اوكسفورد للفلسفة, عن هذا التقليد الانكليزي بشكل لطيف في صحيفة الغارديان. العنوان الثانوي للمقال " المؤسسة الكنسية في انكلترا استبعدت الله عن الدين, وهناك مخاطرة اكبر في انشطة ايمانية اخرى :

في الماضي كان الكاهن الانكليزي شخصية درامية. متذوق للشاي, لطيف , غريب الاطوار بحذاء لامع وطباع سمحة. تمثيل الدين بهذه الشخصية لم يكن مزعجا لغير المتدينين . لم يتدخل في موضوع العرقية او يضغط على احد ليدله على الخلاص, ولم يكن هناك حملات صليبية او قنابل على الرصيف بإسم اي قوة عليا .

يستطرد فرايزر قائلا"كاهن البلدة اللطيف قد اعطي في الحقيقة لقاحا من شعور الانكليز المعادي للمسيحية". وينهي موضوعه بالرثاء للاتجاه الذي تسير فيه الكنيسة الانكليزية ويطلب من القائمين عليها اخذ الدين بجدية وعبارته الاخيرة:" القلق يأتي من الاحتمال بأننا ربما نطلق جني الدين الانكليزي المتعصب من القنينة التي لايزال نائما فيها منذ قرون .

جني التعصب الديني منتشر في امريكا اليوم, وذلك ليرهب الاباء المؤسسين. سواء القينا اللوم لهذا التناقض على القانون العلماني المبتكر ام لا, فأن الاباء المؤسسين لامريكا كانوا من العلمانيين الذين يؤمنون بفصل الدين عن السياسة بشكل تام. وذلك كاف تماما لوضعهم بطرف من يعترض بشدة على الذين يتفاخرون بوضع الوصايا العشر في ابنية حكومية. ومن المثير التخمين بأن البعض منهم قد ذهبوا حقا لابعد من ان يكونوا مؤمنين , اعني لاادريين او حتى ملحدين؟ التصريح التالي من جفرسون يجعله صاف لصف مع من ندعوهم باللاادريين في ايامنا :

"الكلام في اللاماديات هو كلام عن لاشئ. القول بأن الروح الانسانية, الملائكة, والله غير ماديين هو القول بأنهم لا شئ, بمعنى انه ليس هناك روح , ملائكة او اله. لااستطيع التفكير بغير ذلك. لا اريد الغوص في متاهات لايسبر غورها أوفي هاويات التخيلات. .. انا سعيد ومكتف بما اشغل نفسي به وبدون الأشياء التي ربما تكون موجودة ولكن ليس لدي الدليل على وجودها ".

كريستوفر هيتشنز . في كتابه توماس جفرسون : مؤلف امريكا, يظن بأن جفرسون كان ملحدا, رغم ان ذلك كان صعبا جدا في وقته :

ينبغي ان نكون حريصين في حكمنا عما اذا كان جفرسون ملحدا ام لا. وذلك لانه كان مرغما على التعقل في امور اجبارية لحياته السياسية. ولكنه كتب لابن اخته, بيتر كار ,عام 1787 بأنه على الانسان عدم الخوف من التساؤل عن اي شئ مهما كانت العواقب .

"لو وصلت للايمان بأنه ليس هناك اله, فستجد في هذه المحاولة على الاقل المتعة واللذه العقلية وسيدفعك ذلك لحب الاخرين والحصول على الراحة النفسية"

برأيي ان الرسالة التالية من جفرسون لابن اخته مثيرة للاهتمام :

"لتهز كل المخاوف من الاجحاف المتذلل الذي تزحف تحته العقول الضعيفة.ثبت الحقيقة في مكانها , واسع للحصول عليها في كل شئ. وكل رأي. وحتى في اسئلة محرجة كما في حالة وجود الاله, لانه لو كان موجودا, فأنه سيقدر الولاء للعقل اكثر من الخوف الاعمى ".

هاكم بعض ملاحظات جفرسون مثل " المسيحية هي اكثر الانظمة التي عرفها الانسان تحولا و تقلبا" تتوافق مع الايمان والالحاد ايضا. والشئ ذاته ينطبق على ملاحظات جيمس ماديسون المضادة للكهنوت:" تجربة المؤسسة المسيحية الرسمية امتدت حتى الان لخمسة عشر قرنا. ماذا حصدنا منها؟ على كافة المستويات بنسب متفاوتة, فخر وكسل رجال الدين, تجاهل وذل العلمانيين المضاعف في المجال الغيبي والاضهاد المتعصب" .

وينطبق الشئ نفسه على بنجامين فرانكلين " المنارات اكثر فائدة من الكنائس وجون ادامز " لو لم يوجد الدين لكان هذا العالم افضل مايمكن ان يكون ."

ادامز له بعض المقولات اللامعة والاكثر تهكما على المسيحية:" المسيحية كما فهمتها كانت ولاتزال روحانية. فما هو السبب ان الملايين من الخرافات والقصص والاساطير قد مزجت بالروحانية اليهودية و المسيحية لتجعلهما اكثر الاديان التي وجدت دموية؟ " . وفي رسالة اخرى , وهذه المرة لجفرسون, "لقد اقشعر بدن توماس للتفكير بما يلمح له المثال القاتل عن استغلال الحزن بالاسلوب الاكثر بشاعة حتى الان – الصليب . فكر بالكوارث التي اتى بها محراك الحزن هذا ".

سواء كان جفرسون وزملاؤه مؤمنين , الوهيين, لاادريين او ملحدين, فهم بالتأكيد علمانيين لحد كبير ومؤمنين بأن تدين رئيس الجمهورية او عدمه امر يخصه وحده. كل الاباء المؤسسين , على اختلاف معتقداتهم مهما كانت سيصقعون لقراءة الاجابة التي ادلى بها الرئيس بوش الاب لروبرت شرمان على سؤاله عما اذا كان يعتبر ان المواطنين الامريكان الملحدين على نفس المستوى من الوطنية والمواطنة :" لا, لااعلم كيف نعتبر الملحدين وطنيين او حتى مواطنين . نحن امة واحدة تحت راية الله." على فرض ان شيرمان كان دقيقا (مع الاسف انه لم يستعمل الة تسجيل,ولم تنشر المقابلة في اي صحيفة اخرى وقتها). لنجرب استبدال كلمة "ملحد" ب "يهودي" او "مسلم" او "اسود" . هذا يعطينا مقدار التمييز العنصري الذي يتعرض له الملحدون في امريكا في ايامنا هذه .ناتالي انغير في "اعترافات ملحد وحداني" تصف بحزن يحرك العواطف في نيويورك تايمز مشاعرالعزلة كملحدة في امريكا هذه الايام. ولكن العزلة هذه هي وهم زرعه الاجحاف في الاذاهان. الملحدون في امريكا اكثر عددا مما يظن الناس. كماذكرت في مقدمة الكتاب الملحدين يفوقون المتدينين اليهود عددا. ولكن اللوبي اليهودي مشهور بقوته في واشنطن. هذا مايمكن ان يحصل عليه الملحدون ايضا لو نظموا انفسهم بشكل صحيح .

يروي دافيد مايلز, في كتابه عالم الملحدين , قصة تبدو ككاريكاتور غير واقعي عن تعصب البوليس الاشبه بالخيال. احد دعاة المسيحية المتعصبين للشفاء بالايمان بدأ حملة "اعاجيب صليبية" وهذه الحملة تزور مدينة مايلز مرة كل عام. ومن الامور التي تدعو لها هذه الحملة ان يترك مرضى السكري حقن الانسولين, ويترك مرضى السرطان الجرع الكيماوية ويستبدلوا هذه الامور بالصلاة. وبكل روية , اراد مايلز ان ينظم مظاهرة سلمية لتحذير الناس. ولكنه اخطأ بذهابه للبوليس واخبارهم بنيته وطلب الحماية مما قد يتعرضون له من اتباع ومؤيدي ذاك الداعية للشفاء بالايمان. والبوليس الاول الذي تكلم معه سأله: "هل مظاهرتك ستكون مؤيدة او مضادة." اجاب مايلز"مضادة", البوليس قال بأنه شخصيا سيكون من احد المؤيدين وينوي البصق في وجه مايلز لو مر بجانب مظاهرته .

مايلز قرر ان يجرب حظه مع شرطي ثان. وذاك قال بأنه لو ان احد اتباع الداعية مارس العنف ضد مايلز فإنه سيوقف مايلز لانه "يتدخل في عمل الله". ذهب مايلز لبيته وتلفن لمركز الشرطة بأمل ان يجد تعاطفا على صعيد الرتب العليا. وبالنتيجة وصل للكلام مع رقيب والذي قال له:" لتذهب للجحيم ياهذا. لايوجد بوليس يريد حماية ملحد ملعون. امل ان يدميك احد بشكل فظ اثناء محاولاتك" .وهكذا بدت الظروف غير مؤاتية بالمرة في مركز البوليس ذاك, وكذلك اللطف الانساني والاحساس بالواجب. مايلز تكلم مع سبع او ثمان رجال بوليس يومها. لم يحصل على اي تعاون بل واكثرهم هدده بالعنف .

كثيرة هي الاحداث من هذا النوع ضد الملحدين. ولدى مارغريت داوني من جمعية الفكر الحر في فيلادلفيا مدونة تحفظ فيها سجلات مصنفة لاحداث كهذه. ولديها مصنفات تحت اسماء مثل" المجتمع, المدارس, اماكن العمل, الاعلام, العائلة والحكومة", وتحوي امثلةعن مضايقات, فقدان وظائف, تجنب من افراد العائلة وتصل حتى للقتل. ان مدونات داوني عن الكراهية وسوء الفهم التي يواجهها الملحدون في امريكا تجعلنا نؤمن بشكل واضح بأنه لا امل لملحد صريح بالفوز في اي انتخابات لاي منصب رسمي في امريكا .

هنالك 435 عضوا في مجلس النواب و 100 في مجلس الشيوخ. وبفرض ان الغالبية من الفئة المثقفة من الشعب,فإنه من المحتم احصائيا ان نسبة كبيرة منهم ملحدين. من المؤكد انهم كذبوا , او على الاقل اخفوا مشاعرهم حتى يتم انتخابهم. من يلومهم على ذلك اذا اخذا بعين الاعتبار المنتخبين الذين يجب اقناعهم؟ ومن المعروف للكون بأجمعه بأن اي محاولة للترشيح للرئاسة هي انتحار سياسي للمرشح الملحد .

ان تلك الوقائع عن الجو السياسي في الولايات المتحدة, وما تدل عليه, لهي مما كان بالتأكيد سيرعب جفرسون, واشنطن, ماديسون , ادامز وكل زملائهم من ملحدين و الوهيين ولاادريين ,مؤمنين او مسيحيين, وسيكونون ممن يرتدون على الحكم الديني للقرن الـــ 21 في واشنطون. ولجعلهم ذلك ينسحبون لطرف الاباء الموجدين للعلمانية في الهند بعد الاستعمار وخصوصا المتدين غاندي(انا هندو, انا مسلم, انا يهودي, انا مسيحي وبوذي), والملحد نهرو :
"مايسمى بالدين , واعني اي ضاهرة تدين منظمة, ليس فقط في الهند , بل في كل مكان, تملأني بالرعب وانا اعترض عليها كثيرا واتمنى ان تزال من الوجود. غالبا ما تكون عبارة عن ايمان اعمى وردود افعال بدون معنى,عقيدة وتعصب, غيبيات وكلها لتحقيق مصالح شخصية. "

ان تعريف نهرو للهند العلمانية كما حلم بها غاندي (لو تحقق ذلك عوضا عن تقسيم البلد بأنهار من دماء اختلاف العقائد) هو تقريبا ماردده جفرسون بذاته :
لنتكلم عن الهند العلمانية.. البعض يظن بأن ذلك معارض للدين. وهذا خطأ واضح. ما تعنيه حقيقة ان الدولة تقدر العقيدة الدينية للجميع بالتساوي وتمنحهم فرصا متساوية في كل شئ. ولدى الهند تاريخ عريق من التعايش الديني... في بلد كالهند ,حيث يوجد العديد من العقائد الدينية, لايمكن ان تبنى الوطنية على اي اساس غير العلمانية .

ان رب الالوهيين بلا شك متطور عن المتوحش المذكور في الانجيل. ولكنه للاسف ايضا بالكاد موجود, او وجد ابدا. وبأي شكل من الاشكال فإن نظرية الله بأي شكل من اشكالها ليست ضرورية * وبحسب نظريات الاحتمال قريبة جدا من ان تكون كاذبة .وسأشرح ذلك في الفصل الرابع, بعدا ان نعالج المزاعم عن اثبات وجوده في الفصل الثالث. وفي هذه الاثناء سألتفت للادرية والفكرة الخاطئة عن ان وجود او عدم وجود الاله هو سؤال لايطرح, لان العلم لا ولن يتمكن من الوصول لمعالجته .

فقراللاادرية

كان القس المسيحي المفتول العضلات ينتقدنا من منبر المصلى في مدرستنا القديمة عندما لمح بتقديره للملحدين. إنهم على الاقل يتحلون بالشجاعة رغم قناعتهم الخاطئة .ما لم يستطع هذا الواعظ تحمله كان اللاادرية والتي وصفها: سخافة , تفاهة بدون طعم كالشاي الخفيف.يجلسون على السياج . كان محقا بشكل جزئي, ولكن لسبب مغاير تماما لتبريره الخاطئ. وبنفس المعنى ايضا نشير ل كوينتين دو لا بيدوير , والكاهن الكاثوليكي هوج روس ويليامسون " الاحترام للمتدينين الملتزمين والملحدين الملتزمين ايضا, الاحتقار فقط للواهنين الضعفاء المعتدلين الذين يخفقون في الوسط " .

ليس هناك من خطأ في اللاادرية في حالة عدم توفر ادلة في صف احد الطرفين. بل انها الموقف الحكيم في وضع مماثل . كارل ساغان كان فخورا بموقفه اللاادري عند سؤاله عن تواجد حياة في مكان اخر من الكون. ورفض اعطاء رأيه. وعندما ضغط عليه المتحدث يسأله عن "شعوره الداخلي" كانت اجابته الخالدة:"ولكنني احاول الا افكر من شعوري الداخلي " .

والواقع انه من المناسب ان نؤجل الحكم حتى تتوفر الادلة. السؤال عن الحياة في الكون يحاجج به على الطرفين وهناك حجج جيدة في صالح الجهتين . ولكن الادلة غير متوفرة لتنير المنطقة المظللة لصالح احد الاحتمالين. اللاادرية في بعض الامور العلمية هي الموقف الصحيح كما في انقراض البيرميان,ذاك الانقراض الاكبر في تاريخ الحفريات الجيولوجية. من المحتمل انه كان بسبب نيزك مثل الذي سبب انقراض الديناصورات والذي لدينا عنه ادلة اكثر تجعلنا نميل للاعتقاد بأنه كان السبب. ولكن من المكن ان يكون لاي سبب اخر, او مجموعة من الاسباب. والاادرية موقف صحيح في حالة السؤال عن الانقراضين. ولكن ماذا عن سؤال الله؟ هل بالمستطاع ان نكون لاادريين هنا؟
الكثيرين قالوا نعم بدون شك وبلهجة توحي بأنهم على حافة الغضب وعلى غير استعداد للمناقشة في ذلك .

سأبدا بمناقشة نوعين من اللادرية. لادرية مؤقتة عمليا (ل م ع) وهي الجلوس على السياج بإنتظار ادلة وهي موقف صحيح من المسائل التي لها جواب محدد, بشكل او بأخر, ولكننا لم نحصل بعد على الادلة التي تثبت (او لم نفهمها بعد . او لم نقرأها بعد . الخ). ل م ع موقف معقول من مسائل كإنقراض البيرميان. هناك حقيقة ونأمل بمعرفتها يوما من الايام , ولكننا لانعرفها الان .

ولكن هناك النوع الاخر من الجلوس على السياج هو لادرية دائمة بالمبدأ (ل د م) . اسلوب ل م د في اللادرية مناسب لأسئلة ليس لها اجابات على الاطلاق, مهما حاولنا . السؤال موجود على بعد اخر, او في مستوى اخر, وخارج المنطقة التي تتجمع فيها الادلة. مثال ذلك المسألة الفلسفية المسماة بالكستنائة, السؤال فيما لو كنت ترى اللون الاحمر كما اراه. ربما ان ماتسميه احمرا هو ما اسميه انا اخضر او شئ اخر مختلف تماما عن اي شئ استطيع تخيله . الفلاسفة يستشهدون بهذا السؤال كأحد الاسئلة المستحيلة الاجابة, مهما كانت الادلة قوية ومتوفرة. وبعض العلماء والمثقفين يعتقدون– بشكل مبالغ فيه في رأيي– بأن سؤال وجود الله هو من فئة ل د م . وبناء على ذلك كما سوف نرى , يحصلون على النتيجة الغير منطقية بأن نظرية وجود الله وعدم وجوده ,لديهما نفس الاحتمال للصحة .

الفكرة التي سأدافع عنها هنا مختلفة تماما: اللادرية في حالة سؤال الله هي من نوع ل م ع . أما موجود او غير موجود. السؤال علمي بحت, ويوما ما سنعرف الاجابة , وحتى ذلك الوقت نستطيع الكلام و بشكل قوي عن الاحتمالات .

في تاريخ الافكار, لدينا الكثير من الاسئلة التي اعتقد بأن اجاباتها خارج مقدرة العلم . في 1835 كتب عالم الفلك الفرنس المشهور اوغوست كونت عن النجوم:"لن نستطيع ابدا وبأستعمال اي طريقة ان ندرس المواد الكيماوية التي تؤلف النجوم او تركيبها الذري" ولكن وحتى قبل الن ينشر كونت كلامه كان فراونهوفر قد بدأ بتحليل كيماويات الشمس بأستعمال المنظار الطيفي. والان فأن مستعملي المناظير الطيفية فندوا لادرية كونت بدراساتهم الدقيقة للنجوم البعيدة ومركباتها الكيماوية. ماحصل للادرية كونت الكونية هنا يفتح اعيننا على الاقل , على انه يجب علينا التروي قبل التصريح المبكر باللادرية. رغم ذلك لايتوانى العديد من الفلاسفة والعلماء عن التصريح عنها عندما يتعلق الموضوع بالله .وعلى رأسهم مخترع المصطلح بذاته ت. هاكسلي .شرح هاكسلي لموقفه من هذه الكلمة كان كرد على هجوم شخصي عليه. عندما صب مدير الكلية الملكية في لندن , الدكتور الموقر وايس ازدراءه عليه بسبب "لادريته الجبانة" :

ربما انه يفضل وصف نفسه باللادري , ولكن الكلمة الحقيقية اقدم من ذلك , كلمة كافر , ربما لانها تحمل معنى غير سار. ويصح ان تكون كذلك. انه لشئ غير مسر لاي شخص ان يقول على الملأ بأنه لايؤمن بالمسيح .

هاكسلي ليس ممن يترك هجوما كهذا يمضي بدون اي رد فعل, واجابته عام 1889 كانت شديدة القسوة كما هو المتوقع(على الرغم من انه لم يبتعد عن حسن السلوك : كما الحال في البولدوغ الذي وصفه داروين, المشحوذ الاسنان بالسخرية الحضارية للعصر الفيكتوري). وبالنتيجة وبعد ان نال قصاصه العادل من د. وايس كما اراده. عاد هاكسلي لشرح كلمة "لادرية" وكيف خطرت له .هنال اخرون, ممن استطاعوا انجاز بعض"الادرية" بنجاح, وحلو بها مشكلة الوجود. بينما انا متأكد بأنني لم استطع ذلك, بل مقتنع تماما بأنها مشكلة غير قابلة للحل. وبما ان الفلاسفة هيوم وكانط بصفي, لم يكن لدي الصلف لابداء اي رأي.. ولذلك فكرت , وابتكرت الكلمة المناسبه لهذا الموقف"اللادرية" .

وفي قسم اخر من خطابه, استطرد هاكسلي ليبين بأن اللادرية ليست مذهبا بأي معنى , حتى ولو كان سلبيا . "اللادرية بالواقع, ليست مذهبا, ولكنها طريقة, خلاصة للطريقة الصارمة المطبقة على اي مبدأ.. المبدأ يمكن التعبير عنه بالتأكيد بالشكل التالي الايجابي: عندما يتعلق الامر بالعلم فعليك ان تحلق الادلة مهما بعدت المسافات التي تأخذك اليها, وبدون الاهتمام بأي اعتبارات. وبشكل اخر سلبي: عندما يتعلق الامر بالعلم فلا تتظاهر بأن بأن النتائج صحيحة اذا لم تكن مجربة او بالامكان تجربتها للتأكد. هذا ما اعنيه بالادرية, وبناء عليها فمن الحق للانسان ان ينظر للكون وجها لوجه ويتساءل بغض النظر عما يخبئه المستقبل " .

هذه كلمات نبيلة لاي مشتغل بالعلم, ولايستطيع احد ان ينتقد هاكسلي ببساطة هكذا .ولكن على ما يبدو انه, بتركيزه على فكرة استحالة برهان وجود او عدم وجود الله, قد اهمل قوانين وظلال الاحتمالات. ان استحالة البرهان على وجود او عدم وجود شئ ما لايجعل وجوده وعدمه على نفس الدرجة من الاحتمال. ولااعتقد ان هاكسلي يعترض على ذلك, واشك بأن مايبدوكذلك من تصريحاته كان كاعتراف بنقطة معينة فقط للتأكيد على اخرى. كلنا فعلنا ذلك بوقت او بأخر .

وبعكس هاكسلي, سأقترح بأن وجود الله هو نظرية علمية كغيرها. بالرغم من انه من الصعب تجربتها عمليا, لكنها تدخل ضمن (ل م ع) او اللادرية المؤقته كما هي الحال في الخلافات حول انقراض البريميان والكريتاسيوس. وجود الله وعدم وجوده هو حقيقة علمية عن الكون, وقابلة للاكتشاف من حيث المبدأ على الاقل إن لم يكن عمليا. لوكان موجودا وكشف عن نفسه لوضع حكما نهائيا للجدال وبشكل لايقبل مجالا للشك في صالحه . ولكن وحتى لو كان من غير الممكن البرهان على وجود او عدم وجوده بشكل قاطع , فإن الادلة المتوفرة قد ترينا احتمالات بعيدة عن الـــ 50%.

لذلك دعنا نأخذ طيف الاحتمالات بشكل جدي, ونضع الحكم الانساني عن وجود الله معه ,سيكون لدينا نقطتان متناقضتان بالتأكيد. والطيف ممتد بدون فواصل , ولكننا نستطيع التركيز على سبع نقاط علام فيه .

1. مؤمن تماما 100% واثق من احتمال وجود الله. كما في كلمات س. ج. يونغ . "لاأؤمن.. بل اعرف"

2. احتمال عالى ولكن اقل من 100% مؤمن واقعي . "لااستطيع المعرفة بشكل لايقبل مجالا للشك, ولكن أؤمن بالله واعيش حياتي على هذا الافتراض"
3. اكثر من 50% ولكن ليس اكثر بكثير. عمليا لاأدريين ولكن يميلون للايمان " لست متأكدا بأي شكل ولكنني اميل للايمان بالله"
4. 50% على التمام. لاادريين على التمام. "وجود وعدم وجود الله له نفس الاحتمال" .

5. اقل من 50% بقليل. عمليا لاأدريين يميلون للالحاد. " لست متأكدا من وجود الله واميل للشك في وجوده"

6. احتمال ضعيف جدا. ولكن اكثر من الصفر. ملحد واقعي . " لست متأكدا من عدم وجود الله ولكن اعتقادي بان الاحتمال ضعيف جدا, واعيش حياتي بفرض انه غير موجود"

7. ملحد تماما. " اعلم بأنه ليس هناك اله" بنفس نسبة يونغ "المعرفية"

سيكون مفاجئا ان اصادف اناسا في المرتبة . 7 ووجودها في الترتيب هو فقط لتحقيق التناظر مع النقطة 1 والتي هي منتشرة تماما. ان طبيعة الايمان تتضمن ان يكون الانسان , كما في حالة يونغ, قابلا للايمان بأمور بدون اسباب كافية لذلك (يونغ يؤمن ايضا بأن بعض الكتب في مكتبته انفجرت فجأة واصدرت دويا عاليا). الملحدين ليس لديهم ايمان وبالتالي فالاسباب ليست بدوافع كافية لهم لاتهام اي شئ بعدم الوجود .ولهذا فالنقطة السابعة اكثر فراغا من قرينتها النقطة الاولى, والتي لها الكثير من الاتباع .

اعتبر نفسي في الخانة السادسة, واميل للسابعة. وبالتالي لاادريتي بالنسبة لله على نفس المستوى تماما عندما يتعلق الامر بالجنيات التي في قاع الحديقة .تتماشي الاحتمالات المذكورة مع ل م ع (لاادرية مؤقتة عمليا). وهناك اغراء سطحي لوضع ل د م (لا ادرية دائمة بالمبدأ) في وسط الاحتمالات, مع الاحتمالا 50% لوجود الله , ولكن ذلك لايصح. ل د م تجزم بعدم استطاعتنا قول اي شئ لدعم اي طرف. وعلى المدعين بأن سؤال وجود الله ليس له اجابة ان يرفضوا ان يوضعوا في اي مكان على سلم الاحتمالات. كوني لااعرف ان اللون الاحمر عندك هو اللون الاخضر عندي لايعطيني الحق في ان اعتبر ان احتمال ذلك هو 50%. فالاقتراح بالنسبه للعرض هنا ليس له اي معنى يمنحه حق وضع اي احتمال. على الرغم من ذلك , فهذا خطأ منتشر تماما, وسنرى امثاله لاحقا, الا وهو القفز من المسلمة القائلة بأن وجود الله سؤال بدون اجابة للنتيجة بأن احتمال وجود الله وعدم وجوده متساويان .

والطريقة الاخرى لشرح هذا الخطأ. هو طريقة عبء البرهان, وقد شرحها برتراند راسل بشكل لطيف في مثاله عن ابريق الشاي السماوي .الكثيرين من اللاورثودوكسيين يتكلمون وكأن على الشكاكين اي ينفوا العقيدة بدلا من ان يبرهنها العقائديون. وهذا خطأ بالطبع. لو انني اقترحت بأن هناك ابريق شاي صيني بين الارض والمريخ يلف حول الشمس بمدار اهليلجي, فلن يستطيع احد ان يبرهن انني مخطئ. سأخذ بعين الاعتبار طبعا بأن اوضح بحرص ان ابريق الشاي هذا هو من الصغر بحيث لانتمكن من رؤيته حتى بإستعمال اقوى التلسكوبات. ولكن لو قلت , بما ان زعمي لايمكن نقضه, فأنه لا اطيق ان يشك احد في صدقه. سيكون كلامي جزافا. ولكن لو كان وجود هذا الابريق موثقا في الكتب القديمة , ويدرس بقدسية كل يوم احد. ومغروس في رؤوس الاطفال في المدارس, فإن مجرد التردد في قبول وجوده سيعتبر من شخص ما سيضعه مع فئة غريبي الاطوار ويستحق اهتمام طبيب نفسي في العصر الحديث او

المحقق في ازمنة خلت .

لن نضيع الوقت بترهات كهذه, لانه على حد علمي, لااحد يعبد اباريق الشاي. ولكن لو ضغط على احدنا فلن نتردد في اعلان ايماننا الشديد بعدم وجود ابريق على مدار ما . ورغم ذلك علينا ان نكون لاادريين ابريقيين. لاننا لانستطيع برهان عدم وجود ابريق شاي سماوي. وعمليا فإننا تحولنا من (لاادريين ابريقيين) الى لاابريقيين .

احد الاصدقاء الذين تربوا على اليهودية ولايزال يمارس طقوسها بسبب الولاء للتراث ,يصف نفسه "لاادري بجنية السن(جنية يقال بأنها تأ تي لتأخذ السن الساقط من الطفل وتترك له نقودا تحت المخدة – المترجم)" . احتمال الله في رأيه كاحتمال "جنية السن" . لايمكن ان تنفي قطعيا وجود اي منهما وعدم احتمال وجودهما متساو. ولذلك فهو مؤمن بالله بنفس كمية ايمانه بخرافة الجنية. وهو لاادري بالنسبه للاثنين بنفس النسبة ايضا .

ابريق الشاي الخاص ب راسل ينطبق على عدد لامنتهي من الاشياء المعقولة وغير ممكنة البرهان. يقول المحامي الامريكي الشهير كليرانس دارو ,"لااومن بالله كما لااومن بالاوزه الام" الصحفي اندرو موللر يرى بأن الالتحاق بأي دين ليس اقل غرابة من ان تعتقد بأن الارض معينة الشكل ومحمولة عبر الكون على كماشات سرطاني بحر يسمون بازميرالدا وكيث. والاخر المفضل عند الفلاسفة هو وحيد القرن الخفي الصامت المعنوي, ومحاولة نفي وجودة من قبل اطفال معسكر كويست *. واله اخر بدأ ينتشر على الانترنت – وايضا غير قابل لنفي وجوده تماما كيهوه والاخرين– الا وهو وحش السباغيتي الطائر, والعديد بدأو يدعون بأنه لمسهم بأطرافه المعكرونية. ومما يسرني ان انجيل وحش السباغيتي الطائر قد نشر مؤخرا على شكل كتاب, واقدر لهم ذلك. لم اقرأه بنفسي بعد, ولكن من الذي يحتاج لقراءة كتاب مقدس عندما تكون متأكدا من صدقه؟ وعلى فكرة , مما لابد ان يحصل هو الانشقاق الكبير والذي نتج عنه الكنيسة الاصلاحية ا لمعدلة لوحش السباغيتي الطائر.(كما كان الحال في عهد انشقاق اللوثريين – المترجم)

الغرض من المبالغة بهذه الامثلة هو التأكيد على انه لايمكن نقضها, ورغم ذلك فلا احد يفكر بأن احتمال وجودها مساو لاحتمال عدم وجودها. الفكرة التي اراد راسل توضيحها هي ان البرهان هو مسؤولية المؤمن, وليس غير المؤمن. وفكرتي انا متعلقة بها الا وهي ان الاحتمالات لوجود ابريق الشاي (وحش السباغيتي, ازميرالدا وكيث, وحيد القرن الخفي... الخ) اقل بكثير من احتمالات عدم وجودها .
ان عدم امكانية نفي وجود ابريق الشاي المداري وجنية السن الساقط لن يسبب , للشخص العاقل, اي شعور بان الموضوع فيه مايستحق الاهتمام. ولااحد منا يحس بالحاجة لنفي الملايين من الاشياء التي يأتي بها خيال خصب او يحلم بها اي عقل. لقد وجدت استراتيجية مدهشة للاجابة على التساؤل عن الحادي, بأن انوه بأن السائل ملحد ايضا فيما يتعلق بزيوس , ابوللو, امون, رع, ميثراس, بعل , ثور, فوتان, العجل الذهبي ووحش السباغيتي الطائر. وكل ما فعلته انا هو اضافة اله اخر للمجموعة .

الكل يشعر بأن لديه الحق للتعبير عن الشك الشديد والتكذيب بشكل تام – بغض النظر عن اننا (في هذه الايام) لسنا بحاجة للقلق بخصوص وحيد القرن , وجنية السن, واله الاغريق والمصريين القدماء والرومان والفايكينغ. اما في حالة الاله الابراهيمي فعلينا ان نزعج انفسنا بشأنه, لان هناك العديدين ممن نتقاسمهم الحياة على هذا الكوكب ممن يؤمنون بوجوده بقوة. ومثال راسل عن ابريق الشاي الذي يعرض لنا بأن الايمان بوجود مطلق يشبه الايمان بالابريق السماوي , لايغيير عبء البرهان منطقيا , برغم ان الامر يبدو كذلك كسياسة. ان عدم القدرة على برهان عدم وجود الله مقبول وبديهي, ولكنه فقط كأي شئ اخر غير قابل للبرهان على عدم وجوده. والمهم هنا هو ليس اذا كان من الممكن نفي وجود الله (ذلك غير ممكن) ولكن احتمال وجوده . وهذا موضوع اخر. هنالك اشياء لايمكن البرهان على عدم وجودها ولكن نحكم على احتمالات وجودها بأقل من اشياء اخرى لايمكن اثبات او نفي وجودها ايضا. وليس هناك اي سبب لاعتبار الله منيع عن الاعتبار والوضع ضمن طيف الاحتمالات. وبالتأكيد ليس هناك اي سبب لاعتبار احتمال وجوده 50%فقط لاننا لانستطيع البرهان على وجوده من عدمه كما سنرى لاحقا .

هل يستطيع العلم ان ينفي وجود اللهّ؟

كما تكلف هاكسلي العناء ليؤيد اللاادريين النزيهين كلاميا, فالشئ نفسه يفعله الالوهيون في منتصف سلم الاحتمالات السبعة ولكن من الجهة المعاكسة, ولسبب مكافئ. عالم الدين اليستير ماكغراس ركز على ذلك في كتابه اله دوكنز : جينات, صبغات واصل الحياة . وبالتأكيد , وبعد ملخص عادل مثير للاعجاب عن اعمالي العلمية, يبدو وكأنه بقي لديه نقطة واحدة لينقضها: استحالة النكران الضعيف المخزي لحجة اننا لانستطيع تفنيد وجود الله. وصفحة بعد اخرى اجد نفسي اخربش على الهوامش "ابريق شاي" . ومرة اخرى يستعين بهاكسلي في الموضوع, حيث يقول ماكغراس"ضقت ذرعا بالمؤمنين والملحدين معا وهم يقيمون الحجج العقائدية القائمة على ادلة تجريبية ناقصة, هاكسلي اعترف بأنه لايمكن الاجابة عن السؤال المتعلق بالله بإستعمال الطرق العلمية ".

ويستطرد ماكغراس بالاقتباس من ستيفان جاي غولد في محاولة مشابهه: " أقولها لكل الزملاء وللمرة المليون (من جليسي الكليات وحتى مقدمي الاطروحات العلمية): العلم ببساطة لايستطيع (بإستعمال الطرق الشرعية) الحكم في مسألة فيما اذا كان الله قائما مشرفا على الطبيعة. ولا نؤكده ولاننفيه, بل ببساطة نقول بأنه ليس لدينا القدرة للتعليق على هذا الموضوع كعلماء " .

وبالرغم من كل هذه الثقة الرهيبة والنبرة الحادة فيما يزعم , فهل هناك اي سبب لتصديق ذاك؟ لماذا لايحق لنا التعليق على الله, كعلماء؟ ولماذا لايكون ابريق الشاي ووحش السباغيتي الطائر منيعين من الشكل بنفس الدرجة ؟ وكما سأناقش خلال لحظات, فإن كونا مع خالق مشرف عليه سيكون حتما نوعا مغايرا للكون بدون خالق .لماذا الحكم بأن هذا ليس سؤالا علميا؟

غولد يستمر في فن العناء من اجل فكرة في كتابه الاقل شعبية, صخور الازمنة. وفيه قدم فكرة الاختصاصات الغير متداخلة" واختصارها إ غ م .

الشبكة العلمية, او القضايا الخاصة بالعلم تغطي العالم التجريبي: مما يتكون الكون(واقع) وكيف يعمل بهذا الشكل (نظرية). القضايا الدينية تمتد لتعنى بما يتعلق بالمعنى المطلق والقيم الاخلاقية. وليس هناك من تداخل في تلك القضايا, ولايمكن يتأثرون ببعض(كمثال, قضية الفن وقضية معنى الجمال). ولنستشهد بالمقولة القديمة. العلم يدرس عمر الصخور ,والدين يدرس صخور الزمن, العلم يدرس السماء والدين يرينا كيفية الذهاب اليها (الجنة والسماء لهما نفس الكلمة بالانجليزية – المترجم .)

يبدو ذلك رائعا – حتى الوقت الذي تبدأ فيه بالتفكير في هذه المقولة لبرهة .

ماهي تلك الاسئلة الابدية التي يعتبر الدين فيها ضيف الشرف القابل للاجابة بينما على العلم ان ينسل بعيدا ويحتفظ بإحترامه لنفسه؟

مارتي ريس, الفلكي المميز من كامبريدج والذي ذكرته مسبقا, يبدأ كتابه بيئتنا الكونية بطرح سؤالين واعطاء "إ غ م" اجابة ودية. "السؤال البارز والغامض عن وجود اي شئ بشكل عام. وعما ينفخ الحياة في المعادلة الكونية ويجعلهما حقيقة؟ سؤال كهذا لايقع في نطاق العلم,بل هو في مجال الفلاسفة وعلماء الدين" .

ولكن انا افضل القول بأنه لوكان خارج نطاق العلم فهو بالتأكيد خارج نطاق الدين(واشك بأن الفلاسفة سيشكرون ريس على وضعهم صفا لصف مع رجال الدين). وشي ما يدفعني لان اعجب من السبب الحقيقي الذي يعطي الحق لرجال الدين بأن يكون لديهم نطاق . ولاازال اذكر ملاحظات عميد كلية اوكسفورد السابق . عندما طلب احد طلاب العلوم الدينية الشباب بمنحة لعمل ابحاث خاصة بالدكتوراه عن علم الدين المسيحي مما دفع العميد للقول"عندي شك عظيم عن امكانية اعتبار موضوعك موضوعا على الاطلاق" .

ماهي مجالات الخبرة التي يقدمها علماء الدين في الدراسات الكونية العميقة والتي لايستطيع العلماء الاجابة عنها؟ في كتاب اخر ذكرت كلمات لفلكي من اوكسفورد عندما سألته سؤالا عميقا في موضوع الفلك:" اه , لقد خرجنا الان من

نطاق العلم. وهنا علي ان اسلم السؤال لصديقي القسيس". لم تكن لدي سرعة البديهة اللازمة لأطلق الاجابة التي كتبت عنها لاحقا:" ولكن لماذا القسيس؟ وليس الجنائني او الطباخ؟ " لماذا يحترم العلم بشكل عظيم طموح رجالات الدين عندما يتعلق الموضوع بأسئلة ليسوا مهيأئين بالتأكيد للاجابة عنها اكثر من العلماء انفسهم؟

الكليشيه المضجرة(وعلى عكس كليشيهات اخرى, ليست حتى صحيحة) التي تقول بأن العلم يشغل نفسه بالسؤال كيف, بينما الدين هو المجال الوحيد المهيأ للاجابة عن السؤال لماذا. وماهو تعريف (السؤال لماذا) بحق السماء؟ لا يمكن اعتبار كل عبارة تبدأ بالكلمة "لماذا" سؤالا شرعيا. لماذا وحيد القرن غير مرئي؟ بعض الاسئلة ببساطة لاتستحق اجوبة. ماهو لون التجريدية؟ ماهي رائحة الامل؟ ان تكون الجملة صحيحة قواعديا لايجعلها ذات معنى, او يجبرنا لاخذها بجدية. ولا يعني ذلك ابدا , وحتى في حالة السؤال الصحيح ,الذي لايستطيع العلم الاجابة عليه, ان الدين قادر على ذلك .

ربما ان هناك اسئلة عميقة وصادقة وذات معنى وخارج نطاق العلم للابد. ربما ان نظرية الكم تدق على ابواب اللاادراك. ولكن ماالذي يجعل اي منا يفكر بأنه لو عجز العلم عن اعطاء اجابة لسؤال ابدي نهائي, فإن الدين سيجيب عليه؟ اشك بان فلكيا كامبريدج واوكسفورد يعتقدان بأن رجال الدين عندهم اي خبرة تؤهلهم للاجابة على اسئلة علمية عميقة. واعتقد انه كلاهما , مرة اخرى, يتكلفان العناء ليكونا مهذبين: رجال الدين ليس لديهم اي شيء ذو قيمة في اية مواضيع اخرى, لذلك دعنا نلهيهم ببعض الاسئلة التي لم وربما لن يستطيع احد الاجابة عليها. وعلى عكس اصدقائي الفلكيين , اعتقد بأنه ليس علينا الهائهم بأي شكل من الاشكال. في الحقيقة لم ارى حتى الان سببا جيدا لاعتبار علم الدين موضوعا على الاطلاق (لايتضمن ذلك تاريخ الانجيل, وادابه اللغوية.. الخ)

ولكن بالمقابل نتفق جميعا على الاقل بان اهلية العلم لنصحنا فيما يتعلق بالقيم الاخلاقية فيه مشكلة ايضا. ولكن هل يريد غولد حقا ان يعطي الحق للدين للفصل بين الجيد والسئ؟ ان عدم استطاعة الدين تقديم اي شئ اخر للانسانية لايعطيه رخصة مجانية ليملي علينا ما نفعل, وعلى كل حال , اي دين يجب ان يوخذ بالاعتبار؟ الدين الذي تصادف ان تربيت عليه؟ واي قسم من الانجيل علينا اتباعه, لانهم لايجتمعون على كل شئ والبعض من ارائهم مقرف بالمقاييس المعاصرة. كم عدد اللغويين الذين قرأوا مايكفي من الانجيل ليعرفوا بأن الموت هو عقوبة ممارسة الجنس , عقوبة جمع الحطب يوم السبت, وعقوبة عقوق الاهل؟ لو استثنينا سفر التثنية وسفر اللاويين (كما يفعل المطلعين الحديثين), فعلى اي اساس نقرر القيم الدينية التي نتقبلها, ام لعل علينا الاختيار القيم التي تناسبنا من بين ديانات العالم ؟ وعندها علينا ان نسأل ثانية, ماهي المعايير التي نستعملها؟ ولو كان لدينا معيار مستقل للاختيار بين اخلاقيات الديانات ,لماذا لا نستبعد ذلك الوسيط ونختار قيمنا بمعزل عن الدين؟ وسأعود لهذا السؤال في الفصل السابع .

ببساطة لااستطيع تصديق ان غولد قد عنى الكثير مما كتبه في صخور الازمنة . وكما قلت سابقا. كلنا مذنبين إذ تكلفنا العناء لنكون لطيفين لخصم عديم القيمة ولكن ذو نفوذ ,وانا اعتقد ان هذا ما فعله غولد. من المعقول انه عنى صراحة وبقوة بأن العلم ليس لدي اي شئ يقوله بما يتعلق بوجود الله: " لانستطيع تأكيده او نفيه, بل ببساطة ليس لنا اي تعليق على ذلك كعلماء" . ذلك يبدو نوعا من اللاادرية الدائمة وغير القابلة للنقض تماما . هذا يعني ان العلم ليس قادرا حتى ان يضع حكما احتماليا عن هذا السؤال. وهذه مغالطة منشرة بشكل كبير.- الكثيرين يرددونها ككلمة سحرية والقليلين في اعتقادي فكروا بأبعادها – وهؤلاء يجسدون ما رمزت له "بفقر اللاادرية" .

وعلى فكرة , لم يكن غولد لاادريا بل كان يميل بقوة لفئة ملحد واقعيا. على اي اساس اتخذ هذا القرار اذا لم يكن هناك اي شي ممكن القول عن وجود الله؟ نظرية الاله تتضمن ان الحقيقة التي نعيش فيها لها عميل خارق هو الذي صمم الكون ,والعديد من فروع هذه النظرية تدعي ان المصمم يقوم بالصيانة على الدوام واحيانا يتدخل بمعجزات, والمعجزات هي خرق للقوانين التي لاتقبل التغيير. ريتشارد سوينبورن ,احد قادة علماء الدين الانكليز, يفاجئنا بصراحته في هذا الشأن في كتابه هل هناك اله؟ :مايزعمه المؤمن عن الله بان لديه القدرة على الخلق,الحفظ للابد لأي شيء كبير او صغير. وانه يستطيع جعل الاشياء تتحرك او تفعل اي شيء اخر.. يستطيع تحريك الكواكب كما اكتشفها كبلر, او جعل البارود ينفجر عندما يقترب عود ثقاب منه, ويستطيع جعل الكواكب تتحرك بأي طريقة اخرى , وجعل المواد ,المتفجرة عادة , لاتتفجر تحت نفس الظروف. الله ليس محدودا بقوانين الطبيعة , هو وضعهم ويستطيع ان يغيرهم متى شاء .

سهل جدا, اليس كذلك! بامكان ذلك ان يكون اي شي ما عدا إ غ م وبعيد كل البعد عنها .وماذا يريدون القول ايضا, على هؤلاء العلماء المنشغلون بمدارس فكرية تتعلق ب"اختصاصات اخرى" ان يعترفوا بأن كونا مع خالق خارق سيكون مختلفا عن كون بدون خالق. والفرق بين النظريتين لايمكن ان يكون اكثر مبدئية وعمقا, بالرغم من انه ليس من السهل

اجراء تجارب عمليا. ذلك يقوض تماما القول المأثور والمغري بأن على العلم السكوت تماما عندما يتعلق الامر بإدعاءات الدين .

وجود وغياب الخالق الخارق هو سؤال علمي بشكل صريح, على الرغم من ليس من الممكن عمليا – حتى الان – الاجابة عنه. وكذلك الامر بالنسبة لصحة او كذب كل واحدة من الاعاجيب التي يعتمد عليها الدين ليخلق انطباعا في نفوس العديد من المؤمنين .

هل كان للمسيح اب انساني, وهل كانت امه عذراء يوم ولدته؟ سواء كان او لم يكن لدينا دليل نقرر به, فلا يزال هناك سؤال علمي صارم واجابة مؤكده عليه بالمبدأ: نعم او لا . هل اقام المسيح اليعازر من الموت؟ وهل قام هو نفسه ثانية, ثلاثة ايام بعد صلبه ؟ هناك اجابة لكل سؤال من هذا النوع , سواء كان او لم يكن لدينا دليل عملي, وهو جواب علمي محض.كما ان الطرق الواجب استعمالها لحل المسألة, في حالالعثور على ادلة مساعدة عملية (الشبه مستحيل), يجب ان تكون طرقا علمية صرفة. ولجعل المسألة اكثر درامية , لنتخيل بأننا ولسبب ما عثرنا على دليل يقول بأن الحمض النووي للمسيح لايوجد فيه اثر لأب بشري. فهل تتصور معي ان رجال الدين سيهزون اكتافهم والتصريح بمقولات كالتالي؟ " وماذا يهم ذلك؟ الادلة العلمية ليس فيها ما يخص علوم الدين. هذا اختصاص اخر! مايهمنا هو السؤال الابدي عن المسائل الاخلاقية. لاحمض نووي او اي اكتشاف علمي اخر سيكون له اي تأثير على اختصاصنا بأي شكل من الاشكال" .

الفكرة بحد ذاتها مضحكة. وتستطيع الرهان على اي شئ بأنه لو ظهرت اي ادلة علمية ,لتم التشبث بها ووصلت الضجة للسماوات. ان شيوع(إ غ م) يعود لعدم وجود ادلة في صالح نظرية وجود الله. وفي اللحظة التي يظهر فيها اي اقتراح لدليل في صالح الايمان الديني فلن يتوانى رجال الدين عن رمي مقولة (إ غ م) من النافذة. لوتركنا رجال الدين المتطورين(برغم محبتهم لسرد الاعاجيب على البسطاء بغرض جمع الاتباع) على حدة فإن تلك الاعاجيب المزعومة هي السبب الرئيسي الذي يجعل من يصدقها مؤمنا ,والاعاجيب بالتعريف هي شئ يناقض المبادئ العلمية .

كنيسة الروم الكاثوليك تبدو في بعض الاحيان وكأنها تتطلع الى (إ غ م), ومن جهة اخرى تناشد بتصديق المعجزات كمعتقد اساسي في مجال القدسية. ملك بلجيكا الراحل كان مرشحا ليكون قديسا,لانه عارض مسألة الاجهاض. وتحقيقات جدية تجري الان للكشف عن اي معجزة شفائية يمكن نسبها للدعاء والصلوات التي ترفع اليه منذ موته. لاامزح هنا, فهذا واقع, وذلك مثال على قصص القديسين. وانا اتخيل بأن ذلك مما يسبب الاحراج للحلقة الاكثر تطورا من اعضاء الكنيسة. لماذا تبقى اي حلقة كنسية (متطورة) تابعة للكنيسة هو بذاته من الاسرار العميقة التي يسر بها علماء الدين .
عندما يواجه غولد بقصص المعجزات,يفترض بان رده سيكون كما يلي. كل ما يفترض ان يكون في (إ غ م) هو انه صفقة مزدوجة. وفي اللحظة التي يطأ فيها الدين على مرج العلم ويبدأ بالتدخل في العالم الحقيقي بمعجزاته, فإنه سيتوقف عن ان يكون دينا بالمعنى الذي يدافع عنه غولد, وتسقط اتفاقية الصداقة الموقعة بين الدين والعلم . لنلاحظ, على اي حال, بأن الدين الخالي من المعجزات الذي يدافع عنه غولد ليس مقبولا من معظم المؤمنين على المقاعد الكنسية الطويلة او على سجادات الصلاة. لان ذلك سيسبب لهم خيبة امل عظيمة. واتبنى هنا التعليق الذي اتت به اليس على خطاب اختها قبل ان تسقط في ارض العجائب, ما فائدة اله لايصنع العجائب ولايستجيب للصلوات؟ لنتذكر التعريف الذكي للفعل "صلى" والذي قدمه امبروس بيرس :" هو المطالبة بإبطال القوانين الكونية لاجل ملتمس واحد غير مستحق لذلك بإعترافه هو شخصيا" . هناك رياضيون يؤمنون بأن الله ساعدهم على الفوز على الخصم, الخصم الذي لايبدو بالمقابل إقل استحقاقا للتفضيل من قبل الله. هناك سائقين يؤمنون بأن الله قد حجز لهم اماكن ركن لسياراتهم – وبالمقابل حرم احدا اخر منها. ان اسلوب الايمان منتشر بشكل يدعوا للاحراج, ولا يبدو من الممكن ان يتأثر بشئ عقلاني (ظاهريا) كمبدا (إ غ م)

برغم ذلك, لنتبع غولد ونلغي الكثير من الاشياء ونضع الحد الادنى للدين: لامعجزات, ولا اتصالات بيننا وبين الله بالاتجاهين, ولاالعب بالقوانين الفيزيائية, ولا ندعس على مرج العلم. اكثر ما هنالك الايمان بظروف مبدئية بأنه في وقت ما تطورت النجوم والكواكب والعناصر الكيميائية, وظهرت الحياة. هل هذا الفصل كاف؟ هل بإمكان مبدأ (إ غ م) البقاء بجانب دين متواضع معتدل كهذا؟

ربما تظن بأن الامر كذلك. ولكن ساقول بأن حتى الاله الغير متدخل كهذا , اله مع (إ غ م) .. برغم من انه اقل دموية وخراقة من الاله الابراهيمي , فإنه ايضا لايعدو عن كونه افتراض علمي .

سأعود للنقطة الاساسية: الكون الذي يفترض اننا نعيش فيه بمفردنا او مع مخلوقات ذكية اخرى تتطور ببطئ هو كون مختلف تماما عن كون صممه ويوجهه وكيل من نوع ما .وسأقبل بأن التفريق بين هذين الكونين لن يكون مسألة بسيطة . على الرغم من ذلك .فهناك شي اساسي خاص تماما لنظرية الكون المصمم , ويوجد ما يقابله في الخصوصية في النظرية المغايرة والمعروفة: التطور التدريجي بمعنى عام, نظريتين متناقضتين بأقصى ما يمكن تخيله. نظرية التطور تعطي تفسيرا لوجود كيانات احتمال وجودها صغير جدا لدرجة يمكن اهمالها تماما في اي نظرية اخرى .

ونتيجة المحاججة تلك ستكون, كما سأبين في الفصل الرابع, ضربة قاضية لنظرية الاله .

تجربة الصلاة (الدعاء) الكبرى

احدى التجارب المسلية ,ان لم نقل مثيرة للشفقة, عن المعجزات, كانت تجربة الصلاة الكبرى: هل تساعد الصلاة للمرضى على شفائهم؟ الصلوات والدعاء شائعة للمرضى, بنوعيها الشخصية والعامة في اماكن العبادة. ابن عم داروين فرانسيس غالتون كان اول من حلل الموضوع بشكل علمي. لاحظ بأن كل الناس المجتمعين الكنائس في انكلترا يدعون بالصحة للعائلة المالكه كل يوم احد. اليس من المنطقي ان تكون العائلة المالكة بصحة جيدة بشكل ملحوظ بالمقارنة معنا , نحن الذين لايصلي لنا الا اقرب اقاربنا ؟ غالتون نظر للموضوع ولم يجد ان فروق احصائية تدعم النظرية. ربما انه كان هجائيا بما فعل, كما صلى على احد المرات على قطع صغيرة متفرقة من الارض ليرى ان كانت مغروساتها ستكبر اكثر من القطع الاخرى (لم ينجح في ذلك بالطبع .)

وفي وقت قريب, قام الفيزيائي راسل ستانارد (احد اهم ثلاث علماء متدينين في انكلترا ,كما سنرى)بإستخدام مركزه العلمي لدعم مبادرة ممولة من – بالطبع – من مؤسسة تمبلتون, للتأكد بالتجربة من الدعوى القائلة بأن الدعاء للمرضى يؤدي لتحسين صحتهم .

لتكون تجربة كهذه دقيقة يجب ان تتم بمبدأ (العمى المزدوج) . وقد تحقق ذلك بصرامة .اختير المرضى بطريقة عشوائية تماما لثلاثة فئات, الفئة الاولى فئة التجربة (يتلقون دعوات) , الثانية فئة المقارنة (لايتلقون دعوات) , لا المرضى ولا اطبائهم او ممرضيهم وحتى القائمين على التجربة مسموح لهم بمعرفة من المرضى المدعو لهم ومن هم المرضى للمقارنة. وعلى الداعين معرفة اسماء الذين يدعون لهم – وإلا فكيف يمكنهم التأكد من انهم لا يدعون لاناس اخرين بالخطأ؟ ولذلك اعطاهم القائمون على التجربة الاسم الاول للمريض واول حرف من اسم العائلة . ويجب ان يكون ذلك كافيا ليضع الله يده على السرير الصحيح في المستشفى .

ان فكرة اقامة تجربة كهذه بحد ذاتها من السخافة بمكان, وقد استسخف القائمون عليها من قبل البعض. ولم اسمع بأن بوب بيوهارت عمل اسكتشافاً مضحكا بعد ولكنني استطيع تخيل صوته المميز :

"ماذا تقصد يارب؟ للاتستطيع شفائي لانني عضو في فئة المقارنة؟ .. حسنا. يبدو ان دعوات عمتي ليست كافية. ولكن يارب, السيد ايفانز في الغرفة المجاورة ..ماذا تقول ... تلقى دعوات من الف شخص في اليوم؟ ولكن السيد ايفانز لايعرف الف شخص.. اه . .نادوه ب جون إ . ولكن يارب, كيف علمت انهم لايقصدون جون ايلسورثي؟ اها , استعملت معرفتك الامحدودة لتعرف اي جون يقصدون . ولكن يارب ". ...

ولكن وبكل جرأه وبدون اي التفات لاي سخرية صرف فريق البحث 2.4 مليون جنيه استرليني من اموال مؤسسة تمبلتون تحت رئاسة الدكتور هربرت بينسون, طبيب قلبية من مركز مايندابودي الطبي بالقرب من مدينة بوسطون. وقد كتب عنه في احد النشرات الصحفية انه "ممن يؤمنون بان البراهين على فعالية الدعاء التواسطي في الاماكن الطبية تزداد" .

اؤكد ثانية ان التجربة كانت في اياد امينة ولم تمسها اي شكوك. والدكتور بينسون وفريقه راقبو 1802 مريضا في ست مستشفيات مختلفة, وجميعهم خضعوا لنفس العملية الجراحية للشريان التاجي. والمرضى قسموا لثلاثة مجموعات. المجموعة الاولى تلقت الدعاء ولم يعرف اعضائها بذلك. المجموعة الثانية (المقارنة) لم تتلقى دعوات ولم يعرف

اعضائها بذلك. والمجموعة الثالثة تلقت دعوات وعرفوا بذلك. المقارنة كانت بين المجموعة الاولى والثانية لمعرفة فعالية الدعاء. اما المجموعة الثالثة فكانت لمعرفة التأثير النفسي الناتج عن معرفة المريض بأن احدا ما يدعو له .

الدعاء تم في تجمعات في ثلاث كنائس , واحدة في منينسوتا, وواحدة في ماساشوستس, والثالثة في ميسوري, كلها بعيدة عن المستشفيات الثلاثة. واعطي الداعون كما ذكرنا الاسم الاول واول حرف من اسم العائلة. من الجيد ان تكون للتجربة قياسيات محكمة اكثر ما يمكن. وكل الداعين عليهم ان يقولوا الجملة التالية " لاجل جراحة ناجحة وشفاء شريع وصحي وبدون مضاعفات"

النتيجة كما نشرت في المجلة الامريكية للقلب في نيسان 2006 كانت قاطعة. لم يكن هناك فرق بين من تلقوا الدعوات وبين من لم يتلقوها. باللمفاجأة. والفرق كان بين الذين عرفوا بانهم يتلقون الدعاء ومن لم يعرفوا (على الطرفين). ولكن بالاتجاه المعاكس. الذين عرفوا بأن الناس تدعوا لهم حصلت لهم مضاعفات اكثر بكثير من الذين لم يعرفوا . هل ضرب الله النتائج ليرينا عدم موافقته على مؤسسة المعتوهين تلك؟ الاكثر احتمالا هو ان هؤلاء الذين عرفوا بأنهم يتلقون لدعوات قد عانوا من اجهاد كنتيجة :" القلق على القابلية الجسدية" كما وصفها المجربون .

الدكتور تشارلز بيثيا, احد البحاثة قال" ربما ان معرفتهم جعلتهم يتساءلون , هل انا مريض لهذه الدرجة حتى استدعى الامر الدعاء لي؟" وفي هذا المجتمع المغرم بدعاوي القضاء في ايامنا. هل نبالغ لو املنا بأن يجتمع عدد من المرضى ويرفعوا دعوى ضد مؤسسة تمبلتون لان ابلاغهم بانهم تلقوا صلوات قد سبب حدوث مضاعفات صحية لهم .

ليس من المفاجئ ان هذه الدراسات تلقت معارضة علماء الدين, ربما لان تلك النتائج تستطيع ان تسبب بعض التسخيف للدين. عالم الدين ريتشار سوينبورن من اوكسفورد كتب ,بعد فشل الدراسات, معترضا, على اساس ان الله يستجيب للدعوات فقط في حالة كونها لسبب جيد. الدعاء لشخص بدلا عن اخر, لسبب ان النرد وقع عليه في دراسة (عمياء مزدوجة), لا يشكل سببا جيدا. والله سيرى من خلاله. وهذه بالتأكيد النقطة التي تخيلت منها المشهد الهزلي ل بوب بيوهارت. وسوينبورن لديه الحق في ما يقول ايضا .ولكن في مقطع اخر من المقاله يصبح سوينبورن اكثر من هزلي. وليس للمرة الاولى , يحاول ان يظهر المعاناة كعدل في كون يديره الله :

> "معاناتي تعطيني الفرصة لاظهر شجاعة وصبرا. وتعطيك الفرصة لتظهر تعاطفا وتقدم مساعدة لتخفيف معاناتي. وتعطي المجتمع فرصة للاختيار ولاخذ القرار فيما اذا كانو يريدون استثمار الكثير من المال لايجاد ما يشفى هذا النوع او ذاك من المعاناة.... وعلى الرغم من ان الله القدير يحزن على معاناتنا ولكن همه الاول هو اي يظهر كل منا صبرا ,
> تعاطفا وكرما وبذلك, تتجسد شخصيته المقدسة. بعض الناس بحاجة ماسة ليمرضوا بشدة وذلك لتأمين الفرصة للاخرين ليتخذوا قرارا مهما. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تشجع الناس ليتخذوا قرارات جدية عن الشخص الذي يريدون ان يؤولوا اليه. وللبعض الاخر , فالمرض شئ لاقيمة له ".

تلك القطعة المشوهه من الفكر , بإدانتها الكاملة للفعلية المتدينة, تذكرني بأحدى حلقات التلفزيون التي كنت فيها مع سوينبورن, وكان هناك ايضا بروفيسورنا الاكسفوردي بيتر اتكينز. سوينبورن حاول في لحظة ما ان يبرر الهولوكوست على اساس انها اعطت فرصة رائعة ليظهروا شجاعة ونبل. بيتر اتكينز هدر فيه وقتها*," لتتعفن في الجحيم" .
(حذفت في المونتاج)

وفي مقطع اخر نرى مرة اخرى قطعة من الفكر الديني من مقال سوينبورن. حيث يقترح بانه لو اراد الله ان يرينا وجوده لوجد طريقا افضل من التحيز في احصائيات تجربة شفائية لمرضى القلب. لو انه اراد حقا ان يقنعنا بوجوده "لملأ الدنيا بالمعجزات الخارقة". ولكن عندها يسقط في يده ويقول:"هناك العديد من الادلة عن وجود الله على كل حال, وربما وجود ادلة اكثر من اللازم ليس جيدا من اجلنا" ! إقرا هذا ثانية وجود ادلة اكثر من اللازم ليس جيدا من اجلنا . ريتشارد سوينبورن متقاعد حديثا وحاصل على ارفع مستوى للاستاذية لعلم الدين في انكلترا, وعضو في الاكاديمية البريطانية .

لو كان عالم دين هو ما تطلب فلن تحصل على ارقى من ذلك. ولكن ربما ان هذا ليس طلبك . سوينبورن لم يكن رجل الدين الوحيد الذي شكك في الدراسة بعد فشلها. وقد اعطي للموقر ريموند ج. لورنس مساحة جيدة من نيويورك تايمز لشرح لماذا على رجال الدين الملتزمين ان يتنفسوا الصعداء بإرتياح لانه لم يتم ايجاد قرائن على ان التوسط

بالدعاء له اي تأثير. هل كان سيعزف نغما اخر لو ان دراسة بنسون نجحت في استعراض قوى الدعاء؟ ربما لا, ولكن تأكد بان اخرين كثر من رجالات الدين سيفعلون. ان مقالة لورنس تبرز بصورة رئيسة بالايحاء التالي:" منذ فترة قريبة, اخبرني احد الزملاء بأن امرأة مؤمنة ومثقفة اتهمت الطبيب الذي يعالج زوجها باخطاء مهنية في المعالجة. وذلك في ايام احتضار زوجها الاخيرة, وملخصها انه فشل في الدعاء له" .

الاخرين من اتباع (إ غ م) اكدو بأن دراسة تأثير الدعاء بهذا الشكل هو تبذير للمال لان التأثير الخارق بالتعريف في نطاق لايصله العلم. ولكن تمويل منظمة تمبلتون للتجربة يجعلها معترفة صراحة بأن تأثير وساطة الدعاء المزعوم ,على الاقل بالمبدأ , هو في نطاق العلم. تجربة (عمياء مزدوجة) بالامكان تحقيقها وقد اجريت فعلا. وكان من الممكن ان تكون نتائجها ايجابية. ولو حصل ذلك, هل بإمكانك تخيل رجل دين واحد يتجاهل نتائجها على اساس ان العلم ليس له اي تأثير على الامور الدينية؟ بالتأكيد لا .

لانحتاج للقول هنا, بأن النتائج السلبية لن تؤثر على المؤمنين. يقول بوب بارث, المدير الروحي لجمعية الصلوات في ميسوري والتي قدمت قسما من الدعاء للتجربة:" ربما يقول الانسان المؤمن بأن دراسة كهذه مهمة, ولكننا صلينا لمدة طويلة ورأينا تأثير الدعاء, ونعرف انه فعال , والدراسات عن الدعاء والصلوات لاتزال في بداية الطريق . ".
بالتأكيد: نعرف من ايماننا بان الصلوات لها تأثير, واذا فشلت الاثباتات فسوف نثبت على مواقفنا حتى نحصل على النتائج التي نريدها .

مدرسة نافيل تشامبرلاين للتطوريين

من الممكن ان اقصى ما يدفع هؤلاء العلماء الذين يصرون على (إ غ م) – عدم ضعف العلم فيما يتعلق بفرضية الله – هو جدول الاعمال السياسي الامريكي, المهدد بأتباع نظرية الخالق الشائعة. في بعض مناطق الولايات المتحدة, يقع العلم تحت هجوم من قبل فئة ومنظمة جيدا ولديها علاقات واتصالات بجهات سياسية, واهم من ذلك مدعومة ماديا. ومعارضة لنظرية التطور في الخندق الاول. العلماء لديهم كل الحق بأن يشعروا بالتهديد لان الابحاث تمول بشكل رئيسي من الحكومة, و على المنتخبين ان يتجاوبوا مع الفئة الجاهلة والضارة كما مع الفئة المتنورة من الذين ينتخبونهم .

وكرد على هذا التهديد, نشأ لوبي مدافع عن نظرية التطور, ويمثله بشكل خاص المركز الوطني للتربية العلمية, برئاسة اوجيني سكوت, شخصية لاتهدأ عندما يتعلق الامر بالدفاع عن العلم وقد اصدرت كتابا بعنوان نظرية التطور مقابل نظرية الخلق .

احد اهم اهداف المركز السياسية هو حشد اراء "الحساسين" دينيا: عامة الشخصيات الكنسية الذين لايمانعون نظرية التطور وربما يعتبرونها غير متعلقة (او حتى داعمة) لايمانهم. هؤلاء الكهنوتيين, الغير متعصبين المحرجين من قبل داعمي نظرية الخلق التي تعطي دينهم سوء السمعة, هم من يسعى اللوبي التطوري لان يسمعوه. واحد الطرق هي ان يتكلفوا العناء بأن يقرنوا (إ غ م) ويقبلوا بأن العلم ليس تهديدا بأي شكل من الاشكال, لانه منفصل تماما عن الادعائات الدينية .

نجم اخر لامع من نافيل تشامبرلاين للتطوريين الفيلسوف مايكل روس. والذي حارب بفعالية مذهب الخلق على الورق وفي المحاكم. يزعم بأنه ملحد ولكن مقالته في البلاي بوي تتخذ وجهة النظر التالية "نحن , المحبين للعلم, علينا ان ندرك بان عدو عدونا صديق. التطوريون يصرفون الكثير من الوقت بإهانة من يمكن ان يكونوا حلفائنا. وهذا اوضح في حالة التطوريين العلمانيين . الملحدين يصرفون وقتا اكبر بإهانة المسيحيين المتعاطفين بدلا من مواجهة حلفاء نظرية الخلق. عندما كتب جان بول الثاني رسالة يصادق فيها النظرية الداروينية, كان جواب ريتشار دوكينز ببساطة بأن البابا منافق , ولايمكن ان يكون متماشيا اصلا مع العلم وان داوكنز يفضل متطرفا امينا عليه ".

ومن وجهة نظر تكتيكية,استطيع رؤية العلاقة السطحية للمقارنة التي اتى بها روس عن هتلر: "وينستون تشرشل وفرانكلين روزفلت لم يكونا يحبان ستالين او الشيوعية .ولكنهما ادركا انه من الافضل العمل مع السوفييت ضد هتلر. والتطورين , ولنفس السبب, عليهم ان يعملوا جميعا ضد الخلقيين" . ولكنني في النهاية اخذت برأي زميلي عالم الجينات جيري كوين من شيكاغو عندما كتب بأن روس فشل في استيعاب طبيعة الخلاف الحقيقية. انها ليست تطوريين ضد خلوقيين. وبالنسبة لعلماء مثل دوكينز وويلسون (عالم البيولوجيا الشهير من هارفارد) فأن الحرب الحقيقية هي بين العقلانية والغيبية. العلم يأتي من العقلانية, بينما الدين هو اكثر اشكال الغيبيات شيوعا. والخلوقية ليست الا احد اعراض مايرون فيه العدو الاكبر: الدين. وبرغم ان الدين يمكن ان يوجد بدون نظرية الخلق , فالنظرية لايمكن ان توجد بدون الدين .

اشترك بشئ واحد مع الخلوقيين, انهم مثلي , على عكس "تشامبرلاين", لا يعترفون بـــ (إ غ م) وفصل الاختصاصات . ولكن بدون اي احترام للحدود , يحلو للخلوقيين دق المسامير القمعية الوسخة في مرج العلم. ويقاتلون بوساخة, ايضا .

محامو الخلوقيين في القضايا المقامة في الاماكن النائية في امريكا, يبحثون عن تطوريين ملحدين علنا. واعلم – للاسف – بأن اسمي استخدم بهذه الطريقة. ذلك تكيتيك محكم لان هيئات المحلفين المنتقاة بشكل عشوائي ستتضمني على الارجح بعض الاعضاء الذين تربوا على فكرة ان الملحدين شياطين متخفين, على نفس مرتبة الشاذ جنسيا او " الارهابي" (ما يوازي ساحرات سالم و شيوعيين ماكارثي في التاريخ الامريكي). ولو وضعني محام لخلوقيين على منصة الشهادة سيكسب هيئة المحلفين فورا بمجرد سؤالي ": هل كانت معلوماتك عن التطور احد الاسباب التي دفعتك للالحاد:؟" اجابتي ستكون نعم بالتأكيد, وهكذا ومرة واحد اكون قد خسرت هيئة المحلفين .

وبالعكس فالاجابة الصحيحة قضائيا ستأتي من الطرف العلماني:" ان اعتقاداتي الدينية ,او عدمها, هي عبارة عن شئ شخصي , وليس بأيه حال مما يهم المحكمة وليس له اي علاقة بالعلم الذي امارسه." انا شخصيا لااستطيع قول ذلك بصدق, والاسباب ستأتي في الفصل الرابع .

كتبت صحفية الغارديان مادلين بونتينغ كتبي مقالا بعنوان "لماذا يشكر لوبي الخلقيين الله على ريتشارد دوكينز". لاشارة في المقال على انها استشارت احدا بإستثناء ميشيل روس, ومن الممكن ان يكون هو كاتب المقالب بالوكالة. * دان دينيت اجاب بإقتباس ملائم من العم ريموس : "اجد من المذهل ان انكليزيان – مادلين بونتينغ ومايكل روس – قد وقعا ضحية للنسخة ذاتها لاشهر فكرة نصب امريكية (لماذا يشكر لوبي الخلقيين الله على ريتشارد دوكينز 27 ,اذار). عندما يقع الارنب فريسة للثعلب فأنه يتذرع بما يلي:"ارجوك.. ارجوك, افعل ماتشاء بي ايها الثعلب ولكن لاترميني في منطقة الورد الجبلي تلك!" وعندما يفعل الثعلب ذلك يصبح الارنب في امان. عندما يكتب الداعية الامريكي وليام ديمسكي لريتشارد دوكينز سائلا ان يكمل العمل الجيد بما يتعلق بالتصميم الذكي , فإن روس وبونتينغ يقعان فريسة لذلك" اه .. ايها الثعلب.. ان زعمك بأن دراسة التطور سوف تنفي وجود الخالق سيؤدي سيعرض تدريس البولوجيا في المدارس للخظر, لان تدريسها هكذا هو انتهاك لفصل الدين عن الدولة!" . صح وعليك ايضا ان تغير النظرة العالمة للفيزيولوجيا لانها اعلنت ان ولادة العذراء شئ مستحيل " . .

كل ذلك, متضمنا رجاء الارنب في منطقة الورد الجبلي, ناقشه بالتفصيل البيولوجي ب .ز. مايرز وبالمستطاع الاعتماد بشكل موثق على حدة بصيرته في مفكرته على الانترنت .لااقول هنا بأن جميع زملائي في لوبي الاسترضاء هم من المنافقين. ربما انهم يؤمنون بـــ(إ غ م) , ولااستطيع التوقف عن التساؤل هنا كم من الوقت صرفوا بالتفكير وكيف يتصرفون حيال النزاع الداخلي في عقولهم. لاداعي للتعمق في هذا الشأن الان, ولكن علينا تذكر السياسي دائما عند محاولة فهم البيانات العلمية في امور الدين: حرب الثقافة السريالية الان تمزق امريكا. استرضاءات اخرى من نوع (إ غ م) ستظهر مرة اخرى لاحقا في هذا الفصل. والان سأعود للادرية وامكانية تقليل جهلنا وكذلك تقليل عدم تأكدنا من وجود او عدم وجود الله .

رجال صغار بلون اخضر

لنفرض ان مثال راسل كان عن الحياة في الفضاء وليس عن ابريق الشاي – المثال الشهير لساغان عن رفضه التفكير بإحساسه الداخلي. ومرة اخرى هنا, لانستطيع ان ننفي ذلك, والموقف العقلاني الوحيد هنا هو اللاادرية. ولكن الفرضية ليست طيشا بعد الان. فلم نعد نشعر ببعد الاحتمال الكبير. بل انه بالامكان ان نناقش الادلة الناقصة بشكل مثير, وبالامكان كتابة لائحة من الادلة المطلوبة لانقاص عدم التأكيد .

لاشك بأننا سنثور لو علمنا ان الحكومة استثمرت الكثير من المال في تلسكوب للبحث عن ابريق شاي فقط . ولكننا سنقدر حالة صرف المال في محاولة اخبارنا عن حياة خارج الارض, بإستعمال تلسكوبات راديوية لمسح السماء بأمل التقاط اشارة من كائنات ذكية فضائية .

اقدر عاليا رفض ساغان التفكير بشعوره الداخلي عن حياة اخرى في الفضاء. ولكننا نستطيع (وساغان قد فعل ذلك ايضا) ان نعطي تقييما عقلانيا عن ما يلزم معرفته لنصبح قادرين على تقدير الاحتمال. ربما تكون البداية ليست اكثر من قائمة النقاط المجهولة لدينا, كما في معادلة درايك الشهيرة,والتي قال عنها بول دافيس, عبارة عن تجميع للاحتمالات. والتي تقول بأن الرقم التقديري لعدد الحضارات في الكون هو عبارة عن حاصل ضرب سبعة عوامل ببعضها. العوامل السبعة تتضمن عدد النجوم , عدد الكواكب المشابهة للارض لكل نجم, واحتمالات ذلك, اضافة لعوامل اخرى لست بصدد الحديث عنها الان لان ما اريد توضيحه الان هو ان كل هذه العوامل مجهولة, او معروفة تقديريا مع هامش خطأ هائل. وعند ضرب العوامل المجهولة ببعضها نحصل على على رقم – عدد الحضارات المحتمل – مع هامش خطأ اعظم بكثير من يتجاهله الانسان وبالتالي اللاادرية ربما تكون الموقف الوحيد العقلاني هنا .

بعض عوامل درايك اصبحوا اقل مجهولية الان عن عام 1961 عندما كتب المعادلة. وقتها كان نظامنا الشمسي هو الوحيد المعروف لكواكب تدور حول نجم , ومشابهته مع نظام الاقمار للمشتري والمريخ. وتخمين عدد انظمة الكواكب في الكون كان مبنيا على نماذج نظرية, مدعومة ب" مبدأ المتوسطات" وهو بالتعريف: الاحساس (اتت الكلمة من دروس تاريخ غير مريحة عن كوبرنيكوس وهابل واخرين) بأنه ليس هناك اي شئ خاص او غير عادي يميز الكوكب الذي تصادف ان يكون المكان الذي نعيش فيه. ولكن هذا المبدأ مع الاسف باطل بوجود المبدأ "الانثروبي" (انظر الفصل الرابع) والقائل بأنه : لو كان نظامنا الشمسي هو الوحيد في الكون, فإن ذلك بالضبط هو السبب لوجودنا , ككائنات حية وتفكر بهذا الموضوع بالذات. والواقع عن وجودنا يعود وينفي امكانية اننا نعيش في مكان "متوسطي" .

التقديرات الحديثة لوجود انظمة شمسية لم يعد مبنيا على مبدأ المتوسطات, بل على ادلة مباشرة. التلسكوب الطيفي, هنا يضرب ثانية عدو الايجابية ل كونت. ليست تلسكوباتنا بالقوة اللازمة لترى الكواكب التي تدور حول النجوم بشكل مباشر. ولكن موقع النجم يتقلقل بجاذبية الكواكب المحطة به وهي تلف حوله, والتلسكوب الطيفي يلتقط ازاحة دوبلر في طيف النجم, هذا اذا كان الكوكب المحيطي كبير. بإستعمال هذه الطريقة وصل عدد الكواكب لـــ 170 في وقت كتابة هذا الكتاب, ويدورون حول 147 نجم, ولكن الرقم سيزيد حتما وقت قرائتك للكتاب. وحتى الان فهم كواكب عملاقة بحجم المشتري, لان المشتري هو اقل حجم يمكننا معه اكتشاف الانحراف في مدار النجم في التلسكوبات الطيفية الحالية .

هذا ادي لتطور نوعي على الاقل في حساباتنا عما قدمه درايك في معادلته. وهذه خطو للامام بشأن لاادريتنا حول القيمة النهائية التي تقدمها المعادلة. نظل لاادريين عن موضوع وجود حياة غير ارضية ولكن اقل لاادرية مما كنا سابقا فقط لاننا اقل جهلا. العلم يقتطع اجزاء من اللاادرية, بشكل اضطر معه هاكسلي ان يعاني عندما تكلم عن حالة الادرية في وجود الله. انا اريد ان اجادل , رغم لباقة امتناع هاكسلي وغولد واخرون, بأن السؤال عن وجود الله ليس بالمبدأ والى الابد خارج نطاق العلم. كما هو الحال في الطبيعة والنجوم, بعكس رأي كونت, وكما هو الحال في احتمال الحياة في كواكب تدور حولها, يستطيع العلم على الاقل ان يقذف بعض احتمالات في ارض الادرية تلك .

تعريفي لفرضية الاله تتضمن كلمة "الانسان الخارق" و"الخارق ". ولتوضيح الفرق , تخيل بأن تلسكوبا يبحث عن الحياة خارج الارض التقط اشارة من الفضاء, والتي ترينا بدون شك بأننا لسنا وحدنا. وبالمناسبة ليس من البديهي ابدا ماهي الاشارة التي تقنعنا بأنها اتت من مصدر ذكي. والافضل هو ان نقلب السؤال كما يلي. ماذا يجب علينا فعله لنتمكن من الدعاية لوجودنا لسامعي اشارتنا اللاارضيين؟ النبضات الايقاعية ليست مفيدة. الفلكي الراديوي بيل بورنيل التي اكتشفت الاشارة النبضية 1967, تعجب من دقة التردد 1.33 ثانية, وظن بأننا وجدنا الرجال الخضر الصغار. ولكنه

اكتشف اشارة نبضية اخرى في منطقة اخرى من السماء وبتردد مختلف, مما ادى لترك فرضية الرجال الخضر. الاشارات الترددية يمكن توليدها من عدة ظواهر لاعلاقة لها بالذكاء, من تنقيط الماء لنشر الاغصان, من الفواصل الزمنية لدوائر التغذية العكسية في التحكم الذاتي , حتى الاجسام الكونية الدائره . اكثر من الف اشارة نبضية تم رصدها في مجرتنا ,والتفسير المقبول هو انها لنجوم نيترونية تشع طاقة تدور تمسح الفضاء مشابا ضوء المنارة. من المدهش ان نفكر بنجم تقاس دورته حول نفسه بالثواني (تخيل انا يومنا طوله 1.33 ثانية بدلا من 24 ساعة), وكل ما نعرفه حتى الان عن النجوم النيترونية يدعو اللدهشة. والنقطة هنا هي ان النبضات الايقاعية تفهم على انها انتاج حادث فيزيائي ولاتدل على ذكاء .

اذن , لاشي ايقاعي بإمكانه ان يعلن عن وجودنا للكون الذي ينتظر . الاعداد الاولية ينوه اليها غالبا لصعوبة وجود نظام فيزيائي يولدها. وسواء بالارقام الاولية او بأي طريقة اخرى, تخيل بأننا وجدنا دليلا على ذكاء خارج الارض, وربما يتبع ذلك تبادل ضخم للخبرات والمعرفة, ولنمضي بهذا الخيال مع قصة فريد هويك أ تعني أندروميدا او قصة كارس ساغان اتصال كيف يجب علينا ان نتصرف؟ رد الفعل القريب من العبادة له العذر هنا , لان اي حضارة قادرة على ارسال اشارات على هذه المسافات الشاسعة ستكون افضل بكثير من حضارتنا. وحتى لو كانت تلك الحضارة ليست متطورة كحضارتنا في وقت الارسال, فكبر المسافة بيننا يدعونا للتفكير بأنهم امامنا بألاف السنين عند وصول اشارتهم الينا(الا في حالة انهم تسببوا لانفسهم بالانقراض , وهذا ليس ببعيد عن الاحتمال)

سواء عثرنا عليهم ام لا, فأن هنالك فالاحتمال كبير لوجود حضارة متطورة وخارقة بالنسبة للانسان, حتى ان تبدو كإله بطريقة تفوق كل ما يستطيع علماء الدين تصوره .وانجازاتهم التقنية ستبدو خارقة للطبيعة بالنسبة لنا كما تبدوا انجازاتنا الحالية خارقة بالنسبة لمزارع من عهود الظلام اتينا به بطريقة ما للقرن الواحد والعشرين. تخيل ردة فعله لحاسبات اللاب توب , تلفونات موبايل, القنبلة الهيدروجينية او طائرات الجامبو .وكما عبر عنها ارثر كلارك, في قانونه الثالث:
" ليس بالامكان التفريق بين التقنية المتطورة بشكل كاف والسحر" والمعجزات المعمولة بتكنولوجيتنا لن تكون بالنسبة للانسان القديم اقل درجة من شق موسى للمياه, او مشي المسيح عى الماءا. والغرباء اللاأرضيين سيعطونا اشارات تجعلنا نراهم كألهه, تماما كما ظهر المبشرون بمظهر الالهه وعوملوا على اساسه (واستغلوا الشرف الغير مستحق باكثر ما امكنهم) عندما ظهروا في مناطق لاتزال في ثقافة العصر الحجري ,حاملين مسدسات, تلسكوبات, ثقاب واجهزة تتنبأ بالخسوف بدقة تصل للثانية .

بأي معنى اذن, نقرر مدى التقدم الحضاري لنقرر بأن الكائنات الفضائية ليست الهه؟ لاي مدى يمكن ان يكونوا من فئة "الانسان الخارق" وليس من فئة "الخارق للطبيعة"؟. من المهم جدا ان نعرف ماذا يعني ذلك, وهذا يعتلق بصميم هذا الكتاب. الفرق الحاسم بين الاله وال(مشابه للاله) الغير ارضي لايكمن في مواصفاتهما وانما في مصدرهما .
االكيانات المعقدة بشكل كاف لتكون ذكية هي نتيجة عملية تطور. ولايهم كمية (مشابه للاله) التي يملكونها عندما نجدهم, ولكنهم لم يكونوا كذلك في بداياتهم. لقد اقترح كتاب الخيال العلمي , ل دانييل غالوي في العالم المزيف , (ولا اعرف طريقة لنفي ذلك) بأننا نعيش في محاكاة كومبيوترية, موضوعة من قبل حضارة خارقة وواسعة. ولكن خالقي المحاكاه تلك عليهم ايضا ان يأتوا من مكان ما. وقوانين الاحتمال تمنع فكرة كونهم اتوا فجأة بدون اسبقيات ابسط منهم. وربما يدينون بوجودهم لنوع (ربما غير مألوف) من التطور الدارويني: نوع من تراكم من الاسفل للاعلى بواسطة "رافعة" وليس "خطاف سماوي", وهذه تعابير استعرتها من دانييل دينيت .

الخطافات السماوية – وكل الالهه ضمنيا – هي قوى سحرية . ليس لهم شرح صادق ويتطلبون شرحا اكثر بكثير مما يزودوننا به. الرافعات هي الات قابلة للفهم وتوفر لنا الشرح.والانتخاب الطبيعي هو بطل الرافعات في كل الازمان. وقد رفع الحياة من من بدائية بسيطة الى درجة عالية للتعقيد. جمال يظهر وكانه مصمم ليبهر الابصار. سيكون ذلك الموضوع مسيطرا على الفصل الرابع, "لماذا نحن متأكدين تقريبا انه لايوجد اله" . ولكن بالاول وقبل الانتقال للسبب الرئيسي لنفي وجود الله بفعالية. علي اولا ان ارمي جانبا الحجج الداعية للايمان والتي عرضت علينا عبر التاريخ .

الفصل الثالث

الدليل على وجود الله

لامكان لأستاذ في علم اللاهوت ضمن مؤسستنا

توماس جفرسون

حجج وجود الله صنفت تاريخيا من قبل علماء الدين, وشارك فيها اخرون , من ضمنهم الكثير من العلماء الذي اسائوا مفهوم الفهم الانساني العامي.

حجة الرهان لتواماس اكويناس

البراهين الخمسة التي عرضها توماس اكويناس في القرن الثالث عشر لاتبرهن على اي شئ, ومن السهل – مع ترددي بقول ذلك, لمعرفتي بسموه – كشف انعدام المعنى فيها .اول ثلاث براهين هي ثلاث طرق مختلفة لقول الشئ نفسه, وبالامكان مناقشتهم معا .ويتضمنون ارتدادات لانهائية – بمعنى ان جواب سؤال ما يطرح سؤالا يسبقه في الترتيب وهكذا بشكل لانهائي .

1. محرك الحركة : لاشئ يتحرك الا بوجود حركة سابقة. وهذا يؤدي بنا لارتدادات , والمهرب الوحيد منها هو الله. لان يتوجب على احد ما ان يبدأ بالتحريك, وهذا ما ندعوه بالاله .

2. السبب المسبب : لاشئ يسبب نفسه. ولكل تأثير مسبب مسبق, ومرة اخرى , نصل للارتدادات. وهذه الارتدادات تنتهي بالمسبب الاول , وهو ما ندعوه بالاله .

3. الحجة الكونية : من المحتم وجود زمن لم توجد فيه الاشياء الفيزيائية. ولكن, بما ان الاشياء الفيزيائية موجودة , لابد من وجود شئ غير فيزيائي ليأتي بهم للوجود, وهذا ما ندعوه بالاله .

كل الحجج الثلاث تعتمد على الارتدادات وتدخل الله لانهاء الموضوع. والفرض الذي لامبرر له هنا هو ان الله منيع عن فكرة الارتداد. حتى لو اننا سمحنا لانفسنا بالتبجح بأي شعوذه اعتباطية لايجاد منهي للارتدادات اللانهائية واعطيناه اسما ما , لاننا ببساطة نحتاج واحدا, فليس هناك اي سبب اطلاقا لمنح هذا الذي انهينا به الارتدادات ايا من المواصفات التي يتصف بها الاله: القدرة الكلية, العلم الكلي, الطيبة, التصميم الخلاق, ناهيك عن الصفات الانسانية كسماع الدعاء , وغفران الذنوب, وقراءة الافكار. وبالمناسبة فأن بعض علماء المنطق لاحظوا عدم امكانية اجتماع موضوع العلم الكلي والقدرة الكلية. لو كان الله كلي المعرفة, فهو يعرف بالتاكيد ومسبقا كيف سيتدخل بقدرته الكلية ليغير مجرى التاريخ. وهذا يعني بأنه لايستطيع تغيير رأيه بهذا الموضوع فهو بالتالي ليس كلي القدرة لان هناك شيئا لايستطيع عمله. كارين اونز صورت ذلك التناقض الذكي في مقطع شعري لايقل دهاء عنه .

ايستطيع الكلي المعرفة
الذي يعرف المستقبل, ان يجد
كلي القدرة والذي يستطيع
ان يغير تفكيره المستقبلي؟

لنعد للارتدادات اللانهائية والعبث الناتج من ادخال اله لتصفية الموضوع,لانه من الارخص استحضار شئ ما ,كنظرية " الانفجار الكبير", او اي مبدأ فيزيائي غير مكتشف بعد. كما ان تسمية ذلك بالاله هو في افضل الحالات غير مفيد وفي اسوئها مضلل بشكل خبيث .ودعوى ادوارد ليار في وصفته العبثية لكباب الكرمبول بالشكل التالي "خذ قطعة من لحم البقر, وبعد قطعها لاقصى حد ممكن وجعل القطع اصغر ما يمكن, استمر بالتقطيع لتصغير القطع ثمان او تسع مرات اخرى". نرى ان بعض الارتدادات تصل لمرحلة من النهاية الطبيعية. وكان العلماء يتساءلون في الماضي عما اذا كان من الممكن تقطيع الذهب مثلا لاصغر قطع ممكنة. ولماذا من غير الممكن قطع احدى تلك القطع بالنصف والاستمرار بالتقطيع لقطع ذهبية اصغر؟ والارتدادات في هذه الحالة محسومة النهاية عندما نصل للذرة. وتلك هي اصغر القطع الذهبية وتتكون بالضبط من 79 بروتونا واكثر من ذلك بقليل من النيوترونات, وبحضور حشد من الالكترونات بعدد 79. وعندما "نقطع" الذهب لاي حد ابعد من الذرة فإنه يتوقف عن ان يكون ذهبا. والذره تعطينا النهاية لنوع الارتدادات المشابه لكباب الكرمبول. والاله لايزودنا بأي شكل بنهاية طبيعية لإرتدادات اكويناس. وهذا مما يخفف من حدتها كما سنرى لاحقا. والان دعونا نناقش النقاط التالية في لائحة اكويناس .

4. الحجة الاتية من التدرج : نلاحظ اختلاف الاشياء في العالم. وهناك درجات للاشياء , مثل الطيبة او الكمال . ولكننا نحكم على درجتها فقط بمقارنتها بالحد الاعلى الممكن .بإمكان الانسان ان يكون جيدا وسيئا , وبذلك فإن الحد الاعظم من الجودة لايمكن ان يكمن فينا. ولذلك يجب ان يكون هناك حد اعظم لنقيس عليه درجات الكمال , وهذا ما ندعوه بالاله .

أهذه حجة؟ من الممكن ان تقول ان الناس مختلفين في رائحتهم وامكانيتنا بالمقارنة تكون ممكنة فقط بمرجعية للحد الاعلى الممكن للروائحية. ولذلك يجب ان يوجد شئ ما ورائحته لاتضاهى , وندعوه بالاله. وبإستطاعتك استبدال مواصفات المقارنة كما تشاء ,واستنتاج نتائج مشابه في الحماقة .

5. الحجة الغائية , او حجة التصميم : الاشياء في العالم وبخاصة الاشياء الحية تبدو وكأنها مصممة. ولانعرف بوجود اشياء تبدو مصممة إلا اذا كانت كذلك. ولذلك يجب ان يكون هناك مصمم, وهو ما ندعوه بالاله *.

اكويناس استعمل سهما يتحرك بإتجاه الهدف كمثال تشبيهي, والصاروخ الحديث المضاد للطائرات والموجه بالحرارة سيخدم فكرته اكثر .

حجة التصميم هي الوحيدة التي لاتزال تستخدم في ايامنا هذه, وللعديدين لاتزال تبدو كالضربة القاضية للمناقشة. وداروين الشاب تأثر بها عندما كان طالبا في جامعة كامبريدج, عندما قرأ كتاب ويليام بايلي علم الطبيعة الديني . ولسوء حظ بالي, فإن داروين الناضج استبعدها بشكل كامل. وربما انه ليس هناك في التاريخ اي تدمير لطريقة تفكير شائعة ببراهين ذكية كالذي فعله داروين بحجة التصميم. ذلك كان ابعد من كل التوقعات .

وبفضل داروين, لم يعد صحيحا بأن كل الاشياء التي تبدو لنا مصممة لايمكن ان تكون غير ذلك. التطور بالانتخاب الطبيعي ينتج ما يمكن ان يبدو كأروع تصميم, بأعلى درجات التعقيد والاناقة. ومن تلك التصاميم – المزيفة – الاجهزة العصبية والتي في ابسط اشكالها تظهر وكأنها تسلك سلوكا ما, وحتى في حشرة صغيرة,فإنه يوجد نظام متطور جدا للتتبع الحراري يشبه الصاروخ اكثر مما يشبة السهم والهدف. وسأعود لذلك في الفصل الرابع .

الحجة الوجودية وحجج اخرى سالفة لها

حجج وجود الله تنقسم لمجموعتين. بديهية واستدلالية. وحجج توماس اكوينتاس الخمس من النوع الاستدلالي , وتعتمد على معاينة وفحص للعالم. واشهر الحجج البديهية , والتي تعتمد فقط على استنتاجات من شخص على كرسي وثير. هي الحجة الوجودية , وقد طرحها سانت انسلم اسقف كانتربري عام 1078 ومن ثم عاد طرحها بأشكال مختلفة من قبل العديد من الفلاسفة, السمة الشاذه فيها هي انها ليست موجهة للانسان ولكن للاله شخصيا وعلى شكل دعاء (لعلك تعتقد بأن اي كائنات قابلة لسماع الدعاء لاتحتاج لبرهان مقنع عن وجودها)من الممكن وجود كائن, على قول آنشيلم, من العظمة بحيث انه لايمكن ان يكون هناك اعظم منه. وحتى الملحد يمكنه تخيل كائن على اعلى الدرجات , برغم ادعائه بعدم وجوده في الواقع. ولكن ,الكائن الذي لايوجد في الواقع هو كائن اقل من كامل حكما ,وهكذا فإننا في تناقض هنا ولذلك , شبيك لبيك , الاله موجود !

دعوني احاول ترجمة الحجة الطفولية السابقة للغة مقبولة ومعتبرة .

"اراهنك بأني استطيع اثبات وجود الله"

"لااظنك تستطيع"

"حسنا.. تخيل اكمل .. اكمل .. اكمل شئ ممكن "

"لقد فعلت.. ثم ماذا؟"

"هل هذا الشي الكامل الكمال المكمل حقيقي؟ هل هو موجود؟"

"لا.. هو في خيالي فقط"

"ولكن لو كان هذا موجودا لكان اكثر كمالا , لان الشئ الكامل الحقيقي جدا هو افضل من مجرد خيال سخيف لشئ ما. وبهذا اكون قد برهنت ان الله موجود. هيه .. هيه . . هيه.. كل الملحدين حمقى"

لقد تركت غروري الطفولي يختار الكلمة "حمقى" بتبصر. انسلم بذاته كتب عن الاية الاولى من أناشيد داوود" الاية 14 الاحمق قال في قلبه, ليس هناك اله" وكان له السبق في استعمال كلمة "احمق" لملحده الفرضي. ومعه نتابع :

وبذلك, يقتنع حتى الاحمق بوجود شيء ما, في التفكير على اقل تقدير, ومن غير الممكن وجود شئ اعظم منه. لانه عندما يسمع الشخص به , فإنه يفهم ماذا يعني. وما هو مفهوم فهو موجود في الفهم. وبالتأكيد, فإن الشئ, الذي لايمكن ان يوجد شئ اعظم منه ,لايستطيع ان يوجد في الفهم وحده. لأنه , وبفرض انه موجود في الفهم فقط فإنه من الممكن ان يوجد في الحقيقة وهذا شئ اعظم .

مجرد الفكرة بأن استنتاجا كبيرا كهذا يأتي من خدعة رخيصة كهذه يسبب اهانة لجمالية التفكير, ولهذا على ان اكون حريصا وامتنع عن تبادل كلمات مثل "احمق". اذكر هنا المقولة المهمة لبرتراند راسل (ليس احمقا ابدا) ," من الاسهل ان نشعر بالاقتناع بأن الحجة المقدمة خاطئة, عن ان نعرف بدقة مكمن الخطأ فيها" راسل بذاته , في شبابه ,كان مقتنعا بالفكرة لفترة قصيرة كما روى :

اذكر اللحظة بالضبط, عام 1894, كنت اسير في شارع الترينيتي ,عندما رأيت(او تخيلت اني رأيت) صحة الحجة الوجودية للحظة. كنت في طريقي لشراء علبة تبغ, وفي طريق عودتي ,وجدت نفسي اقذفها فجأة في الهواء وصحت عندما التقطتها:"هذا عظيم, ان حجة الوجودية صحيحة" .

اعجب , لماذا لم يقل مثلا:" عظيم, الحجة الوجودية تبدو معقولة. ولكن ليست جيدة بشكل بشكل كاف . الا يحتاج الكون ان يكون اكثر من مجرد نتيجة للعبة مفردات؟ من الافضل ان ابدأ العمل لمحاولة فك هذا التناقض الشبيه بتناقض زينو الاغريقي". لقد عجز الاغريق القدماء في محاولة رؤية برهان زينو بأن آخيل لن يكون قابلا ابدا للحاق بالسلحفاة. * ولكن كان لديهم شعور كاف عن الموضوع لينفوا عدم امكانية اخيل باللحاق بالسلحفاة. ولذلك دعوها بالتناقض وانتظروا الاجيال اللاحقة من الرياضيين لشرحها(وحصل ذلك لاحقا بالطبع, بإستعمال نظريه السلاسل اللانهائية). وراسل في حالتنا مؤهل كأي شخص اخر لفهم عدم وجوب قذف علبة الدخان في الهواء والاحتفال بفشل اخيل في اللحاق بالسلحفاة. لماذا لم يتبع راسل منهج الحرص في مناقشة انشليم؟ اشك بأن كان مبالغا في في اعتداله بالاعتقاد الالحادي, ومتحمس اكثر من اللزوم لتخيل اي منطق يبدو مطلوبا للبرهان*. او ربما تكون الاجابة كامنة فيما كتبه راسل نفسه عام 1946,بعد فترة طويلة من فرقعته للحجة الوجودية .

السؤال الحقيقي هو: هل هناك اي شئ نستطيع التفكير فيه, والذي, مجرد التفكير فيه يرينا انه موجود بالحقيقة خارج افكارنا؟ كل الفلاسفة يرغبون بالاجابة بنعم, لان عمل الفيلسوف كله يعتمد على معرفة اشياء عن العالم بمجرد التفكير عوضا عن الملاحظة .ولو كانت الاجابة نعم فهذا يعني بأنه يمكن ان يوجد صلة وصل بين الافكار الصافية والاشياء, والاجابة "لا" يجب ان تعني ببساطة .. لا .

شعوري انا , على العكس , سيكون بشكل الي عبارة عن شك عميق في اي خظ تفكير يصل لنتيجة عظيمة الاهمية كتلك بدون وجود اي معلومة من العالم الحقيقي. وربما لايعني ذلك اكثر من اني عالم ولست فيلسوفا. الفلاسفة عبر القرون اخذوا الحجة الوجودية بشكل جدي بدون شك, وعلى الطرفين , معها وضدها. الفيلسوف الملحد ج .ل. ماككي بشكل خاص له مناقشة واضحةبهذا الخصوص في اعاجيب الايمان بالله. وانا اعتقد انه من الجيد التعريف للفيلسوف كشخص لايأخذ الاحساس العام كإجابة على اي شئ تقريبا .

يعزى التفنيد الجازم للحجة الوجودية للفيلسوف دافي هيوم 76 –1711 وايمانويل كانط 1804-1724 . كانط عثر كارت الغش المخبأ في كم انسليم في فرضيته الزلقة عن ان الوجود هو اكثر "كمالا" من اللاوجود. ووصف الفيلسوف الامريكي نورمان مالكوم الموضوع بالشكل التالي:" المذهب القائل بأن الوجود يعني الكمال هو مبدأ شاذ. من الحق القول بأن منزلي المستقبلي سيكون افضل اذا كان معزولا حراريا عن ان يكون غير معزول, ولكن ما معنى ان نقول بأن وجود البيت سيكون افضل من عدم وجوده؟ . دوغلاس غاسكنيغ الفيلسوف من اوستراليا, اصاب هدفه بسخريته لبرهان الله غير موجود(احد معاصري انسليم واسمه غونيلو اقترح حلا مخفضا مماثلا)

1. ان خلق الكون هو اكبر انجاز يمكن تخيله .
2. قيمة اي انجاز هي حاصل ضرب قيمتي: (ا) قيمته الجوهرية (ب) امكانيات الخالق له .
3. كلما كانت اعاقة الصانع اكبر, كلما كان انجازه مثيرا للعجب اكثر .

4. اعظم الاعاقات واكبرها بالنسبة لخالق هي عدم وجوده .
5. لذلك لو افترضنا ان الكون هو انجاز لخالق موجود فبإمكاننا ان نتخيل وجودا اعظم - بشكل ما , والذي يستطيع خلق كل شي بدون ان يكون موجودا .
6. فالاله الموجود اذن لن يكون اعظم مايمكن تخيله لان الاله الغير موجود اعظم واكثر اثارة للدهشة .

النتيجة

7. الله غير موجود .

لسنا بحاجة للقول هنا بأن غاسكينغ لم يبرهن فعليا على عدم وجود الله. وعلى نفس المنوال, لم يبرهن انسليم على وجوده. والفرق الوحيد هو ان غاسكينغ كان هزليا في طرحه لغاية. لانه كما لاحظ , وجود الاله الغير موجود هو سؤال كبير جدا على ان يجاوب عليه ب "خداع جدلي ماهر". ولااظن شخصيا بأن الاستعمال الزلق لمؤشر الكمال هو الاسوأ في هذه المحاججة. وقد نسيت تفاصيل الحدث عندما ازعجت تجمعا من رجال الدين والفلاسفة بتبني الحجة الوجودية لبرهان ان الخنازير تستطيع الطيران. وقد اضطررتهم للجوء للمنطق الشكلي للبرهان بأنني مخطئ . الحجة الوجودية, ككل حجج البديهية المقدمة لبرهان وجود الله, تذكرني بالعجوز في قصة الدوس هاكسلي نقطة بعكس نقطة والذي اكتشف برهانا رياضيا عن وجود الله :

اتعرف الصيغة , س مقسمة على الصفر مساو للانهاية, حيث س هي اي عدد موجب؟ حسنا, لنبسط المعادلة بضرب الطرفين بالصفر. ممكا يجعل س مساوية لعدد لانهائي من الاصفار. وهذا يعني ان العدد الموجب هو عبارة عن حاصل ضرب الصفر بالانهاية. الا يفسر ذلك خلق الكون من لاشئ بواسطة قدرة لانهائية؟ الا يفسره؟؟

وهنالك ايضا النقاش العقيم من القرن الثامن عشر حول وجود الله, والمرتب من قبل كاترين العظمى , بين الرياضي السويسري الشهير اويلر, وديدرو, الموسوعي العظيم لعصر التنوير. اويلر المتدين غلب منافسه الملحد ديدرو وبكل ثقة برمي التحدي التالي ":سيدي , ان (ا + ب^ن)| ى = س, ولذلك فالله موجود. فما هو جوابك!" ديدرو اجبر على الانسحاب مذعنا, واحد الروايات تقول بأنه رجع لفرنسا على اثرها .

اويلر استعمل ما يمكن تسميته بحجة التعمية في العلم (في حالتنا الرياضيات). دافيد مايلز في عالم المحدين , كتب عن مقابلة اذاعية له من قبل احد المتكلمين بأسم الدين ,والذي استعمل قانون حفظ الطاقة-المادة كمحاولة تعمية علمية: " بما اننا جميعا من طاقة ومادة, الا يؤدي بنا ذلك المبدأ العلمي للايمان بأن هناك حياة ابدية؟" اجابة مايلز كانت لبقة وصبورة اكثر مما لو كنت انا المجيب على تعليق المحرر الاذاعي الذي كان سؤاله بصيغة اخرى كالتالي:" عندما نموت, لن تضيع اي ذرة من اجسامنا (ولا حتى الطاقة) وبالتالي فنحن خالدون ".

حتى انا, وبخبرتي الطويلة, لم اصادف امنيات فكرية سخيفة كتلك. ولكنن وجدت العديد من "البراهين" وجمعتها من
http://www.godlessgeeks.com/LINKS/GodProof.htm
وهي لائحة ساخرة من اكثر من ثلاثمئة برهان عن وجود الله. وهاكم نصف دزينة مميزة

تبدأ بالبرهان 36.

36. حجة من الخراب الغير مكتمل : تحطمت طائرة وقتل 143 من ركابها وطاقمها .وطفل صغير نجا بحروق من الدرجة الثالثة. ولذلك الله موجود .

37. حجة من العوالم المحتملة : لو ان الامور كانت مختلفة عما هي عليه , فستكون مختلفة عما هي عليه. و سيكون ذلك سيئا. ولذلك الله موجود .

38. - 38حجة الارادة المطلقة : انا اؤمن بالله! انا اؤمن بالله! اؤمن . اؤمن . اؤمن بالله !ولذلك الله موجود .

39. - 39حجة من اللايمان : معظم سكان الكرة الارضية هم غير مؤمنين بالمسيحية. وهذا من عمل الشيطان. ولذلك الله موجود .

40. - 40حجة من تجربة ما بعد الموت : س هو شخص مات ملحدا, والان ادرك خطأه .ولذلك الله موجود .

41. - 41حجة من الابتزاز العاطفي : الله يحبك. كيف يمكن ان تكون بدون قلب بهذا الشكل ولاتؤمن به؟ ولذلك الله موجود .

حجة الجمال

شخصية اخرى في قصة الدوس هاكسلي برهنت على وجود الله فقط بعزف رباعية بيتهوفن رقم 15 من مقام لا مينور ("اغنية شكر المقدسة") من اسطوانة على غرامافون. مهما تبدو الحجة غير مقنعة, فإنها تمثل نوعا شائعا من الحجج. لقد توقفت عن عد المرات التي تلقيت فيها او بالاحرى واجهت تحديات : " كيف يمكنك تفسير وجود شكسبير اذن؟" (او شوبرت, مايكل انجلو...) . الحجة مألوفة , ولا اريد ان اوثقها اكثر من ذلك. ولكن المنطق المختبئ ورائها لم يتوضح بالحجة, وكلما فكرت فيها اكثر , كلما شعرت بفراغها. لاشك بأن رباعيات بيتهوفن الاخيرة رفيعة المستوى. وكذلك اعمال شكسبير. رفيعة المستوى سواء كان الاله موجودا او لم يكن. هذا لايبرهن وجود اله, بل يبرهن وجود بيتهوفن وشكسبير. يعزى لاحد قادة الاوركسترا الكبار القول:" اذا كنت تستطيع سماع موزرات, لماذا تحتاج لاله؟"

مرة من المرات كنت ضيف الاسبوع في بث اذاعي بإسم اسطوانات الجزيرة المهجورة . وعليك اختيار ثماني اسطوانات لتأخذها معك في حال انقطاعك في جزيرة مهجورة. من ضمن ما اخترت كانت اغنية "ادخل الي قلبي" من "الام متى" لباخ. لم يفهم المذيع كيف اخترت موسيقا دينية بدون ان اكون متدينا. ربما انه بالامكان التساؤل ايضا كيف يمكنك ان تسمتع بقراءه مرتفعات وذرينج وانت على تمام المعرفة بأن كاثي وهيتشكليف شخصيات لم توجد ابدا؟

ولكني اردت توضيح نقطة اخرى, ويجب ان تؤخذ بعين الاعتبار في كل ما يعطى الدين فيه كمرجعية ,مثل, كاتدرائية سيستين او لوحة اعلان حمل المسيح لرافائيل .حتى الفنانين العظام يحتاجون لكسب رزقهم. وسيأخذون عمولتهم مقابل خدماتهم. ليس عندي اي سبب لاشك بأن رافائيل ومايكل انجلو كانا مسيحيين – ذلك كان الخيار الوحيد في زمانهم – ولكن ذلك واقع عرضي. وغنى الكنيسة الفاحش وقتها جعلها الراعي المهيمن على الفن. ولو كان التاريخ مغايرا وكلف مايكل انجلو بالرسم على سقف متحف علمي ضخم, فسيكون انتاجه ملهما بنفس درجة سيستين؟ كم هو محزن بأننا لي نسمع ابدا سيمفونية عصر الديناصور لبيتهوفن او اوبرا الكون المتوسع لموزارت وكم هو محزن حرماننا من اوراتوريو التطور لهايدن – ولكن ذلك لايمنعنا من الاستمتاع بمقطوعته الخليقة. ولتوضيح الحجة من طرف اخر ماذا كان سيحصل لو ان شكسبير كان مجبرا للعمل لصالح الكنيسة, كما اقترحت زوجتي؟ لكنا بالتأكيد فقدنا هاملت , الملك لير ,وماكبث. وماذا كان العالم سيربح بالمقابل ؟ اعمال من مكونات الاحلام؟ استمر بالحلم اذن .

لو وجدت حجة منطقية تربط الفن العظيم بوجود اله, فأن نصراء الفكرة لايوضحون تلك الصلة. وببساطة يعتبرون ان ذلك دليلا يفسر نفسه بنفسه, والامر ليس كذلك بالتأكيد .وبالامكان ايضا رؤيتها من وجهة نظر حجة التصميم بالشكل التالي: مخ شوبرت الموسيقي هو اعجوبة ووجودها احتماله ضعيف بشكل كبير, ربما اضعف من احتمال وجود العين عند الفقاريات. او حتى بشكل اخر ممزوج بالغيرة من العبقرية. كيف يمكن لشخص اخر ان يخلق تلك (الموسيقا\ الرسوم \ الفنون) الرائعة بينما انا لااستطيع؟ لابد ان الله هو الذي فعل ذلك .

الحجة من التجربة الشخصية

احد اذكى وانضج اقراني في الجامعة والذي كان متدينا بعمق, ذهب للتخييم في المنطقة المساة بالممر الاسكتلندي. وفي منتصف الليل استيقظ مع صديقته على صوت شرير - الشيطان بذاته بدون ادنى شك كان هناك: والصوت كان شيطانيا في كل تفاصيله. لن ينسى صديقي تلك التجربة المرعبة, وقد كانت احد الاسباب التي دفعته لاحقا ليصبح قسيسا. وقد تركت قصته انطباعا قويا عندي في فترة شبابي, وقصصتها على مجموعة من علماء الحيوان في منتجع روز اند كراون ان. وكان من بينهم اختصاصيان بعلم الطيور, وانفجرا بالضحك قائلين "مانكس شيرواتر" بأن واحد معا. احدهما اضاف بأن الصوت الشيطاني في صرخات وثرثرة ذلك الطائر اكسبته الاسم "طائر الشيطان" في اماكن مختلفة من العالم وباللغات المحلية لاهل تلك المناطق .

الكثيرين يؤمنون بالله لانهم يؤمنون بأنه رأو – بأم اعينهم – رؤيا عنه او عن احد الملائكة او العذراء بلباسها الازرق.او ان احدهم تكلم معهم من داخل رؤوسهم. وتلك الحجة هي الاكثر اقناعا للذين يزعمون بأن ذلك قد حصل لهم. ولكنها الاقل اقناعا لكل الاخرين ,وخصوصا من لديه بعض المعرفة عن علم النفس .

تقول بأن الله تراءى لك بشكل مباشر؟ حسنا, البعض اعتقد انه رأى فيلا ورديا, ولكن ذلك ربما لايترك لديك انطباعا عميقا, بيتر سوتكليف, القاتل من يوركشاير, تخيل المسيح يقول له بأن يقتل النساء,وادى ذلك به للسجن مدى الحياة. جورج بوش يقول بأن الله قال له بأن يحتل العراق (ذلك الاله الشفوق لم يوحي له بأنه ليس هناك اسلحة دمار شامل). والعديدين في المصحات يعتقدون بأنهم نابليون او شارلي شابلن, او ان العالم كله يتأمر ضدهم, او بأنه يستطيعون بث افكارهم في رؤوس الاخرين. نتكلم عنهم كطرائف ولا نأخذ ايحاءاتهم الداخلية بأي جدية. والسبب الاكبر هو ان ذلك ينطبق على فئة قليلة فقط من الناس. اما الايحاءات الدينية فإن زبائنها كثر. ولم يكن سام هاريس مبالغا في سخريته عندما كتب في نهاية الايمان :

لدينا اسماء للعديدين الذين يؤمنون بأمور ليس لها اي مبرر عقلي. وعندما يكون ايمان كهذا شائعا فإننا ندعوه "دين", وإلا فندعوه "جنون", "ذهان" او "وهم" .... واضح بأن الارقام لها تأثير. ولكن, من جهة اخرى, فإنه يظل مجرد حادث عرضي في التاريخ ان يعتبر من الطبيعي في مجتمع ما بأن الخالق للكون يستطيع سماع افكارك, بينما يكون مرضا عقليا الايمان بأنه يتواصل معك بواسطة جعل المطر ينقر اشارات مورس على نافذة غرفة نومك. وعلى هذا وبرغم ان رجال الدين ليسوا مجانين, فإن خلاصة ايمانهم جنون صرف .

سأعود لموضوع الهلوسة في الفصل العاشر .

ان عقل الانسان يدير برنامج محاكاه من المرتبة الاولى. واعيننا لاتعطي المخ صورة امينة عما يوجد هناك, او فيلم دقيق عما يحصل بمرور الوقت. المخ يبني نموذجا متجددا بإستمرار: متجدد بنبضات تنتشر على العصب البصري, وبذلك تبنى صورة متغيرة. الخداع البصري هو تذكير واضح على ذلك. وقد نشأ صنف من الوهم البصري, ومن امثلته مكعب نيكر, والذي يسبب الاحساس بأن المعلومات الحسية التي يستقبلها المخ تتطابق مع نموذجين متباينين من الحقيقة. والمخ والذي ليس لديه قاعدة ليختار بينهما, فإنه يبدل النموذج بين فترة واخرى, وهكذا يتشكل لدينا احساس بالتأرجح بين نموذجين. والصور التي ننظر اليها تبدو وكانها تنقلب لتصبح صورة اخرى .

برنامج المحاكاه في دماغنا يبدو مؤقلما بشكل خاص لبناء الوجوه والاصوات. عندي على طرف النافذة قناعا بلاستيكا لاينشتاين . وعندما ينظر اليه من الامام فإنه يبدو كوجه ممتلئ, وليس هذا مفاجئا, المفاجئ هو انه عند النظر اليه من الخلف – الطرف المجوف - فإنه يبدوا ايضا كوجه ممتلئ, وفهمنا للموضوع مبهم بالتأكيد. وعندما يتحرك الناظر حوله, يبدو الوجه وكأنه يتبعه – وليس بالمعنى الضعيف الغير مقنع والذي يقال عن ان عيون الموناليزا تبدوا وكأنها تتبعك – فإن القناع المجوف يبدو حقيقيا جدا بأنه يتبعك .والذين يرونها لاول مرة يشهقون من الدهشة. والاكثر غرابة, عندما يوضع القناع على طاولة تدور ببطء فإنه يبدو بأنه يدور في الاتجاه الصيحيح عندما تنظر للطرف الممتلئ , ولكن بالاتجاه المعاكس عندما تنظر للطرف المجوف. والنتيجة تبدو عندما تنظر الى الانتقال من احد الاطراف الى الاخر, فأن الطرف القادم يبدو وكانه "يأكل" الطرف الذاهب. انه وهم مبهر, ورؤيته تستاهل بعض العناء. وبعض الاحيان تستطيع الاقتراب بشكل مفاجئ للطرف المجوف بدون ان ترى انه "حقيقة" مجوف. وعندما ترى ذلك , مرة اخرى, يحصل التأرجح, وربما يكون قابلا للعكس .

لماذا يحصل ذلك؟ ليس هنالك ايه خدع في بناء القناع. واي قناع مجوف سيؤدي نفس الغرض. والخدعة تكمن في دماغ المشاهد. برنامج المحاكاة الداخلي يستقبل معلومات تنبئ عن وجود الوجه, لاشئ اكثر من عينان , انف وفم في امكانها المحددة تقريبا.وبتمام الاستقبال لتلك الرموز السطحية, يقوم الدماغ بالباقي. يبدأ برنامج المحاكاة بالعمل ويبني النموذج الممتلئ للوجه, بالرغم من ان حقيقة ما يقدم للعينين هو قناع مجوف .وتخيل الدوران في الجهة الخطأ يحصل بسبب (هناك بعض الصعوبة هنا, ولكن لو فكرت بعمق ستستطيع التأكد من الفكرة) ان الدوران بالجهة المعاكسة هو الوحيد الذي يجعل هناك معنى للمعلومات البصرية بدوران القناع بشكل محسوس ليكون ممتلئا. ذلك شبيه بالوهم الذي ينتج عن دوران صحن الرادرا الذي نراه في المطارات. خلال الوقت اللازم ليستطيع الدماغ قلب الصورة للوضع الصحيح لصحن الرادار, سيكون هناك نموذج خاطئ يدور بالاتجاه المعاكس بشكل احول .

اقول ذلك فقط لابين القوة الهائلة للمحاكاة الدماغية. انها مجهزة بشكل جيد لبناء "رؤيا" و "مظاهر"من اعلى المستويات. ومحاكاة شبح او ملاك او مريم العذراء سيكو بمثابة لعبة اطفال بالنسبة لبرنامج بهذا الرقي. ونفس الشئ يحصل يحدث سمعيا. وعند سماع صوت ما, فإنه لاينتقل بشكل امين عن طريق الاعصاب السمعية للدماغ . كما في الرؤيا ,يبني الدماغ نموذجا للصوت عن طريق المعلومات السمعية المستمرة بالتجدد على الاعصاب السمعية. ولذلك نسمع نغمة الترومبيت كنوطة واحدة , وليس كتركيب من ترددات هارمونية تعطيها طابع الزمجرة النحاسي. بينما رنين نوطات الكلارينيت يبدو "خشبيا", ونسمع الاوبوا وكانها "قصبية", وذلك بسبب اختلاف التوازن الهارموني. ولو جربت التحكم في سانتسايزر وادخلت الهارمونيات المختلفة واحدا بعد واحد, فسيسمع الدماغ الترددات المختلفة لفترة قصيرة بشكل منفصل,حتى يبدأ برنامج المحاكاه بالعمل ,وعندها ستسمع نوطة واحدة لترومبيت او ابوا او ماشابه. والاحرف الصوتية واللاصوتية تبنى في الدماغ بنفس الطريقة, وهكذا, وعلى مستوى اخر,تبنى الفونيمات والكلمات .

سمعت في طفولتي شبحا: صوت ذكري يغمغم, وكانه يتلو صلوات. وكدت استطيع تقريبا ان اتبين الكلمات, والتي كان لها طابع جدي جدا. وكنت قد سمعت الكثير من الحكايا عن اماكن للقديسين في البيوت القديمة, واصابني الخوف. ولكني نهضت من السرير وزحفت نحو مصدر الصوت. وكلما اقتربت كلما علي الصوت, وفجأة "انقلب" الصوت في رأسي. وكنت قريبا بشكل كاف لاعرف حقيقته. كانت الريح تعصف من خلال ثقب المفتاح, وتخلق صوتا استعمله برنامج المحاكاة في دماغي ليبني نموذجا عن خطاب بصوت رجل مرتل بجدية. ولو كنت طفلا قابلا للأنطباع بشكل اكثر مما كنت عليه انذاك ,لكان من الممكن لي ان "اسمع" ليس فقط خطابا غير مفهوم بل كلمات معينة وربما جمل ايضا. وأتساءل الان ماهي الكلمات التي كنت لاسمعها حينها, لو كنت قابلا للانطباع وبتربيه دينية .

في مناسبة اخرى, كنت في نفس العمر تقريبا, رأيت وجها عملاقا شريرا بشكل لايوصف, يحدق من النافذة في بيت عادي في قرية على البحر. اقتربت بهلع لاتبين ماكان : شيئ مبهم يعطي انطباعا بعيدا لوجه ناتج عن نقشة على قماش الستارة. الوجه بحد ذاته ومعناه الشرير بني في دماغي الطفولي الخائف. وفي الحادي عشر من ايلول رأى بعض المتقين وجه الشيطان في الدخان المنبعث من البرجين: خرافة مدعومة بصورة نشرت على الانترنت وتداولها الناس بشكل كبير .

دماع الانسان جيد جدا في بناء النماذج. وعندما ننام ندعو ذلك احلاما, وفي اليقظة ندعوها بالتخيلات او,في حالة كونها شديدة الحيوية, بالهلوسات. وكما سنرى في الفصل العاشر, الاطفال الذين لديهم "اصدقاء تخيليين" يرون اصدقائهم بوضوح في بعض الاحيان,كما لو انهم حقيقيين تماما. ولو كنا سذجا, فلن نميز احلام اليقظة او الهلوسة وسندعي بأننا رأينا او سمعنا شبحا, او ملاكا, او الها, او – وبشكل خاص في حالة الشابات الكاثوليكيات – مريم العذراء. رؤيا كهذه ليست سببا كافيا للتصديق بأن الاشباح, الالهه او العذراء, موجودين حقيقة .

من ناحية اخرى ففي حالة الرؤيا الجماعية, كما حصل في البرتغال في ايام حج لمنطقة السيدة فاطمة البرتغالية عام 1917حيث شهد سبعون الفا من الحجاج الشمس "تترك السماء وتهوي وتصعد في الافق", فإنه من الصعب تجاهل ظاهرة كتلك. وليس من السهل تفسير تقاسم 70000 شخص لنفس الهلوسة. ولكن من الاصعب القبول بحقيقة حدوثها بدون ان ان يراها احد خارج منطقة السيدة فاطمة, وليس فقط الرؤية بل ايضا الشعور بالدمار الهائل للمجموعة الشمسية, ومن ضمنها قوى تسارع كافية لقذف الجميع للفضاء .

ولانستطيع هنا مقاومة التفكير بتجربة دافيد هيوم البليغة عن الاعاجيب : " ليس هناك من شهادة تكفي لتصديق اعجوبة, الا اذا كان تكذيبها اعجب من الواقع الذي بنيت عليه" .ربما يبدو من غير المحتمل ان يكون سبعون الف شخصا ضيحة لنفس الوهم في نفس الوقت, او انهم تأمروا على نفس الكذبة الجماعية. او ان التاريخ اخطأ في تسجيل واقعة

ان سبعين الفا زعموا رؤية الشمس ترقص. او انهم رأو سرابا (كان قد اغرو بالتحديق في الشمس, وتأثير ذلك على النظر ليس بكبير). ولكن في كل مايبدو قليل الاحتمال بشكل هائل فإن احتمال العكس هو اقل بكثير: ان تكون الارض قد سحبت من مسارها جانبا, والنظام الشمسي قد تدمر, بدون ان يشعر احد خارج منطقة فاطمة بالموضوع .وقصدي هنا ان البرتغال ليست معزولة بهذا القدر* عن بقية العالم .

هذا كل ما هنالك مما يمكن ان يقال حول موضوع التجارب الشخصية للاله او لظواهر دينية اخرى. ولو تعرضت لتجربة من هذا النوع فلربما تجد نفسك مؤمنا بواقعيتها بشكل قوي. ولكن لاتتوقع انه على الاخرين منا ان يصدقوا ذلك. وخصوصا اذا كان لدينا بعض المعرفة عن الدماغ وقدرته الجبارة على العمل .

الحجج من الكتاب المقدس

لايزال البعض مؤمنا بالله نتيجة لاقتناعه بالادلة الواردة في الكتب الدينية . احدى الحجج الشائعة , والمنسوبة للعديدين ومنهم س. اس. لويس (والذي يجب ان يكون اعرف من ذلك), تقول بأنه , طالما زعم المسيح بأنه ابن الله, فإنه اما على حق او مجنون او كذاب: "مجنون, سئ او جيد" او بشكل اخر, "مهووس, كذاب او اله". الادلة التاريخية قليلة جدا والتي تتبئ بأن المسيح زعم بأنه مقدس. ولكن حتى لو كانت الادلة جيدة, فإن ذلك العرض منقوص بشكل سخيف . الامكانية الرابعة, والتي هي اوضح من ان نحتاج ان الاشارة اليها, وهي ان المسيح كان مخطئا بأمانه. العديدون يفعلون ذلك. وعلى كل حال, وكما قلت, ليست هناك ادلة تاريخية جيدة بأن المسيح زعم بأنه مقدس بالمرة . من الواقعي ان الشئ المكتوب لايدفع الناس لاسئلة كالتالية:" من الذي كتبه, ومتى؟ كيف عرف عن الموضوع الذي كتبه؟" " هل اعتقدوا في وقتهم , بأننا في وقتنا, سنفهم ما قالوه ولماذا ؟" " هل كانوا مراقبين غير متحييزين , ام كان لهم هدف جعلهم يتلاعبون بكتاباتهم؟" وبدأ من القرن التاسع عشر , يشكك دارسو الديانات في ان الاناجيل يمكن الاعتماد عليها لمعرفة ما حصل تاريخيا في العالم بشكل حقيقي. كلها كتبت بعد وقت طويل من وفاة المسيح, وحتى بعد رسائل القديس بولص, والتي لم تشر تقريبا لاي من الوقائع عن حياة المسيح. ومنذ ذلك الحين وهي تنسخ وتنسخ, من خلال " اجيال من الهامسين الصينيين"(الفصل الخامس) ومن قبل كتاب غير معصومون عن الخطأ ولديهم جدول اعمالهم الديني الخاص .

احد امثلة تلوين القصص لاغراض دينية هو القصة الدافئة الاسطورية عن ولادة المسيح في بيت لحم. ملحقة بمذبحة هيرودوس للابرياء. عندما كتب الانجيل بعد وفاة المسيح لم يكن احد يعرف اين ولد. ولكن نبوءة من العهد القديم(ميكاه (5:2جعلت اليهود يتوقعون ان المخلص المنتظر سيولد في بيت لحم. وفي ضوء تلك النبوءه, فإن انجيل يوحنا يدون بشكل لاريب فيه بأن اتباعه فوجؤوا بأنه لم يولد في بيت لحم:" الاخرون قالوا, انه المسيح. والبعض قال, هل يأتي المسيح من الجليل؟ ليس هذا ما ذكر في الكتاب المقدس, بأن المسيح من نسل داوود, سيكون من بيت لحم, مكان داوود؟" متى ولوقا حلا المشكلة بشكل مخالف, وذلك بالقرار بأن المسيح يجب ان يكون قد ولد في بيت لحم رغم كل شئ. ولكنهم اتو به اليها بطرق مختلفة. متى جعل مريم ويوسف يذهبان لبيت لحم من الناصرة بعد وقت طويل من ميلاد المسيح, وعلى طريق عودتهم من مصر حيث هربا من الملك هيرودوس والمذبحة. لوقا, على العكس, يعترف بأن مريم ويوسف عاشا في الناصرة قبل ميلاد المسيح. كيف سينقلون لبيت لحم في اللحظة الحرجة, لتحقيق النبوءة؟ لوقا قال بأنه, عندما كان سيرينيوس حاكم سوريا, امر القيصر اغسطوس بإحصاء عدد السكان لامور تتعلق بالضرائب, وكان على الجميع ان يذهبوا ل"مدنهم الاصلية" . ويوسف كان من بيت ونسل داوود, ولهذا كان عليه ان يذهب ل"مدينة داوود, والتي تدعى بيت لحم". وبدا ان ذلك حل لابأس به للمشكلة. ماعدا انه ذلك تاريخيا ليس له معنى على الاطلاق , كما نوه ا. ن. ويلسون في المسيح و روبن لان فوكس في النسخة الغير مرخصة (والعديد من الاخرين ايضا). داوود ,لو كان موجودا ,لتوجب ان يكون سابقا بألف علم لمريم ويوسف. وما سبب طلب القيصر بأن يذهب يوسف لبلد عاش فيه اسلافه البعيدين جدا منذ الف عام؟ هذا اشبه بأن اضع اشبي–دولا- زوخ في خانة المدينة على طلب الضرائب الخاص بي, هذا ان استعطت ان اقتفي اثر اسلافي في عهد السينور داكين, والذي اتي مع ويليام الفاتح واستقر هناك .

والاكثر من ذلك. فقد خبص لوقا التواريخ بالتنويه لاحداث تاريخية مما يستطيع علماء التاريخ التدقيق فيه. بالتأكيد كان هناك احصاء تحت امرة الحاكم سيرينيوس – احصاء محلي وليس بأمر القيصر اغسطس لكل الامبراطورية – ولكن ذلك حصل متاخرا: في العام 6 ميلادي وبعد موت هيرودوس بكثير. لان فوكس استنتج بان قصة "لوقا مستحيلة تاريخيا ومفككة داخليا", ولكنه تعاطف مع لوقا في محنته ورغبته في تحقيق نبوءه ميكاه .في عدد كانون الاول 2004 من فري انكواياري, جمع توم فلين, محرر تلك الصحيفة الرائعة, مجموعة من المقالات التي دونت التناقض والفراغات في قصة الميلاد المحبوبة .فلين نفسة وضع لائحة بتناقضات عديدة بين متى ولوقا, وهم الانجيليان الوحيدان الذان تطرقا

لقصة الميلاد. روبرت غيلوي بين لنا كيف ان كل المواصفات المذكورة في اسطورة المسيح, متضمنة نجمة الشرق, ولادة العذراء, تبجيل الطفل من الملوك ,الاعاجيب, الاعدام والقيامة والصعود كلها مستعارة – على الاطلاق – من اديان كانت موجودة في منطقة البحر المتوسط والشرق الاوسط سابقا. فلين اقترح بأن رغبة متى بتحقيق نبوءة المخلص (من نسل داوود, مولود في بيت لحم) كانت للقراء اليهود وبذلك تتضارب مع نسخة لوقا ورغبته بنشر المسيحية عند الوثنيين, ولذلك كان التركيز على النقطة الحساسة في اللغة للدين الهيليني الوثني (ولادة العذراء, تبجيل من الملوك , الخ).التضارب صارخ وواضح , ولكنه متجاهل بشكل مستمر من المؤمنين .

المسيحيون المتطورون لايحتاجون لجورج غيرشوين ليقنعهم بأغانيه " الاشياء التي عليك فعلها \ القراءة بالانجيل \ ليس الامر كذلك بالضرورة ". ولكن هناك العديد من المسيحيين البسطاء والذين يعتقدون بأنه ذلك حصل بالضرورة كما كتب بالضبط – من الذين يأخذون الانجيل بجدية وحرفية كسجل تاريخي دقيق و دليل يدعم صحة معتقداتهم الدينية. هل فتح هؤلاء الكتب التي يعتقدون بأنها الحقيقة الحرفية؟ لماذا لايلاحظون هذه التناقضات الساطعة؟ الا يحق للمدقق الحرفي بأن يقلق لواقع ان متى اقتفى اسلاف المسيح حتى داوود من خلال 28 جيلا بينما لوقا احتاج ل 41 جيلا؟ والاسوأ هو عدم وجود اسماء مشتركة في اللائحتين تقريبا! وعلى اي حال , لو كان المسيح مولودا لعذراء , فإن اسلاف يوسف لايهمونا هنا ولايمكن استعمالهم لتحقيق النبوءة من العهد القديم بأن المخلص يجب ان يكون من نسل داوود .

دارس الانجيل الامريكي بارت ايهرمان, في كتاب بعنوان ثانوي الحكاية التي وراء تحريف العهد الجديد واسبابه (عنوان الكتاب تحريف كلام المسيح او من قال ذلك . حسب دار النشر*) , يكشف فيه اللخبطات الضبابية الكبيرة في نصوص العهد الجديد. وفي مقدمة الكتاب.يشرح البروفيسور ايهرمان بإسهاب عاطفي مخطط رحلته التعليمية من مؤمن متعصب بالانجيل , لمفكر متشكك, رحلة فرضت بدايتها ادراكه لاحتمالات الخطأ الكبيرة في الكتب المقدسة. وبشكل ملحوظ, عبر تنقله التدريجي في الجامعات الامريكية , من الحضيض في "كلية مودي الانجيلية" , حتى كلية ويتون(الاعلى مرتبة, والمدرسة الام لبيلي غراهام) وحتى برينستون العالمية في القمة. وفي كل خطوة كان يتلقى التحذيرات عن امكانية التسبب بالمشاكل لنفسه بتعصبه المسيحي في وجه التطور الخطر. وبرهنت صحة ذلك, وقراءه –نحن– هم الذين استفادوا.واليكم كتب اخرى ايقونية منعشة في نقد الانجيل. كتاب روبن لان فوكس النسخة الغير مرخصة, وقد ذكرته مسبقا, وجاكلين بيرلينربلاو الانجيل العلماني: لماذا على غير المؤمنين ان يأخذوا الدين بجدية .

الاناجيل الاربعة التي صارت شريعة رسمية, اختيرت عشوائيا بشكل او بأخر, من حوالي دزينة على الاقل منها توما, بطرس, نيكوديموس, فيليب, بارتولوم, ومريم المجدلية .وهي الاناجيل التي عناها توماس جفرسون في رسالته لابن اخته :

"هاك ملاحظة نسيت ان انوه عنها, عند الكلام عن العهد الجديد, فإنه عليك ان تقرأ كل تاريخ المسيح, كما أقره مجلس القسيسين عنا وعلينا, لنكون انصاف دعاة, كما هم يسمون انفسهم دعاة. لان هذا النصف داعي يتظاهر بالالهام, تماما كما يفعل الاخرون,وبذلك يمكنك الحكم على تظاهرهم بأحكامك الشخصية وليس بأحكام القسوس ".

الاناجيل التي لم تنتشر حذفت من قبل هؤلاء القسس, وربما لانها تحتوي قصصا اكثر احراجا من مثيلاتها في الاربعة الذين اصبحوا شرعيين. انجيل توما على سبيل المثال ,توجد فيه بعض الطرائف عن المسيح الطفل يسئ استعمال قواه السحرية بنفس طريقة جنيات الخرافات الشريرات, وبشكل عفريتي يحول اصدقاءه لعنزات , او يتحول الطين لعصافير, او يساعد ابوه في نجارته بإطالة قطعة خشب بشكل سحري. * وسيقال بأن لااحدا يصدق قصصا عن اعاجيب خام كالتي في انجيل توما على اية حال. ولكن ليس هناك اي سبب لنصدق الاناجيل الشرعية الاربعة ايضا. كلها لها صفة لاساطير, ومريبة في الواقع كما هي قصة الملك ارثر وفرسان المائدة المستديرة .

معظم ماهو مشترك في الاناجيل الاربعة اتي من مصدر مشترك, وهو انجيل مرقص او من عمل اقدم ضائع ,ومرقص هو اقدم ما نعرفه عن ناسخيه. لااحد يعرف من هم الدعاة الاربعة. ولكنه من المؤكد تقريبا انهم لم يقابلوا المسيح شخصيا. ومعظم ماكتبوه لايمكن ان يوصف بأي شكل بأنه تاريخ امين ولكن ببساطة اعادة قولبة للعهد القديم, لان صناع الانجيل كانوا مؤمنين بإقتناع عظيم بأن المسيح يجب ان يحقق نبوءة العهد القديم. ومن الممكن نفكر, ولو ان ذلك ليس منتشرا بعد, بجدية الطرح التاريخي بأنه لم يكن هناك مسيح على الاطلاق, كما فعل العديدون ومن بينهم البروفيسور ج. ا. والاس من جامعة لندن في كتبه والتي من بينها هل وجد المسيح؟ ورغم احتمال وجود المسيح, فإن دارسي الانجيل المحترمين لا يعتبرون العهد الجديد (وبالطبع القديم ايضا) كمصدر موثوق به للاحداث التاريخية, وسأتوقف الان عن اعتبار الانجيل كدليل على اي شئ الوهي. كما كان الحال في نصل جفرسون البعيد النظر لخلفه جون ادامز, " سيأتي يوم يعتبر فيه الجيل المبهم المؤمن بالمسيح, وابوه السماوي الخارق, ورحم العذراء, كالجيل الذي امن بمينرفا كإله موجود في دماغ جوبيتر (الاله الرومانية القديمة)

وقد احدث دان براون وكتابه شيفرة دافنشي والفيلم الذي عرض الكثير من اللغط في اواسط الكنيسة. وبأن المسيحيين عليهم اي يقاطعوا الفيلم ودور السينما التي تعرضه . انه بالتأكيد مفبرك من البداية للنهاية: بدعة, خيال مختلق . وفي ذلك الصدد فإنه ليس مختلفا عن الانجيل. والفرق الوحيد هو ان الاناجيل هي خيال قديم و شيفرة دافنشي خيال من العصر الحديث .

الحجة من العلماء الكبار المتدينين

الغالبية الساحقة من الاذكياء المثقفتن لايؤمنون بالدين, ولكنهم يخفون ذلك عن الجمهور, ذلك لانهم يخافون فقدان أعمالهم

برتراند راسل

"نيوتن كان متدينا, فكيف تضع نفسك في مستواه, غاليلو, كيبلر .. الخ .. الخ؟ اذا كان هؤلاء قد اقتنعوا بالله فمن تظن نفسك ؟" . وفي محاجة سيئة كهذه من المكن ان يذكر داروين من قبل المتدينين, وما اشيع عنه وانتشر كالرائحة الكريهة , وثبت خطأه , من اقاويل عن تحوله للايمان عندما كان على فراش الموت *, وقد بدأ ذلك من قبل (لايدي هوب), والغزل المثير للحساسية عن داروين مستلق على وسادة ويقلب صفحات العهد الجديد في ضوء المساء ويعترف بأن نظرية التطور كلها خطأ. في هذا المقطع سأركز على العلماء بشكل خاص, لان –السبب واضح – الذين يستعملون اسماء اناس يثيرون الاعجاب كأمثلة دينية يختارون العلماء في معظم الحالات .

نيوتن بالتأكيد ادعى التدين. وهذا ما فعله الجميع تقريبا – بشكل ملحوظ – حتى حلول القرن التاسع عشر, حيث قل الضغط الاجتماعي والقضائي عن القرون السابقة بما يتعلق بالصراحة الدينية, وزادت الادلة العلمية التي تدعوا لاهمالها. ولاشك بأن العديد من الاستثناءات في كلا الاتجاهين وجد ايضا. وحتى قبل داروين, لم يكن الجميع من المؤمنين. كما في كتاب جيمس هاوت 2000 عام من عدم الايمان: مشاهير كانت لهم الشجاعة للشك. والعديد من العلماء استمروا بالايمان حتى بعد داروين. ليس لدينا اي سبب لنشكك في والاء مايكل فاراداي للمسيحية حتى بعد معرفته الحتمية بداروين واعماله. وكان من جماعة سانديمانيان الدينية. والتي امنت (استعمل الفعل الماضي لان تلك الجماعة انقرضت عمليا) بحرفية الانجيل. ومن الطقوس كان غسل اقدام الداخلين الجدد وسحب القطع لمعرفة ارادة الله. واصبح فاراداي شيخا في , 1860 عاما واحدا بعد نشر اصل الانواع , ومات كساندوماني عام .1876 نظير العالم التجريبي فاراداي ,عالم النظريات كلارك ماكسويل, كان مسيحيا مخلصا ايضا. وكذلك كان عمود الفيزياء البريطانية في القرن التاسع عشر وليام تومسون, ولورد كيلفين, الذي جرب اثبات ان نظرية التطور باطلة بسبب عدم كفاية الوقت. خطأ العالم الترموديناميكي كان في افتراض ان الشمس كانت نوعا من النار, تحرق نوعا من الوقود الذي ينفذ خلال عشرات ملايين السنين, وليس الاف الملايين. ولاحد في زمان كالفين توقع وجود الطاقة النووية . لحسن الحظ, عام 1903 وفي اجتماع الجمعية البريطانية, برأ جورج داروين , الابن الثاني لتشارلز, اباه بعد اكتشاف كوري للراديوم, وفند بذلك تقديرات لورد كالفين الذي كان لايزال على قيد الحياة لفترة حياة الشمس .

خلال القرن العشرين اصبح البحث عن علماء يصرحون بالتدين عملية اصعب, ولكنهم ليسوا نادري الوجود بأي حال. وتقديري ان معظم العلماء المتدينين الحاليين هم بالمعنى الاينشتايني والذي ناقشته في الفصل الاول. استعمال الكلمة بشكل خاطئ. ولكن يوجد ايضا العديد من العلماء المتدينين بالمعنى التقليدي . من ضمن العلماء البريطانيين المحدثين, ثلاثة اسماء مألوفة تشترك بما يشبه مؤسسة محاماة لديكنز: بيكوك, ستانارد وبولكنغتون. ثلاثتهم حصلوا على جائزة تمبلتون او كانوا في مجلس الادارة لجمعيتها. وبعد مناقشات حبية شخصية وعمومية بيننا, فأن ما يظل محيرا بالنسبة لي, ليس ايمانهم بوجود نوع من رجل القانون الكوني, بل ايمانهم ايضا بتفاصيل المسيحية: القيامة, غفران الذنوب والخ . .

هنالك قرائن امريكية لهؤلاء ومثال على ذلك فرانسيس كولينز, المدير الاداري لمشروع الموروثات الانسانية الرسمي.* ولكن مايشد الانتباه هو قلة عددهم في بريطانيا وكونهم موضوع محير لاقرانهم في الوسط الاكاديمي . في عام 1996, وفي حديقة كلية كلار القديمة في كامبريدج, اجريت مقابلة مع صديقي جيم واتسون, العبقري المؤسس لمشروع الموروثات الانسانية, وذلك لبرنامج وثائقي اعددته لمحطة ب ب سي عن غريغور ماندل العبقري الذي اوجد علم الوراثة بذاته .ماندل بالتأكيد كان متدينا, كان راهبا اغوسطيا, ولكن ذلك كان في القرن التاسع عشر ,عندما كانت الرهبنة هي اسهل الطرق لمتابعة الشغف بالعلم بالنسبة لماندل. وبالنسبة له كان ذلك موازيا في ايامنا للحصول على منحة للبحث العلمي. سألت واتسون عما اذا كان يعرف بأي عالم متدين في ايامنا فأجاب: "عمليا لااحد. اصادف بعضهم بالمناسبات ,واشعر بالحرج (يضحك) لانني, كما تعلم, لاأستطيع التصديق بأن ايا كان يتقبل الحقيقة من خلال الوحي" .

فرانسيس كريك, المؤسس الشريك لواتسون للمشروع الثوري عن الجزيئات المورثة ,استقال من كلية تشرشل في كامبريدج, لان الكلية قررت بناء مصلى (اوصى به احد المتبرعين). في مقابلتي مع واتسون, قصدت ان اقول له بأن البعض , على عكس واتسون وكلارك, لايرون تناقضا بين العلم والدين, لانهم يزعمون بأن العلم يبحث في كيفية العمل للاشياء والدين يبحث في الغاية من ذلك. وعندها قال واتسون:" لااعتقد اننا موجودون لغاية ما. نحن منتوجات للتطور. بإستطاعتك القول," اه, لابد ان حياتك كئيبة جدا لعدم اعتقادك بوجود هدف ", "ولكنني اتوقع وجبة غداء جيدة على اي حال" . وغداؤنا كان جيدا فعلا .

الجهود التي يبذلها الدعاة في البحث عن علماء معاصرين مميزين وصادقين في ايمانهم ينبئ بالياس, يعطي الاحساس بالصدى الناتج علن قشط قاع البرميل. موقع الانترنت الوحيد الذي نشر لائحة عن "العلماء المسيحيين الحاصلين على جائزة نوبل" فيها ست اسماء, وذلك من اصل المئات من العلماء الحاصلين على الجائزة. من هؤلاء الستة, كان هناك اربعة ليسوا من الحاصلين على الجائزة على الاطلاق, وعلى الاقل واحد اعرف قطعيا بأنه ليس مؤمنا وانه يذهب للكنيسة لسبب اجتماعي صرف. وفي دارسة منظمة من قبل بنجامين بيثالاهمي "وجد بأن نسبة عدم التدين بين الحاصلين على جائزة نوبل للعلوم والاداب اوالمرشحين لها كبيرة بشكل ملحوظ جدا بالنسبة للمناطق التي ينتمون اليها" .

في دراسة اخرى من صحيفة الطبيعة قام بها لارسون و ويتمان في 1998 نرى بأن من بين العلماء الامريكيين المتفوقين بنظر اقرانهم لدرجة انهم انتخبوا ليكون اعضاء في الاكاديمية الوطنية للعلوم (ما يوازي العضوية في الهيئة الملكية في بريطانيا) يوجد حوالي 7 بالمئة فقط ممن يؤمنون بالله الشخصي. تلك الغالبية الساحقة من الملحدين هي تقريبا عكس نسبتها في الشعب الامريكي بشكل عام, حيث نسبة المؤمنين بشكل او بأخر بقوة كونية خارقة ما تقارب ال 90بالمئة . والنسبة بين العلماء الاقل سموا والذين لم ينتخبوا للاكاديمية في الوسط بين النسبتي السابقتين. والمؤمنين يشكلون اقلية ولكنها ليست بذات الدرامية وبنسبة حوالي .40% وهذا تماما ما اتوقعه من ان نسبة التدين بين العلماء اقل منها بالنسبة للعامة, والعلماء الاكثر تميزا هم الاقل تدينا على الاطلاق. من الملاحظ التعارض الصارخ بين تدين عامة الشعب الامريكي والحاد النخبة المثقفة . من المدهش لدرجة ما بأن موقع الانترنت الرائد لمؤيدي نظرية الخلق نشر دراسة لارسون و ويتنام, ولكن ليس كدليل على احتمال وجود خطأ في موضوع التدين , ولكن كسلاح لمعركتهم الداخلية ضد المتدينين المنافسين الذين يزعمون بأن نظرية التطور تتماشى مع الدين. وتحت عنوان "الاكاديمية الوطنية للعلوم مضادة لله في الصميم", وقد علقوا على النتيجة النهائية من لارسن و ويتمان في رسالة لمحرر الطبيعة :

> "ورائينا بعد التمحيص, بأن الاكاديمية نشرت كتيبا تشجع فيه على تدريس التطور في المدارس العامة, هو إستمرار للاستفزاز بين الجالية العلمية وبعض المحافظين المسيحيين في امريكا. " سواء كان الله موجودا ام لا, فهذا ليس من شأن العلم" وعميد الاكاديمية بروس البرت قال: " هناك العديدين من الاعضاء المميزين في الاكاديمية من المتدينين جدا, ويؤمنون بنظرية التطور, والعديد منهم علماء بيولوجيا". ولكن احصائياتنا لها نتائج مخالفة لذلك " .

يشعر المرء, بأن البرت قد اعتنق (إ غ م) لسبب كنت قد ناقشته في "مدرسة نيفيل تشامبرلاين للتطوريين" (الفصل الثاني). ولكن (اجوبة من جينيسيس) لها اهداف اخرى .

ما يوازي الاكاديمية الامريكية الوطنية للعلوم في بريطانيا (وكل دول الكومنولث كأوستراليا , كندا , نيوزيلاندا الخ) هو الجمعية الملكية. وفي نفس الوقت الذي يذهب فيه هذا الكتاب للطبع يقوم زملائي ر. اليزابيت كورنويل ومايكل ستيرات بكتابة نتائج مقارنة مشابهة ولكن اكثر عمقا عن اراء اعضاء الجمعية الملكية في الدين. وستنشر النتائج بالتفصيل لاحقا, وهم تكرموا بالسماح لي بأن اعلق على النتائج المبدئية هنا. لقد استعملوا تقنية تسمى سلم الاراء, سلم من سبع نقاط مشابه لسلم ليكيرت. جميع الاعضاء ال 1074 للجمعية والذين لديهم ايميل طلبوا للمشاركة فيه, وحوالي 23 بالمئة

استجابوا للطلب (نسبة لابأس بها لهذا النوع من الدراسات). وعرضت عليهم اسئلة مختلفة مثل :"انا اومن بالاله لشخصي, الذي يجيب يهتم بما يفعله الفرد, يسمع وييستجيب للدعاء, يقلق على موضوع الخطيئة والتجاوزات, ويحكم على اساس ذلك ".وهناك سبعة خيارات من معارض بشدة لموافق بشدة. من الصعب مقارنة هذه الدراسة مع دراسة ويتمان ولارسن لانهم عرضوا ثلاث خيارات على سلم دراستهم وليس سبع. ولكن الاتجاه في الحالتين واحد. وبأكثرية هائلة في الجمعية الملكية كما في حال الاكاديمية في امريكا كانت من الملحدين 3.3 .بالمئة فقط وافقوا بشدة على وجود الاله الشخصي(الدرجة 7 من السلم) بينما 78.8 عارضوا بشدة(الدرجة 1 من السلم). لو اعتبرنا انا المؤمنين هم اختار 6 او 7 والملحدين هم من اختار 1 او 2 فإن لدينا 213 ملحدا مقابل 12 من المؤمنين. كما في حال لارسون و ويتمان. وكما هو الحال في الاكاديمية وكما لاحظ بيات هالامن وارجيل من جهة وستيرات وكورنويل من جهة اخرى فإن الملحدين البيولوجيين اعلى قليلا من الفيزيائيين. وللتفاصيل الرجاء مراجعة النتائج عندما تنشر .

وبعيدا عن الاقلية من العلماء في الاكاديمية الوطنية والجمعية الملكية, هل هناك اي دلائل بأن الملحدين ينتمون الى الفئة الافضل ثقافة والارقى تعليما في المجتمعات بشكل عام؟ لقد نشرت عدة دراسات احصائية عن العلاقات بين التدين ومستوى الثقافة, او التدين ومستوى الذكاء. مايكل شيرمر في كيف نؤمن: البحث عن الله في عصر العلم , يصف احصائية على عينة عشوائية في امريكا اجراها مع زميله فرانك سولواي. ومن ضمن النتائج الكثيرة والمثيرة في مسحم الاحصائي كان التناسب العكسي الواضح بين التدين ومستوى التعليم (الافراد الاعلى في مستوى التعليم هم الاقل تدينا). كما ان التدين يتناسب عكسا مع الاهتمام بالعلم و(بشكل قوي) الحرية السياسية . لا شي غير متوقع هنا تماما كما العلاقة الطردية بين التدين وتدين الاباء. اختصاصيي علم الاجتماع في انكلترا وجدوا بأن واحدا من اصل 12 فقط ينفصل دينيا عن معتقدات ابويه .

وكما قد تتوقع, فإن الباحثين يستعملون طرقا مختلفة لقياس الظواهر. وبالتالي فإنه من الصعب المقارنة بين الدراسات. وتحليل معلومات النتائج هو التقنية التي يستعملها المحقق في هذه الحالة وذلك بفحص كل نتائج الابحاث في موضوع ما ووضع عدد الابحاث التي استنتجت شيئا ما مقابل الابحاث التي استنتجت شيئا اخر. وفي حالة التدين ومستوى الذكاء فإن النتيجة الوحيدة عن تحليل نتائج عدة ابحاث والتي لي علم بها نشرت في مينزا ماغازين في 2002 واجراها باول بيل (مينزا هي جمعية الافراد ذوي مستوى الذكاء العالي, وليس من المفاجئ ان تحوي مجلتهم مواضيعا عن الشئ الوحيد الذي يجمعهم معا). والنتائج عند بيل كانت كالتالي: "من 43 دراسة اجريت منذ عام 1927 عن العلاقة بين الاعتقاد الديني و مستوى التعليم, جميعها ما عدا اربعة منها وجدت التناسب عكسيا. يعني بأنه كلما على مستوى الذكاء او الثقافة عند فرد ما, كلما قل احتمال ان يكون هذا الشخص متدينا او ان يكون لدين "ايمان" من اي شكل"

تحليل معلومات النتائج لعدة تجارب بشكل عام يعطي نتائج اكثر عمومية واقل دقة من اي دراسة قد ساهمت به. من الجيد عمل دراسات في تلك المجالات, وايضا عن الاقلية في جمعيات مشابهة للاكاديمية الوطنية. والحائزين على جوائز علامية وميداليات مثل نوبل, كرافورد, كيوتو .. الخ. امل ان اكون قادرا على ضم بعض النتائج في اصدار لهذا الكتاب في المستقبل . ربما تساهم النتائج العقلانية لابحاث كهذه في جعل رجال الدين يترددون قبل الاشارة لشخصيات محترمة كأمثلة في التدين , على الاقل فيما يختص بالعلماء .

رهان باسكال

بحسب عالم الرياضيات الفرنس العظيم بليز باسكال فإنه, مهما صغرت الدلائل على وجود الله, فإن العقوبة التي تنتظر المخطئ كبيرة بشكل مناظر لذلك. الافضل الايمان بالله, لانك لو كنت مصيبا ستربح النعمة الكبرى ولو كنت على خطأ فلن يكون هناك فرق .ومن ناحية اخرى, لو لم تؤمن بالله وكنت مخطئا فستتعرض للعنة الابدية, ولو كنت مصيبا فلن يكون هناك اي فرق. وعلى ذلك فالقرار لايحتاج لذكاء. عليك الايمان بالله .

هناك شئ ما محير بشكل خاص في هذه الحجة. الايمان ليس شيئا تقرره كسياسة. وعلى الاقل فأنا لااستطيع فعله بإرادتي. استطيع ان اقرر الذهاب للكنيسة واستطيع ان ارتل الايات, واستطيع ان اقسم على مجموعة الاناجيل بأني اصدق كل كلمة فيها. ولكن لاشي من ذلك يجعلني مؤمنا اذا لم اكن كذلك . ورهان باسكال ليس اكثر من من حجة

لاختلاق الايمان بالله. والافضل للاله المزعوم والكلي العلم ان يستطيع رؤية المكر. سخافة الفكرة ذاتها بأن الايمان هو شئ تستطيع ان تقرره كانت موضع السخرية الرفيعة المستوى من قبل دوغلاس ادام في وكالة ديريك جينتلي للتحريات الشاملة, حيث يصف فيها الراهب الالي الالكتروني, اله تشتريها لتوفير الوقت المصروف في العبادة, حيث انها تقوم "بالايمان بدلا عنك" . والنموذج الفاخر يوصف بأنه "يستطيع الايمان بأشياء لايستطيع اهل سولت لايك سيتي الايمان بها"(سولت لايك سيتي مدينة في امريكا ينتشر فيها المذهب المورموني والمعتقد بقدوم المسيح القادم في امريكا واشياء مضحكة اخرى – المترجم)

ولماذ,على ايةحال,نقبل الفكرة بأن الشي الوحيد الذي يجب ان نفعله لارضاء الله هو الايمان به؟ لماذا هذه الخصوصية للايمان؟ الا يجب ان يكافئ الله الشفقة,او الكرم, او التواضع؟ او الصدق؟ ماذا لوكان الله عالما يعتبر الصدق في التحري عن الحقيقة كمزية عليا؟ في الحقيقة , الا يجدر بأن يكون من صمم الكون عالما؟ عندما سؤل برتراند راسل عن موقفه بعد الموت والوقوف بين يدي الله الذي يسأل راسل عن سبب عدم ايمانه به. كانت اجابة راسل (كنت على وشك ان اصفها بالخالدة) "عدم كفاية الادلة ايها الاله ,عدم كفاية الادلة". الن يحترم الله راسل على شكه الشجاع (ناهيك عن شجاعة موقفه السلبي خلال الحرب العالمية الاولى الذي ادى به للسجن) اكثر من باسكال ورهانه الجبان؟ وبما اننا لانعرف موقف الله, فإننا برأي باسكال لسنا بحاجة للمعرفة من اجل رهان رابح. لنتذكر انه رهان وباسكال نفسه لم يدعي ان رهانه لايحوي اكثر من احتمالات طويلة. فهل تراهن على ان الله يفضل إيمانا مزورا وغير امين (او حتى ايمانا صادقا (على شك صادق؟ ومرة اخرى لتفترض ان الاله الذي تقابله بعد الموت كان بعل , ولنفترض ان بعل غيور تماما كما قيل عن يهوه . الا يكون من الافضل لباسكال ان يراهن على عدم وجود اله عن المراهنة على الاله الخاطئ؟ وبالتأكيد فإن العدد المطلق للالهه والالهات والذي يمكن الرهان عليه يفسد منطق باسكال كله؟ ربما كان باسكال مازحا عندما طرح موضوع الرهان, تماما كما امزح الان في نقضه. ولكنني قابلت العديدين, ومنهم من اقترح بجدية موضوع رهان باسكال كحجة على وجوب الايمان بالله, وهذا ماجعلني اعرضها بإختصار هنا .

وبالنهاية فهل من الممكن ان نحاجج بمضادات رهان باسكال؟ لنفرض بأننا امنا بأن هناك احتمالا صغيرا لوجود الاله. وعلى الرغم من ذلك, يمكننا ان نقول بأنك يمكن ان تحيا حياة افضل لو راهنت على عدم وجوده, عما لو راهنت على وجوده وبناء على ذلك وبذرت الوقت الثمين في العبادة , والتضحية, والقتال والموت من اجله الخ... . لن اتابع السؤال هنا, وربما سيحمل القارئ ذلك السؤال في ذهنه عندما نناقش العواقب الاليمة التي تتدفق كنتيجة للايمان ومراعاة الدين .

حجة بايس

اعتقد بأن اكثر الحالات شذوذا في محاولات البرهان على وجود الله هي حالة بايس ,والتي وضعها ستيفان انوين في احتمالات الله . ترددت قبل ان اضيفها لبقية الحجج كونها اضعف واقل تقديسا من الاخريات. كتاب انوين , على ايه حال, تلقى الكثير من الصدى الصحفي عندما نشر في 2003, ولدينا الفرصة لان نقدم بعض الشرح فيما يخص ذلك هنا. عندي بعض التعاطف معه لانني كما نوهت في الفصل الثاني, اومن بالاله كفرضية علمية, وعلى اقل تقدير كمبدأ, يمكن التحري عنها. كما محاولة انوين الخيالية لوضع ارقام للاحتمالات وهو لطيف بل فكاهي ايضا .

العنوان الثانوي للكتاب , حسبة بسيطة تبرهن الحقيقة الخالدة , وهو العلامة المميزة في الطبعات المتاخرة بأنه موضوع من قبل الناشر, لان نص انوين لايحتوي على تلك الثقة المغرورة. ومن الافضل النظر للكتاب على انه دليل "الاستخدام". شئ من قبيل " شرح نظرية بايس للاغبياء", وذلك بإستعمال وجود الله بطريقة طريفة نوعا ما للدراسة. كان بإستطاعة انوين ان يستعمل فرضية جريمة قتل لشرح نظرية بايس بنفس الفعالية .

المحقق يشير للادلة. البصمات على المسدس تشير الى السيدة بيكوك. يحدد الشبهه برقم ما. ولكن, البروفيسور بلام لديه الدافع لتوريطها وجعلها تبدو مجرمة, هذا يخفف الشبهة عنها بالرقم الموافق. الادلة المخبرية تعطي احتمالا 70% بأن المسدس قد اطلق من مسافة بعيدة. مما يدل ان المذنب متدرب عسكريا. وعلى هذا نعطي رقما للكولونيل ماستارد. والموقر غرين عنده * الدافع الاكثر معقولية للجريمة. وهذا يزيد رقم احتمال شبهته. ولكن الشعر الاشقر على سترة الضحية لايمكن ان تكون لاحد غير السيدة سكارلت.. وهكذا .

بشكل ما تتضارب الاحكام الذاتية للامكانيات في عقل المحقق , وتسحبه في كل اتجاه .نظرية بايس كانت من المفترض ان تساعده في الحصول على استنتاج. وهي عبارة عن عملية رياضية تجمع العديد من تخمين الامكانيات وتستخلص منها حكما نهائيا, والذي بدوره يتضمن تخمين امكانيتة. وبالتأكيد فإن جودة التخمين النهائي تعتمد على الارقام المقدمة بالاصل في البداية. وهذه في العادة احكام ذاتية, وتحوي كل الارتيابات الناتجة عنها. المبدا ق د ق خ (قمامة داخلة, قمامة خارجة – مقولة في علم الكومبيوتر - المترجم) قابل للتطبيق هنا – وفي حالة اونوين فأن كلمة "قابل للتطبيق" تبدو معتدلة بشكل كبير .

اونوين مستشار في مخاطرات الادارة ويحمل مصباح الاستدلال لبايس, وبشكل منافس لطرق الاحصاء, يشرح لنا نظرية بايس ليس بمثال عن جريمة قتل ولكن بشرح الفكرة العظمى بين الافكار, وجود الله. والخطة ان نبدأ بالحيرة الكاملة,والتي اختار لها الرقم 50 بالمئة لكلتا الحالتين. وبعد ذلك يضع لائحة من ست وقائع متعقلة بالموضوع, ويضع ثقلا رقميا لكل واقعة, ويدخل كل ماسبق كعوامل في نظرية بايس ويرى ما هو الرقم الناتج. والمشكلة ان (مرة اخرى) ان الثقل الرقمي لايقاس بل هو من حكم ستيفن اونوين الشخصي, وقد حولها لارقام للتمرين فقط. الوقائع الست هي :

1. لدينا شعور بالطيبة .
2. البعض يفعلون الشر (هتلر, ستالين, صدام حسين).
3. الطبيعة تحدث فيها امور شريرة (زلازل, تسونامي, عواصف).
4. ربما توجد معجزات صغيرة (اضعت مفاتيحي ثم وجدتهم).
5. ربما توجد معجزات كبيرة (المسيح ربما قام من بين الاموات).
6. البعض حصلت معه تجارب دينية .

ولمجرد اعطاء القيمة (التي لاتساوي شيئا بنظري), فإننا في النتيجة وبعد سباق بايس الذي يجري فيه الله ويسبق توقعات المتراهنين جميعا. ثم يصبح اخر المتسابقين, ثم يصعد بقيمته لل , 50% وننتهي بالسرور من الاحتمل الذي حصل اونوين عليه وهو 67% في صالح وجود الله. وبعد ذلك يقرر اونوين بأن 67% ليس كافيا , وبخطوة غريبة يرفع الاحتمال ل 95% وذلك بحقنه اسعافية من "الإيمان". ربما يبدو ذلك كمزحة, ولكن هكذا اكمل الحسابات. واتمنى ان اشرح كيف برر ذلك, ولكن لاشئ يمكن ان يقال هنا. وقد واجهت هذا النوع من السخافة في مناسبة اخرى, عندما تحديت متدينين وبنفس الوقت علماء لامعين ان يبرروا إيمانهم, بعد ان اعترفوا بعدم وجود ادلة: " اعترف انه لاتوجد ادلة. هناك سبب لتسمية ذلك الايمان" (العبارة تدوي بالاتهام المشاكس, ولم يكن فيها اي تلميح لاعتذار او دفاع عن الرأي)

ومن المفاجئ أن لائحة اونوين لاتحتوي على حجة التصميم, او اي حجة من "اثباتات" اكويناس الخمس. ولا ايا من حجج الوجودية. لااثر لاي من ذلك: ولاتساهم ايا منها بأي حافز في تخميناته الرقمية لامكانية وجود الله. بل انه يناقشهم ويهملهم كأي احصائي جيد بإعتبارهم فارغين. وانا اعتقد ان ذلك نقطة في صالحه, بالرغم من انه اهمل حجة التصميم لسبب مغاير لسببي. ولكن الحجج التي يتقدم بها من خلال الباب الخاص بالمدخل ل بايس تبدوا لي ضعيفة بنفس المستوى. واعني بذلك بأنني سأعطي وزنا للامكانيات مختلفا تماما عن الوزن الذي اعطاه هو, ولكن من يهتم للاحكام الشخصية على اية حال؟ وهو يفكر بأنه يمكننا الاعتماد على حدسنا بالصح والخطأ بشكل قوي في صالح وجود الله, بينما اعتقد بأنه ليس من الواجب ان ينحرف لهذا السبب , في اي من الاتجاهين, عن اتجاه التوقع الاصلي .

الفصل السادس والسابع سيشرحان لنا بأنه لايمكن بناء قضية بشكل جيد لتدل على ان امتلاكنا للحس بالخطأ و الصواب له اي علاقة بوجود اله خارق للطبيعة. وكما نستطيع تقدير رباعيات بيتهوفن , فأن احساسنا بالخطأ والصواب (لايعني ذلك بالضرورة حافزا لاتباعها) هو كما هو بإله او بدونه . ومن ناحية اخرى فإن انوين يفكر بأن وجود الشر, خصوصا الكوارث كالزلازل والتسونامي هي امور ضد احتمال وجود الله. وهنا, يعاكسن اونوين رأيي ولكنه يتماشى مع الكثيرين من علماء الدين الغير مرتاحين. "الثيوديسي" (اثباتات التدبير القدسي في وجه الشر الموجود) هو مما يقلق علماء الدين. والموثقه رفيق اوكسفورد الى الفلسفة تعطي تعريفا لمشكلة الشر " المعارضة الاقوى للايمان التقليدي بالله". ولكنها فقط حجة ضد وجود اله طيب. الطيبة ليست جزءا من التعريف لفرضية الاله, بل هي مجرد اضافة مرغوبة .

في الحقيقة, الناس الذين لديهم نزعة دينية لديهم ايضا عدم تمييز مزمن بين الحقيقة وما يرغبونه بأن يكون الحقيقة. ولكن, بالنسبة للمتطورين والمؤمنين بنوع ما من القوى الخارقة, فمن السهل عليهم التغلب على مشكلة الشر. مسلمة بسيطة عن اله شرير – كالذي في كل صفحات العهد القديم. او , لو لم يعجبك ذلك, اختراع اله شرير مختلف ,

سمه الشيطان, واعتبر ان الشر كله نتيجة معركته مع الاله الخير في العالم. او – حل اكثر تطورا – سلم بإله عنده امور اهم من ان يحصر اهتمامه بالانسان. او اله ليس لامباليا بمعاناة الانسان ولكنه يعتبرها ثمنا للخيار الحر يجب دفعه , كون خاضع للقوانين .

ويوجد الكثيرين من علماء الدين ممن يسترشدون بأفكار كهذه .ولذلك , لو اعدت عمل تمرين اونوين عن بايس, فلن تحرفني مشكلة الشر او الاخلاق في اي اتجاه عن خط الصفر 50% (في حالة اونوين). ولكنني لن احاجج هنا لانني على كل حال لااستطيع ان اتأثر بأراء شخصية, سواء كانت ارائي او اراء اونوين .

هناك حجة اقوي بكثير, لاتعتمد على الاحكام الشخصية, وهي حجة اللاإحتماليه. والتي تنقلنا بشكل درامي بعيدا عن نقطة ال 50% اللاأدرية, بتطرف نحو الايمان بالله وذلك بنظر الكثيرين من المؤمنين, وبتطرف نحو الالحاد بنظري. وقد لمحت لذلك عدة مرات .كل الحجة تدور حول السؤال" من صنع الله" ؟ والناس الذي يفكرون سيكتشفون بأنفسهم. لايمكن استعمال نظرية الاله المصصم لتفسير الترتيب المعقد لان اي اله قادر على تصميم اي شي يجب ان يكون معقد بشكل كاف ويتطلب بدوره تفسيرا لحقه في الوجود. الاله يتطلب ارتدادا لامفر منه ولايمكنه تفسيره. وهذه الحجة , كما سأشرح في الفصل المقبل, ترينا بأن قلة احتمال وجود الله كبيرة جدا , على الرغم من انه تقنيا غير قابل للنفي. الطبع .

الفصل الرابع

لماذا الاحتمال الاكبر هو عدم وجود اله

ان مرشدي مختلف فروع الديانات.. يعانون من تقدم العلم كما تعاني الساحرات من اقتراب الشروق, ويعبسون في وجه ذلك البشير الذي يعلن بأن تلك الاحلام المخدرة التي يعتاشون عليها في طريقها للزوال

توماس جفرسون

طائرة البوينغ747 الكبرى

الحجة من اللاإحتماليه هي الحجة الكبرى. وتظهر في الحجة التقليدية عن التصميم, وهي بسهولة اشهر حجة تقدم في هذه الايام عن وجود الله وتعتبر , للدهشة العظيمة, من قبل العديدين جدا من المؤمنين بالله, بأنها كاملة ومقنعة تماما . هي بالتأكيد حجة قوية ,واشتبه بأنها, عديمة الجواب – ولكن بعكس الاتجاه الذي يراه المؤمنون تماما. وحجة اللاإحتماليه في الواقع ,لو نشرت بشكل صحيح فإن تبرهن ان الله غير موجود. والاسم الذي اخترته للاستعراض احصائيا بأن الله غير موجود هو مناورة طائرة البوينغ 747 الكبرى .

الاسم اتى من الصورة المدهشة التي اتى بها فريد هويل عن طائرة البوينغ 747 و محل الخردة.لست متأكدا اذا ما كان هويل نفسه قد كتب عن ذلك, وزميلته شاندرا ويكراماسنغ هي التي نسبتها اليه و المفروض ان التوثيق اصيل. هويل قال بأن احتمال نشوء الحياة على الارض ليس اكثر من احتمال اعصار, يعصف في محل خردة, ويصادفه الحظ بأن يجمع طائرة . 747 واخرون استعارو ا هذا التشبيه ليشيروا الى مواضيع التطور للاجسام الحية المعقدة, مع كل التزوير للحقيقة. الاحتمالات ضد تشكيل حصان كامل وشغال , او حتى خنفسة او نعامة من جراء خلط الاجزاء المختلفة لها يقع في حقل احتمالات ال . 747 تلك الحجة بإختصار, هي المفضلة عند الخلوقيين – حجة تطرح فقط من شخص لايفهم ابسط الاشياء عن الانتخاب الطبيعي: شخص يظن بأن الانتخاب الطبيعي هو نظرية حظ بينما هي –بهذا المعنى للحظ – تعني العكس تماما .

اختلاس الخلوقيين لحجة اللاإحتماليه له نفس الشكل دائما,وخيار الخلوقيين بإظهارها بلباقة في مظهر "التصميم الذكي(ت ذ)* لايشكل اي فرق. ملاحظات لبعض الظواهر – غالبا عن كائنات حية او احد اعضائها المعقدة, و بالامكان ان تكون اي شئ بدأ من جزئ وانتهاء بالكون نفسه – تؤدي للتسليم بأنها احصائيا غير محتملة. وفي بعض الاحيان تستخدم لغة المعلوماتية : نتحدى الداروينيين لتفسير مصدر المعلومات للاشياء الحية ,وذلك بالمعنى التقني لمحتوى المعلومات كقياس لاللاإحتماليه او "القيمة المفاجئة". او تستخدم شعارات الاقتصاديين المبتذلة مثل "ليس هناك ما يسمى غداء مجانيا" , ويتهم الداروينيون بمحاولة الحصول على شئ من لاشئ. وفي الواقع , كما سأبين في هذا الفصل, فإن الانتخاب الطبيعي لداروين هو الحل الوحيد المعروف لاحجية مستحيلة الحل بأي طريقة اخرى عن موضوع من اين اتت المعلومات. والحل يوضح بان دعاة فرضية الله هم الذين يحاولون الحصول على شئ من لاشئ. والله يحاول الحصول على غداء مجاني بأن يكون هو نفسه ذلك الغداء. ومهما كان الموضوع الذي تحاول تفسير حدوثه بربطة بالمصمم قليل احتمال الحدوث احصائيا , فإن المصمم نفسه يجب ان يكون قليل الاحتمال على الاقل بنفس النسبة . الله هو 747 الكبرى .

حجة اللاإحتماليه تنص بأن الاشياء المعقدة لاتأتي بالصدفة. والغالبية يفسرون بأن "تأتي بالصدفة" بمعنى "تأتي بدون وجود تصميم مدبر". ولذلك فليس من المفاجئ ان يظنوا , بأن اللاإحتماليه هو دليل على التصميم. الانتخاب الطبيعي الدارويني يظهر لنا خطأ ذلك عند اعتبار اللاإحتماليهات فيما يتعلق بالبيولوجيا. وعلى الرغم من ان الداروينية لاتتعلق بشكل مباشر بعالم الاشياء الجامدة – كعلم الكون مثلا, فإنها ترفع مستوى الوعي عندنا خارج نطاق مجالاتها المحصورة بالبيولوجيا .

الفهم العميق للداروينية يعلمنا الحذر عندما نفترض بأن التصميم هو البديل للصدفة ,ويعلمنا ان نبحث عن تدرجات بطيئة جدا في زيادة التعقيد. وقبل داروين, كان الفلاسفة مثل هيوم يفهمون ان عدم احتمال الحياة لايعني بالضرورة ان تكون مصممة ولكنهم لم يستطيعوا تخيل البديل. وبعد داروين, علينا جميعا ان نشعر, عميقا في عظامنا, بالشك في نظرية التصميم ذاتها . الوهم عن التصميم هو فخ وقعنا فيه من قبل, و يفترض ان داروين اعطانا المناعة ضده برفع مستوى وعينا. والامل ان يكون قد نجح في ذلك مع الجميع .

الانتخاب الطبيعي و الوعي

في احدى مركبات الفضاء في الخيال العلمي, كان رواد الفضاء يعانون من الغربة " :

تخيل ان الربيع بدأ هناك على الارض!" ربما لاتلاحظ مباشرة ما هو الخطأ في هذه العبارة, ان الشوفينية لنصف الكرة الشمالي مغروسة بعمق في شخصياتنا نحن الذين نعيش هناك, وحتى بعض الذين لايعيشون هناك. "العقل الباطن" هو الكلمة الصحيحة .وفي تلك المنطقة علينا استعمال رفع الوعي. هناك سبب اعمق من ان يكون دخيلا على المزاح في انك تستطيع , في اوستراليا وينو زيلاندا, ان تشتري خرائط للعالم والقطب الجنوبي فيها مرسوم في الاعلى. يالتلك الخرائط من رافع رائع للوعي , لو ثبتناها على حيطان الصفوف في نصف الكرة الشمالي. سيتذكر الطلاب يوما بعد يوم بأن "الشمال" هو قطبية اعتباطيه لاعلاقة لها ب "الاعلى" . الخريطة ستثيرهم وترفع من وعيهم .سيذهبون للمنزل ويخبرون اهاليهم – وبالمناسبة , اعطاء الطلاب شيئا يستطيعون معه ان يفاجئوا اهاليهم هو احد اعظم المنح التي يقدمها مدرس .

احد الدعاة للمساواة بين الجنسين لفت انتباهي لقوة رفع الوعي. تبدوا "تاريخة" ككلمة سخيفة, ولكن عدم وجود التاء المربوطة في كلمة تاريخ لايعني بأن التاريخ متعلق بالذكور فقط. والاشتقاق سخيف, وكما في 1999 حيث استعمل ضابط في واشنطن كلمة "نيغاردلي –بمعنى بخيل" واوقف بتهمة استعمال الفاظ عنصرية "نيغر تعني العبد الاسود". ولكن حتى الاشتقاقات البسيطة مثل "تاريخة" او "نيغاردلي" تنجح في رفع مستوى وعينا. في احدى الامسيات توقفنا عن المزاح وصقلنا سكاكين الفلسفة, وعندها ظهرت امور مخبأة اخرى بين تاريخة وتاريخ بحسب اختلاف وجهات النظر .

الضمائر المتعلقة بالجنس تقع في الخط الاول في حالات رفع الوعي تلك. يجب عليه ان يسأل نفسها او عليها ان تسأل نفسها عما اذا كان حدسه او حدسها عن القالب اللغوي يتطلب منه او منها الكتابة بهذا الشكل. ولو غضضنا النظر عن عدم اهلية اللغة . وركزنا على رفع الوعي والاحساس بنصف الجنس البشري. الرجل, الجنس البشري, حقوق الانسان, كل الرجال خلقوا سواسية, رجل واحد صوت واحد – اللغة الانكليزية تبدوا وكأنها تستبعد المرأة. * في شبابي لم يخطر لي بأنه من الممكن ان تشعر النساء بالاهانة من عبارات "مستقبل الرجل".(العبارات السابقة هي شعارات انكليزية مترجمة حرفيا– المترجم). وخلال العقود الاخيرة رفعنا من وعينا. وحتى هؤلاء الذين لايزالون يستعملون كلمة " الرجل" بدلا من " الانسان " يفعلون ذلك بشئ من الاعتذار الواعي الذاتي او من ناحية اخرى للمشاكسة, ويقفون موقفا مساندا للغة التقليدية ليثيروا حفيظة المؤمنين بتساوي الجنسين. كل من ينتمي لروح العصر قد رفع من وعيه , حتى هؤلاء الذين اختاروا الثبات على موقفهم السلبي ومضاعفة الخلاف .

المؤمنون بالمساواة بين الجنسين وضحوا لنا قوة رفع الوعي, وانا هنا سأستعير تقنياتهم لاستعملها في الانتخاب الطبيعي. الانتخاب الطبيعي ليس فقط لتفسير الحياة بشكل كامل, ولكنه يرفع وعينا ايضا لقدرة العلم على شرح كيفية ظهور التعقيدات المرتبة من بدايات بسيطة وبدون توجيه متعمد. والفهم الكامل للانتخاب الطبيعي يشجعنا ان نطبقه بجرأه في فروع اخرى. انه يرفع من مستوى الشك, في تلك الفروع الاخرى,في صحة البدائل المزورة والتي كانت في يوم ما ,قبل الداروينية, خدع بيولوجية. من, قبل داروين ,كان بإستطاعته ان يخمن بأن شيئا يبدوا مصمما بالتأكيد كجناح الذبابة او عين النسر يمكن ان يكون ناتجا عن سلسة من التغيرات الغير عشوائية بل لاسباب طبيعية بحتة؟ .

قصة دوغلاس ادام الطريفة والمحركة للعواطف لتحوله للالحاد الراديكالي – اصر على كلمة راديكالي لئلا يخطأ احد ويعتبره لادريا – شهادة لقوة الداروينية في رفع الوعي .امل العفو من القارئ عما سيبدوا وكانه مديح للنفس فيما يلي. ان تحول دوغلاس بسبب كتبي السابقة – والتي لم تكتب بهدف تحويل احد – هو السبب في اهداء هذا الكتاب لذكراه – الذي يهدف لذلك . !

سئل دوغلاس في مقابلة نشرت مؤخرا في سلمون اوف داوت , من قبل صحافي عن كيفية تحوله للالحاد. وبدأ الاجابة بشرح كيفية تحوله للادرية, ثم استطرد قائلا :

فكرت وفكرت وفكرت. ولكنني لم امتلك ما يكفي للاستمرار, وبالتالي لم اصل لاي قرار. كنت شكاكا في فكرة الله لحد كبير, ولكنن لم اعرف الكثير عن اي شي يمكنني من تخيل نموذج اوشرح لكيفية عمل الحياة , الكون, واي شئ اخر . ولكنني تابعت , وتابعت القراءة والتفكير. وكنت في الثلاثينات عندما وقعت على بيولوجيا التطور وبالتحديد كتب ريتشارد دوكنيز المورث الاناني ومن بعده صانع الساعات الاعمى . وفجأة) اعتقد انه خلال قراءتي الثانية لكتاب المورث الاناني) كل شي صار في مكانه. والمبدأ كان من مدهشا وعظيما ببساطته , ولكنه يعطينا تدرجا طبيعيا, لكل التعقيدات المحيرة للحياة. والرهبة التي اعترتني جعلت الرهبة التي يتحدث الناس عنها بخصوص التجارب الدينية تبدوا , بصراحة , سخيفة بجانبها, وانا افضل الرهبة الناتجة عن العلم, على الرهبة الناتجة عن الجهل في اي وقت"

مبدأ البساطة الذي تحدث عنه, بالطبع, ليس لي علاقة به. انه نظرية داروين في التطور بالانتخاب الطبيعي – رافع الوعي الاكبر في العلم – دوغلاس, افتقدك. انت اذكى واطرف واكثر انفتاحا واسرع بديهة واطول قامة لمرتد بسبب كتبي وربما انك الوحيد. املي ان هذا الكتاب سيضحكك – ولكن بالتأكيد اقل مما تستطيع اضحاكي .

الفيلسوف المتمرس بالعلم دانييل دينيت يشير الى ان التطور يعاكس احدى اقدم الافكار التي نملكها:"فكرة الحاجة لاشياء مقعدة ذكية لعمل اشياء اقل تعقيدا. اسمي ذلك نظرية الخلق المقطرة. لن تجد رمحا يصنع صانع رماح. لن تجد نعل فرس يصنع حدادا. ولا وعاء فخاريا يصنع فواخرجيا. اكتشاف داروين لعملية فعالة تناقض الحدس بشكل كامل يجعل مساهمته في الافكار الانسانية ثورية بشكل كبير ومشحونة بطاقة هائلة لرفع الوعي .

من المفاجئ جدا معرفة ضرورة رفع الوعي, وحتى في عقول العلماء اللامعين في حقول غير البيولوجيا. فريد هويل كان فيزيائيا وفلكيا لامعا, ولكنه اخطأ في فهم البوينغ 747, كذلك اخطأ في مجال البيولوجيا حيث حاول اهمال احد انواع المستحاثات واعتبرها خدعة, امور كهذه تنبئنا عن حاجته للاطلاع على شئ ما ليرفع من وعيه بما يتعلق بنظرية الانتخاب الطبيعي. اعتقد انه ,على مستوى التفكير, قد فهم الانتخاب الطبيعي. ولكن يبدوا بأنك تحتاج لان تنقع وتغطس وتسبح فيها قبل ان تستطيع ان تقدر فعلا قوتها الحقيقية .

ان علمنا يرفع من وعينا بطرق مختلفة. وعلم فريد هويل الفلكي يضعنا في اماكننا , عمليا ومجازيا , ويقلل من كبريائنا ليصبح قابلا للاحتواء على منصة ضيقة نلعب عليها ادوار حياتنا . على شظية الحطام تلك الناتجة عن الانفجار الكوني . الجيولوجيا تذكرنا بوجودنا القصير سواء كافراد او كصنف. وترفع من وعي جون راسكين وتثيره لدرجة البكاء المؤلم في 1951 ": لو تركني الجيولوجيون وحيدا, لكنت بخير تماما, ولكن تلك المطارق المخيفة ! اسمع نقراتها في نهاية كل جملة من الكتاب المقدس. " نظرية التطور تفعل نفس الشئ من ناحية احساسنا بالوقت – ليس ذلك مفاجئا, لانها تعمل على مقياس الزمن الجيولوجي. ولكن تطور داروين, وخصوصا الانتخاب الطبيعي تفعل شيئا اخر ايضا. انها تمزق الوهم عن التصميم في فرع البيولوجيا ,وعلمتنا ان نصبح شكاكين في كل ما يتعلق بفرضيات تبدو وكانها تتعلق بالتصميم فيما نرى في علم الفيزياء والفلك ايضا. اعتقد ان الفيزيائي ليونارد سوسكيند فكر في ذلك عندما كتب , انا لست عالم تاريخ ولكنني سأغامر بإعطاء رائي : لقد بدا علم الفلك الحديث في الحقيقة مع داروين و والاس. وبخلاف كل من سبقهم فإنهم قدمو شرحا لوجودنا يرفض اي عميل خارق.. لقد وضع داروين و والاس معاييرا ليس فقط لعلم الحياة ولكن في علم الفلك ايضا .

فيزيائيون اخرون ممن هم اعلى من ان يحتاجوا رفعا لوعيهم ومنهم فيكتور ستينغر. وانا اوصي بكتابه هل وجد العلم الها؟ (الجواب لا) بشدة, وبيتر اتكينز وكتابه اعادة النظر في نظرية الخلق هو احد الكتب المفضلة عندي لاعمال الشاعرية العلمية المحترفة . ادهش بإستمرار من المتدينين الذين, بعيدا عن رفع وعيهم بالطريقة التي اقترحتها , يبتهجون لفكرة الانتخاب الطبيعي كطريقة "الله بالخلق" . لقد لاحظوا بأن التطور بالانتخاب الطبيعي سيكون سهلا للحصول على عالم ملئ بالحياة .والله في تلك الحال لن يحتاج لعمل اي شئ! بيتر اتكينز, في الكتاب الذي ذكرته, يأخذ ذلك الخط الفكري بعقلانية الاستنتاج اللا الهي عندما يسلم بفرضية اله كسول يحاول ان يفلت بأقل ما يمكن من الجهد ليجعل الكون ملئ بالحياة. واله اتكينز اكسل حتى من اله القرن الثامن عشر.: الاله المرفه – لاارتباطات , عاطل عن العمل, زائد عن الحاجة ,عديم الفائدة. وخطوة فخطوة ينجح اتكينز في تقليل كمية العمل للاله الكسول حتى ينتهي بعمل لاشئ على الاطلاق: وبذلك يمكنه تفادي ازعاج نفسه بأن يوجد ايضا. لايزال حيا في ذاكرتي مشهد الاثنين التعليمي لوودي الن :" لو كان هناك اله فلا اعتقد انه شرير . واسوأ ما يمكن ان تقول عنه انه ضعيف انتاجيا .

التعقيد المتعذر الانقاص

من المستحيل المبالغة في حجم المشكلة التي حلها داروين و والاس. كأمثلة استطيع ان اذكر التشريح, علم الخلية, الكيمياء الحيوية والسلوك لاي كائن حي على الاطلاق. ولكن ما انتقاه الخلوقيون هو اهم مفخرة فيها – ولاسباب واضحة – عن المظهر التصميمي , ومن السخرية الرقيقة اني هنا قد اخذت حجتي من كتاب لأحد الخلوقيين. الحياة – كيف اصبحت على ماهي؟ لااسم للمؤلف ومنشور بستة عشر لغة من دار واتشتاور اوفر بايبل و تراكت سوسايتي على 11

مليون نسخة , على ما يبدوا انه احد الكتب المفضلة لدى الشركة لان ستة نسخ من الاحد عشر مليونا على الاقل ارسلت لي كهدايا من مجهولين حول العالم مع التمنيات .

لنأخذ صفحة من هذا العمل المجهول والموزع بإسراف, فنجد الاسفنجة المعروفة بـــ "سلة فينوس للزهور" (اويبليكتيللا), مصحوبة بعبارة من السير دافيد اتينبورو, بهذا الشكل:" عندما تنظر لهيكل الاسفنجة المعقد من السيليكا سبيكوليس والمعروفة بسلة فينوس للزهور, فأن الخيال يحتار. كيف اتفق لخلايا ميكروسكوبية لان يكون لها ملايين الشظايا الزجاجية المخفية لتشكل ذلك المشبك المعقد الجميل؟ لانعرف." وكاتب الواتشتاور لايضيع وقتا ويضيف جملته الخاصة المحتوية على المغزى:" ولكننا نعرف شيئا واحدا: الصدفة ليست المصمم " بالتأكيد لا, الصدفة ليست المصمم . هذا شئ نتفق عليه جميعنا. واللاإحتماليهات الاحصائية لظاهرة كهيكل اللاوبيليكتيللا تقع في قلب المعضلة التي يتوجب على اي نظرية للحياة حلها. وكلما كبر اللاإحتماليه احصائيا كلما صارت الصدفة اقل تصديقا لتكون هي الحل: وهذا ما تعنيه كلمة اللاإحتماليه. ولكن الحلان المرشحان للمعضلة ليسا التصميم والصدفة , كما هو المعتقد الخاطئ, بل التصميم والانتخاب الطبيعي. الصدفة ليست حلا, نظرا لكبر قيمة اللاإحتماليه التي نراها في الكائنات الحية, وليس هناك من بيولوجي عاقل يقترحها. والتصميم ليس حلا حقيقيا ايضا ,كما سنرى لاحقا, ولكن الان سأكمل استعراض المشكلة التي يجب على اي نظرية للحياة حلها: المشكلة عن كيفية تفادي الصدفة .

نقلب صفحة واتشتاور, فنجد النبتة الرائعة المساة غليون الهولندي (ارستولوخيا تريلوباتا) كل اجزائها تبدو مصممة بأناقة لالتقاط الحشرات وتغطيتهم بغبار الطلع وارسالهم لنبتة غليون الهولندي اخرى. الاناقة المعقدة للزهرة تدفع واتشتاور للتساؤل:" هل حدث ذلك كله بالصدفة؟ ام انها بسبب التصميم الذكي؟" ومرة اخرى . لا بالطبع لا لم تحدث بالصدفة. ومرة اخرى التصميم الذكي ليس البديل الصحيح للصدفة. الانتخاب الطبيعي ليس فقط حلا اقتصاديا معقولا وانيقا فقط, بل انه الحل الفعال كبديل للصدفة المقترحة منذ الازل. التصميم الذكي يعاني من نفس الاعتراض كما الصدفة. ببساطة هو ليس حلا مقعولا لاحجية اللاإحتماليه العالية. وكلما علا مستوى اللاإحتماليه, كلما اصبحت نظرية التصميم اقل مصداقية. ولكن نرى بوضوح, بأن التصميم الذكي سيضاعف المشكلة .ومرة اخرى المشكلة هي المصمم نفسه (او نفسها) وكيف وجد من اصله. اي شي قابل لتصميم شئ غير محتمل كغليون الهولندي(او الكون) سيكون اقل احتمالا من غليون الهولندي. وبعيدا عن انهاء الارتداد الشرير, فإن الله يضاعف تهييج النظرية كثأر .

اقلب صفحة اخرى في واتشتاور لترى وصفا لشجرة الخشب الاحمر العملاقة (سيكويادينذرون جيغانتوم), شجرة لها تأثير خاص علي لان احداها توجد في حديقتي – مجرد طفل رضيع بعمر قرن تقريبا, واطول شجرة في الحارة. "رجل ضئيل , يقف بجانب الشجرة, ينظر للاعلى في صمت ودهشة للعظمة الهائلة. هل هناك اي معنى للايمان بأن شكل هذا العملاق الجليل ونشوئه من البذرة الصغيرة ليس مصمما؟ " ومرة اخرى, لو كنت تظن بأن الصدفة هي البديل الوحيد للتصميم , فالاجابة لا, ليس هناك معنى. ومرة اخرى فكاتبي الكتاب حذفوا اي اشارة للبديل الحقيقي, الانتخاب الطبيعي , ربما لانهم لم يفهموها بصدق او لانهم لايريدون ان يفهموها .

ان العملية التي تأخذ بها النباتات الطاقة, مهما تكن صغيرة كحشيشة العلق او عملاقة كشجرة الويلينغتون, تسمى بالتمثيل الضوئي. ومرة اخرى واتشتاور:" هناك حوالي سبعين تفاعل كيميائي في عملية التمثيل الضوئي, احد البيولوجيين قال "تلك اعجوبة حقيقية". النباتات الخضراء تسمى ب "معمل الطبيعة" – جميلة , هادئة, لاتلوث, تنتج الاوكسيجين , تنقي المياه وتغذي الكائنات الاخرى. هل حدث ذلك بالصدفة؟ هل هذا ممكن التصديق؟" لا, لايمكن تصديق ذلك, ولكن تكرار المثال بعد الاخر لن يفيد بشئ .

"منطق" الخلوقيين لايتغير. بعض الظواهر في الطبيعة عديمة الاحتمال بشكل كبير ,معقدة جدا, جميلة جدا, ومدهشة جدا لتكون اتت بالصدفة. والبديل الوحيد الذي يتمكن الكاتب من تخيليه هو التصميم الذكي. ولذلك يتوجب وجود مصمم. واجابة العلم على هذا المنطق الخاطئ لاتتغير ايضا. التصميم ليس البديل الوحيد للصدفة. الانتخاب الطبيعي هو البديل الافضل. بالتأكيد, التصميم ليس بديلا حقيقيا لانه يؤدي لطرح مشكلة اكبر من المشكلة التي حلها: من صمم المصمم؟ الصدفة والتصميم حلان فاشلان لتلك اللاإحتماليه الاحصائية, لان احدهما هو المشكلة والاخر مجرد ارتداد لها. الانتخاب الطبيعي هو الحل الحقيقي. الحل الوحيد الفعال الذي اقترح حتى الان. وليس فقط حلا واقعيا, بل انه حل مذهل في اناقته وقوته .

ما هو السبب الذي يجعل الانتخاب الطبيعي ينجح كحل لمشكلة اللاإحتماليه حيث تفشل كلا النظريتان , الخلوقية والصدفة عند بوابة البداية؟ الجواب هو بأن الانتخاب الطبيعي عملية تراكمية, مما يفتت مسألة اللاإحتمالية لفتات. وكل منها صغير بحيث ان لاإحتماليته معقولة, ولكن ليست من الممنوعات الحدوث. وعند تكوم العديد من التسلسلات, فإن الناتج النهائي

سيكون لااحتماليا بشكل كبير جدا جدا بالطبع, لااحتمالي بشكل لايقبل مجالا للشك ان يكون قد حدث بالصدفة. والناتج النهائي الذي يشكل الكائن الذي يحاجج به الخلوقيين بشكل مرهق بأشكاله المختلفة. الخلوقي يخطئ الهدف. لانه(لايجب هنا ان تتزعج السيدات من استبعادهن هنا في الضمير المستعمل) يصر على ان يعامل احتمالية التكوين كخطوة واحدة, حدث واحد. انه لايفهم قوة التراكم .

في كتابي صعود الجبل اللاإحتمالي. وضحت النقطة بمثال. تخيل جبلا احد طرفيه منحدر مطلق, من المستحيل تسلقه,و الطرف الاخر منحدر متدرج لطيف يصعد للقمة. في القمة يجلس عضو معقد كالعين او البكتريا ذات المحرك المروحي. الفكرة السخيفة بأن تعقيدا كهذا يتجمع بشكل اني يرمز بالانتقال من قدم الجبل لقمته بقفزة واحدة. التطور ,على العكس من ذلك, يذهب حول الجبل من الناحية الاخرى ويصعد المنحدر اللطيف زحفا: بسيط ! اليس كذلك؟ مبدأ الصعود للطيف مقابل القفزة الواحدة بسيط جدا ,لدرجة تدفعنا للتعجب عن الحاجة لكل هذا الوقت حتى اتى احد ما كداروين للمنصة واكتشفها. عندما فعل ذلك كانت قد مضت حوالي ثلاثة قرون على نشر نيوتن ل العام العجائبي, رغم ان انجازه بدا وقتها, اصعب من ذاك الذي لداروين .

استعارة اخرى مفضلة عن تطرف اللاإحتمالية في حالة قفل خزنة بنك. نظريا, يمكن لسارق ان يكون محظوظا بالحصول على مجموعة الارقام الثمانية بالصدفة وحدها .عمليا, المجموعة تصمم بلاإحتمالية عالية لدرجة تجعل ذلك موازيا للمستحيل بنفس درجة فكرة فريد هويل عن البوينغ . 747 ولكن تخيل قفلا مصمما بشكل سئ وانه يعطي اشارات استطرادية تعلو كلما قرب الرقم من الرقم الصحيح. افرض ان اقتراب القرص من الرقم الصحيح, فإن باب الخزنة يفتح قليلا, وحفنة من النقود تسقط منها .فاللص في هذه الحالة سيحصل على الجائزة الكبرى في وقت قصير جدا .

الخلوقيين يحاولون استعمال حجة اللاإحتمالية لصالحهم بالافتراض بأن السؤال البيولوجي الموازي هو موضوع الجائزة الكبرى او لاشئ. والاسم الاخر المستعمل ل "الجائزة الكبرى او لاشئ" هو " التعقيد المتعذر الانقاص". العين ترى او لاترى. الجناح يطير او لايطير. ولايفترض ان يكون هناك اي حلول وسط ذات فائدة. وهذا ببساطة خطأ .والتوسطيات كثيرة جدا عمليا– وهذا بالضبط ما نتوقعه نظريا. ومجموعة ارقام الخزنة في الحياة يوازي الاشارات الاستطرادية التي تعلو وتنخفض بالقرب او البعد عن الرقم الصحيح. الحياة الحقيقية تبحث عن المنحدر اللطيف خلف الجبل اللاإحتمالي, في حين ان الخلوقيين عميان عن كل ذلك بالمنحدر القاسي المطلق في المقدمة .

داروين خصص فصلا خاصا في كتاب اصل الانواع "الصعوبات في نظرية الخلفة بالتعديل", ومن العدل ان نقول بأن هذا الفصل المختصر يتوقع ويرتب كل المزاعم الصعبة التي اقترحت منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا. والصعوبات الهائلة كانت في "الاعضاء البالغة الكمال والتعقيد " والتي توصف احيانا خطأ ب"التعقيد المتعذر الانقاص". اختار داروين العين كونها خاصة جدا في هذا التحدي: "الافتراض بأن العين بكل مواصفاتها التي لاتقبل التقليد , كالتركيز على مسافات مختلفة او السماح لكميات مختلفة من الضوء بالمرور عبر الحدقة, وتصحيح الشكل الكروي والانحراف اللوني, قد تشكلت بالانتخاب الطبيعي , يبدو, وانا اعترف بحرية, اعلى درجات السخف." الخلوقيين يقتبسون هذه الجملة ببهجة كبيرة مرة تلو الاخرى. ولسنا بحاجة للقول بأنهم لايذكرون ما يأتي بعد ذلك. اعتراف داروين المقيت ليس الا اداة بلاغية. يشد بها خصمه لناحيته حتى تكون الضربة اقسى,عندما يحين وقتها. والضربة, بالتأكيد, هي شرح داروين السهل عن كيفية تطور العين بشكل تدريجي. ربما ان داروين لم يستعمل عبارة "التعقيد المتعذر الانقاص", او " التدرج السلس نحو قمة جبل الاإحتمالية", ولكنه بالتأكيد فهم كلا المبدأين .

"ما هي فائدة نصف عين؟" او"ما فائدة نصف جناح؟" حجتان فوريتان من "التعقيد المتعذر الانقاص". الجهاز الوظيفي يكون متعذر الانقاص في حالة توقفه تماما عن العمل بمجرد انقاص اي جزء منه. هذا كان من المسلمات في حالى العين والجناح. ولكن عندما نفكر لبرهة في هذه الافتراضات, نرى الخطأ مباشرة. ان مريضة ماء العين المعتم التي رفعت عدسة عينها جراحيا لاتستطيع رؤية صورة واضحة بدون نظارات, ولكنها ترى ما يكفي لتفادي الاصطدام بشجرة او الوقوع من حافة عالية. ونصف جناح ليس جيدا كجناح كامل , ولكنه افضل من لاجناح على الاطلاق. يستطيع نصف الجناح ان ينقذ حياتك بتخفيف الصدمة الناتجة عن الوقوع من على شجرة بعلو ما. و %51 من الجناح يساعدك في حالة شجرة اعلى بقليل. ومهما كانت نسبة الجناح الذي نملكه, سيكون هناك علو مرافق يستطيع جزء الجناح انقاذ حياتك فيما لايستطيع جزء اصغر فعل ذلك. والتجربة الفكرية عن الاشجار المختلفة الارتفاع, والسقوط من اعلاها, هي فقط احد الطرق لنرى,نظريا, بأنه من المتوجب وجود تدرج سلس للمنافع على طول الخط بدأ من %1 من الجناح وانتهاء بجناح

كامل. الغابات مليئة بأمثلة عن حيوانات تتزلق او تهبط "مظليا" لتنير الفكرة عن كل خطوة صعودا على ذلك الجبل من اللاإحتمالية .

بالمشابهة مع الاشجار المختلفة الارتفاع, من السهل تخيل ظروف تستطيع فيها نصف عين ان تنقذ حيوان في حين ان 49%من العين لن تكون قادرة على ذلك. تدرج سلس بناء على معطيات الاضاءة المتوفرة, والمسافات التي تستطيع بها لمح الفريسة – او المفترس. وكما الجناح و سطوح الطيران, فمتوسطات معقولة كهذه ليست فقط سهلة التخيل بل انها منتشرة بوفرة في مملكة الحيوانات .

الدودة المسطحة لديها عين, وبكل المقاييس تعتبر اقل من نصف عين بشرية .الناوتيلوس (وربما ابناء عمومتها المنقرضين الذين كانوا مسيطرين على البحار) لى عين متوسطة بين عين الدودة والانسان. وبخلاف عين الدودة المسطحة , التي تميز الضوء عن الظل فقط ولاترى اي صورة, فإن عين الناوتيلوس المشابهة ل"الة تصوير ذات ثقب" تستتطيع عمل صورة حقيقية, ولكنا مشوشة ومعتمة مقارنة لصور اعيننا.سيكون من التزوير ان نضع سلما دقيقا بأرقام لتدرج تحسن الرؤيا, ولكن لااحد يستطيع النفي بشكل عاقل بأن تلك الاعين للافقاريات, وغيرها كثير, هي افضل من عدم وجود عين على الاطلاق, وبأن كل الاعين مصفوفة على المنحدر السلس للجبل اللاحتمالي , واعيننا قريبة من القمة – ليست اعل قمة ولكن عالية حتما. وفي صعود الجبل اللاحتمالي , خصصت فصلا خاصا للعين والجناح, وبينت كم كان من السهل ان يتطوروا ببطء(وربما ليس بذلك البطء) تدريجيا. وسأترك هذا الموضوع هنا .

وبذلك نرى بأن العين والجناح بالتاكيد ليسا من " التعقيد المتعذر الانقاص", ولكن الاكثر اثارة من هذا المثال هو في الدرس الذي نستنتجه بشكل عام. الا وهو الواقع بأن الخطأ المميت, الذي وقع فيه الكثيرين فيما يتعلق بهذه الامور البديهية, يجب ان ينبهنا لامثلة اخرى اقل بديهية, مثل الحالات الخلوية والبيوكيميائية المرغوبة من الخلوقيين المحتمين بالعبارة الملطفة المناسبة "نظرية التصميم الذكي" .

لدينا قصة تحذيرية هنا, وتقول لنا: لاتعلن بأن اي شئ هو تعقيد متعذر الانقاص, لان هناك احتمالا كبيرا لئلا تكون قد محصت بحذر, او فكرت بشكل كاف عنه. ومن جهة اخرى ,لايجب علينا,نحن الذين في جانب العلم, ان نكون اعتقاديين بثقة. ربما ان هناك شئ ما في الطبيعة لايمكنه, بسبب تعقيده المتعذر الانقاص , اخذ مكان على المنحدر السلس لجبل اللااحتمالية .

الخلوقيين محقين في انه لو ظهر التعقيد المتعذر الانقاص بصدق وبشكل صريح, فإن ذلك مما يمكنه ان يهدم نظرية داروين . داروين بذاته قال:" لو كان بالامكان الاستعراض بأن اي عضو معقد موجود ليست له الامكانية ان يكون ناتجا عن تطور تدريجي ناتج عن تراكم العديد من التغييرات البسيطة , فإن نظريتي تنهار بدون شك. ولكنني لم اجد حالة كهذه." داروين لم يجد تلك الحالة , ولا احد من بعده حتى الان استطاع, برغم كل الجهود النشيطة والمستميتة. الكثير من الحالات اقترح وعرض.ولاشئ منها صمد امام التحليل .

على اي حال , وبالرغم من ان التعقيد المتعذر الانقاص من الممكن ان يسبب انهيار نظرية داروين لو وجد, من الذي يستطيع نفي بأن ذلك سيهدم نظرية الخلق ايضا؟ وبالتأكيد فقد تحطمت نظرية التصميم الذكي, ومرة اخرى اعيد السبب, الا وهو , مهما كانت معرفتنا قليلة عن ماهية الاله, فإننا نعرف بأنه شديد التعقيد وبالتالي متعذر الانقاص ايضا .

لعبة الحلقة المفقودة

البحث عن امثلة للتعقيد المتعذر الانقاص ليس بالاساس طريقة علمية للمتابعة: مجرد حالة خاصة للمحاججة تعتمد على الجهل. ومشابهه لمنطق مزور يسمى استراتيجية "اله الفراغات" المنبوذه من قبل عالم الدين ديتريش باهنهوفر. الخلوقيون يبحثون بحماس عن فراغات في معارف ومفاهيم العصر. وبمجرد ظهور مايبدو كفراغ , فانه يفترض بأن الله, يجب ان يملأه بطبيعة الحال. ما يقلق رجال الدين المفكرين مثل باهنهوفر هو ان هذه الفراغات تصغر مع تقدم العلم, والله في هذه الحالة مهدد بعدم وجود اي شئ يعمله او اي مكان يختبئ فيه. ما يقلق العلماء هو شئ اخر. انه من الضروري في اي

مؤسسة علمية ان تعترف بالجهل, بل وتغتبط به كتحدي لانفتاحات مستقبلية. كما كتب صديقي مات ريدلي, "معظم العلماء ضجروا من الاشياء التي اكتشفوها. ان ما يجهلون هو دافعهم للاستمرار". غبطة اللغز الباطني والرغبة ان نبقيها كلغز. غبطة العلماء بسرية الاشياء له سبب مختلف تماما: لانه يعطيهم الفرصة للعمل, وسأكرر ذلك في الفصل الثامن, وأحد الاثار السيئة للدين هو تعليمنا بأن الاقتناع بالاشياء التي لانفهما هو ميزة جيدة .

الاعتراف بالجهل المؤقت امر حيوي جدا للعلم الجيد. ولذلك فإنه من المؤسف القول,على الاقل, بأن استراتيجية الخلوقيين الاساسية سلبية تتمثل بالبحث عن الفراغات العلمية والزعم بأن الله يملأها "بالتصميم الذكي". ما سأذكره الان لايعدو كونه افتراضا ولكنه معبر تماما. الخلوقي يقول:"ان مرفق الضفدع معقد بشكل لايقبل الانقاص. واي جزء من المرفق سيكون عديم الفائدة بدون ان تتجمع الاجزاء الباقية معه. واراهن انك لي تستطيع التفكير بطريقة يستطيع بها مرفق ضفدعة ابن عرس ان يتطور تدريجيا ببطء؟" وعندما يفشل العالم بإعطاء جواب مباشر و مفهوم, فإن الخلوقي يستنتج الاستنتاج الاساسي: "حسنا , النظرية البديلة ,التصميم الذكي, تفوز بالتزكية." لاحظ التحييز في المنطق: فشل النظرية أ جزئيا, يجعل نظرية ب صحيحة. لانحتاج القول هنا بأن المنطق نفسه لايطبق في الحالة المعاكسة. ونحن نشجع القفز للنظرية الاساسية بدون حتى النظر لمعرفة فيما اذا كانت ستفشل في بعض اجزائها كالنظرية التي تزعم اخذ مكانها .

التصميم الذكي هو الضمان للخروج احرارا من السجن مع مناعة ضد الطلبات الصارمة التي تطلبها نظرية التطور . ولكن النقطة التي اريد توضيحها هنا هي ذريعة الخلوقيين تقوض طبيعة العالم – الضرورية بالتاكيد – بالابتهاج بالحيرة (المؤقتة). ولأسباب عدة, ربما يتردد علماء اليوم قبل القول:" همم , نقطة مثيرة فعلا. اعجب كيف تمكن اسلاف ضفدع ابن عرس من تطوير مفاصل مرافقهم. انا لست اختصاصيا بضفادع ابن عرس, على ان أذهب لمكتبة الجامعة والقي نظرة. من الممكن ان يكون هذا موضوعا لمشروع تخرج مثير لطالب تخرج ".

في اللحظة التي يقول احد العلماء شيئا كهذا – وقبل ان يبدا الطالب مشروعه للتخرج بكثير – سنرى الاستنتاج المجتزأ عنوانا عريضا على كتيبات الخلوقيين :" ضفادع ابن عرس لايمكن الا ان تكون مصممة من قبل الله ".

هنالك بالتالي وللاسف علاقة بين الطريقة العلمية المطلوبة للبحث في المجالات المجهولة بهدف توجيه الابحاث نحوها من جهة, وبين دعاة التصميم الذكي المحتاجين للمجالات المجهولة لزعم الاستنتاج التقصيري. ولهذا السبب بالذات ليس هنالك اي ادلة تطلبها نظرية التصميم الذكي, وتزدهر فقط في الفراغات في المعرفة العلمية, لايلائم ذلك حاجة العلم للتعرف والاعتراف بنفس هذا الفراغ كمدخل للبحث العلمي فيها. وفي ذلك يجد العلم نفسه متفقا مع علماء دين متطورين مثل باهنهوفر, متحدا معه ضد العدو المشترك من السذج, وعلم الدين الشعبي والفراغات المملوءة بالتصميم الذكي .

ان علاقة الحب بين الخلوقيين و "الفراغات" في فهرس المتحجرات يمثل كل علم دين الفراغات. وقد قدمت لاحد الفصول فيما يسمى الانفجار الكامبري بالجملة التالية,"يبدو للفكر بأن المتحجرات قد وضعت هناك بدون تطور عبر التاريخ." مرة اخرى. تلك البلاغة في مقدمة المقال قصد بها شحذ شهية المستمع للتفسير الكامل الذي يتلوها. المحزن كان الادراك المتأخر الذي وضح لي الان كم كان يجب ان يكون متوقعا ان التفسير الصبور الذي قدمته سيقتطع بأكمله وستجتزأ المقدمة ببهجة لتستعمل خارج نطاق الموضوع. الخلوقيين مغرمون بالفراغات في سجل المستحاثات المتحجرة, كما هم مغرمون بالفراغات الاخرى بشكل عام .

الكثير من مراحل التطور الانتقالية مدون بأناقة اعتمادا على سلسة مستمرة التغيير من الشواهد المتحجرة المتوسطة. وتلك السلسلة عند البعض غير مستمرة, وهؤلاء هم "الفراغات" المشهورة. كما اشار لذلك مايكل شيرمر في قوله بأنه لو تم اكتشاف متحجرة تسد احد الفراغات بشكل لايقبل الشك, فأن الخلوقيين سيعلنون بأن عدد الفراغات قد تضاعف! على كافة الاحوال, لاحظ مرة اخرى الاستعمال الغير مبرر للمبدئية. عندما لايوجد سجل او وثيقة متحجرة تسلم بالتطور الانتقالي, فإن الافتراض المبدئي هو عدم وجود تطور انتقالي, وهذا يعني ان هناك تدخل الهي .

من غير المنطقي تماما المطالبة بوثائق كاملة لكل خطوة لاي حكاية, سواء في التطور او اي علم اخر. لانه يمكنك المطالبة ايضا, وقبل ادانة شخص ما بجرم القتل, بتسجيل سينمائي كامل لكل خطوة قبل حصول الجريمة, وبدون اي انقطاع. نسبة ضئيلة جدا من الجثث تتحجر, ونعتبر محظوظين لوجود هذا العدد من المتحجرات بين ايدينا. بالامكان بسهولة الا يكون هناك اي متحجرات بالمرة, ورغم ذلك فأن العديد من الادلة عن التطور من مصادر اخرى, كالمورثات الجزيئية والتوزع الجغرافي, شديدة القوة بشكل كبير. مع ذلك فإن نظرية التطور تتنبأ بأنه لو ظهرت متحجرة وحيدة في

العصر الجيولوجي الخاطئ , فإن النظرية تنهار برمتها. وعندما سأل احد المتحمسين البابويين عن مايلزم لتقويض نظرية التطور كانت اجابة ج. ب. س. هالدان: "متحجرة لارنب تعود للعصر البريكامبري". "لم توجد حتى الان متحجرة كتلك مما يعترف به, على الرغم من كل اساطير الخلوقيين الغير موثوق بها عن جماجم بشرية في طبقات الفحم الحجري واثار اقدام بشرية جنبا الى جنب لاثار ديناصور"

الفراغات بالاساس في عقل الخلوقيين, تملأ بواسطة الاله. وكذلك جميع المنحدرات الظاهرة على الجبل اللااحتمالي الضخم, حيث لايكون المنحدر المتدرج واضحا او بحالة اخرى غير ظاهر للعيان. المناطق حيث المعلومات منقوصة , او غير مفهومة, تعزى فورا للاله. الاتجاه السريع الدرامي للزعم ب"التعقيد متعذر الانقاص" تصرح عن فشل التخيل . بعض الاعضاء البيولوجية, وإن لم تكن عين فستكون محرك البكتريا المروحية او اي ممر بيوكيميائي, يصنف بدون اي محاججة كتعقيد متعذر الانقاص. بدون حتى محاولة اظهار التعقيد متعذر الانقاص فيها. وبالرغم من الحكايات التحذيرية للعين, الجناح و الكثير من الاشياء الاخرى,فإن كل مرشح جديد للوسام المريب والذي افترض بشفافية, وكوضوح ذاتي كتعقيد متعذر الانقاص, تعرض لنفس اجراءات التصريحات .

ولكن فكر قليلا بالموضوع . بما ان التعقيد المتعذر الانقاص استعمل كحجة للتصميم, فيجب ان نطبق نفس الاجراءات على التصميم بذاته. ولكن ان تصرح ببساطة ان ضفدع ابن عرس (الخنفس المفجر, الخ) يبرهن على التصميم, بدون اي محاججة او تبرير. فلا صلة لذلك بالعلم بأي شكل . المنطق في هذا الحالة لايبدو اكثر اقناعا مما يلي:" أنا <ضع اسمك هنا> شخصيا غير قادر على التفكير بأي طريقة عن كيفية بناء <ضع ضاهرة بيولوجية هنا> خطوة فخطوة . ولذلك فإنها تعقيد متعذر الانقاص . وهذا يعني انها مصممة" .

تخيل ماسبق وسترى مباشرة ضعف الموضوع في حال استطاعة عالم ما ايجاد مرحلة متوسطة, او على الاقل تخيل امكانية وجود حالة متوسطة. وحتى لو لم يأت اي عالم بأي تفسير, فالمنطق السئ المنادي ب"التصميم" ليس افضل بأي شكل. والسبب الذي يختبئ خلف "التصميم الذكي" ليس الا كسلا وانهزامية – سبب تقليدي ل"اله الفراغات" . وقد لقبته سابقا الحجة من الشكوك الشخصية .

تخيل انك ترى خدعة سحرية عظيمة. الساحران العظيمان تيللر وبن لديهما خدعة يبدوان فيها وكأنهما يطلقان النار على بعضهما بالمسدسات, وكل منهما يبدو وكأنه التقط الرصاصة بأسنانه. اجراءات وقائية متقنة تتخذ بأن تخدش الرصاصات بعلامات قبل ان توضع في المسدسات, وكل العملية مشهودة من قبل المشاهدين من الذين لديهم خبرة بالاسلحة النارية على المسرح, ويبدو ان كل الامكانيات لوجود خدعة قد تم اقصاؤها . ورصاصة تيللر المعلمة ينتهي بها الامر في فم بن , ورصاصة بن المعلمة في فم تيللر. أنا ريتشار دوكنز غير قابل بشكل تام للتفكير بأي خدعة يمكن استعمالها في هذا المشهد. وحجة الشكوك الشخصية تصرخ من مركز دماغي ماقبل العلمي, وترغمني تقريبا على القول," لابد انها اعجوبة. ليس هناك اي تفسير علمي. لابد ان يكون الموضوع خارق للطبيعة." ولكن هناك صوت خافت ناتج عن الثقافة العلمية ينادي برسالة مختلفة . تيللر و بن ساحران على مستوى عالمي. وهنالك تفسير كامل وجيد. ولكنني ساذج او غير دقيق الملاحظة , او منقوص الخيال , لادراكه .

هذا هو الجواب الجيد ايضا فيما يتعلق بالظواهر البيولوجية التي تبدوا كتعقيد متعذر الانقاص . هؤلاء الذين يقفزون مباشرة من ظاهرة طبيعية محيرة للدعوة السريعة لما هو خارق للطبيعة, ليسوا بأفضل من الحمقى الذين يرون مشعوذا يلوي ملعقة ويقفزون مباشرة للاستنتاج بأن ذلك "خارق للطبيعة" . في كتابه سبع افكار تلميحية لاصل الحياة, يطرح الكاتب كايرنسميث نقطة اضافية . بإستعمال التشبيه بالقنطرة. القنطرة المبنية من حجارة مأخوذة من مقلع حجري ولايمكن ان يكون الهاون(الجزء العلوي من القنطرة) بناء مستقرا(لايمكن البناء حجرة فحجرة فإما الكل او لاشئ – المترجم), ولكنه تعقيد متعذر الانقاص: وسينهار برفع اي حجرة منه. كيف بني اذن؟ احدى الطرق تكون بصف كومة من الاحجار تحت القنطرة ومن ثم رفعها واحدا بعد الاخر. وبشكل عام , هناك العديد من التركيبات البنائية المتعذرة الانقاص بمعنى انها لايمكن ان تبقى بعد انقاص اي جزء منها, بنيت بمساعدة السقالة التي رفعت لاحقا ولم تعد مرئية. وعندما يكتمل البناء, يمكن رفع السقالة بأمان ويبقى البناء ثابتا. وكذلك الامر في التطور, ربما يكون العضو الذي تنظر اليه الان قد كان مرفقا بسقالة من نوع ما عند اجداده, والتي رفعت ولم تعد مرئية .

"تعقيد متعذر الانقاص" ليست بالفكرة الجديدة, ولكن التعبير بحد ذاته اخترعه الخلوقي مايكل بيهي عام 1996. الكلمة تعزى له وكذلك نقل الخلوقية لحقبة جديدة: البيوكيميائية وبيولوجيا الخلية, والتي وجدها على ما يبدو مكانا افضل للصيد من العين والجناح .ونظرته المفضلة لمثال جيد (ولكنه سئ في الحقيقة) كانت البكتريا ذات المحرك المروحي .

المحرك المروحي للبكتريا هو اعجوبة طبيعية. وهي المثال الوحيد, خارج نطاق التكنولوجيا البشرية, للمحور الدوار الحر. واشتبه بأن الدواليب في حيوانات كبيرة ستكون مثالااصيلا على التعقيد المتعذر الانقاص, وربما ان هذا هو سبب عدم وجودها . كيف يمكن للاعصاب والاوعية الدموية ان تعبر الوصلة؟* المروحية هي عبارة عن خيط دوار, وبواسطته تشق البكتريا طريقها من خلال الماء. واقول تشق من خلال ولا اقول تسبح لانه على مستوى حجم البكتريا في الوجود, فإن ما يبدوا سائلا كالماء بالنسبة لنا , فالنسبة لها يبدو كالدبس او الجيلو, او حتى كالرمل, وتبدوا البكتريا وكأنها تشق طريقها اكثر مما تبدو بأنها تسبح. وعلى عكس ما يسمى المروحية في كائنات اكبر كالبروتوزوان , فإن البكتريا المروحية لا تلوح بها كسوط, او تجدف بها كالمجداف. ولكنها تملك محورا حقيقيا يدور بشكل متواصل عبر وصلة, ومدفوعا بمحرك جزيئي صغير مثير للدهشة . وعلى المستوى الجزيئي, يستعمل المحرك نفس المبدأ بالاساس كالعضلة, ولكن بدوران حر عوضا عن الانكماش المتقطع.! وقد وصف بسرور كمحرك خارجي (على الرغم من ان تواجد ذلك في نظام بيولوجي يعتبر غير طبيعي بالنسبة لقوانين الهندسة – فإنه غير كفء بشكل ملفت للنظر)

وبدون اي تبرير, او شرح, يعلن بيهي ببساطة بأن المحرك المروحي للبكتريا هو تعقيد متعذر الانقاص. وبما انه لم يقدم اي حجة في صالح ادعائه, فبإمكاننا ان نبدأ بالاشتباه في فشل المخيلة لديه . ويزعم بعد ذلك بأن المدونات البيولوجية المختصة قد تجاهلت هذه المسألة. كذب هذه المزاعم مدون بكثافة محرجة (بالنسبة لبيهي) في صالة المحكمة للحاكم جون اي جونز في بنسلفانيا , 2005 عندما كان بيهي يشهد كخبير لمصلحة مجموعة من الخلوقيين الذين حاولوا فرض "التصميم الذكي" ليكون ضمن برنامج مما يدرس في مدرسة عامة – حركة في "منتهي السفاهة" , الاقتباس هنا من الحاكم جونز(الجملة والرجل بالتأكيد مقدر لهما الشهرة الراسخة). ذلك لم يكن الاحراج الوحيد الذي عاناه بيهي في الجلسة , كما سنرى لاحقا .

المفتاح لاستعراض التعقيد المتعذر الانقاص هو الاقناع بعدم فائدة اي قسم بمفرده. وبأن كل الاقسام يجب ان تكون في مكانها قبل ان يصبح اي قسم منه مفيدا(تشبيه بيهي المفضل هو مصيدة الفئران). في الواقع ان علم الخلية الجزيئي لم يجد اي صعوبة في برهان ان الاقسام تعمل خارج مجتمع الاقسام, وذلك بالنسبة للبكتريا المروحية كما للامثلة الاخرى التي قدمها بيهي بالزعم بأنها تعقيد متعذر الانقاص. النقطة وضحها كينيث ميللر من جامعة براون بشكل جيد, والذي هو في رأيي اكبر عدو مقنع للتصميم الذكي ,وليس لسبب اخر غير كونه مسيحيا مكرسا. وانا اوصي بكتاب براون البحث عن اله داروين كثيرا للمتدينين المخدوعين من قبل بيهي .

في حالة البكتريا ذات المحرك المروحي, يلفت ميللر انتباهنا لالية من صنف النظام الافرازي الثلاثي. النظام لايستعمل في حركة الدوران. ولكنه احد الانظمة العديدة المستخدمة من قبل البكتريا الطفيلية لضخ المواد السامة من خلال جدران خلاياها لتسميم الجسم المضيف. وبمقياسنا البشري, بأمكاننا تخيل الموضوع وكانه صب او تدفق لسائل من خلال ثقب, ولكن , مرة اخرى, بمقاييس البكتريا يبدوا ذلك مختلفا. حل جزي من المادة الخفية هو عبارة عن جزئ بروتيني ثلاثي الابعاد محدد البناء على شكل معرف بالنظام الافرازي الثلاثي: الاكثر شبها بتمثال من سائل. وكل جزيئ مدفوع من خلال الية مشكلة بإتقان, وكانه الة توزع العابا او زجاجات تخرج من خرم فيها اكثر من كونها الية بثقب "يسيل" منه سائل ما. والثقب الموزع هو عبارة عن عدد صغير من جزيئات البروتين, وبحجم وتعقيد مشابه للجزيئ المدفوع للخارج. والمثير, ان هذه الاليات البكتيرية ذات الثقب متشابهة في عدد من البكتريا لاتمت لبعضها بصلة قرابة وثيقة . ويبدو ان المورث الذي جعلهم يملكون هذه الالية ربما كان "منسوخ وملصوق" من بكتريا اخرى: وهذه عملية تبرع فيها البكتريا بشكل ملحوظ, وهي موضوع ساحر بحد ذاتها .

الجزيئات التي تشكل النظام الافرازي الثلاثي مشابهة جدا لتلك التي تشكل المحرك المروحي. وبالنسبة للتطوري فإنه من الواضح ان تلك المكونات استولت عليها وظيفة جديدة , وليست منفصلة تماما, عندما تطورت بكتريا المحرك المروحي. المعطيات هي ان النظام الثلاثي يجر جزيئات من خلاله, فإنه ليس من المفاجئ ان تستعمل نسخة اولية من المبدأ نفسه من قبل البكتريا المروحية, والتي تجر جزيئات المحور حول نفسها. من الواضح , ان المكونات الحاسمة للمحرك المروحي كانت موجودة وشغالة قبل ان يتطور المحرك المروحي. واستعمال نظام موجود هو طريقة بديهية يمكن من خلالها لما يبدو لتعقيد متعذر الانقاص ان يصعد الجبل اللااحتمالي .

الكثير من العمل يجب ان يتم, بالطبع, وانا متأكد بأن ذلك سيحصل. عمل كهذا لن يتم لو كان العلماء مكتفين وسعداء بالتقصير الكسول كالذي تدعمه نظرية "التصميم الذكي" .وتلك عبارة اتخيلها مرسلة من شخصية خيالية ل "منظر عن التصميم الذكي": في حالة عدم فهمك لكيفية عمل شي ما, لاتهتم, استسلم وقل بأن الله فعلها. لا تعرف ماهية عمل النبضات العصبية؟ حسنا! لاتفهم كيفية عمل الذاكرة في المخ؟ ممتاز! هل التمثيل الضوئي عملية مثير للحيرة بتعقيدها؟ رائع! ارجوك الا تتصرف للعمل على اي من هذه الاسئلة, فقط استسلم, و نادي بالله. عزيزي العالم, لا تعمل على كشف

اي من هذه الاسرار. بل اجلبهم لنا لنستخدمهم. لاتبذر الجهل الثمين بالبحث العلمي بهذه الطريقة .نحن بحاجة لتلك الفراغات كملجأ اخير لله ".

لقد قالها سانت اغوستين بصراحة: " هناك شكل اخر من الاغراء. مشحون بالخطر. الا وهو داء الفضول. ذاك الذي يدفعنا لتجربة واكتشاف اسرار الطبيعة, تلك الاسرار التي خارج حدود فهمنا, والتي لاتفيدنا بشئ ولايجب على الانسان ان يتمنى تعلمها" (اقتباس من فريمان2002) الزعم المفضل الاخر لدى بيهي عن التعقيد المتعذر الانقاص هو نظام المناعة. ولنرى ما يروي الحاكم جونز عنها :

"في الواقع , وبعد التحقق, سؤل البروفيسور بيهي عن موضوع زعمه عام 1996 بأن العلم لن يستطيع ابدا ايجاد تفسير لجهاز المناعة. وقد تقدم ثمان وخمسون من اقرانه بأبحاث مدروسة ومنشورة, وتسع كتب, والعديد من الفصول من كتب في النظم المناعية وتطورها, ورغم ذلك اصر ببساطة بأن ذلك ليس ادلة كافية على التطور, وان ذلك ليس جيدا "بشكل كاف" .

بيهي, بنتيجة التحقيق من قبل اريك روتشيلد, رئيس المستشارين, اعترف بأنه لم يقرأ معظم المنشورات الثمانية والخمسين . ليس ذلك بمفاجئ بأي شكل. لان المناعيات عمل شاق. ولكن الاقل قابلية للعفو هو رفضه للدراسات بإعتبارها "غير امينة". انها بالتأكيد غير امينة في حال ان الهذف هو الدعاية بين البسطاء من الناس والسياسيين , بدلا من اكتشاف حقائق مهمة عن حقيقة العالم. بعد الاستماع لبيهي, لخص روتشيلد بشكل بليغ احساس كل شخص امين في قاعة المحكمة :

"ما يستحق الشكر, ان هناك علماء يبحثون عن اجوبة لاصل الجهاز المناعي... انه دفاعنا ضد الضعف والاوبئة المميتة. من كتب تلك الكتب والمقالات من العلماء يكدحون في الغموض, بدون كتب ملكية او خطابات. جهودهم تساعدنا على محاربة وشفاء حالات طبية جدية. على العكس من ذلك فإن البروفيسور بيهي وكل حركة التصميم الذكي لايفعلون اي شئ لدفع العلم او المعرفة الطبية للامام ويقولون للاجيال المستقبلية من العلماء, لاتزعجوا انفسكم ".

وكما قال عالم الجينات الامريكي جيري كوين في مراجعته لكتاب بيهي:" لو اراد تاريخ العلم ان يقول لنا شيئا واحدا, فسيقول بأننا لم نكن لنكتشف اي شئ لو وضعنا لافتة (الله) على مواضيع جهلنا. او كما كتب احدهم في مذكراته على الانترنت كتعليق على مقال عن التصميم الذكي كتبته بالمشاركة مع كوين في صحيفة الغارديان .

لماذا يعتبر الله شرحا لكل شئ؟ هو ليس شرحا – بل بالاحرى هو فشل في الشرح , لامبالاة , هو عبارة عن "لااعرف" متنكرة بالروحانيات والطقوس. وعندما يلقى بالسبب على الله, فذلك يعني غالبا بأنه ليس لدينا اي امل بالمعرفة, ولذلك فأننا نلقي بالتبعية على ما لايمكن ان نعرفه او نصل اليه الا وهو الاسطورة السماوية. ولو سألت من اين اتت تلك الشخصية, فالاحتمالات هي ان تحصل على اجابة ضبابية, نصف فلسفية عن وجوده الازلي, او وجوده خارج الطبيعة . والتي بالطبع , لاتفسر شيئا على الاطلاق .

الداروينية ترفع الوعي بطرق اخرى. تطور الاعضاء, الاناقة والمهارة التي ترافقهم غالبا ,ترينا بعض الاخطاء فيهم – تماما كما نتوقعها لو كانت نتيجة تطور تاريخي, وتماما بعكس ما نتخيله لو كانت مصممة. وقد ناقشت امثلة في كتب اخرى: عصب لارينغيل, احد الامثلة, يفضح اصله التطوري بتبذيره الكبير في الطريق المتعرج الذي يسلكه للوصول للهدف. الكثير من الامراض التي تصيب الانسان, من الم اسفل الظهر و الفتوق, هبوط الارحام و سهولة التأثر بالتهاب الجيوب, هي نتيجة اننا نسير على قدمين بشكل عمودي لجسم تطور عبر ملايين السنين ليسير على اربع. كذلك يرتفع وعينا للاحساس بالتبذير والوحشية للانتخاب الطبيعي. الحيوانات المفترسة تبدوا وكأنها "مصممة" بشكل جميل لصيد الفريسة, كما تبدو الفرائس "مصممة" بشكل جميل لتفادي الاصطياد. في صالح من يقف الاله؟

المبدأ الانثروبي: النسخة الكوكبية

ربما استسلم علماء الدين المعتمدين على الفراغات عن تقديم ادلة كالعين والجناح, او المحرك المروحي او جهاز المناعة, وبالتالي فإنهم يعتمدون كملاذ اخير على اصل الحياة .جذور التطور في نطاق الكيمياء المعدنية الذي يبدو وكانه يؤمن فراغا اكبر من اي انتقال لتطور لاحق. وبمعنى ما فهو فعلا فراغ اكبر. وهذا المعنى خاص جدا, ولكنه لايعطي راحة

للمتدينين. اصل الحياة يجب ان يكون قد حدث مرة واحدة فقط. وبذلك نسمح لانفسنا بأن نعتبره حدثا على قدر كبير من اللااحتمالية, بدرجة اكبر كثيرا مما يدركه العديدين ,كما سأستعرض لاحقا. وخطا التطورات اللاحقة مجرد اعادات, بشكل او بأخر, عبر ملايين من الانواع الحية وبشكل مستقل, وبشكل مستمر ومعاد عبر العصور الجيولوجية. ولذلك , ولشرح تطور تعقيد الحياة, لانستطيع اللجوء لنفس النوع من الاحصائيات العقلانية التي نستطيع اعتبارها في اصل الحياة. الاحداث المشكلة للتطور المتكرر كدوران الطاحونة ,كشكل مستقل عن الاصل المنفرد(وربما القليل من الحالات الخاصة), لايمكن ان يكون لااحتماليا بشكل كبير .

التمييز ريما يبدو محيرا, وعلى ان اشرحه اكثر, بإستعمال المبدا الانثروبي. المسمى من قبل عالم الرياضيات البريطاني براندون كارتر في 1974 ووسع مفهومه الفيزيائيين جون بارو وفرانك تيبلر في كتابهم حول الموضوع. الحجة الانثروبية عادة تطبق على الكون ,وسأتي لذلك لاحقا. ولكني سأقدم الفكرة على مقياس اصغر, كوكبي. نحن موجودون هنا على الارض. ولذلك فالارض يجب ان تكون كوكبا مؤهلا لتوليدنا واحتوائنا, مهما كان الموضوع غير عادي, بل وفريد من نوعه,لكوكب من هذا النوع. وكمثال , فإ نوع الحياة التي نحياها ليست ممكنة بدون ماء سائل. بالتأكيد, البولوجيون الخارجيون يبحثون عن ادلة على الحياة خارج الارض بمسح السماء , عمليا, بحثا عن اشارات تدل على وجود الماء. وحول نجم عادي كشمسنا, هناك ما يعرف بنطاق القفل الذهبي – ليس حارا او باردا, مضبوط فقط – لكوكب مع ماء سائل. وهناك مدارات ضيقة تقع بين ماهو بعيد جدا عن النجم, حيث يتجمد الماء, وقريب جدا, حيث يغلي .

من المفترض ايضا, ان مدارا صديقا للحياة عليه ان يكون دائريا تقريبا. لان المدار الاهليلجي الحاد, كالذي اكتشف حديثا للكوكب العاشر المعروف شكليا بإسم كزينا , سيسمح للكوكب بالمرور لفترة وجيزة في نطاق القفل الذهبي كل بضع عقود او قرون (ارضية). كزينا نفسه لايمر بالقفل الذهبي بالمرة, حتى في اقرب نقاط مداره حول الشمس, والتي يصلها مرة كل 560 عاما ارضيا .

الحرارة على مذنب هالي بين 47 درجة سنتيغراد في اقرب نقطة و ناقص 270 درجة في النقطة البعيدة. مدار الارض اهليلجي ,ككل الكواكب الاخرى (الأقرب للشمس في كانون الثاني وابعدها في تموز), ولكن الدائره ليست الا حالة خاصة من الاهليلج, ومدار الارض قريب جدا من ان يكون دائريا بحيث انها لاتخرج عن نطاق منطقة القفل الذهبي . ووضع الارض مؤاتي لتطور الحياة في مجالات اخرى ايضا مما يجعلها منفردة . ان جاذبية المشترى الكبيرة موضوعة في مكانها لسحب كل الكويكبات التي تهدد الارض بالاصطدام المميت. والقمر الارضي الكبير نسبيا يؤمن استقرارا للارض على محور دورانها. ويساعد في رعاية الحياة بطرق اخرى ايضا. وشمسنا غير عادية بكونها ليست مزدوجة, وليست محبوسة في مدرا مشترك مع نجم اخر. من الممكن للنجوم المزدوجة ان يكون لها كواكب, ولكن مدارات الكواكب ستكون من الفوضى بحيث انها ستشكل عائقا لتطور الحياة .

قدم تفسيران حول خصوصية كوكبنا لاحتضان الحياة, نظرية التصميم تقول بأن الله خلق العالم, ووضع الارض في نطاق القفل الذهبي, ووضع كل التفاصيل بقصد منفعتنا. النظرة الانثروبية مختلفة تماما, وتعطي احساسا شبيها بالداروينية. غالبية الكواكب في الكون لا تقع في نطاقات الاقفال الذهبية لنجومها, وليست مناسبة للحياة. ولايوجد حياة على اي منها. ولكن على اية حال هنالك اقلية صغيرة من الكواكب بشروط مناسبة للحياة, ونحن بالضرورة على احد تلك الاقلية من الكواكب, لاننا –بكل بساطة – هنا ونفكر بالموضوع .

من الغريب , ان المتدينين يحبون المبدأ الانثروبي. ولسبب ليس معقولا على الاطلاق ,وهو انهم يفكرون بأن ذلك يخدم قضيتهم. والعكس تماما هو الصحيح لانها ,كالانتخاب الطبيعي, نظرية بديلة لفرضية التصميم. وتقدم تفسيرا عقلانيا, بعيدا عن تفسير التصميم لاننا نجد انفسنا في وضع مواتي لوجودنا. واظن ان الحيرة تظهر في العقل الديني لان التنويه بالنظرية الانثروبية هو الوحيد الذي يحصل عن طريق محتوى السؤال الذي تحاول الاجابة عليه, يعني كوننا نعيش في مكان يحتضن الحياة. ما يفشل العقل الديني في فهمه هو ان هناك مرشحان لحل المسألة. احدهما الله والاخر هو المبدأ الانثروبي, وفي الحقيقة انهما حلان متبادلان .

الماء السائل شرط ضروري للحياة كما نعرفها, ولكن ليس كافيا بالمرة لوحده. الحياة عليها ان تتأصل في الماء, واصل الحياة ربما كان لااحتمالي بشكل كبير. التطور الدارويني يكمل الموضوع بسرور بمجرد ان نشأت الحياة.ولكن كيف بدأت الحياة؟ اصل الحياة كان حدثا كيميائيا, او سلسلة من الاحداث, حيث حدثت الشروط الحيوية لبداية التطور. العنصر الاهم كان الوراثة, د ن ا او (الاكثر احتمالا) شئ شبيه بها من حيث موضوع النسخ ولكن اقل ضبطا, ربما جزيئات ر ن ا القريب لها. وبمجرد ان يصبح هذا العنصر – نوع من الجزيئات القابلة للتوارث – موجودا, يبدأ التطور الدارويني ,

وتبدأ الحياة المعقدة بالظهور كنتيجة نهائية. ولكن الظهور التلقائي للجزئ القابل للتوارث بالصدفة يبدو للعديدين غير محتمل. وربما انه لااحتمالي بشكل كبير, وسأبقى عند هذه النقطة , لكونها نقطة مركزية في هذا القسم من الكتاب .

اصل الحياة يزدهر,كموضوع بحث تخميني. والخبرات المطلوبة كيميائية وليست من اختصاصي. وانا على الطرف كمتفرج فضولي, ولن اتفاجأ لو انه, في خلال بضعة سنين قادمة, بان الكيميائيين نجحوا في توليد اصل للحياة في المخبر. على الرغم من ذلك لم يحصل حتى الان, ولايزال من الممكن المحافظة على الرأي القائل بأن احتمال حصولها كان ولايزال ضئيلا بشكل هائل – برغم انها حصلت في وقت ما ولمرة واحدة . !

وكما فعلنا مع مدار القفل الذهبي, نستطيع ان نضع النقطة التالية, مهما كانت الاحتمال لاصل الحياة ضعيفا, ولكننا نعلم انها حصلت مرة على الارض لاننا هنا. وكما في درجات الحرارة, هنالك فرضيتان لشرح ما حصل – فرضية التصميم والفرضية العلمية

"الانثروبية". التصميم يسلم بوجود اله تعمد عمل تلك الاعجوبة, ضرب الحساء ما قبل البيولوجي بنار مقدسة واطلق ال د ن ا , او ما شابهها, في بداية مستقبلها المهني . ومرة اخرى, كما في القفل الذهبي, فإن البديل الانثروبي للتصمي هو فرضية احصائية . والعلماء يلجأون للارقام الكبيرة. وعدد الكواكب في مجرتنا بين مليار وثلاثين مليار كوكبا ,
ويوجد حوالي 100 مليار مجرة في الكون. لنرفع عددا من الاصفار جانبا لمجرد التعقل العادي, فنحصل على مليار مليار كرقم متحفظ لعدد الكواكب في كوننا. والان, لنفرض ان ظهور الحياة التلقائي او ما يشابه ال د ن ا, هو ظاهرة بلا احتمالية مدهشة. لدرجة انها تظهر مرة في كل مليار كوكب. سيضحك بعض اصحاب المنح للابحاث الكيميائية لو قال لهم كيميائي طالب للمنحة بأن احتمال نجاح البحث واحد بالمئة. ولكننا هنا نتكلم عن احتمال واحد في المليار. ومع ذلك .. ورغم ضألة الاحتمالات ,فأن هناك احتمال ان توجد الحياةعلى مليار كوكب – ومنهم بالطبع الارض .

النتيجة مفاجئة جدا, وسأكرر هنا. لوكان احتمال ظهور الحياة التلقائي على كوكب ما واحد في المليار, وعلى الرغم من اللا احتمال الكبير, فسيكون هناك حياة على مليار من الكواكب. فرصة ايجاد احد تلك الكواكب المليار يذكر بالمثل ابرة في كوم القش. ولكن ليس علينا ان نجهد انفسنا في البحث عنها لان (نعود للمبدأ الانثروبي) اي كائن يستطيع البحث هو موجود بالضرورة على احدى تلك الابر العديدة حتى قبل ان نبدأ بالبحث .

اي تصريح احتمالي يوضع في سياق متعلق بمستوى الجهل به. وان لم نعرف اي شئ عن كوكب ما, فربما نسلم بأن احتمالات نشوء الحياة عليه, لنقل, واحد في المليار .ولكن لو استطعنا وضع بعض الفرضيات على احتمالاتنا, فالاشياء تتغير. كوكب ما يمكن ان يكون له خواص ما, ربما بعض لمحات حيوية مهملة في صخوره, والتي تسحب الاحتمال في صالح نشوء الحياة. بعض الكواكب, بكلمات اخرى اكثر "شبه ارضية" من كواكب اخرى. والارض نفسها هي طبعا شبه ارضية بشكل خاص! وهذا يشجع اصدقائنا الكيميائيين الذين يحاولون خلق الظاهرة مرة اخرى في المختبر, لانه من الممكن ان تزيد احتمالات النجاح. ولكن كما اظهرت حساباتي السابقة بأنه حتى لو كان النموذج الكيميائي بإحتمال نجاح واحد في الملیارفأنه لايزال يتنبأ بوجود الحياة على مليار كوكب في الكون .

وجمال المبدأ الانثروبي بأنه يقول لنا, بعكس الحدس, بأن النموذج الكيميائي يحتاج فقط للتنبؤ بأن الحياة ستنشأ على كوكب واحد من مليار مليار كوكب ليعطينا تفسيرا جيدا ومقبولا بشكل كامل لوجود الحياة. انا لااعتقد ان اصل الحياة بهذه الدرجة من اللااحتمالية في الواقع. واعتقد بأنه من الحق صرف المال على تجارب لتكرار تلك الظاهرة في المخبر – ونفس الشي بالنسبة للبحث عن الحياة خارج الارض, لانني اعتقد بأن هناك حياة ذكية في مكان اخر .

حتى في حالة قبول اكثر التقديرات تشاؤما عن نشوء الحياة بشكل ما, فإنها كحجة احصائية ستحطم اي اقتراح بأنه علينا ات نستخدم نظرية التصميم لملئ الفراغ. ومن بين كل الفراغات في قصة التطور, فإن فراغ اصل الحياة يبدو عصيا على الفهم لدماغ بتدريرات تساعد على تقييم احتمالات و مجازفات على موازين يومية: كالموازين التي بواسطتها تقرر هيئة المنح اعطاء المنحة المالية للبحث المقدم من الكيميائي. ولكن حتى فراغ كهذا فإنه يملئ بسهولة من قبل عالم احصائيات قدير, و تقدم نفس الاحصائيات سببا لاخراج الخالق المقدس من ارض ال 747 الكبرى" التي نوهنا عنها سابقا .

ولكن الان, لنعد للنقطة المثيرة التي انطلق منها هذا المقطع. لنفرض بأن احدا ما حاول تفسير ظاهرة التأقلم البيولوجي بواسطة السطور التي استخدمناها في اصل الحياة :

نستخدم الاعداد الهائلة من الكواكب المتوفرة. الواقع بأن كل نوع من الاحياء, وكل عضو درس في اي جسم حي, هو جيد فيما يفعل. اجنحة الطيور, النحل والخفافيش جيدين في الطيران. العيون جيدة للرؤيا. الاوراق جيدة في التمثيل الضوئي .

نعيش على كوكبنا محاطين بملايين انواع الاحياء, وكل منها على حدة يعطينا الوهم القوي بوجود تصميم. كل نوع حي مناسب جدا لنوع حياته الخاص. هل بإمكاننا ان نتملص بإستعمال حجة "العدد الهائل للكواكب" لشرح كل اوهام التصميم تلك؟ لا. لانستطيع . واعيد مرة اخرى لا. لاتفكر بذلك. هذا مهم جدا, لان ذلك يكمن في قلب اشد اشكال سوء الفهم للداروينية .

ليس من المهم كم عدد الكواكب التي نلعب بها, الحظ السعيد لايمكن ان يكون كافيا لشرح التنوع المعشب لانواع الحياة المعقدة على الارض بنفس الطريقة التي استعملناها لشرح وجود الحياة في الاصل. تطور الحياة مختلف تماما عن حالة نشوئها لأنه, وسأعيد هنا, اصل الحياة كان (او ربما كان) ظاهرة فريدة حدثت مرة واحدة فقط. وتكيف الاحياء للبيئات المختلفة , من الناحية الاخرى, ذو ملايين الطيات, ولايزال ساريا .

من الواضح بأننا هنا على الارض نتعامل مع عملية عمومية لتحسين الاحياء بيولوجيا ,عملية تحدث في كل انحاء الكوكب, كل القارات والجزر, وفي كل الوقت. ونستطيع التوقع بإطمئنان بأنه, لو اننا انتظرنا عشر ملايين سنة اخرى, فإن مجموعة جديدة تماما من الاحياء ستكون متأقلمة تماما لطرقها في الحياة كما هو الحال في احياء العصر .
وهذه ظاهرة, متكررة , متوقعة, وليست قطعة من احصائية حظ ادركناها في وقت متأخر. و الفضل يرجع لداروين, نعرف الان كيف حصلت: بالانتخاب الطبيعي .

المبدأ الانثروبي عاجز عن تفسير تنوع تفاصيل الكائنات الحية. ونحن بحاجة حقيقية لتفسير داروين القوي لتفسير تنوع الحياة على الارض, وبصورة خاصة الوهم المغري لنظرية التصميم. وبعكس ذلك فإن اصل الحياة ,يقع خارج حدود هذا التفسير , لان الانتخاب الطبيعي لايمكن ان يبدأ بدونه. وهنا يأتي المبدأ الانثروبي من نفسه. بإمكاننا معالجة فكرة اصل الحياة بإفتراض عدد هائل من الفرص الكوكبية. وبمجرد ان نضمن ضربة الحظ – والمبدأ الانثروبي يضمن لنا حصولها بشكل شبه اكيد – يبدأ الانتخاب الطبيعي في العمل: والانتخاب الطبيعي بالتأكيد ليس موضوع حظ ابدا .

على الرغم من ذلك, ربما كان اصل الحياة ليس الفراغ الوحيد في نظرية التطور والذي نجتازه بمجرد الحظ, المبرر انثروبيا. فعلى سبيل المثال, زميلي مارك ريدلي في شياطين ماندل (والذي تغير عنوانه بشكل محير ومجاني من قبل الناشر الامريكي ل تعاون الجينات) يقترح بأن اصل الخلية الاوكاريوتية (من نوع خلايانا, مع نواة واشياء اخرى معقدة مثل الميتوكوندريا, والتي لاوجود لها في البكتريا) شديد الاهمية, صعب ولااحتمالي احصائيا بشكل اكبر من اصل الحياة. واصل الوعي يمكن ان يكون فراغا اخر من نفس درجة الاحتمالية. يمكن تفسير الظواهر من خطوة واحدة بالمبدأ الانثروبي ,كما يلي .

هناك المليارات من الكواكب التي تطورت فيها حياة على مستوى بكتيري, وفقط جزء بسيط منها استطاع العبور لمرحلة الخلية الاوكاريوتية. ومن هؤلاء بدورهم, فإن جزءا اصغر عبر تلك المرحلة للحياة الواعية .لو ان كلتا الحالتي تعتبرا ظواهر ذات خطوة واحدة, فإننا بصدد عملية منشرة ومتخلخلة في كل شئ, كما هو الحال في عملية التأقلم البيولوجي الدائر والمستمر. المبدأ الانثروبي يصرح بالتالي, ان كوكبنا يجب ان يكون من النوادر حتى يستطيع اجتياز كل تلك العقبات .

الانتخاب الطبيعي يعمل لانه تراكم على طريق بإتجاه واحد للتحسن. وهو بحاجة لبعض الحظ ليبدأ بالعمل, المبدأ الانثروبي ل"مليارات الكواكب" يضمن لنا ذلك الحظ. وربما ان هناك بعض الفراغات الاخرى في نظرية التطور مما يحتاج للحظ, مع بتبريرات انثروبية .وعلى كل حال مهما اردنا قوله, فإن نظرية التصميم لايمكنها تفسير الحياة. لان التصميم في النهاية ليس عملية تراكمية وبالتالي تطرح سؤالا اكبر من الذي تجيب عنه – انها تعيدنا للسؤال التراجعي عن ال 747 الكبرى .

نعيش على كوكب صديق لنوع الحياة التي نحياها. وقد رأينا سببن لذلك. احدها هو ان الحياة تطورت وازدهرت بسبب الشروط التي امنها لنا كوكبنا. وذلك بالانتخاب الطبيعي .والسبب الاخر الانثروبي. هناك المليارات من الكواكب في الكون, ومهما كانت نسبة الكواكب المساعدة على التطور صغيرة, فإن كوكبنا يجب ان يكون احدها. وعلينا الان ان

نعيد المبدأ الانثروبي لمرحلة ابكر, من البيولوجيا للفلك .

المبدأ الانثروبي : النسخة الفلكية

نعيش ليس فقط على كوكب صديق لحياتنا ولكن في كون صديق لنا ايضا. ووجودنا يأتي من الواقع بأن القوانين الفيزيائية يجب ان تكون مناسبة بشكل كافي لتسمح للحياة بالنشوء. وليست مصادفة اننا نرى النجوم في السماء , النجوم من المتطلبات الضرورية حيث انها تحتوي الكثير من العناصر الكيميائية, وبدون كيمياء لاتوجد حياة. وبحساب الفيزيائيين , فإنه لو اختلفت الثوابت الفيزيائية عما هي عليه حتى بشكل ضئيل جدا , فإن الكون سيتطور بشكل تصبح معه الحياة مستحيلة. والتعابير تختلف بإختلاف الفيزيائيين ,ولكن النتيجة كانت دائما واحدة. مارتن ريس, في كتابه ستة ارقام فقط, يعرض لائحة بست ثوابت اساسية, والتي يعتقد بثبات قيمتها في كل الكون. وكل واحد من هذه الثوابت معير بدقة بمعنى انه, لو تغير بشكل ضئيل , فإن الكون سيكون غير ما نعرفه الان بشكل شامل ومن المفترض انه لن يكون مساعدا للحياة * .

احد الارقام الستة كمثال هو قيمة العامل المسى "القوة" الشديدة. تلك القوة التي تربط اجزاء الجزيئات : القوة الواجب التغلب عليها عندما نريد "فلق" الذرة. وقيمتها تسمى ي , وهي القسم المتحول لطاقة من انصهار ذرة هيدروجين متحولة من الهيليوم. والقيمة في كوننا هي عبارة عن , 0.007 وعلى مايبدو ان القيمة يجب ان تكون قريبة جدا من ذلك في حال اردنا ان نحصل على اي تفاعلات كيميائية(والتي هي شرط للحياة . (الكيمياء كما نعرفها هي عبارة عن تركيب واعادة تركيب لذرات العناصر الطبيعية البالغ عددها حوالي تسعين والتي نجدها في الجدول الدوري. الهيدروجين هو الابسط والاكثر انتشارا لهذه العناصر. كل العناصر الاخرى في الكون مصنوعة في النهاية من الهيدروجين بواسطة الانصهار النووي. الانصهار النووي عبارة عن عملية صعبة تحصل في شروط ضغوط حرارية عالية جدا تحصل داخل النجوم (وفي القنبلة الهيدروجينية). وبالنسبة للنجوم المتوسطة الحجم, كما هو الحال في شمسنا, فإن ذلك يولد عناصر خفيفة كالهيليوم وهو العنصر التالي على الجدول الدوري من ناحية الخفة بعد الهيدروجين .

ونحتاج لنجوم اكبر واكثر حرارة لنستطيع توليد معظم العناصر الثقيلة, وفي تتابع للانصهار النووي والذي درسه وشرحه فريد هويل واثنان من زملائه (انجاز,لسبب غامض ,لم يحصل به على حصة من جائزة نوبل,التي كسبها شركاؤه الاخرون). وهذه النجوم الكبيرة ربما تنفجر فيما يسمى سوبر نوفا, قاذفة بمحتوياتها, المتضمنة عناصر الجدول الدوري, على شكل غيوم غبارية. وهذه بدورها تتكثف وتنشئ كواكب ونجوم جديدة ,ومنها شمسنا وارضنا. وهذا هو السبب في غنى الارض بالعناصر الاثقل من الهيدروجين المنتشر في كل مكان: وبدون تلك العناصر, تستحيل الحياة .

مايتعلق بموضوعنا هنا هو ان قيمة "القوة" تحدد بشكل دقيق وحرج كم امكانية تشكل المواد على الجدول الدوري. ولو كانت صغيرة 0.006 , مثلا بدلا من ,0.007 فإن الكون لن يتكون من اي شئ اخر غير الهيدروجين, ولن ينتج اي عنصر كيميائي مثير . ولو كانت اكبر 0.008 ,مثلا, فإن كل الهيدروجين سينصهر مع بعضه لتشكيل عناصر ثقيلة .والكيمياء بدون هيدروجين لاتستطيع تشكيل حياة بالطريقة التي نعرفها. لسبب واحد الا وهو انه لن يكون هناك ماء. والقيمة الذهبية 0.007 هي القيمة الوحيدة التي تؤدي لوجود العناصر بتنوعها للحصول على كيمياء مثيرة وداعمة للحياة .

لن اتطرق لكل أرقام ريس الستة. النتيجة لكل منها تبقى نفسها. الرقم له قيمة (ذهبية) والحياة لن تكون ممكنه خارجها. كيف يمكننا الرد على ذلك؟ مرة اخرى, لدينا رد المؤمنين من طرف, والمبدأ الانثروبي في الطرف الاخر. المؤمن يقول بأن الله, عندما ضبط معايير الكون, فإنه وضع القيم لهذه الثوابت الاساسية بحيث ان كلا منها يقع في نطاق ذهبي لانتاج الحياة. وكان الله عنده 6 من المقابض التي يديرها, وقد ضبط كلا منها بحرص للقيمة الذهبية. وكما هو الحال دائما, فإن جواب المؤمن ليس كافيا. لانه يترك موضوع وجود الله بدون شرح. لاحتمالية الاله القادر على حساب القيم الذهبية للارقام الستة يجب ان يكون على الاقل مساويا للاحتمالية ضبط الارقام الستة نفسها, وهذا بالتأكيد قليل الاحتمال – وهذه المسلمة هي في الاساس في نقاشنا .
وبذلك فإن جواب المؤمنين يفشل تماما في دفعنا بإتجاه حل المسألة. ولا اجد اي بديل عن طرده بعيدا, وفي نفس الوقت انظر لاعداد الناس الذين لايرون تلك المعضلة ويبدون مكتفين بصدف بحجة " المقدس مدير المقابض" .

ربما ان احد اسباب ذلك العمى المدهش هو عدم وجود وعي مرتفع لأولئك الناس, كالذي حصل عليه البيولوجيون, بنظرية الانتخاب الطبيعي وقوتها في ترويض اللااحتمالية. ج . اندرسون تومسون, ومن وجهة نظره كطبيب نفسي تطوري, لفت نظري لسبب اخر ,التحيز النفسي الذي نملكه ويؤدي بنا لشخصنة الاشياء الساكنة . وكما يقول تومسون , نميل للخطأ اكثر في اعتقادنا ان ظل ما هو لص اكثر من اعتقادنا ان لص ما هو عبارة عن ظل. فالخطأ الايجابي مضيعة للوقت فقط. بينما الخطأ السلبي يمكن ان يكون قاتلا .في رسالة لي, اقترح تومسون , بانه بالنسبة لاسلافنا في الماضي, كانت اهم التحديات في البيئة تأتيهم من الاخرين من بني جنسهم. " التراث يقول بأن الافتراض الاول , الخوف غالبا, من نوايا الانسان. هناك صعوبات جمة في رؤية اي شئ غير الاسباب الانسانية . " وسأعود لموضوع اغواء "الشخصنة" في الفصل الخامس .

البيولوجيون, ذوي الوعي العالي لقوة نظرية الانتخاب الطبيعي في تفسير ارتقاء الاشياء اللااحتمالية, لن يرضوا باي نظرية تتفادى مشلكة اللااحتمالية برمتها. وجواب المؤمنين للأحجية اللااحتمالية هو تفاد لها بشكل هائل. انها ليست اكثر من اعادة لطرح المشكلة , بل انها تشويه لها بشكل كبير. لنلتفت الان للحل الانثروبي البديل. الجواب الانثروبي , في شكله الاعم, هو انه باستطاعتنا نقاش السؤال عن نوع الكون القادر على انتاجنا. ان وجودنا يفرض ان الثوابت الاساسية للفيزياء ضمن حدود قيمها الذهبية. والحلول الانثروبية تختلف بإختلاف الفيزيائيين العاملين على احجية وجودنا .

بعض الفيزيائيي العنيدين يقولون بأن المقابض الستة لم تكن لها الحرية في اي من الاوقات لتتغير. وعندما نصل لنظرية الكل التي طالمنا املنا بمعرفتها, سنجد ان الارقام الستة تعتمد على بعضها, او على شئ اخر ليس معلوما بعد, وبطرق لانستطيع بعد تخيلها في ايامنا. ربما تكون الارقام الستة عديمة الحرية في التغير تماما كما محيط الدائرة بالنسبة لمحيطها. وسيستنتج لذلك بأن هناك طريقة واحدة لوجود الكون. وبعيدة جدا عن الحاجة لوجود اله يضبط المقابض الستة, وليس هناك مقابض للضبط في الاصل .

فيزيائيونا (مارتن ريس كمثال) يجدون ذلك غير مرض, واعتقد اني اوافقهم. من المعقول بالطبع ان يكون هناك طريقة واحدة ليوجد الكون. ولكن لما على هذه الطريقة ان تكون بشكل اعداد وتمهيد للتطورالنهائي؟ لماذا على الكون ان يكون بالشكل الذي يبدو فيه تقريبا وكأنه, والكلمات للفيزيائي النظري فريمان دايسون, " من المؤكد قد عرف بقدومنا"؟ والفيلسوف جون ليسلي يستعمل التشبيه عن رجل محكوم بالاعدام رميا بالرصاص. من الممكن ان يخطئ جميع اعضاء فريق الاعدام الهدف. وبالتبصر للخلف,يجد الناجي نفسه في وضع يفكر فيه بحظه بسعادة ويقول," ايه, من الواضح ان جميعهم اخطأوا الهدف, وإلا فلن اكون هنا افكر في ذلك". ولكن من الممكن انه لايزال يعجب لماذا اخطأوا جميعا, وتدور في رأسه فرضيات عن كونهم قد ارتشوا او كانوا سكارى .

نجيب على الاعتراض بالاقتراح, ويدعمنا مارتن ريس في ذلك, بان هناك العديد من الاكوان, متعايشة كما فقاعات الرغوة, في العالم المتعدد الاكوان (او الكون العظيم, كما يجب ليونارد سوسكيند تسميته). * القوانين في احد الاكوان كالذي في نطاق ملاحظتنا ,هي قوانين محلية. والعالم المتعدد الاكوان لديه الكثير من القوانين المحلية المتبادلة . والمبدأ الانثروبي يأتي هنا ليشرح بأنه من الواجب ان نكون في احد تلك الاكوان ذات القوانين المحلية المواتيه في النهاية لتطورنا وتأملنا في المسألة ذاتها .

نسخة فاتنه من نظرية العالم المتعدد الاكوان تأتي من اعتبارنا بالمصير النهائي لكوننا .بالاعتماد على ثوابت مارتن ريس الستة, ربما سيتمدد كوننا للانهاية, او يستقر على وضع متوازن, او سينقلب التمدد لتقلص, ينتهي بما يسمى "الالتحام الكبير". وبعض نماذج الالتحام الكبير ترجع الكون لحالة التمدد, وهكذا بدون نهاية وبتردد قدره, لنقل , 20مليار عام. النموذج الاساس لكوننا يقول بأن الوقت بدأ مع الانفجار الكبير, كما الفراغ, منذ حوالي 13 مليار سنة. وسلسلة الالتحام الكبير تفرض ما يلي: زمننا وفراغنا بدءا مع الانفجار الكبير, ولكن ذلك الانفجار هو الاخير من عده انفجارات, ونشأ كل منها من التحام كبير قد اهلك الكون السابق في السلسة. ليس بمقدور احد ان يفهم تفاصيل شئ كالانفجار الكبير, وبالتالي فإنه من المعقول بأن القوانين والثوابت يمكن ان تكون لها قيم مختلفة في كل دورة ل(ألانفجار –التمدد–التقلص–الالتحام) وذلك منذ الازل والى الابد كالة اكورديون كونية, وهنا لدينا متسلسلة اكوان, وليس اكوانا متزامنة. ومرة اخرى, فأن المبدأ الانثروبي يؤدي واجبه في الشرح. من كل هذه الاكوان هناك عدد ضئيل بثوابت مضبوطة للشروط البيوجينية. وبالطبع, الكون الحالي هو احد تلك القلة, لاننا فيه. وكما هو ظاهر لنا, فإننا لانستطيع الحكم على هذا النوع المتسلسل من الاكوان كما كنا في السابق , لانه ادلة جديدة بدأت بالظهور لتاخذنا بعيدا عن نموذج الالتحام. ويبدو بأن كوننا مقدور عليه التمدد للانهاية .

فيزيائي نظري اخر, لي سمولين, جهد في تطوير نظرية ذات طابع دارويني عن العالم المتعدد الاكوان, تضمن كلا النوعين, التسلسي والمتوازي(المتواقت). فكرته التي شرحها في حياة الكون عن اكوان بنات لاكوان اباء, ونشوءهم ليس بنتيجة الالتحام الكبير ولكن بنتيجة محلية عن الثقوب السوداء. الاكوان البنات لديهم ثوابت مختلفة قليلا عن اباءهم .
والتوارث هو العنصر الاساسي في الانتخاب الطبيعي, وبقية نظرية سمولين نتيجة طبيعية. الاكوان التي لها ما يلزم "للبقاء" و "التكاثر" تصبح لها الهيمنة في العالم المتعدد الاكوان. و"ما يلزم هنا" يتضمن الديمومة لزمن كاف ل"التكاثر". لان فعل التكاثر يحصل في الثقوب السوداء, والاكوان الناجحة يجب ان يكون لديها ما يلزم لتشكيل الثقوب السوداء. وهذه القابلية ميراث لقابليات اخرى. كمثال, ميل العناصر للتكثف على شكل غيوم ومن ثم نجوم هو شرط لعمل الثقب الاسود. النجوم ايضا, كما رأينا, هي بوادر لتطور الكيمياء المثيرة, ومن ثم الحياة. ولذلك, يقترح سمولين, بأن هناك انتخاب طبيعي دارويني للاكوان ضمن العالم المتعدد الاكوان, وبشكل مباشر يفضل الاكوان التي تطور ثقوب سوداء خصبة وبشكل غير مباشر يفضل انتاج الحياة. ليس كل الفيزيائيين متحمسين لفكرة سمولين. على الرغم من ان الفيزيائي الحاصل على نوبل ماري جيلمان قال:"سمولين؟ هل هو ذاك الشاب ذو الافكار المجنونة؟ ربما لايكون مخطئا ".

ربما سيتساءل بيولوجي خبيث في وقت ما عما اذا كان فيزيائيون اخرون بحاجة لرفع الوعي بنظرية داروين .

من المغري التفكير(والعديدون استسلموا) بأن العالم المتعدد الاكوان نوع من الترف المسرف التي لايجب السماح بها. ولو سمحنا بتعدد الاكوان المسرف, تقول الحجة ,فدعونا نسمح بالاله. اليست الفرضيتان بنفس الدرجة من السماح وعدم الارضاء؟

الذين يفكرون بهذا الشكل لم يتعرضوا لرفع الوعي بالانتخاب الطبيعي. الفرق الاساسي بين فرضية الاكوان المتعددة الجريئة و فرضية الاله الجريئة هي الاحصائيات اللااحتمالية .وبرغم التبذير في تعدد الاكوان, الا انها بسيطة, الله , او اي ذكاء يأخذ قرارا بحسابات ,عليه ان يكون من ضخامة اللاحتمال على الاقل بنفس الدرجة للكيان الذي نحاول شرحه. العالم المتعدد الاكوان يبدو نظرية في غاية التبذير من ناحية تعدد الاكوان. ولكن في كل من تلك الاكوان هناك قوانين اساسية. نحن هنا لا نفترض اشياء بدرجة عالية من اللااحتمال. والعكس يجب ان يقال في اي نوع من انواع التصميم الذكي .

بعض الفيزيائيين معروفين بالتدين (راسل ستانارد و الموقر جون بولكنغتون مثالان من بريطانيا ذكرتهما قبلا). وكما هو متوقع فأنهم يتعلقون بلاحتمالية الثوابت ووقوعها في المجال الضيق بشكل عام للنطاق الذهبي, ويقترحون بأنه يجب ان يكون هناك ذكاء من النوع الكوني والذي قصد تعيير الثوابت. وانا قد نفيت كل ذلك كون هذه الاقتراحات تؤدي لمشكلة اكبر من التي تحلها. وما هي محاولات المتدينين للرد على ذلك؟ كيف يمكن لهم المحاججة بأن اي اله قادر على تصميم كون, بشكل دقيق وببصيرة كاملة يضبطه ليؤدي لتطورنا, عليه ان يكون على درجة من التعقيد واللااحتمالية مما يجعل وجوده يحتاج لشرح اكبر من اذي يفترض ان يقدمه؟

عالم الدين ريتشارد سوينبورن, كما تعلمنا ان نتوقع, يظن بأن لديه اجابة للمسألة, و يشرح ذلك في كتابه هل هناك اله؟. يبدأ بالقول بأن رأيه صحيح بالاستعراض بشكل مقنع بأنه يفضل ابسط الفرضيات التي توافق الوقائع. العلم يشرح الاشياء بعلاقاتها المعقدة لاشياء ابسط منها, وبالنهاية نصل للعلاقات بين الاجسام الاساسية للذرة. أنا (واتجاسر على القول انت ايضا) افكر بأن الفكرة جميلة في بساطتها بأن كل الاشياء مصنوعة من الاجسام الجزيئية و التي, بالرغم من تعددها, اتيه من عدد محدود صغير من انواع الجسيمات. ولو شككنا بذلك فإننا نفعل لان الفكرة تبدو بسيطة بشكل كبير. ولكن بالنسبة لسوينبورن فذلك ليس بسيطا البته, بل على العكس .

وبما ان عدد اي نوع من الجسيمات, ولنقل الالكترون مثلا, كبير جدا, فإن سوينبورن يفكر بأنه ليس من الصدفة ان ذلك العدد الهائل يملك نفس المواصفات. بإمكانه هضم فكرة الكترون واحد. ولكن مليارات المليارات من الالكترونات. كلها بنفس المواصفات ,ذلك هو ما يثير شكوكه. وبالنسبة له, فأنه سيكون من الابسط , والطبيعي اكثر, واقل تطلبا للتفسير, لو كانت الالكترونات مختلفة عن بعضها. اسوأ من ذلك هو ان الالكترون لايحافظ على مواصفاته سوى لبرهة ضئيلة من الوقت, كل منهم يجب ان يتغير نزويا ,بشكل عشوائي وفاني من لحظة لاخرى. ذلك هو رأي سوينبورن عن الامور البسيطة الطبيعية. كل ماهو اكثر رسمية(او ما نسميه انت وانا اكثر بساطة) يقتضي تفسيرا خاصا ."ان كون الكترونات وجزيئات النحاس وكل ما صنع منها تملك نفس القوه في القرن العشرين التي كانت لها في القرن التاسع عشر هو السبب بأن الاشياء هي كما عليه حاليا"

وهنا ادخل الله في الشرح. يأتي الله للانقاذ وذلك بالمحافظة بشكل مقصود على مواصفات المليارات من الالكترونات وجزيئات النحاس, و ابطال ميولها للعشوائية الحركية. ولذلك فإنك عندما ترى الكترونا فإنك كما لو رأيتهم جميعا: ولذلك فإن جريئات النحاس تتصرف كجزيئات النحاس, ولهذا يبقى كل الكترون وكل جزئ نحاس كما هو من ميكروثانية لأخرى ولقرن بعد قرن. لان الله بأستمرار يضع اصبعا على كل جزئ منها ,يكبح اي زيادة في تهورها ويسوطها للسراط المستقيم مع زملائها ليكونوا جميعا متماثلين .

ولكن كيف يمكن لسوينبورن ان يبرر بأن فرضية ان الله يضع زيليونات من الاصابع على الالكترونات الفالته هي فرضية بسيطة ؟ انها بالطبع عكس البساطة تماما. ولكن سوينبورن يمرر خدعته لاقتناعث الشخصي بذكاء وقح بمغالطة تأخذ الالباب . يصرح , وبدون اي تبرير, بأن الله يتكون من مادة وحيدة. باللالمعية في الشرح المقتصد, مقارنة بكل الزيليونات من الالكترونات المختلفة التي بشكل ما اصبحت متشابهة !

الايمان يدعي بأن اي عنصر موجود , قد اوجد وبقي في الوجود بسبب شئ واحد, الله .ويدعي بأن كل مميزة لاي عنصر هي بسبب او بسماح من الله بوجودها. تلك علامة لبساطة الشرح للتسليم بتعدد الاسباب. وبذلك فلايمكن ان يوجد شرح ابسط من الذي يسلم بالسبب الاوحد. الايمان بالله ابسط من الايمان بعديد من الاله. والايمان يشرح اسبابه لنفسه, شخص (ب) قدرة لانهائية(الله يستطيع فعل اي شئ منظقيا), علم لانهائي(الله يعرف كل مايمكن ان يعرف منطقيا), وحرية لانهائية .

يتكرم سوينبورن بالاعتراف بأن الله لايستطيع تحقيق الاشياء المستحيلة منطقيا, وهنا يشعر الانسان بالامتنان لهذا الامتناع. وبقولنا, فأنه ليست هناك اي حدود لقدرة الله على الاشياء. هل يواجه العلم صعوبة في تفسير س ؟ لامشكلة. لاتلقي بالا بالمرة. قوة الاله اللامتناهية مجهزة لتفسير س بسهولة(كما هو الحال في اي مسألة اخرى), والجواب في كل الاحوال بسيط لانه , وبعد كل شئ, هناك اله واحد . ماالذي يمكن ان يكون ابسط من ذلك؟

في الواقع, كل شئ هو ابسط من ذلك. الاله القابل لمراقبة و التحكم في كل جزيئ من الكون لايمكن ان يكون بسيطا. وجوده يحتاج لشرح ضخم ليوفيه حقه. والاسوأ من ذلك (من وجهة نظر البساطة) , فإن الزوايا الاخرى من وعي الاله مشغولة بأعمال وعواطف وصلوات ودعاءات كل انسان – وربما المخلوقات الفضائية الذكية ايضا ان وجدت على كواكب اخرى في مجرتنا او المئة مليار مجرة اخرى. وايضا, بناء على رأي سوينبورن ,عليه ان يقرر بشكل مستمر بأن لا يتدخل بالاعاجيب لانقاذنا عند تعرضنا للسرطان. لن يفعل ذلك ابدا, لانه, " لو استجاب الله لمعظم دعاءات الاقارب ليشفى مريض السرطان, فإن السرطان لن يبقى مشكلة للانسانية ليتوجب حلها" وعندها فماالذي يجب ان نصرف وقتنا به؟

لايذهب معظم علماء الدين بعيدا كسوينبورن. ورغم ذلك, فإنه من الملاحظ بأن فرضية بساطة الاله توجد في العديد الكتابات الدينية الحديثة. كيث وارد, الذي كان بوفيسورا للعلوم القدسية في اكسفورد, كان صريحا بما يتعلق بذلك في كتابه عام 1996 الله ,احتمال وضرورة :
في الواقع, الايمان يدعي بأن الله حل انيق واقتصادي ومفيد لتفسير وجود الكون .اقتصادي لانه يعزي الوجود برمته وكل ما في الكون لشئ واحد, هو السبب الاساسي الذي اعطى سببا لوجود كل شئ, وحتى ذاته. وانيق لانه حل يأتي من فكرة واحدة اساسية, الفكرة عن الكمال التام لشئ ما – وبه يمكن توضيح كل طبيعة الاله ووجود الكون بذكاء .

كما كان الحال مع سوينبورن, فإن وارد اخطأ في معنى شرح الاشياء, ولايبدو انه يفهم معنى ان يكون الشئ بسيطا. ليس من الواضح فيما اذا كان وارد يفكر بحق بأن الله بسيط, او ان الفقرة السابقة هي مجرد تمرين بسيط مؤقت "لمجرد الجدل". السير جون بولكنغتهورن, في العلم والايمان المسيحي , يقتبس عن وارد نقد لافكار توماس اكويناس: " انه لخطأ اساسي ان نفترض ان الله بسيط منطقيا – ليس البسيط بمعنى انه لايقبل التقسيم, ولكن بمعنى اقوى بكثير والذي يعني بأن ما ينطبق على اي جزء من الله ينطبق على الكل. وليس من التناقض ان يعتبر , وان كان لايقبل التقسيم, فإنه بحد ذاته معقد." وفي ذلك فإن وارد محق. بالتأكيد, فإن البيولوجي جوليان هكسلي, عام ,1912 يعرف التعقيد بإستعمال شروط " عدم تجانس الاجزاء " , وعني بذلك شكل محددا من عدم القابلة للتجزئ وظيفيا .

وفي جزء اخر, يعطينا وارد ادلة على الصعوبات التي يواجهها العقل الديني في فهم مصدر تعقيد الحياة. ويقتبس من عالم متدين اخر, البيوكيميائي ارثر بيكوك(العضو الثالث من ثلاثية العلماء الانكليز المتدينين), الافتراض بأن وجود حياة يعود "للنزعة للتعقيد المتزايد". وارد يصنف ذلك على انه "علاوة متأصلة في التطور والتي تفضل التعقيد على

البساطة". ويمضي ليقترح بأن تحيزا كهذا " ربما كان من اصل عملية التغيير الطفري ,لضمان نشوء المزيد من الطفرات". وارد شكوك في ذلك, كما يجب عليه ان يكون فعلا .

التطور نحو التعقيد يأتي, في السلالة التي يحصل فيها, ليس لاي علاوة متاصلة نحو التعقيد الزائد, وليس بسبب التحيز الطفري. بل انها تأتي من الانتخاب الطبيعي: تلك العملية, كما نعرفها حتى الان, تعتبر الوحيدة القادرة على تفسير نشوء التعقيد من البساطة. نظرية الانتخاب الطبيعي بسيطة وصريحة. وكذلك هو الاصل التي بدأت منه .ومن ناحية اخرى فإن التفسير الذي تقدمه لنا عن التعقيد اللامتناهي: اكثر من اي شئ نطمح في تخيله,وهو يغنينا عن ضرورة الاله المصمم .

استراحة في كامبريدج

في مؤتمر حصل مؤخرا في كامبريدج عن العلم والدين. عندما عرضت الحجة التي سميتها هنا بال 747 الكبرى, واجهت , على الاقل, ما يمكن ان اصفه بالفشل الودي لتجميع الافكار عن السؤال المتعلق ببساطة الله. والتجربة كشفت لي امورا احب ان اقاسمكم اياها .

في البدء اريد الاعتراف(ربما ان تلك هي الكلمة الصحيحة) بأن ذلك المؤتمر كان ممولا من هيئة تمبلتون. والمستمعين قلة منتقاة من الصحفيين العلميين في بريطانيا و امريكا .وكنت انا المتكلم الملحد من المتكلمين الثمانية عشر. احد الصحفيين , جون هورغان ,صرح بأن كل منهم حصل على مبلغ محترم وقدره $ 15000 للقدوم للمؤتمر, اضافة لكل المصاريف. كان ذلك مفاجئا لي. وخبرتي الطويلة في المؤتمرات العلمية الاكاديمية لم يكن فيها مستمعين دفعت لهم نقود للحضور. لو عرفت ذلك في وقتها لثارت لدي الشبهة. هل رشت مؤسسة تمبلتون الصحفيين العلميين وافسدت امانتهم العلمية؟ جون هورغان تساءل عن نفس الشئ وكتب مقالا عن تجربته. لأسفي الشديد فقد عرفنا بأن ادراج اسمي ضمن المتكلمين كان احد الاسباب الذي ساعده والاخرين على قبول الدعوة :

"البيولوجي البريطاني ريتشارد دوكينز, والذي ساعد مشاركته في المؤتمر بإقناعنا بشرعيته, كان المتكلم الوحيد الذي رفض الاعتقاد الديني واعتبره متعارض مع العلم ,لاعقلاني , ومؤذي. المحاضرون الاخرون – ثلاثة منهم لاادريين, واحد يهودي, الوهي, و 12 مسيحيين (فيلسوف مسلم الغى اشتراكه في اخر لحظة) – اعطو وجهات نظر مترافقة مع الدين بوضوح وخصوصا المسيحية ".

مقال هورغان متناقض بحد ذاته. وبالرغم من تخوفه, فإن هناك سمات من تجربته قد قدرها بوضوح (وكذلك فعلت انا كما سيتوضح لاحقا). كتب هورغان :

نقاشاتي مع المؤمنين عمقت تقديري لمعرفة لماذا بعض الاذكياء, المثقفين يعتنقون الديانات. احد الصحفيين ناقش ظاهرة التكلم بلغات اجنبية, واخر تحدث عن تجربة لعلاقته الحميمة مع المسيح. قناعاتي لم تتغير, ولكن قناعات الاخرين تغيرت. احد الزملاء اعلن على الاقل بأن ايمانه تزعزع بعد سماع تشريح دوكينز للدين. وعندما تتوصل مؤسسة مثل تمبلتون لمسعى يبدو كانه خطوة صغيرة بإتجاه ما اراه عالم بدون دين ,فهل من الممكن ان يكون الوضع اسوأ مما هو عليه؟

عرض مقال هورغان ثانية من قبل وكيل الاداب جون بروكمان في موقعه على الانترنت) الموصوف غالبا كصالون العلوم) وانتزع ذلك ردود فعل متباينة, واحدها من الفيزيائي النظري فريمان دايسون. وقد اجبت على دايسون , مقتبسا من خطاب تقبله لجائزة تمبلتون. وسواء اراد دايسون ذلك او لا, فإن تقبله للجائزة هو اشارة جدية للعالم .وسيؤخذ كمصداقية احد اهم الفيزيائيين في العالم للدين .

"انا سعيد بأن اكون احد المسيحيين العديدين الذين لايهتمون للتلقين عن الثالوث الاقدس كحقيقة تاريخية من الانجيل"

اليس ذلك بالضبط ما سيقوله اي عالم ملحد, لو اراد ان يبدو مسيحيا؟ وقد عرضت اقتباسات عديدة من خطاب تقبله للجائزة, وبعثرت خلاله بشكل هجائي اسئلة تخيلية هنا وهناك في رسالة ارسلتها لمسؤولي تمبلتون :
اه, تريد شيئا اعمق قليلا؟ مارأيك بـــ....

"لا اضع فروقا تميز الله من العقل. الله هو العقل عندما يجتاز مقاييس الفهم ".

هل قلت ما فيه الكفاية, وهل استطيع العودة لعلمي كفيزيائي؟ لا؟ ليس كافيا؟ حسنا ,
مارأيك بـــ..

" حتى في التاريخ المزري للقرن العشرين, فإني ارى بعض الادلة على التقدم في الدين . الشريران الذان لخصا الشر في القرن الحالي , هتلر وستالين, ملحدين اقرا بذلك *".

هل استطيع الذهاب الان؟

بإمكان دايسون ان يدحض الاستنتاجات من الاقتباسات من خطاب قبوله للجائزة, وذلك بشرحه وبوضوح للادلة التي وجدها للايمان بالله, وليس بالمعنى الاينشتايني الذي شرحته في الفصل الاول, والذي نستطيع كلنا الانتماء اليه. ولو فهمت مايعنيه هورغان , فإنه يقصد بأن اموال تمبلتون تخرب العلم. وانا واثق بأن دايسون اعلى من ان يفسد . ولكن خطاب قبوله للجائزة للاسف يبدو وكانه مثال للاخرين. جائزة تمبلتون ضعف مقدار الحافز المدفوع للصحفيين في كامبريدج, وقصدوا ان تكون اكبر من جائزة نوبل. بجهد فاوستي, صديقي الفيلسوف دانييل دينيت مزح معي مرة" ريتشارد , اذا ضاقت بكل الظروف " ...

في كل الاحوال, حضرت يومين من المؤتمر في كامبريدج, اعطيت محاضرة وشاركت في النقاشات لمحاضرات اخرى. تحديت رجال الدين لاعطائي جوابا عن الاله الذي يمكنه ان يصمم الكون, او اي شئ اخر, والذي عليه ان يكون اكثر لااحتمالية بكثير من تصميماته. والجواب الاقوى الذي سمعته هو انني ادس نظرية معرفية بوحشية في مجال لاهوتي لايرغب فيها, وبما ان رجال الدين يعرفون الله بالبساطة. فمن انا , العالم ,لأفرض على رجال الدين بأن الههم معقد؟ ان الحجج العلمية التي اعتدت ان اطبقها على المجال الذي اعمل به, ليست ملائمة هنا بإعتبار ان رجال الدين يصرون على الدوام بأن الله خارج مجال العلم .

لم اكتسب الانطباع بأن رجال الدين الذين صعدوا ذلك الدفاع المراوغ كانوا غشاشين . اعتقد انهم كانوا صادقين. وعلى الرغم من ذلك, لم استطع مقاومة تذكر تعليق بيتر ميداوار على كتاب الاب تيلهارد دو شاردان ظاهرة الانسان, التي ربما كانت اكبر نقد سلبي لكتاب في التاريخ: "يعذر الكاتب لعدم امانته فقط بسبب انه, قبل ان يضلل الاخرين , قد بذل جهدا عظيما في تضليل نفسه". رجال الدين الذين جابهوني في كامبريدج كانوا يعرفون انفسهم بوضعها ضمن نطاق مأمون لنظرية معرفيةبحيث لايصل اليهم اي خرق عقلاني لانهم عرفوا اجراءات واعتبروا انها لاتصل وفقط. ومن انا لاقول بأن الحجج العقلانية هي النوع الوحيد من الحجج؟ هناك طرق اخرى للمعرفة الى جانب الطرق العلمية, واحدى تلك الطرق هي التي يجب استعمالها لمعرفة الله .

والطريقة الاهم من تلك الطرق الاخرى هي الطريقة الشخصية, تجربة شخصية عن الله . العديد من المناقشين في كامبريدج زعموا بأن الله تكلم معهم, داخل رؤوسهم, بشكل واضح تماما كما لو كان شخصا اخر. لقد شرحت مواضيع الوهم والهلوسة في الفصل الثالث("الحجج من التجارب الشخصية"), ولكني اضفت نقطتان في كامبريدج. الاولى, لو ان الله فعلا تكلم مع اشخاص فإن هذا بحد ذاته يؤكد بأن الموضوع لايقع خارج نطاق العلم. الله يأتي زاعقا من عالم يقع في مجال اخر حيث يسكن, يقتحم عالمنا حيث يكون بالمستطاع فهم رسالته من خلال الدماغ الادمي – وتلك ظاهرة ليس لها علاقة بالعلم؟ الثاني, الله القادر على ارسال الملايين من الاشارات المنفردة في نفس الوقت ,واستقبال رسائل منهم في نفس الوقت ايضا, لايمكن ان يكون, بأي معنى من المعاني ,بسيطا. موجات هائلة! ربما ان ليس له دماغ من النيورونات, او معالج من السيليكون ,ولكن القوى التي تعزى له تجعله ممتلكا لاشياء مدبرة مبهرة وليست عشوائية ابدا واعظم كثيرا من افضل الكومبيوترات التي نعرفها .

مرة اخرى, اصدقائي رجال الدين يعودون للنقطة القائلة بأن هناك سبب لوجود شئ ما . يجب ان يكون هناك سبب لكل شئ. وهذا يمكننا ان نسميه الله. وجوابي كان , حسنا ,ولكن عليه ان يكون بسيطا, وبالتالي فإن الله ليس اسما مناسبا (الا اذا جردنا الكلمة من كل مواصفاتها المحمولة في عقول المؤمنين بالله). والسبب الاول الذي نبحث عنه يجب ان يكون القاعدة البسيطة لرافعة ذاتية والتي ادت لرفع العالم تدريجيا لوضعه المعقد الحالي. واقتراح ان المحرك الاولي له الذكاء الكافي لحبك التصميم الذكي, بغض النظر عن قراءة عقول الملايين معا وفي نفس الوقت, لهو مساو لان تحصل على مجموعة اوراق لعب كاملة في لعبة البريدج. انظر حولك في عالم الحياة, لغابات الامازون وغنى تداخل غاباتها المتسلقة, الاوراق العريضة, الجذور , الفراشات الطائرة, حيوانات التابير وجيوش النمل والنمور, ضفدع الاشجار والببغاءات. ما تنظر اليه مساو ليد كاملة في لعبة الورق(فكر بكل الطرق الاخرى لاستبدال اماكن الاعضاء, ليس من اي طريقة اخرى ناجحة) – بإستثناء اننا نعرف كيف حصل ذلك: بإستعمال رافعة الانتخاب الطبيعي بالتدريج. ليس فقط العلماء من يثور على التقبل الاخرس للالاحتمالية للنشوء التلقائي , بل الحس العام ايضا. واقتراح ان المسبب الاول, اللامعروف العظيم المسؤول عن وجود الاشياء, كان قادرا على تصميم الكون والتكلم مع ملايين الاشخاص معا, هو تنازل تام عن المسؤولية للبحث عن شرح. تساهل ذاتي مخيف, خطاف سماوي معرقل للافكار .

لااقترح هنا نوع من التضييق على التفكير العلمي. ولكن على الاقل بعض الامانة في السعي للحقيقة والتي يجب وضعها كقاعدة في شرحنا للامور العظيمة اللااحتمالية كغابات الامازون, وشق المرجان او الكون , والقاعدة هي العمل كرافعة وليس كخطاف سماوي. والرافعة ليست الانتخاب الطبيعي بالضرورة. مع الاعتراف , بأن لااحد فكر بطريقة افضل. ولكن من الممكن ان تكون هناك نظريات اخرى تنتظر الاكتشاف. وربما ان "التضخم" الذي ينادي به الفيزيائيين والذي حصل في جزء من اول ياكوثانية في وجود الكون, ستصبح, حين فهمها بشكل افضل, الرافعة التي ستقف جنبا الى جنب مع رافعة داروين البيولوجية. او. ربما الرافعة الغامضة التي يبحث عنها الفلكيون ستكون نوعا منسوخا من فكرة الدروينية نفسها: نموذج سمولين او ماشابه او ربما ستكون تعدد الاكوان مقترنا بالمبدأ الانثروبي كما في حالة ريس واخرون. ربما يكون هناك مصصم خارق ولكن في هذا الحالة لن يكون مصمما اتى من العدم بالتأكيد. ولو(وان كنت لااصدق ذلك حتى للحظة) كان كوننا مصمما, ومن باب اولى لمصمم يقرأ افكارنا ويعرف الغيب, يسامح ويصحح, فإن المصمم نفسه يجب ان يكون نتيجة لتراكم العديد من اعمال الروافع والمصاعد, ربما نسخة داروينية في كون اخر .

وخندق الدفاع الاخير لدى نقادي في كامبريدج كان الهجوم. ولعنت وجهات نظري عن العالم بإعتبارها من "القرن التاسع عشر". وتلك حجة سيئة جداحتى انني كدت الا اذكرها هنا. ولكن للاسف فإنني اواجه اجابات كهذه في اغلب الاحيان .

لانحتاج للقول بأن نقد فكرة بوصفها "من القرن التاسع عشر" ليس شرحا لما هو الخطأ فيها. بعض افكار القرن التاسع عشر كانت جيدة جدا, ناهيك عن فكرة داروين الخطرة .وعلى كل حال, فإن الدعوة الاسمية بدت وكانها قادمة لسبب مادي, كما حصل من قبل احد الافراد (جيولوجي مميز من كامبريدج, سلك طريق فاوست بشكل يضمن له جائزة تمبلتون) و الذي برر ايمانه المسيحي بإستخدام ما سماه تاريخية العهد القديم. ما حصل في القرن التاسع عشر بالضبط وخصوصا في المانيا, عندما دعى علماء الدين للشك في التاريخ المزعوم, بإستعمال طرق البحث التاريخي. وقد نوه رجال الدين لذلك بدون شك في مؤتمر كامبريدج .

على كل حال , اعرف التعنيف القديم من القرن التاسع عشر حول الاستهزاء "بملحد القرية". على عكس ما تتوقع . ها ها ها لم نعد نؤمن بالرجل المسن ذو اللحية البيضاء ها ها ها . النكات الثلاثة عبارة عن شيفرات لامور اخرى, تماما كما, عندما كنت اعيش في امريكا في اواخر الستينات حيث كان "القانون والنظام" شيفرة السياسيين التي تعني الاجحاف المضاد للسود .

ماذا تعني شيفرة "انت تنتمي للقرن التاسع عشر بشكل عميق" عندما تأتي في سياق حديث عن الدين؟ انها تعني بأنك خالي من اللباقة والكياسة ومن المستحيل عدم ملاحظة ذلك, كيف يمكن لك ان تسألني بدون اي مشاعر وبعدم اللباقة وبشكل مباشر سؤالا مثل:" هل تؤمن بالمعجزات؟" "هل تؤمن بأن المسيح طفل من عذراء؟" الا تعلم بأننا في المجتمع المؤدب لانلقي بأسئلة كهذه؟ اسئلة كهذه ظهرت في القرن التاسع عشر. ولكن فكر لماذا من غير اللبق ان تطرح سؤالا بشكل مباشر عن واقعة ما على رجل دين. لان ذلك محرج ! ولكن في الواقع فإن الاحراج يأتي من الاجابة ,عندما تكون بـــ (نعم)

صلة "القرن التاسع عشر, اصبحت واضحة. القرن التاسع عشر هو اخر وقت كان مسموحا فيه لشخص متعلم ان يعترف بإيمانه بالمعجزات, مثل حمل العذراء , بدون احراج. وعندما يحرجون, فإن الكثيرين من المثقفين المسيحيين مخلصين لدرجة انهم لايستطيعون نفي حمل العذراء او القيامة. ولكن ذلك يحرجهم لان عقلهم المفكر يعرف بأن ذلك لامنطقي,

ولذلك فإنهم يفضلون بألا يسألوا. وبهذا, فعندما يصر شخص مثلي على السؤال, فأنني سأصبح متهما بأنني من جماعة "القرن التاسع عشر" . ذلك مضحك حقا , عندما تفكر به .

تركت المؤتمر متحفزا ونشيطا, وقد قويت قناعتي بأن الحجة اللااحتمالية – مناورة ال 747 الكبرى – هي حجة قوية جدا ضد وجود الله, وانتظر سماع رد مقنع من رجال الدين بالرغم من الدعوات والفرص العديدة التي كانت لتسمح لهم بفعل ذلك. دان دينيت وصف ذلك محقا ب " تفنيد غير ممكن, ومدمر في ايامنا هذه كما كان الوضع عندما كان فيلو يضرب كلينتش في حوار هيوم قبل قرنين من الزمن. خطاف سماوي نجح في ان يؤجل حل المسألة , وهيوم لم يستطع التفكير بأي رافعة, ولذلك استسلم. بالطبع داروين هو الذي عرفنا على الرافعة, هيوم كان سيحبها جدا .

هذا الفصل احتوى على الحجج المركزية في الكتاب, وبهذا , وبالمخاطرة لاكون تكراريا ,سألخصهم في ست نقاط .

1. اعظم التحديات للذكاء الانساني, وعبر القرون, كان شرح التعقيد الكبير والعظيم اللااحتماليه الذي يظهر في الكون .

2. الاتجاه الطبيعي المغري هو نعزي ما يبدو مصمما لان يكون مصمما بالفعل. وفي حالة المصنوعات الدقيقة الانسانية كالساعة مثلا, فإن المصمم كان بدون شك مهندسا ذكيا .ومن الغري تطبيق نفس المنطق على العين والجناح , العنكبوت والانسان .

3. الاغراء مزور, لان فرضية المصمم ستطرح فورا السؤال الاكبر عن مصمم المصمم .كل المسألة بدأت من محاولة شرح لااحتمالية احصائية. وهذا بوضوح ليس حلا لانه يطرح سؤالا اكثر لااحتمالية. ونحن بحاجة "للرافعة" وليس "للخطاف السماوي" , لان الرافعة تستطيع العمل بتدرج معقول التصديق من بداية بسيطة لنهاية معقدة عظيمة اللااحتمالية لواخذنا اي تفسير اخر .

4. الرافعة الابدع والاقوى حتى الان هي الداروينية للتطور بالانتخاب الطبيعي. داروين ومن خلفه استعرضوا كيف ان الاحياء, مع لااحتماليتهم الكبيرة والانطباع الذي يعطونه عن التصميم, تطوروا ببطء وبشكل تدريجي من بدايات بسيطة. وبإمكاننا القول بأن الوهم عن موضوع التصميم في الكائنات الحية هو – مجرد وهم .

5. ليس لدينا رافعة مماثلة للفيزياء. وشئ ما كنظرية الاكوان المتعددة يمكنها من حيث المبدأ ان تعمل ما عملته الداروينية للبيولوجيا. شرح من هذا النوع بشكل سطحي اقل ارضاء من قرينه الدارويني البيولوجي, لانه يتطلب كمية اكبر من الحظ. ولكن المبدأ الانثروبي يؤهلنا لحظ اكبر بكثير مما يمكن لحدسنا الانساني ان يتقبله بإرتياح .

6. لايجب ان نفقد الامل في ايجاد رافعة للفيزياء, شئ ما بقوة الداروينية للبيولوجيا .ولكن حتى في غياب الرافعة فأن وجود الروافع الضعيفة الحالية , بدعمها من النظرية الانثروبية, فإنهابوضوح افضل بكثير من خطاف سماوي , ات من مصمم ذكي , يكذب نفسه بنفسه .

ولو قبلت المحاججات في هذا الفصل, فإن المسلمة الواقعية للدين – فرضية الاله – ضعيفة . والهك ليس موجودا بشكل شبه حتمي. وهذه هي النتيجة النهائية لهذا الكتاب حتى الان. ما سيأتي سيكون بضع من الاسئلة والاجابات . حتى لوقبلنا بعدم وجود الله, افليس للدين فوائد اخرى ؟ اليس مواسيا في المصاعب؟ اليس دافعا للناس لفعل الخير؟ وكيف سنعرف ما هو الخير بدون الدين؟ لماذا المعاداة للدين على ايه حال؟ لماذا, بإعتبار الدين خطأ, موجود في كل الحضارات؟ صح او خطأ ,الدين موجود في كل مكان, من اين اتى؟ وهذا السؤال الاخير هو موضوعنا التالي .

الفصل الخامس

منشأ الدين

بالنسبة لطبيب نفسي مؤمن بالتطور, فإن المبالغة العالمية في الطقوس الدينية وتضييعها للوقت, المصادر, الالم والتجريد, تبدو وكأنها تقترح بأنه من الممكن ان يكون الدين تكيفا كما هو الحال في حيوية مؤخرة القرود

مارك كوهن

الاولوية الداروينية

كل منا عنده نظريته الخاصة عن مصدر الدين وسبب وجوده في كل حضارة انسانية. انه يوفر العزاء والراحة. ويغذي روح الجماعة. ويرضي حنيننا لمعرفة سبب وجودنا. سأتي لشرح ذلك بعد برهة, ولكنني اريد ان ابدأ بسؤال سابق, سؤال يسبق الاسئلة الاخرى لسبب سنراه لاحقا: سؤال دارويني عن الانتخاب الطبيعي . بمعرفتنا بأننا نتاج انتخاب طبيعي دارويني, يجب ان نسأل عن الضغوطات التي ما رسها الانتخاب الطبيعي والتي فضلت الاندفاع نحو الدين. سؤال تبرز اهميته الفائقة بمجرد اعتبارنا لمبادئ الداروينة الاساسية في الاقتصاد .

الدين تبذير, بل تبذير هائل, والانتخاب الدارويني بطبيعته يستهدف ويلغي التبذير. الطبيعة محاسب بخيل, تتذمر بسبب قروش, تراقب الساعة, وتعاقب اقل تبذير. بدون عطلة وبدون توقف, كما شرح داروين," الانتخاب الطبيعي هو فحص دقيق يجري كل يوم وكل ساعة, عبر العالم, وكل تغيراته,حتى اصغرها. يرفض ماهو سئ, ويحفظ ويزيد ماهو جيد , يعمل بصمت وبدون اكتراث, وكلما سنحت الفرص, على تحسين كل عضو حي". لو مارس حيوان نشاطا ما بدون فائدة كعادة من عاداته فإن الانتخاب الطبيعي سيفضل الافراد الذين يخصصون وقتهم وطاقتهم, لاجل البقاء والتكاثر. الطبيعة لن تتحمل افراح روحانية طائشة. او تفضل النفعية العديمة الرحمة التي لعبت الورقة الرابحة, حتى لو بدا لنا ذلك مختلفا في بعض الاحيان .

بصدد ذلك, فإن ذيل الطاووس هو فرحة روحانية ممتازة. وبالتاكيد فإنها ليست ذات منفعة بقائية لصاحبها. ولكنها تفيد الجينات التي تجعله مميزا عن منافسية الاقل استعراضا. الذيل دعاية, تضمن مكانها في اقتصاد الطبيعة بجذب الاناث. والشئ ذاته ينطبق على العمل والوقت الذي يصرفه ذكر طائر البوير في بناء كوخه: نوع من الذيل الخارجي مبني من الاعشاب, الاغصان, انواع التوت الملونة, زهور, وعندما يكون متوفرا فإنها تضيف الخرز والبلى واغطية الزجاجات. أو لنختار مثالا لايتطلب الدعاية, "التنمل (عادة قديمة عند الطيور, كطائر الزاغة), بالاستحمام في عش النمل, وبمعنى اخر ادخال النمل في ريشهم. لااحد يعرف بالضبط الغاية من التنمل – ربما للنظافة, والتخلص من انواع الطفيليات في الريش, هناك العديد من الفرضيات, ولكن بدون ادلة قوية تدعم ايا منها. ولكن الحيرة فيما يتعلف بالتفاصيل لن توقف داروينيا – وليس من المفروض ان تفعل – عن الافتراض بكل ثقة, بأن التنمل يجب ان يكون "لسبب ما". في هذا الحالة ربما يوافق الحس العام, ولكن الداروينية لها سبب خاص للتفكير بهذا الشكل, لو ان الطير لم يفعل ذلك, فإن الاحتمالات الاحصائية لفرص نجاحها الجيني ستنخفض, وإن كنا لانعرف بعد سبب هذا الانخفاض وطريقته. النتيجة تأتي من البناء المزدوج للانتخاب الطبيعي الذي يعاقب التبذير في الوقت والطاقة, وملاحظة ان الطيور تعطي دائما جزء من وقتها وطاقتها للتنميل. ولو ان هناك عبارة واحدة تبين بشكل عام مبدأ "التكيفيين" فإنه قد عبر عنها بشكل متطرف ومبالغ به – من قبل عالم الجينات في هارفارد ريتشارد ليونتين:" النقطة التي يوافق عليها كل التطوريون في رأيي, هي انه من المستحيل ان نؤدي عملا افضل من الذي يفعله عضو ما في بيئته الخاصة" ولو ان التنميل ليس مفيدا بشكل ايجابي للبقاء والتكاثر, فإن الانتخاب الطبيعي كان ليفضل الافراد الذين توقفوا عن فعل ذلك من زمن طويل. ربما يغري ذلك داروينيا لان يقول الشئ ذاته فيما يتعلق بالدين, ولذلك نحتاج لمناقشة الفكرة .

بالنسبة لاي تطوري, تبدو الطقوس الدينية كذيل طاووس في ساحة مشمسة (التعبير مأخوذ من دانييل دينيت). السلوك الديني بشكل عام هو المكافئ الانساني للتنميل او بناء الكوخ للطيور. تحتاج لوقت, وطاقة, وغالبا بذخرفة تبذيرية كما في حالة ريش طيور الجنة. بإمكان الدين ان يشكل خطرا على حياة انسان تقي, كما على حياة الاخرين .الالاف عذبوا بسبب ولائهم لدين ما, اضطهدوا من قبل متطرفين ممن ينتمون لاعتقاد مغاير. الدين يلتهم المصادر الانسانية, وغالبا على صعيد جماعي. كاتدرائية من العصور الوسطة ربما استهلكت مئة رجل خلال قرن من الزمن لبنائها, ولم تستخدم كمسكن ابدا, او لاي سبب اخر مفيد اخر يمكننا معرفته. هل هذه عمارة من قبيل ذيل الطاووس؟ لو ان الاجابة بنعم, فمن هو المقصود بالدعاية هنا؟ موسيقا مقدسة ورسوم للتعبد احتكرت مواهب العصور الوسطى وعصر النهضة. المتعبدون قتلوا في سبيل الههم وقتلوا اخرين من اجله, ادموا ظهورهم بالسياط, اقسموا ان يهبوا حياتهم كعزاب او متوحدين صامتين, كل ذلك لخدمة الدين. لم كل ذلك؟ ما فائدة الدين؟

"الفائدة" هنا , تعني داروينيا بعض التحسين على جينات البقاء للفرد. ما هو مفقود في هذه النقطة الهامة هو ان الفائدة الدراوينية ليست محصورة بجينات الافراد. بل ان هناك ثلاثة اهداف اخرى لها. الاول يأتي من نظرية اختيار المجموعة, وسأتي لذلك لاحقا. الثاني يأتي من نظرية كنت قد حاميت عنها في النمط الظاهري الممتد: الفرد الذي تراقبه

ربما يكون خاضعا في تصرفاته لاحتكار متنفذ من جينات كائن اخر, ربما كان طفيليا. دان دينيت يذكرنا بأن الرشح هو ظاهرة عالمية كما هو التدين تماما, ولانستطيع الادعاء ابدا بأن الرشح مفيد لنا. هناك العديد من الامثلة عن حيوانات تتصرف بتلك الطريقة ليستفيد كائن اخر طفيلي بداخلها وينتقل لمضيف جديد. لقد شرحت هذه الظاهرة في نظريتي عن "مركزية النمط الظاهري الممتد": " تصرف الحيوان يهدف لتكبير فرص البقاء لجينات فيه "لاجل" هذا التصرف, سواء كانت تلك الجينات تعود لجسد الحيوان الذي ينفذ التصرف ام لا ".

والهدف الثالث, "النظرية المركزية" ربما تستبدل "الجينات" بتعبير اكثر عمومية الا وهو"المضاعفات". واقع وجود الدين في كل مكان ربما يعني بأنه عمل على افادة شئ ما. وربما اننا لسنا المستفيدين او حتى جيناتنا. ربما كانت الفائدة لافكار الدين ذاتها, للحد الذي تصرفت فيه تلك الافكار بشكل شبيه للجينات, كمضاعفات. وسأتي لذلك لاحقا ,تحت عنوان " إدعس بهدوء, لانك تدعس على ميماتي" .

وبهذه الاثناء, ساركز اكثر على الداروينية التقليدية, والتي نفترض بها بأن "الفائدة" تعني فائدة لبقاء الفرد وتكاثره .

الصيادون–القاطفون كما الحال في القبائل الاوسترالية الاصلية, يعيشون بطريقة اقرب ما تكون لطريقة اسلافنا الاقدمين. الفيلسوف الاوسترالي\النيوزيلاندي كيم ستيرينلي يشير لتناقض درامي في حياتنا. السكان الاصليون لديهم مهارات فائقة للبقاء تحت الشروط التي تتحدى مهاراتهم للحد الاقصى. ولكن, يكمل ستيرينلي, مخلوقات ذكية ,كما هو الحال لدينا, ولكن بشكل منحرف. نفس الاشخاص الشاطرين في العالم الطبيعي وكيفية البقاء فيه يملكون عقولا بأفكار فوضوية خاطئة تماما و كلمة"عديمة الفائدة" تعتبر وصفا كريما تجاهها. السكان الاصليون ل بابوا في غينيا الجديدة مألوفون بالنسبة لستيرينلي. تعايشوا وبقوا تحت ظروف قاهرة حيث الطعام صعب المنال, وذلك بواسطة "تفهم اسطوري للبيئة البيولوجية المحيطة بهم. ولكنهم دمجوا ذلك التفهم بإستحواذ عميق ومدمر عن الحيض عند النساء وعلاقته بالسحر. الكثير من الحضارات المحلية معذبة بالخوف من السحر, والعنف الذي يصاحب ذلك الخوف." ستيرينلي يتحدانا لتفسير " كيف يمكن ان نكون اذكياء واغبياء بنفس الوقت" .

مع ان التفاصيل تختلف عبر العالم, ولكن ليس هناك حضارة معروفة لم يكن فيها نسخة من طقوس مستهلكة للوقت والصحة , ومثيرة للعداوة, التخيلات المخالفة للواقع و مضادة للانتاج. ربما ان بعض المثقفين اهملوا الدين, ولكن الجميع تربى في حضارة دينية وكان عليهم في وقت ما ان يتخذوا قرارا لتركه. والنكته الايرلندية, " هل انت ملحد كاثوليكي ام ملحد بروتستانتي؟" تصرخ بمرارة الحقيقة .

التصرف الديني يمكن ان يطلق عليه لقب "عالمي" بنفس الشكل الذي نستطيع ان نسمي به التصرف الجنسي المتغاير. كلاهما تعميم يسمح بإستثناءات, وهؤلاء الاستثناءات يفمون جيدا القواعد التي تركوها. والخاصية العالمية تتطلب تفسيرا داروينيا .

من الواضح انه ليس هناك اي صعوبات في ايجاد التفسير الدارويني للتصرف الجنسي . الانجاب, وحتى في حال المثلية او استعمال مانعات الحمل التي يبدوا انها تكذب ذلك . ولكن ماهو تفسير التصرف الديني؟ لماذا يصوم الانسان, يسجد, يركع, يضرب نفسه بالسوط, يومئ برأسه بشكل جنوني اما حائط, حملات صليبية, او في حالات اخرى ينغمس في تصرفات مكلفة قد تستهلك حياته, وفي حالات متطرفة, تنهيها؟

الفوائد المباشرة للدين

هناك القليل من الادلة بأن الايمان الديني يؤمن بعض الحماية من الضغط النفسي والامراض الناتجة عنه. الادلة ليست قوية, وصدقها ليس مفاجأه لي, وذلك لنفس السبب الذي يؤدي لفعالية الطب الايماني في بعض الحالات. امل انه ليس من الضروري اضافة بأن حدوث فوائد كهذه لايجب ان يدعم القيمة الحقيقة للزعم الديني. وبكلمات برناردشو" الواقع بأن المتدين اسعد من الشكوك لايتعدي كونه اكثر من ان السكران اسعد من الصاحي ".

ان جزءا مما يقدمه الطبيب للمريض هو العزاء و الاطمئنان. لايمكن ان نهمل ذلك ابدا .طبيبي انا لايمارس الطب الايماني بشكل حرفي بوضع يده علي. ولكنني في كثير من الاحيان اشعر وكأني تعافيت مباشرة من بعض الامور البسيطة بمجرد الشعور بالاطمئنان لصوت يخرج من وجه ذكي عليه سماعة طبية. ذلك العلاج المموه وتأثير مدون ومدروس بشكل جيد و ليس حتى بسر. الحبوب الخلبية, بدون اي محتويات صيدلانية فعالة, تحسن الصحة في بعض الاحيان. ولذلك فإن تجارب الادوية يجب ان تجرى بشكل مضاعف العماء وتستعمل ادوية خلبية للمقارنة. وذلك سبب ان المعالجة بالهوميوباتيك تبدو وكأنها فعالة, على الرغم من ان العناصر ممددة بشكل كبير بحيث ان المواد الفعالة توجد بكميات مساوية للادوية الخلبية. وسبب ذلك , للاسف, عارضا جانبيا انتهاك المحامين لاختصاص الاطباء بأن الطبيب اصبح خائفا من أن يكتب ادوية خلبية بشكل او بأخر. او ان البيروقراطية تفرض عليهم ان يدونوا الدواء الخلبي في عبارة يستطيع المريض قرائتها اذا اراد, مما يفقد الغرض منها. الهوميوباتيين يحصلون على بعض النجاح لانهم, على عكس الاطباء التقليديين, يستطيعون وصف الادوية الخلبية – تحت اسماء اخرى. ولديهم قدر اكبر من الوقت يخصصونه للكلام مع المريض و ملاطفته. وفي ايام الهوميوباتي الاولى, تحسنت صورتها بشكل غير مقصود لان معالجتها لم تؤدي لاي فعل على الاطلاق – على عكس الطب التقليدي الذي يتطلب احيانا تسييح الدم المؤذي .

هل الدين هو العلاج المموه لاطالة الحياة بواسطة تخفيف التوتر النفسي؟ ربما كان كذلك, رغم ان العديد من الدراسات للمشككين قد وجدت ان الدين هو سبب للتوتر النفسي في العديد من الظروف عوضا ان يكون المخفف لها. من الصعب التصديق بأن الصحة تتحسن عند الشعور السقيم بالذنب بشكل نصف متواصل والذي يعانيه من ينتمي لطائفة الروم الكاثوليك ويمتلك الضعف الانساني وبمستوى تحت الوسط من الذكاء .ربما انه ليس من الحق ان نختار الكالثوليكية فقط. الكوميدية الامريكية كاثي لاندمان لاحظت ان "كل الاديان متماثلة: هي بالمبدأ شعور بالذنب, مع ايام عطل مختلفة." وعلى كل حال , اجد ان نظرية العلاج المموه ليست كافية لتفسير الانتشار الواسع للديانات عبر العالم. ولااظن اننا متدينون لان الدين قد خفف التوتر في اسلافنا. تلك النظرية ليست صالحة للتفسير, على الرغم ان ذلك ربما قد لعب دورا مساهما. الدين ظاهرة واسعة ويلزمها نظرية واسعة لتفسيرها .

النظريات الاخرى تهمل وجهة النظر الداروينية بشكل كامل. واتكلم هنا عن اقتراحات مثل " الدين يرضي فضولنا عن الكون ومكاننا فيه", او "الدين مواساة". ربما هناك بعض الحقائق النفسية , كما سنرى في الفصل العاشر, ولكنها لاتحتوي في مضمونها شرحا داروينيا .

كما قال ستيفن بينكرعن نظرية المواساة, في كتابه كيف يعمل العقل : " انها فقط تطرح السؤال كيف يتطور العقل ليجد راحة في تفسير يرى خطأه بوضوح. الشخص المتجمد من البرد لايجد راحة في التفكير بأنه دافئ, شخص يواجه اسدا وجها لوجه لن يسهل امره بالاقتناع بأنه ارنب". وعلى الاقل تحتاج نظرية المواساة لترجمة بالمصطلحات الداروينية, وذلك اصعب مما تظن. التفسيرات النفسية للمؤثرات التي يجد بها بعض الناس ايمانا ما موافقا او موافقا لهم هي تفسيرات مباشرة, وليست نهائية .

الداروينية تضع تمييزا بين المباشرة والنهائية. التفسيرات المباشرة للانفجار ضمن اسطوانة المحرك تختص بالشرارة. التفسيرات النهائية تهتم بالغرض الذي صمم الانفجار لاجله: لدفع المكبس من الاسطوانة, وبالتالي تدوير ساعد العمود. السبب المباشرللدين ربما كان نتيجة نشاط في قسم ما من الدماغ. ولن انطرق لفكرة "مركز الله" في المخ لانني لست معنيا بالسبب المباشر للسؤال. وليس للتصغير من شأنه. اوصي بشدة بكتاب مايكل شيرمر كيف نؤمن: البحث عن الله في عصر العلم كمختصر مفيد, والذي يحتوي على مقترحات من مايكل بيرسنغر واخرون بأن ظواهر الرؤى الدينية تتعلق بما يسمى صرع الاذن الدنيا .

ولكن شغلي الشاغل في هذا الفصل هو التفسير النهائي الدارويني. ولو وجد علماء الاعصاب "مركز الله" في المخ, فإن علماء الدروينية وانا كمثال يريدون ان يفهموا سبب تفضيل الانتخاب الطبيعي لذلك. لماذا نجح اسلافنا الذين كانت لديهم جينات تسعى لتطوير مركز الاله في المخ في البقاء وامتلاك احفاد اكثر من الذين لم يكن لديهم هذا المركز؟ السؤال الدارويني النهائي ليس سؤالا افضل , وليس اساسيا اكثر , وليس علميا اكثر من السؤال المباشر المختص بالاعصاب. لكنه فقط السؤال الذي اتكلم عنه الان .

لاتكتفي الداروينية بالتفسير السياسي, مثل "الدين وسيلة استخدمتها الطبقة الحاكمة لاخضاع الطبقة الدنيا." من المؤكد ان العبيد السود في امريكا قد تواسوا بالحياة الاخرة,والتي قللت من عدم رضاهم بهذه الحياة وبالتالي افادت مالكيهم. والسؤال عما اذا كان الدين قد صمم من قبل رجال دين او حكام متهكمين لهو سؤال مثير, وعليه يجب ان يجيب علماء التاريخ.

الدارويني يريد ان يعرف ماسبب ضعف الانسان امام الجاذبية الدينية وعليه فهو معرض للاستغلال من قبل الحكام ورجال الدين والملوك .

ربما يستخدم مستغل ما الرغبة الجنسية لاجل النفوذ السياسي, ولكننا نظل بحاجة للتفسير الدارويني عن كيفية عملها. في حالة الرغبة الجنسية, الجواب سهل: مخنا مجهز ليستمتع بالجنس لان الجنس في الحالة الطبيعية, يصنع الاطفال .

او ربما يستخدم السياسي المستغل التعذيب لتحقيق اهدافه. ومرة اخرى, التفسير الدارويني يزودنا بالشرح عن فعالية التعذيب, لماذا نحن مستعدون لفعل اي شي لتفادي الالم المبرح. ومرة اخرى يبدو ذلك واضحا لدرجة الابتذال, ولكن الداروينية تحتاج لتهجئة الاجابة: الانتخاب الطبيعي جعل فهم الالم كرسالة تهديد للحياة عن طريق تدمير الجسم , وبرمجتنا لتفادي ذلك. والحالات النادرة من الافراد الذين لايأبهون بالالم او لايشعرون به ,عادة يموتون في سن مبكر من نتيجة اصابات من النوع الذي نحاول نحن تفاديه. وسواء كان الامر يستغل او يظهر نفسه بشكل اني, ما الذي يستطيع شرح الرغبة في الالهه؟

الانتخاب الجماعي

ظهر تفسير زعم بأنه نهائي – او اجهر بذلك – مايسمى نظريات الانتخاب الجماعي .الانتخاب الجماعي هي فكرة جدالية بأن الانتخاب الدارويني يختار بين الانواع او مجموعات من الافراد. وعالم الاثار كولن رينفرو من كامبريدج يقترح بأن المسيحية بقيت من خلال الانتخاب لمجموعة لانها غذت فكرة الولاء للمجموعة والمحبة الاخوية للمجموعة وذلك ساعد المجموعات المتدينة على البقاء على حساب المجموعات المجموعات الاقل تدينا. وداعية الانتخاب الجماعي الامريكي دي اس ويلسون طور فكرة مماثلة بشكل مستقل وبشرح مستسهب اكثر في كتابه كاتدرائية داروين .

واليكم مثالا ابتدعته لشرح ماهية عمل نظرية الانتخاب الجماعي. قبيلة تؤمن بإله مثير محارب "اله الحروب" تربح ضد قبيلة الهها يحض على السلام والتناغم, او قبيلة ليس لديها اله على الاطلاق. المحاربون المؤمنون بأن الشهادة سترسلهم للجنة يحاربون بشجاعة, ويضحون بحياتهم. وبذلك فإن قبيلة بنوع تدين كهذا ترجح للبقاء في حروب القبائل, يسرقون اسباب حياة القبيلة المغلوبة ويأسرون نسائها كجواري. قبيلة ناجحة بهذا الشكل المنتج سوف تلد قبائل مماثلة وهي بدورها تلد قبائل وليدات لها, والجميع يعبدون نفس اله الحرب. وعلى فكرة فإن مجموعة ام تلد مجموعة بنت, مثل فكرة خلية نحل ترمي بحشود خارجها, ليست فكرة غير قابلة للتصديق. الانتروبولوجيست نابليون شانيون وضع مخططات لانشطارات قرى في دارسته الشهيرة "اناس غاضبون" لقبائل اليانومامو في ادغال امريكا الجنوبية .

شانيون ليس من مؤيدي نظرية الانتخاب الجماعي وكذلك انا. هناك اعتراضات هائلة تواجهها. وكمحارب مخالف , يجب ان احذر من الركوب على جوادي المحبوب, بعيدا عن مسلك هذا الكتاب. بعض البيولوجيون يوشون بحيرة بين الانتخاب الجماعي الحقيقي, كما هو الحال في مثالي الفرضي عن اله الحرب , وشئ اخر يدعونه الانتخاب الجماعي والذي ظهر بعد التحري على شكل انتخاب الاقارب او الايثار المتبادل (انظر الفصل السادس)

الذين يستصغرون الانتخاب الجماعي منا يعترفون بأنه ممكن الحصول. والسؤال هو عما اذا كان من الممكن لذلك ان يرقى ليكون له تأثير هام على التطور. وعندما يتم التحريض ضد الانتخاب في مستويات دنيا – كما هو الحال عندما يتقدم الانتخاب الجماعي كتفسير للتضحية بالنفس على المستوى الفردي – فإن الانتخاب في المستويات الدنيا يميل للقوة. وفي قبيلتنا المفترضة, تخيل مقاتلا انانيا في جيش يغلب فيه وجود الفدائيين المتحمسين للموت من اجل القبيلة والمكافأة السماوية. ففرصته ستكون افضل قليلا لان ينتهي في طرف الفائزين كنتيجة لكونه تعمد التأخر في المعركة للنجاة بجلده . واستشهاد رفاقه سيفيده اكثر من فائدته لاي منهم في المتوسط,, لانهم سيموتون .وستكون لديه الفرصة افضل منهم للانجاب , وجيناته الرافضة للاستشهاد ستنتشر للجيل اللاحق. وبذلك تقل الميول الاستشهادية في الاجيال اللاحقة .

ذلك كان نموذجا مبسطا, ولكنه يلقب الضوء على مشكلة مستمرة في موضوع الانتخاب الجماعي. الانتخاب الجماعي كنظرية هي عرضة دائما لفتنة داخلية. وموت الافراد والانجاب يحصل بزمن اسرع من انقراض الجماعة. وبالامكان وضع نموذج رياضي للحصول على الشروط الخاصة والتي تحت تأثيرها يمكن ان يكون الانتخاب الجماعي تطوريا بشكل قوي. هذه الشروط الخاصة بشكل عام غير واقعية بطبيعتها, ولكن من الممكن المحاجحة بأن الدين في الجماعات الانسانية يتبنى ظروفا ويطورها والتي في حالات عادية غير واقعية. تلك نظرية مثيرة , ولكنني لن اتابع ها فيما عدا

الاعتراف بأن داروين نفسه, برغم انه عادة محام مخلص للانتخاب على مستوى العضو الفردي, قد اقترب لان يكون منتخبا جماعيا في مناقشته عن القبائل الانسانية :
"عندما يحصل منافسة بين قبيلتين بدائيتين تعيشان في نفس البلد, ولو احتوت احداهما على عدد (في حالات اخرى يكون مساويا) اكبر من الاعضاء الشجعان والمخلصين ,والذين هم على استعداد لتحذير بعضهم للخطر , ومساعدة بعضهم والدفاع المشترك ,فإن تلك القبيلة ستحتل وتربح القبيلة الاخرى بدون شك... الانانية والتعقيد لايمكن ان يتماسكا, وبدون تماسك لاشئ يتأثر. القبيلة التي تملك المواصفات المذكورة بدرجة كبيرة ستنتشر وتنتصر على القبائل الاخرى, ولكن طبعا مع الوقت , وبالحكم من كل التجارب في الماضي , فهي ايضا سيأتي دورها لتقع ضحية قبيلة اخرى تمتلك المواصفات بدرجة اعلى " .

ولارضاء اي اختصاصي في البيولوجيا ربما يقرأ هذا, علي ان اقول ان فكرة داروين ليس عن الانتخاب الجماعي بشكل صارم, بالشكل الحقيقي وبمعنى ان الجماعة الناجحة تخلف جماعات بنات لها وبتردد يمكن ان نعده كوصف سكاني للمجموعة. بل على شكل اخر فإن داروين يرى اعضاء القبيلة الذين يتعاونون هم الذين يكتب لهم الانتشار كأفراد .
نموذج داروين يشبه اكثر انتشار السنجاب الفضي في بريطانيا على حساب السنجاب الاحمر, أستبدال طبيعي وليس أنتخاب جماعي.

الدين كناتج عرضي لشئ اخر

على اية حال, اريد الان اضع جانبا الانتخاب الجماعي والالتفات لوجهة نظري الخاصة عن البقاء الدارويني للدين. انا واحد من العديدين الذين يزداد عددهم من الذين يرون الدين كناتج عرضي لشئ اخر. بشكل اعم, اصدق بأننا نحن الذين نخمن الافكار عن قيمة البقاء لشئ ما نحتاج ل "التفكير بالناتج العرضي" . عندما نسأل عن البقاء لقيمة ما , ربما اننا نسأل السؤال الخاطئ. نحتاج لاعادة كتابة السؤال بطريقة اكثر مساعدة على المعرفة .ربما تكون الميزة التي تهمنا (الدين في هذه الحالة) ليس لها قيمة مباشرة للبقاء, ولكنها ناتج عرضي لشئ اخر له قيمة. واجد انه من المساعد على الفهم ان اضرب مثالا من حقل اختصاصي في سلوك الحيوان .

العث يطير الى لهب الشمعة, ولايبدو ذلك كحادث عرضي. بل يبدو وكأنهم يكلفون انفسهم ليكونوا ضحايا الحريق. بإمكاننا ان نسمي ذلك "سلوك التضحية بالنفس" وتحت هذا الاسم المثير, نتسأل عن كيفية تفضيل الانتخاب الطبيعي لسلوك كهذا. النقطة التي انوه اليها هي انه علينا ان نعيد كتابة السؤال قبل حتى محاولة التفكير بإجابة ذكية. ليس هذا انتحارا . ما يبدو انتحارا هو في الواقع نتيجة اعراض جانبية غفلنا عنها او نتائج عرضية لشئ اخر. ولكن .... لأي شئ؟ حسنا اليكم احد الامكانيات التي يمكنها ان توضح النقطة .

الضوء الاصطناعي وصل حديثا على مشهد اليل. وحتى وقت قريب, فإن الاضواء الوحيدة في اليل كانت القمر والنجوم. وهم على مستوى اللانهاية البصرية وبالتالي فإن الاشعة الضوئية التي تأتي منها تأتي متوازية. وهذا يجعلنا قابلين لاستعمالهم كبوصلة. ومن المعروف عن الحشرات استعمالها للاجسام السماوية كالشمس والقمر للتوجه بشكل صحيح في خط مستقيم, وبإمكانهم استعمال البوصلة ذاتها, وبالاتجاه المعاكس, للعودة للموطن بعد الغزوة. والجهاز العصبي للحشرة تأقلم لوضع قاعدة من النوع التالي ": توجه بحيث ان اشعاع الضوء يصل لعينك بزاوية 30 درجة". وبما ان الحشرات لها اعين مركبة (مع انبوب ضوئي يشع من مركز العين للخارج كما اشواك القنفذ), فإن ذلك يمكن ان يصل ببساطة لقاعدة ان الضوء سيدخل من انبوب واحد على الطريق . ولكن البوصلة الضوئية تعتمد بشكل حرج على الاجسام السماوية المتناهية البعد. واذا لم يكن الوضع كذلك, فإن الاشعة ليست متوازية ولكنها متباعدة مثل قطر الدولاب. اي جهاز عصبي يطبق قاعدة ال 30 درجة (او اي زاوية حادة) بجانب شمعة , ويفكر بأنها القمر في اللانهاية البصرية , سوف يقود العث بشكل لولبي , نحو اللهب. ارسمها بنفسك , بإستعمال زاوية حادة مثل 30 درجة , وسترى بأن الشكل الناتج سيكون لولبا انيقا باتجاه الشمعة .

بالرغم من ان ذلك مميتا في تلك الظروف الخاصة, فإن القاعدة تظل, بشكل عام, جيدة للعث, ذلك لان رؤية شمعة لهو مما ندر مقارنة برؤية القمر. نحن لانلاحظ المئات من العث يتوجهون بصمت وفعالية بالقمر او النجوم, او حتى ضوء المشع من بلدة على مسافة ما. نحن نرى فقط عثا يدور بشكل لولبي حول الشمعة, ونسأل انفسنا السؤال الخاطئ: لماذا

ينتحر العث؟. عوضا عن ذلك , علينا ان نسأل , لماذا يملكون جهازا عصبيا يوجههم بواسطة تثبيت زاوية على اشعاع ضوئي, نلاحظ التكتيل فقط عندما يخطئ . وعندما تعاد صياغة السؤال يتبخر الغموض. لم يكن من الصحيح تسمتها بالانتحار. انها فقط تهديف خاطئ لبوصلة مفيدة في الظروف العادية .

والان طبق درس الناتج العرضي على السلوك الديني في الانسان. هناك عدد هائل من الناس – يصل لمئة بالمئة في بعض المناطق– من المؤمنين بأمور تعارض العلم بكل وضوح وتنافس اعتقادات دينية متبعة من قبل اخرين. ولايحفظ الناس هذا الايمان بشغف وحسب, بل يخصصون له وقتا ومصاريف غالية . يموتون من اجله, او يقتلون من اجله .
نحن نعجب لذلك, كما عجبنا من "السلوك المدمر للذات" للعث. نحار, ونسأل لماذا .ولكن النقطة التي اريد لفت النظر اليها هي اننا ربما نسأل السؤال الخاطئ هنا. ربما كان السلوك الديني مجرد خطأ في الاصابة , مجرد ناتج عرضي لنزعة ورائية نفسية ,والتي في احوال اخرى تكون او كانت مفيدة. وبوجهة النظر تلك, فأن النزعة التي انتخبت طبيعيا في اسلافنا لم تكن دينا بحد ذاته, بل كان لها منافع اخرى, واظهرت نفسها كدين لمجرد مصادفة. سنفهم السلوك الدين بمجرد ان نغير اسمه .

فإذا كان الدين اذن ناتجا عرضيا لشئ اخر, فما هو هذا الشئ؟ مانظير عادة العث للملاحة بالبوصلة السماوية؟ ماهي المميزة البدائية المفيده التي تخطئ الهدف احيانا وتولد الدين؟ سأسوق اقتراحا موضحا, وعلى التأكيد بأن هذا المثال هو النوعية للاشياء التي اعنيها, وسأتي لاقتراح مواز نادى به اخرون. انا متمسك بالمبدأ العام بأن علينا ان نصيغ السؤال بشكل صحيح, ونعيد كتابته بالكامل عند الضرورة, اكثر من اجابة خاصة عنه .

فرضيتي الخاصة هي عن الاطفال. نحن, اكثر من كل الكائنات الاخرى, نحافظ على بقائنا بواسطة تراكم الخبرات من اجيال سابقة, وهذه الخبرات يجب نقلها للاطفال لحمايتهم وتحسين حالهم. نظريا , ربما يتعلم الاطفال من تجاربهم الشخصية الا يقتربوا من حافة جرف, او يأكلوا توتا بريا احمر غير مجرب, او يسبحوا في ماء يعج بالتماسيح. ولكن ,
على الاقل, هناك بعض المميزات الانتخابية لمخ الطفل الذي يمتلك القاعدة المجربة : امن, بدون اسئلة, كل مايقوله الكبار لك. اطع اهلك, اطع كبار القبيلة, وخصوصا عندما يتكلمون بصوت ينم عن التهديد او الجدية. ثق بهؤلاء الكبار بدون سؤال. هذه قاعدة ثمينة بشكل عام بالنسبة لطفل. ولكن, كما في حال العث, بإستطاعتها الفشل احيانا .

لم ولن انسى الطقس المرعب, الذي وعظه في مدرستي عندما كنت صغيرا. مرعب جدا كذكرى, ذلك لانه: كنت طفلا في وقتها, وعقلي الطفولي تقبل الوعظ بالروحانية التي ارادها الواعظ. اخبرنا عن قصة فرقة عسكرية تمشي بالقرب من سكة قطار. وفي اللحظة الحرجة تشتت انتباه الرقيب, وفشل في اعطاء الامر بالتوقف. الجنود كانو مدربين لاطاعة الاوامر بدون سؤال واستمروا بالمسير, مباشرة نحو قطار قادم, والان بالطبع, لااصدق القصة وامل ان الواعظ لم يكن يصدقها ايضا. ولكنني صدقتها عندما كنت في التاسعة, لانني سمعتها من بالغ لديه سلطة على. وسواء صدقها هو ام لا, فإنه كان يأمل اننا نحن الاطفال سنعجب به ونشكل شخصياتنا على نموذج الجندي المستعبد والمطيع للامر بدون سؤال, وبرغم اللامعقولية , واتكلم عن نفسي هنا, فإننا قد اعجبنا بذلك. وكبالغ راشد اجد انه من المستحيل تقريبا ان اكون قد تساءلت في طفولتي عما اذا كانت لدي الشجاعة لاداء الواجب بالمسير تحت القطار. ولكن ذلك , فعلا, هو ما اذكره عن مشاعري وقتها. الطقس طبعا ترك لدي انطباعا عميقا, حتى انني لاازال اذكره وكتبته لكم الان .

للعدل هنا, لااعتقد ان الواعظ فكر بأنه يخدم قضية دينية وقتها. بل كان ذلك عسكرية اكثر من تدين, وفي روحانية تينيسون "مهمة الكتيبة الخفيفة:, والتي ربما ذكرها واعظنا وقتها :

لتمشي الكتيبة الخفيفة للامام
هل هناك رجل يفزع
لاحد يعرفه الجنود
شخص ما اخطأ :
ليس عليهم ان يجيبوا
ليس عليهم ان يعرفوا لماذا
ليس عليهم الا ان يقاتلوا ويموتوا
وبإتجاه وادي الموت
ركب الستمئة جندي

(احد اول واقدم التسجيلات المخربشة لصوت انسان كانت للورد تينيسون يقرأ تلك القصيدة, والانطباع عن الخطاب الاجوف الاتي من اعماق نفق مظلم طويل من الماضي لهو مخيف بشكل مناسب هنا.) سيكون الامر جنونيا من وجهة نظر القيادة لو سمحوا لكل جندي ان يناقش نفسه قبل اطاعة الاوامر. وبلدان ,بجيوش يسمح لجنودهم بالتصرف بما يرونه مناسبا عوضا عن اطاعة الاوامر, ستكون خاسرة في الحروب. فمن وجهة نظر البلد, فإن الطاعة قاعدة جيدة وحتى ان كانت في بعض الاحيان تؤدي لكوارث فردية. والجنود يدربون ليكونوا اوتوماتيكيين , او كومبيوترات, بقدر الامكان .

الكومبيوترات تفعل ما تؤمر به. تطيع كالعبيد اي اوامر تعطى لها بلغتها الخاصة. وهكذا تؤدي اغراضا مفيدة كالحسابات ومعالجة النصوص. ولكن, كناتج عرضي لامفر منه, فإنهم مبرمجون ايضا بشكل الي لاطاعة الاوامر السيئة. ليس لديهم طريقة يعرفون بها نتيجة تنفيذ الامر لوكانت جيدة او سيئة. ببساطة يطيعون, كما على الجنود ان يكونوا. وفي طاعتهم بدون سؤال, والتي تجعل الكومبيوتر مفيدا, تجعله ايضا معرضا للاصابة بالفيروسات بلا مفر. هي برامج مصممة بقصد الاذى وقوله للكومبيوتر "انسخني وارسلني لكل عنوان تجده في هذا القرص الصلب" سيطاع ببساطة, وبعد ذلك سيطاع ايضا من الكومبيوترات الاخرى التي ارسل لها في انتشار أسي. من الصعب وربما المستحيل , ان تصمم كومبيوترا يفيد بطاعته ويكون منيعا للاصابة .

لو كنت قد افلحت في عملي التمهيدي, فأنك قد اتممت الحجة عن مخ الطفل والدين . الانتخاب الطبيعي بنى مخ الطفل مع ميل لتصديق ما يقوله الاهل والكبار في السن من اهل العشيرة لهم. وطاعة الثقة تلك مهمة للبقاء: بطريقة مشابهة للتوجه بالقمر بالنسبة للعث. ولكن الوجه الاخر للطاعة والثقة هو السذاجة الخانعة. ناتج عرضي لامناص منه هو الضعف تجاه العدوى بفيروس الفكر. ولسبب ممتاز مرتبط بالبقاء الدارويني , يحتاج دماغ الطفل للثقة بالابوين, والاخرين الاكبر سنا والذين قيل لهم من قبل الابوين ان يثقوا بهم. والنتائج الاوتوماتيكية هي ان الواثق لديه اي طريقة يميز بها النصيحة الجيدة من السيئة. ليس بإمكان الطفل معرفة ان "لا تسبح في النهر الذي تنتشر فيه التماسيح" هي نصيحة جيدة بينما "يجب ان تضحي بخروف عندما يكتمل القمر, والا فلن ينزل المطر" هي في افضل حالاتها مضيقة للوقت والخراف. التحذيران اتيا من مصدر محترم وبلهجة جدية توحي بالامر بأن تطاع باحترام. والشئ نفسه ينطبق على المقترحات عن الكون والعالم, الاخلاق والطبيعة الانسانية. وغالبا, عندما يكبر الطفل ويصبح لديه او لديها اطفالهما الخاصين, فمن الطبيعي ان تمرر هذه الخبرات كلها للاطفال – ماله معنى وما ليس له معنى ايضا – وذلك بإستعمال نفس الاساليب في العدوى .

وبهذا النموذج المذكور علينا ان نتوقع انه, في مناطق الجغرافية المختلفة, يجب ان توجد انواع مختلفة اعتباطية من الايمان, ولا احد منها مبني على قاعدة واقعية, وسيتوارث ,ويصدق من قبل المجموعة بنفس الطريقة على انه جزء من التراث الحكيم المفيد كما يصدق بأن السماد مفيد للمحصول. وعلينا ان نتوقع ايضا ان الغيبيات والامور الاخرى الغير واقعية ستتطور محليا – وتتغير عبر الاجيال – بشكل عشوائي او بشكل يتبع نوعا من الانتخاب الدارويني, مما يرينا بعض الفوائد في انزياح الاعتقاد عن مثيله في الاسلاف .اللغات تبتعد عن اصلها المشترك لو اعطيت وقتا كافيا في مناطق جغرافية متباعدة(وسأعود لهذه النقطة بعد برهة). ويبدو ان الشئ نفسه صحيح فيما يتعلق بأنواع الايمان الاعتباطية والمحقونة ,عبر الاجيال – ايمان ربما دعمها البرنامج المفيد في مخ الطفل .

الزعماء الدينيون يعرفون جيدا نقاط الضعف في مخ الطفل, واهمية ان يلقن باكرا. يقول اليسوعيون" اعطني طفلا اول سبعة اعوام من عمره, وسأعطيك الرجل" ليس ذلك بأي شكل اقل دقة (او شرا) من كونه مبتذلا .

وفي ايامنا المعاصرة, جيمس دوبسون , مؤسس الحركة سيئة السمعة (ركز على عائلتك), ليس بأقل علما بتلك القاعدة حيث انه يقول :"هؤلاء الذين يتحكمون بما يدرسه الاطفال, وما يمارسونه من معارف, ومايرون ويسمعون وكيف يفكرون ويصدقون, هم الذين يحددون مسار المستقبل للامة".

ولكن تذكر,اقتراحي عن فائدة السذاجة في عقل الطفل هو مثال فقط عن نوعية الاشياء التي يمكن ان تشابه سلوك العث في التوجه بالقمر او النجوم. الايثولوجي روبرت هيند, في كتابه لماذا تستمر الالهه, وعالم اللانسانيات باسكال بوير, في كتابه تفسير الدين, وسكوت اتران, في كتابه نثق بالله, دعوا لفكرة الناتج العرضي كنتيجة لتغيير في اشكال اخرى من العوامل النفسية وكل منهم بشكل مستقل احدهم عن الاخر. وعلي ان اقول هنا , انه بالنسبة لعلماء الانسان خاصة , انهم يهتمون بتنوع الاديان في العالم وتناقضاتها كما هو الحال بما هو مشترك بينها. وما يجدونه يبدوا محيرا لنا ولكن ذلك فقط لانه ليس مألوفا لنا. كل انواع الايمان الديني تبدوا غريبة لانسان لم يتربى داخلها. و بوير اجرى ابحاثا عن اهل الفانغ في الكاميرون , والذين يؤمنون بـــ....

....ان هناك ساحرات بأعضاء داخلية اضافية تشبه اعضاء الحيوانات, تطرن بعيدا في الليل لتخريب ابدان اناس اخرين او تسميم دمائهم بالسموم. وقيل ايضا ان تلك الساحرات يجتمعن على مائدة ضخمة, وعليها يقررون من الضحايا ويخططون للهجومات المقبلة. الكثيرين من اهل المنطقة سيقولون لك بأن احد اصدقاء اصدقائهم رأي بالفعل احدى الساحرات تطير فوق القرية في الليل. تجلس على ورقة شجرة موز وتلقب بالنبال السحرية على الضحايا الغافلين .

يكمل بوير هنا بنكتة حصلت معه شخصيا :

كنت اذكر هذه الاشياء واشياء اخرى مثيرة في حفلة عشاء في كامبريدج عندما التفت الي احد ضيوفنا وهو من علماء الدين الاصلاء في كامبريدج وقال:" هذا ما يجعل علم الانسان مثيرا وصعبا. عليك ان تكون قابلا لشرح كيفية يمكن لانسان ان يؤمنوا بأشياء بدون معنى كتلك". صعقت لذلك التصريح. لقد مضى الحديث لامور اخرى قبل ان اتمكن من ايجاد اجابة وثيقة الصلة بموضوع الغلايات والاباريق .

لنفترض ان عالم الدين ذاك من كامبريدج يتبع للمسيحية بإتجاهاها العام, ربما يؤمن اذن ببعض ما يلي :

- في زمن اسلافنا , ولد شخص ما لام عذراء وبدون ان يقحم اب بيولوجي في الموضوع .
- نفس الشخص الذي بدون اب نادى شخصا اسمه اليعازر, والذي كان ميتا لمدة تكفي لان تنتشر رائحة كريهة منه, واليعازر عاد فورا للحياة .
- الشخص بدون اب نفسه عاد للحياة بعد ان مات ودفن بثلاثة ايام .
- بعد اربعين يوما , ظهر الانسان الذي بدون اب على قمة تلة ثم ارتفع الى السماء بجسمه واختفى .
- عندما تفكر بشئ ما بينك وبين نفسك وفي رأسك , فإن هذا الشخص الذي بدون اب ,وابوه(الذي يكون هو نفسه) سوف يسمع افكارك وربما يفعل شيئا بناء عليهم. انه قابل لسماع افكار كل الناس في الارض بنفس الوقت .
- لو فعلت شيئا سيئا, اوشيئا جيدا, فإن نفس الشخص الذي ليس له اب سيرى كل شئ ,حتى لو لم يرى ذلك اي احد اخر. وربما ستكافئ او تعاقب بناء عليه, وهذا ينطبق على ما بعد الممات ايضا .
- ام الشخص الذي بدون اب لم تمت ابدا بل "صعدت" بجسمها الى السماء .
- الخبز والنبيذ, لوباركهما القديس (الذي يجب ان يكون له خصيتان), "يصبحان" جسم ودم الرجل الذي بدون اب .

ماذا سيكون موقف عالم انساني محايد, عندما يصادف نوعا من ذلك الايمان اثناء عمله في كامبريدج, وماذا سيقول عن تلك الامور؟

التهيئة النفسية للدين

فكرة الناتج العرضي النفسي خرجت من اطار الاهمية في حقل التطور النفساني .والتطوريين النفسيين اقترحوا التالي, كما ان العين تطورت من اجل الرؤية كعضو ,والجناح تطور كعضو للطيران, كذلك الدماغ الذي هو مجموعة من الاعضاء(او الوحدات) التي عليها تقع مسؤولية التصرف حيال المعلومات . وهناك وحدة للتصرف حيال الاقارب , واخرى لمعالجة التبادل الحراري, واخرى للتعاطف, وهكذا. يمكن النظر للدين على انه ناتج عرضي لمجموعة من هذه الوحدات, وكمثال فإن الوحدة التي تكون مسؤولة عن تشكيل نظريات عن العقول الاخرى, لتشكيل الاحلاف, وممارسة

العنصرية لصالح من هو في الحلف وضد الغرباء. بإمكان ذلك ان يخطئ بشكل مشابه لخطأ العث والاجرام السماوية. وذلك عرضة لنفس الخطأ الذي اقترحته عن سذاجة الطفولة. عالم النفس باول بلوم, محام اخر عن موضوع "الدين ماهو الا ناتج عرضي", يشير الى ان الاطفال لديهم الميل لتكوين نظرية مزدوجة في عقولهم. والدين بالنسبة له هو نتيجة هذه الازدواجية الغريزية. نحن البشر, وخصوصا الاطفال مولودون بإزدواجية طبيعية, هذا ما يقترحه .

الازدواجي يعترف بالفرق الاساسي بين المسألة والعقل. الموحد على العكس من ذلك ,يؤمن بأن العقل هو الذي يعرف المسألة – مادة في المخ او حتى كومبيوتر – ولايوجد بدون وجود المسألة. الازدواجي يؤمن بأن العقل هو روح لاتتجسد تسكن الجسد وينتج عن ذلك انه بإمكانه ترك الجسد والوجود في مكان اخر. الازدواجي يفسر ان الامراض العقلية هي "تلبس من الشياطين". تلك الشياطين هي عبارة عن ارواح تقطن في الجسد بشكل مؤقت, وذلك لاجل ان يطردوا لاحقا. الازدواجيون يعطون معنى شخصيا للعناصر الفيزيائية الغير متحركة في اقرب فرصة, ويرون الارواح الشريرة حتى في الشلالات والغيوم .

رواية ف. انستي عام 1882 والعكس بالعكس لها معنى بالنسبة لازدواجي, ولكنها لن تعني شيئا بصرامة لموحد متعمق مثلي. السيد بالتيتود وابنه يجدون بأنهما تبادلا اجسادهما بشكل غامض ما. الاب, ولغبطة الابن, عليه ان يذهب الى المدرسة في جسم الابن, بينما الابن, في جسد الاب, يكاد يقضي على اعمال والده بقراراته الغير ناضجة . واستعمل بي جي وودهاوس نفس خط المؤامرة تقريبا في غاز الضحك. عندما يقع ايرل هافرشوت وطفل من نجوم السينما تحت المخدر في عيادة طبيب اسنان ويستيقظان في اجساد بعضهما. ومرة اخرى, فإن ذلك يمكن ان يكون له معنى بالنسبة لازدواجي . هناك شئ تابع لايرل هافرشوت والذي ليس قسما من جسمه, وإلا فكيف يمكنه ان يستقظ في جسد طفل ممثل؟

وكما معظم العلماء, انا لست ازدواجيا, ولكن لايمنعني ذلك من الاستمتاع في العكس بالعكس و غاز الضحك . باول بلوم سيعلل ذلك بما يلي. على الرغم من تعلمت ان اكون توحديا ذكيا, ولكنني انسان يجثم حيوان ما خلف عيناي وهو قابل, على الاقل خياليا,على الانتقال لرأس انسان اخر, وهذا مغروس بعمق في شخصي وفي كل انسان اخر, مهما كان توجهنا ذكيا نحو التوحيدية. بلوم يدعم زعمه بأدلة تجريبية عن ان الاطفال اكثر قابلية لان يكونوا ازدواجيين من البالغين, وبالخصوص الاطفال الصغار جدا. وهذا يدل على ان الازدواجية مبنية من صلب المخ, وبناء على بلوم, فإنها تؤمن تأهيلا طبيعيا لتقبل الافكار الدينية .

يقترح بلوم ايضا بأننا مؤهلون داخليا لنكون خلوقيين. الانتخاب الطبيعي "ليس محسوسا بالحدس". الاطفال بالاخص اكثر ميلا لوضع غرض لكل شئ, كما تخبرنا الطبيبة النفسية ديبورا كيلمان في مقالها "هل الاطفال مؤمنون بالحدس؟" . الغيوم لاجل المطر . الصخور المدببة معمولة حتى تستطيع الحيوانات حك جلدها بها". تعيين الغرض الوظيفي لكل شئ يسمى علم التيلولوجيا. الاطفال تيلولوجيون بالفطرة, والعديدين منهم لايتخلون عن ذلك بتقدم السن .

الازدواجية الفطرية والتيلولوجية الفطرية تعرضنا, بوجود الظروف المناسبة, للدين, كما هو الحال في العثة التي يعرضها رد الفعل الناتج عن التوجه بواسطة الضوء للانتحار على غفلة. ازدواجيتنا الفطرية تؤهلنا للايمان "بروح" تقطن الجسد عوضا عن كونها جزء من الجسد. وروح بدون جسد كتلك يمكن تخيلها بسهولة تتحرك لمكان اخربعد موت الجسم . ويمكننا تخيل الاله على انه روح صافية, وليس كشئ ظاهر له مواصفات معقدة ولكن موجود بشكل مستقل عن اي مواصفات. او حتى بوضوح اكثر, التيلولوجي الطفولية تضبطنا للتدين. بما ان كل شئ له هدف, لمن ترجع تلك الاهداف؟ الله, بالطبع .

ولكن ماهو الطرف الاخر المفيد المشابه للبوصلة الضوئية للعث؟ لماذا فضل الانتخاب الطبيعي الازدواجية والتيلولوجيا للمخ في اسلافنا واطفالهم؟ حتى الان, حساباتي عن "الازدواجية الداخلية" افترضت ان الانسان يولد ازدواجيا تيلولوجيا بطبيعته. ولكن ما هي الفائدة الداروينية لذلك, هناك اهمية لتخميننا واعطائنا معان ما لتصرفات الاحياء في عالمنا تساعدنا على البقاء, ونتوقع ان الانتخاب الطبيعي قد شكل مخنا لفعل ذلك بشكل فعال وسريع. هل يمكن ان تخدمنا ازدواجيتنا وتيلولوجيتنا بتلك الطريقة؟ ربما نفهم تلك الفرضية بشكل افضل في ضوء تفسيرات الفيلسوف دانييل دينيت والذي سماها الموقف المقصود .

دانيت عرض طريقة مفيدة لتصنيف ثلاثي ل"المواقف" التي نتخذها لفهم وبالتالي توقع تصرفات الكيانات الاخرى كالحيوانات, والالات او البشر الاخرين. هناك الموقف الفيزيائي , الموقف حيال التصميم والموقف حيال القصد.

الموقف الفيزيائي يعمل دائما وفقا للمبدأ, لان كل شئ في النهاية يتبع القوانين الفيزيائية. ولكن التصرف حيال كل شئ بإستعمال الموقف الفيزيائي يمكن ان يكون بطيئا. والوقت الذي نستغرقه ريثما نحسب كل ردود الافعال الحركية لاشياء معقدة تتحرك معا, ربما يجعل توقعاتنا تأتي متأخرة .وبالنسبة لشئ مصمم كغسالة , فإن الموقف حيال التصميم هو موقف اقتصادي وطريق مختصر وبإمكاننا ان نعرف كيف سيتصرف هذا الشئ بغض النظر عن المواضيع الفيزيائية والقفز مباشرة للتصميم. وكما يقول دينيت :

"يمكن لاي احد تقريبا ان يتوقع متى سيرن المنبه بمجرد تحري بسيط من خارجه. ولااحد يهتم ان كان يربط بنابض ورقاص او انه يسير بالبطارية او الطاقة الشمسية, مصنوع من مسننات نحاسية او رقائق سيليكونية – اننا نفترض انه مصنوع ليرن في الوقت الذي نعيره فيه للرنين"

الاشياء الحية ليست مصممة, ولكن الانتخاب الطبيعي الدارويني اعطاهم رخصة للموقف التصميمي. نحن نختصر الطريق لفهم الية عمل القلب اذا افترضنا انه "مصمم" لضخ الدم. لقد قاد كارل فون فيش تحريات عن رؤية الالوان في النحل (في وجه النظرية المتعصبة بأنهم عميان الوان) لانه افترض ان الالوان الناصعة للزهور "مصممة" لجذبهم . وعلامات بين القوسين يقصد بها اخافة الخلوقيين الكاذبين الذين سوف يزعمون بأن عالم الحيوانات النمساوي العظيم هو واحد منهم. ولا نحتاج للقول بأنه كان قابلا بشكل تام لترجمة الموقف من التصميم بتعابير داروينية مناسبة .

الموقف حيال القصد هو طريق مختصر اخر, وبدرجة افضل من الموقف من التصميم .تفترض ان الكيان ليس فقط مصمما من اجل هدف ولكنه , او انه يحتوي, على وكيل مع نية او قصد يقود افعاله. وعندما ترى نمرا, فمن الافضل لك ان تتاخر في توقعاتك عن احتمالات تصرفاته. لاتهم فيزيائية الجزيئات التي هو مكون منها, ولا تصميم اطرافه , واظافره او اسنانه. تلك القطة تنوي اكلك, وستستعمل اطرافها واظافرها واسنانها بطريقة مرنة ومبدعة لإتمام قصدها. افضل طريقة لتخمين تصرفها القادم هو بنسيان الفيزياء والفيزيولوجيا والقطع بالقصد. ولنتنبه هنا , فكما يعمل القصد حيال التصميم لاشياء ليست مصممة بالواقع كما يعمل تجاه الاشياء المصممة , فإن الموقف حيال القصد يعمل من اجل الاشياء التي ليس لها قصد واعي كما يعمل في حالة الاشياء الواعية .

ويبدو منطقيا بشكل كامل بالنسبة لي بأن الموقف حيال القصد له قيمة للمساعدة على البقاء مما يجعل المخ يأخذ قرارات هامة وسريعة في الضروف الخطرة. وفي اوضاع اجتماعية دقيقة. وليست ضرورة الالتزام بالازدواجية من اجل الموقف حيال القصد واضحة بشكل مباشر هنا. ولن اتابع اكثر من ذلك, ولكني اظن انه من الممكن تطوير حالات لنظريات عن ان عقول اخرى, واضحة الازدواجية , من السهل ان تقع تحت الموقف حيال القصد – خصوصا في اوضاع اجتماعية معقدة, بل واكثر من ذلك عندما تؤثر مواقف اعلى مرتبة من الموقف حيال القصد على الوضع .

دينيت يتكلم عن النية الثلاثية الطبقات(الرجل يؤمن بأن المرأة تعرف انه يريدها) والرباعية (المرأة انتبهت الى ان الرجل يؤمن بأن المرأة تعرف انه يريدها) . وحتى الخماسية (الشامان ظن بأن المرأة انتبهت الى ان الرجل يؤمن بأن المرأة تعرف انه يريدها). التراتيب العليا من النوايا ربما تكون محصورة بالخيال, كما في رواية ميشيل فراين الهستيريث رجال من الصفيح : "بمراقبته لنانوبولوس, عرف ريك بأنه متأكد تقريبا بأن انا احست بإحتقار عاطفي نحو فيدلينغشايلد, وعرفت ايضا بأن نينا عرفت بما تعرفه عن معرفة نانوبولس ... " ولكن الواقع هو ان كوننا مستعدين للضحك على تشويهات العقول الاخرى في التعامل مع الخيال يحتمل انه يقول لنا شيئا مهما عن الطريقة التي عمل بها الانتخاب الطبيعي لجعل عقلنا يعمل بهذه الطريقة .

في المراتب الدنيا على الاقل, الموقف حيال القصد, كما في الموقف حيال التصميم ,يوفر الوقت الذي يمكن ان يكون مهما جدا للبقاء. وبالنتيجة فإن الانتخاب الطبيعي شكل المخ ليمكنه استعمال الموقف حيال القصد كطريق مختصر. نحن مبرمجين بيولوجيا لنسب النوايا للكائنات التي يهمنا تصرفها. ومرة اخرى, بول بلوم اقتبس اثباتات تجريبية بأن الاطفال بشكل خاص يميلون لتبني الموقف حيال القصد. عندما يرى الاطفال شيئا يتبع شيئاً اخر (على شاشة كومبيوتر مثلا), فإنهم يعتبرون انهم يرون مطاردة بين عناصر تقصد ما تفعل, ويبدو ذلك كواقع ملاحظ بشعورهم بالمفاجأة عندما يفشل العنصر المشهور في متابعة المطاردة .

الموقف من التصميم والقصد مفيدان كأليات دماغية, ومهمان لتسريع عملية تقدير تصرف الكيانات الاخرى فيما هو ضروري للبقاء, كما هو الحال في الحيوانات المفترسة او الشريك. ولكن وكأي الية دماغية اخرى, بإمكان هذا المواقف ان تخطئ اهدافها .الاطفال , والناس البسطاء, ينسبون قصدا للظواهر الجوية, للامواج والتيارات, والصخور

المتساقطة. كلنا معرضين لنفس الامر فيما يتعلق بالالات, وخصوصا عندما يخيبون ظننا . العديدون منا يذكرون الامسية التي تعطلت فيها سيارة باسيل فاولتي خلال مهمته الهامة لانقاذ امسية تذوق من مصيبة كبرى. اعطى سيارته تحذيرا, وعد حتى الثلاثة, وبعد ذلك خرج من السيارة, واخذ غصن شجرة وحطمها وهي في اخر ايامها. كلنا كنا في مواقف كتلك, ولو حتى للحظات , مع كومبيوتر ان لم يكن مع سيارة. وقد اعطى جوستين باريت الاختصار (و ف ج ك) للعبارة جهاز كشف فعاليات النشاط المفرط. نحن نفرط في نشاطنا لاكتشاف وكلاء في انه لايوجد شئ من هذا القبيل, وهذا يجعلنا نفترض وجود خبث او عبث في حين, انه في الواقع, ليس اكثر من عدم اكتراث الطبيعة. وارى نفسي في بعض الاحيان اكظم غيظي تجاه شئ لايفترض ان يلام مثل جنزير دراجتي. وهناك تقرير محزن عن رجل تعثر برباط حذائه المفكوف في متحف فيتزويليامز في كامبريدج ,وقع على الدرج و كسر ثلاث فازات لاتقدر بثمن من ايام مملكة كنغ:" وقع بين الفازات وتكسروا لملايين الشظايا. كان لايزال يجلس مصعوقا عندما قدم الموظفون لعنده. كلهم وقفوا في سكون, كما في صدمة, والرجل يشير بإصبعه لرباط حذائه قائلا:"ها هو, ها هو المذنب"" .

شروح اخرى عن الناتج العرضي قدمت من هيند, شيرمر, بوير, اتران, بلوم, دينيت ,كيليمان وغيرهم. هناك عرض فاتن من دينيت يقول بأن لاعقلانية التديني هو ناتج عرضي عن الية غير عقلانية موجودة في الدماغ: وهي نيتنا , المفيدة جينيا, للوقوع في الحب .

عالمة الانثروبولوجي هيلين فيشر , في كتابها لماذا نحب , عبرت بشكل جميل عن جنون الحب الرومانسي , وكيف يبدوا ضروريا ما هو فوق القمة. انظر للموضوع بالشكل التالي . من وجهة نظر الرجل, بشكل ما, فإنه ليس من الممكن ان تكون اي امرأة من معارفه محبوبة اكثر بمئة مرة من المرأة التي تأتي في المرتبة الثانية, ولكن هذا ما يصفها به في الغالب عندما يكون "واقعا في الحب" . وعوضا عن الاخلاص الاحادي السريع التأثير بنا, فإن نوعا من "الحب المتعدد" يبدو اكثر عقلانية هنا. (الحب المتعدد هو الاعتقاد ان الانسان يمكن ان يحب اكثر من شخص من الجنس الاخر في وقت واحد , تماما كما هو الحال انواع النبيذ والمؤلفين الموسيقيين او الكتب او الرياضة). نحن نقبل بسرور قدرتنا على محبة اكثر من طفل , اهل, اخوة, اساتذة, اصدقاء او حيوانات اليفة. عندما تفكر بهذا الشكل, الا يبدوا ان الحب للشريك استثنائيا بشكل غريب؟ برغم ذلك فإن ذلك ما نتوقعه, وهذا ما نحن عليه ونريد تحقيقه. لابد من سبب لذلك .

هيلين فيشر واخرون استعرضوا بأن الوقوع في الحب يرافقه وضع خاص للدماغ, يتضمن ذلك تواجد عناصر كيميائية عصبية (في الواقع, مخدرات طبيعية) وتلك العناصر خاصة جدا بتلك الحالات. علماء النفس التطوريون يوافقون معها على ان (تلك الضربة) اللاعقلانية يمكن ان تكون لضمان الاخلاص في – الطرف الاخر من الاهل – , ولمدة تكفي لرعايتهما طفل لفترة معينة معا. من وجهة نظر داروينية,فإنه من المهم, بدون شك, اختيار شريك جيد, لعدة اسباب. ولكن عندما يقع الاختيار – حتى الخاطئ – ويحصل الحمل, فإنه من الاهم الالتزام بذلك الاختيار في الحلوة والمرة. على الاقل حتى يفطم الطفل .

هل يمكن ان يكون الدين اللامنطقي ناتج عرضي للالية الاعقلانية التي بنيت في المخ بالانتخاب الطبيعي للوقوع في الحب؟ ان الايمان الدين بالتأكيد يشبه في بعض ملامحه الوقوع في الحب(والاثنان لديهما نفس الاعراض الناتجة عن تأثير مخدرات مسببة للادمان). عالم النفس العصبي جون سميثيس ينبهنا من انه هناك فروق واضحة في مواقع المخ التي تتفاعل في كلتا الحالتين , على الرغم من ذلك فإن هناك بعض التشابهات :

"احد مظاهر الدين هو الحب العنيف المركز على الشخصية الماوراء الطبيعية, مثل الله , بالاضافة لاحترام الايقونات (مايتعلق بها) لتلك الشخصية. حياة الانسان محكومة بشكل كبير بجيناتنا الانانية وعملية الدعم. وكثير من الدعم الايجابي يأتي من الدين: المشاعر المطمئنة والدافئة عن كونك محبوبا ومحميا من المخاطر في العالم, والغاء الخوف من الموت, المساعدة السماوية كجواب على الصلوات في الاوقات الصعبة , الخ. وبنفس الطريقة , فإن الحب تجاه شخص ما (من الجنس الاخر عادة) يؤدي لنفس التركيز العنيف على الاخر وما يلحقه من دعم ايجابي . هذه المشاعر يمكن ان تقدح من ايقونات الاخر, مثل الرسائل , الصور, وحتى, كما في العصر الفيكتوري, خصل من الشعر . حالة الوقوع في الحب ترافقها حالات فيزيولوجية عديدة , مثل التنهد العميق ".

وضعت مقارنة بين الوقوع في الحب والدين عام 1993, عندما لاحظت ان الفرد المصاب بالتدين يذكروننا بشكل مذهل بحالات الاخرين المرافقة للرغبة الجنسية. وتلك قوة فعالة جدا في الدماغ , وليس من المفاجئ ان بعض الفيروسات قد تطورت لتستغلها (فيروسات هنا مجازية وتعني الاديان: لان عنوان مقالي وقتها كان "فيروسات الدماغ"). ورؤيا

سانتا تيريزا الافيلية اشهر من ان نحتاج لذكرها هنا. والاكثر جدية من ذلك , وعلى مستوا اقل من الهمجية الحسية, فإن الفيلسوف انثوني كيني يعرض لنا اعترافا يهز العواطف عن السرور الصافي الذي ينتظر الذين استطاعوا الايمان بغموض الاستحالة الجوهرية. بعد ان وصف ترسيمه ككاهن من الروم الكاثوليك, ومدعوم بأيدي المحتفلين بالقداس والتي استلقى عليها, يستعرض لنا بأن مايذكره لايزال حيا في مخيلته :

"الاعلاء في خلال الشهر الاول الذي حصلت فيه على القوة لقيادة القداس.بإعتباري كنت كسولا في النهوض من الفراش, جعلني استيقظ مملوءا بالحيوية والاثارة لمجرد التفكير بقوة الدور الذي اعطيت الامتياز للقيام به ...

لقد كنت المس جسد المسيح, واقتراب القس من المسيح, والذي سحرني اكثر من اي شئ اخر. امعن النظر في المضيف بعد كلمات التكريس , عيون طيبة كعاشق ينظر في عيني حبيبته ... تلك الايام الاولى لي كقس تبقى في ذاكرتي كأيام من الاشباع والارتعاش بالسعادة, شي ثمين , وفي نفس الوقت هش جدا على ان يدوم, مثل حالة عشق رومانسي خيالي قصرت وقطعت بزواج غير متوافق ".

مايساوي رد فعل العث للبوصلة الضوئية هو مايبدوا لاعقلانيا ومفيدا في حالة الوقوع في الحب مع شخص واحد فقط من الجنس الاخر. الخطأ الناتج عرضيا – مساو للطيران بإتجاه لهب الشمعة – هو الوقوع في الحب مع يهوه (او العذراء, او الله) والقيام بتصرفات لاعقلانية مدفوعة بذلك الحب .

البيولوجي لويس والبرت, في كتابه المستحيلات الستة قبل الافطار, يقترح ما يمكن رؤيته بشكل عام في فكرة اللاعقلانية النباءة. والنقطة التي ينوه لها هي ان القناعة القوية بشئ لاعقلاني هي حماية للعقل من التقلب:" لو لم يؤخذ الايمان الذي تسبب في انقاذ حياة العديدين, لتسبب بالضرر للانسان القديم. سيكون من المضر كثيرا ,على سبيل المثال, ان يغير الشخص رأيه تكرارا عند الصيد او صناعة الادوات" . النتيجة التي يصل اليها والبرت في حجته هي, على الاقل تحت ظروف معينة, سيكون من الافضل التمسك بإيمان لاعقلاني عوضا عن التأرجح, حتى لو ظهرت ادلة جديدة او استنتاجات تدعو لتفضيل التغيير. من السهل ان نرى موضوع "الوقوع في الحب" كحالة خاصة ,وبنفس العلاقة تبدو سهولة رؤية حالة والبرت "الاصرار اللاعقلاني" كمثال على الفائدة النفسية للميل الذي يستطيع شرح بعض السمات المهمة للسلوك اللاعقلاني: ناتج عرضي اخر .

وفي كتابه التطور الخاص , يتوسع روبرت تريفرس في شرح نظرية التطور عن خداع النفس .(1976) خداع النفس هو

" تورية الحقيقة عن العقل الواعي هي الطريقة الافضل لتوريتها عن الاخرين. في جنسنا نتعرف على العينين الحائرتين , الكفين المتعرقين والصوت المتهدج كعلامات على تدل على العصبية المرافقة للمعرفة الواعية بالاقدام على الخداع, والخادع يمكنه ان يواري تلك الاشارات من الشخص الذي يراقبه عندما لايكون واعيا للخدعة , وبالتالي يصبح قادرا على الكذب بدون عصبية .؟

الانثروبولوجي ليونيل تيغر يقول شيئا مشابها في كتابة التفاؤل : بيولوجيا الامل . ونرى ما ناقشناه لتونا عن العلاقة بين اللاعقلانية المفيدة في مقطع عن "الدفاع الادراكي:

"هناك ميل واع في الانسان لرؤية ما يريد رؤيته. ولديهم صعوبات في رؤية الامور ذات المضمون السلبي وسهولة متزايدة في رؤية الامور الايجابية. كمثال, الكلمات التي تستدعي القلق, سواء كانت لامور تتعلق بالتاريخ الشخصي او لتجارب في المعالجة تتطلب ايضاحات اكثر لتقبلها ".

ان تعلق ذلك بالامنيات التي يقدمها الدين لايحتاج لايضاح .

النظرية العامة عن الدين كناتج عرضي – شي مفيد اخطأ الهدف – هو الذي اريد ان احامي عنه. التفاصيل متغيرة , معقدة وقابلة للنقاش. ولاجل التوضيح, ساستمر بإستعمال نظريتي عن "الطفل الساذج" كتعريف لما نطلق عليه نظرية "الناتج العرضي" في العموم. تلك النظرية – التي تقول بأنن دماغ الطفل "لاسباب مفيدة" يكن ان يكون ضحية عدوى "لفيروس " عقلي – سوف تبدو لبعض القراء بأنها ليست كاملة. ربما يكون العقل مؤهلا ليكون ضحية .. حسنا . ولكن لماذا العدوى بذلك الفيروس وليس الاخر؟ هل بعض الفيروسات لديها قدرة اكبر على عزو العقل الساذج؟ لماذا "العدوى"

تظهر على شكل دين عوضا عن ...... عن ماذا ؟ . ماأريد قوله هنا هو ان نوع اللامنطقية التي يصاب بها عقل الطفل ليس مهما. وعندما يصاب سيكبر ويعدي الجيل القادم بنفس اللامنطقية ,مهما كان نوعها .

مسحة انثروبولوجية مث التي اتحفنا بها فرايزر والمساة الغصن الذهبي تحتوي على الكثير من انواع الايمان اللاعقلاني . وعندما يتحصن احدها في ثقافة فإنه يستمر, يتطور و يتحول, بطريقة تذكرنا بالتطور البيولوجي. ولكن فرايزر له رؤيا خاصة في تلك المبادئ عامة, وكمثال فإن "الهوميوباتيه السحرية" , حيث التعاويذ والعزائم تستخدم بعض رموز عن اشياء في العالم الحقيقي والتي يراد التأثير عليها. ومن ذلك الاعتقاد التراجيدي بأن البودرة المعمولة من قرن حيوان وحيد القرن لديها مفعول المقوي الجنسي لان القرن يشبه القضيب الذكري المنتصب. والحقيقة إن انتشار "الهوميوباتية السحرية" يفرض الاقتراح بأن اللاعقلانية التي تصيب العقول الساذجة ليست عشوائية تماما .

يبدو من المغري مواصلة السعي بإتجاه نقطة التساؤل عما اذا كان هناك ما يشابه التطور البيولوجي بالانتخاب الطبيعي. هل بعض الافكار اكثر قابلية للانتشار من اخرى ,لجوهرها او لاستحقاقها, او لتماشيها مع الترتيب البيولوجي, وهل يمكن اعتبار ذلك مسببا عن طبيعة الاديان ومواصفاتها كما نراهم الان, بطريقة ما كما نستعمل الانتخاب الطبيعي كسبب للحياة العضوية؟ من الهم ان نغمب بأن "الاستحقاق" هنا يعني البقاء والانتشار .ولاتعني الحكم باستحقاق لقيم ايجابية – كشئ يجعلنا فخورين به كبشر .

وحتى بنموذج تطوري, فلا يجب ان يكون هناك انتخاب طبيعي. يعترف علماء البيولوجيا بأن انتشار مورث ما لمجرد كونه محظوظا وليس لانه جيد. ونسمي هذا بالانجراف الوراثي. واهميته بالمقارنة بالانتخاب الطبيعي لاتزل موضع جدال. ولكنها الان مقبولة على نطاق واسع بما يسمى نظرية الجينات الجزيئية الحيادية. لو نسخ المورث بصورة معدلة ولكن بتأثير مطابق, فإن الفرق حيادي. والانتخاب الطبيعي لن يفضل واحدا على الاخر. على الرغم من ذلك, وبالاخذ بعين الاعتبار ما يسمى من قبل الاحصائيين عينات الاخطاء عبر الاجيال, فإن المورث بصورته المعدلة يمكن ان يحل محل المورث الاصلي في مجموعة المورثات. وهذا تغيير تطوري على المستوى الجزيئي (حتى ولو لم يكن هناك تغير ملاحظ في عالم العضو بشكل عام). ذلك تطور محايد لايدين للانتخاب الطبيعي بأي مميزات .

الشبه الثقافي للانجراف الوراثي خيار مقنع لانستطيع اهماله عند الحديث عن تطور الدين. اللغة تتطور بشكل شبيه للتطور البيولوجي والاتجاهات التي تتطور بها تبدو بإتجاهات غير محددة, تماما كما هو الحال في حالة الانجراف الوراثي. بل يتم تسليمها عبر الاجيال كما في نظيرتها الجينية, وتتغير ببطء عبر القرون, حتى الوقت الذي تصل مشتقاتها لنقاق متباعدة بحيث يصبح الاصل الواحد غير واضح. من الممكن ان يكون بعض التطور للغات محكوم بشكل من اشكال الانتخاب الطبيعي, ولكن الحجة لاتبدو تستحق المتابعة. وسأشرح لاحقا بأن افكارا كهذه طرحت في مواضيع الاتجاهات الرئيسية في اختلاف اللغات, كما هو الحال في التغير الكبير في الصوتيات الذي حصل في اللغة الانكليزية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر. ولكن فرضية كهذه لاتشرح بالضرورة مانراه غالبا. ويبدو محتملا ان اللغات تطورت بما يشبه الانجراف الوراثي العشوائي. وفي اقسام مختلفة من اوروبا, تطورت اللاتينية لتصبح لغة اسبانية, برتغالية , ايطالية, فرنسية ورومانية اضافة للعديد من اللهجات لتلك اللغات . ولايبدو ابدا ان هناك اي فوائد واضحة لتلك التغيرات التطورية او اي نوع من "الضغط الانتخابي".

تخميني ان الدين, كاللغة, تطور بشكل عشوائي, من بدايات غير محددة, وذلك خلق الغنى المحير – والخطر احيانا – لتعدديتها التي نلاحظها. في نفس الوقت, من الممكن ان شكلا من اشكال الانتخاب الطبيعي, مترافقا مع القواعد الاساسية لعلم النفس البشري ,يفسر لنا ان الاديان تحتوي على قواسم مشتركة. الكثير من الاديان , على سبيل المثال ,تعلم مذاهب قابلة للتصديق بموضوعية ولكنها جذابة بشكل شخصي عن ان شخصياتنا سنبقى بعد موتنا الجسدي. فالفكرة عن البقاء سو تحيا وتنتشر لانها تغذي الامنيات.والامنيات لها اعتبارها, لان النفسية البشرية لديها الميل للتصديق بالرغبة(" كما قال هنري الرابع لابنه: يرغبون بان يكون هنالك اب, لهذه الافكار).

يبدوا انه ليس هناك من شك بأن العديد من مواصفات الدين مؤهلة بشكل جيد للحفاظ على بقاء الدين نفسه, وبالتالي البقاء لتلك المواصفات, وفي خليط الثقافات الانسانية .فإن السؤال الذي يطرح الان هو عما اذا كان ذلك التأهيل قد تم الحصول عليه ب"تصميم ذكي" او انه نتيجة انتخاب طبيعي. ربما يكون الجواب مزيجا من الاثنين. التصميم من طرف, القيادات الدينية قادرة بشكل تام على صياغة الخدع التي ادت لبقاء الدين بشكل فعال. مارتن لوثر عرف بشكل جيد بأن العقلانية كانت هي عدو الحكم الديني, وقد حذر منها مرارا:" العقلانية هي العدو الاكبر للايمان, ولايمكن ان تساعد في

الامور الروحانية ,ولكن تنافي في معظم الاحيان الكلام المقدس, وتحتقر كل ما ينبثق من الاله" . و في قول اخر:" من يريد ان يكون مسيحيا عليه ان يرمي بعيون عقله بعيدا" . ومرة اخرى ": العقلاينة يجب تدميرها في كل المسيحيين" . لم يكن لدي لوثر اي صعوبة في الخلق الذكي لسمات لاعقلانية لتساعد الدين على البقاء. ولكن هذا لايعني انه , او اي احد اخر ,قد صمم ذلك. من الممكن ان ذلك تطور بشكل (غير جيني) بالانتخاب الطبيعي, ولوثر لم يكن المصمم ولكن مجرد ملاحظ ذكي لذلك .

برغم ان الداروينة التقليدية في اختيار الجينات ربما تفضل الجينات التي تعطي ميلا نفسيا للدين كناتج عرضي, فإنه من غير المحتمل بشكل كبير بأنها شكلت التفاصيل. لقد نوهت بأنه, لو كنا سنطبق شكلا ما من اشكال نظرية الانتخاب على هذه التفاصيل , فإن علينا الا ننظر للجينات وانما ما يقابلها في ثقافة الحياة. هل الدين منتوج له نفس خواص الميمات .

اخطو بهدوء, لانك تدعس على ميماتي

الحقيقة, فيما يختص بالدين, هي ببساطة الرأي الذي كتب له البقاء

اوسكار وايلد

بدأ هذا الفصل بالملاحظة التالية, بما ان الانتخاب الطبيعي الدارويني يمقت الاسراف ,فإن اي وجود مطلق لخاصة ما في المخلوقات – مثل الدين – يجب ان يكون لها فائدة او انه لن يكتب لها البقاء. ولكنني نوهت ان الفائدة لايجب ان يكون لها تأثير على البقاء او نجاح الاستمرار بالخلفة للفرد. وكما رأينا, فإن فوائد جينات فيروسات الرشح تكفي لشرح الوجود المطلق للشكاوي البائسة في نوعنا البشري. ولايجب ان يكون الجين حتى مستفيدا. بل اي مضاعف سيؤدي غرض الشرح بشكل جيد. والجينات هي فقط المثال الاكثر وضوحا للمضاعفات. المرشحون الاخرون هم فيروسات الكومبيوترات, وميمات – وحدات الحياة الثقافية المتوارثة وموضوع هذا القسم. اذا اردنا فهم الميمات , فعلينا ان ننظر اولا بدقة اكبر لكيفية عمل الانتخاب الطبيعي .

بشكل عام, يجب على الانتخاب الطبيعي ان يختار بين المضاعفات المختلفة. المضاعف هو قطعة من المعلومات المشفرة التي تصنع نسخا مطابقة لذاتها, وقليلا من النسخ الغير مضبوطة تماما او مايسمى "المحورة". والنقطة التي نتكلم عنها هي داروينية هنا .

اصناف المضاعفات التي تصادف ان كانت جيدة لتتضاعف ويزداد عددها على حساب المضاعفات الاخرى والتي انتج نسخها مضاعفا سيئا. ذلك , هو الشرح الاولي للانتخاب الطبيعي. المضاعف هنا هو المورث, امتداد لل د ن ا يتضاعف, وبدقة بالغة, وعلى اجيال لاتحصى. السؤال المركزي في نظرية الميمات هي عما اذا كان هناك وحدات ثقافية تقليدية تسلك سلوك المضاعفات, مثل الجينات. لااقول هنا ان الميمات هي بالضرورة متشابهة مع الجينات, اقول فقط بأنه كلما اقتربت الميمات شبها بالجينات فإن النظرية تعمل بشكل افضل, والسؤال هنا هو عما اذا كان بإمكان نظرية الميمات ان تعمل في تلك الحالة الخاصة المسماة بالدين .

في عالم الجينات, تكون الاخطاء في النسخ كالتالي, الجين عادة ينتمي لمجموعة تحتوي على جينات مشابهة في الغرض تنافس بعضها . تنافس بعضها على ماذا؟ على مكان المورث الذي يخص هذه الفئة من الموصفات ضمن سلسلة ال دي ان اي. وكيف يتنافسون؟ ليس بمعركة بين الجزئ والجزئ الاخر بل بواسطة وكلاء. الوكلاء هم الموصفات الخارجية – اشياء كطول الرجلين او لون الفرو: مميزات الجينات تظهر للخارج على شكل تشريحي , نفسي , بيوكيميائي او سلوكي. ومصير الجين مربوط بالاجسام الذي يسكن فيها بالوراثة. والطريقة التي يؤثر فيها الجين على هذه الاجسام تؤثر على فرص بقائه في مجموعة الجينات. وعبر الاجيال, تكثر الجينات او تقل في مجموعاتها بحسب قيمة الظواهر الخارجية التي تسببها لوكلائها .

هل ينطبق نفس الشئ على الميمات؟ نأخذ بعين الاعتبار بأنهم من ناحية ليسوا ابدا كالجينات لانه لاشي ينتمي للمورثات او المواصفات او التجميع الجنسي. مجموعة الميمات اقل تنظيما وترتيبا من مجموعة الجينات. برغم ذلك, فليس من السخيف الكلام عن مجموعة الميمات, والتي يكون لبعضها "ذبذبات" تتغير كنتيجة للتفاعل بين ميمات مختلفة .

البعض تعترضون على الشرح الميماتي, ولاسباب مختلفة تأتي غالبا من الواقع بأن الميمات ليس تماما كالجينات. التركيب الفيزيائي للجينات معروف (سلسلة ال دي ان اي) و تركيب الميمات ليس معروفا , الميمات المختلفة تنتقل من وسط فيزيائي لاخر .هل توجد الميمات في الدماغ فقط؟ او ان كل نسخة ورقية او الكترونية لقصيدة فكاهية يحق لنا تسميتها بال "ميمة"؟ ومرة اخرى تتنضاعف الجينات بدقة عالية جدا, بينما لو تضاعفت الميمات ,افلن تفعل ذلك بدقة منخفضة جدا؟

تلك المشاكل المزعومة عن الميمات مبالغ بها الى حد ما . واهم اعتراض عليها هو الزعم بأن الميمات لا تنسخ بدقة عالية بالنسبة لوظيفتها كمضاعف دارويني. الاشتباه كالتالي, لو ان "نسبة التحوير " في الميمات كانت عالية (دقة منخفضة في النسخ) فإن الميمات ستتغير بشكل تخرج معه من الوجود قبل ان يستطيع الانتخاب الطبيعي ان يؤثر على "ذبذباتها" في مجموعة الميمات. ولكن تلك المشكلة وهمية. فكر بمعلم نجارة, او حجار من قبل التاريخ, وهو يستعرض المهارات للصانع الشاب الذي سيخلفه. لو ان الخليفة قلد بأمانة كل حركة يدوية للمعلم, ستتوقع بكل تأكيد ان الميمات ستتغير بشكل لايمكن التعرف عليها بعد عدد قليل من تناقلها عبر "الاجيال" من معلم\صانع. ولكن الصانع بالطبع لن يحاول تأدية نفس الحركات اليدوية. ذلك سيبدو سخيفا. عوضا عن ذلك, سيلاحظ الهدف الذي يحاول المعلم ان يحققه , ويقلد ذلك. دق المسمار حتى يصبح الرأس على مستوى الخشب, لايهم عدد ضربات المطرقة, والتي ربما ليس بنفس عدد ضربات المعلم. تلك هي القواعد التي يمكن ان تعبر خلال الاجيال بدون تغييرات, ولايهم كون طريقة التصرف مختلفة بشكل ما من شخص لاخر, ومن حالة لحالة. عدد الشكات في التطريز, عدد العقد في شبكة الصيد, طريقة طي الاورغامي, الخدع المفيدة في النجارة : كل ذلك يمكن اختزاله لعدة عناصر والتي ستكون لها فرصة المرور عبر الاجيال المتلاحقة عبر التقليد بدون تغيير. ربما تختلف التفاصيل , ولكن الخلاصة ستمرر بدون تغيير, وهذا كل ما نحتاجه في عملنا على المقارنة بين الميمات والجينات .

في مقدمتي التي ارسلتها الى سوزان بلاكسميث ماكينة الميمات طورت مثالا عن طريقة الاورغامي في عمل نموذج من الجنك الصيني (صناعة نماذج بطي الاوراق لأشياء كالقوارب او الطيور.. لعبة يمارسها الاطفال). الوصفة معقدة. ولها اثنان وثلاثون خطوة عملية طي (او ماشابه) . النتيجة النهائية كانت نموذجا ظريفا, وكذلك كان ظريفا في ثلاث خطوات خلال الفترة "الجنينية" وهي "الرمث" و"الصندوق مع غطاء مضاعف" و"برواز اللوحة" . العملية تذكرني بالتأكيد بالطيات التي تحصل في الاغشية الجنينية خلال مراحل تطورها من شكل لاخر. تعلمت عمل الجنك الصيني في طفولتي وذلك من ابي ,والذي تعلمها بدوره, عندما كان في نفس العمر, من اقرانه في المدرسة. انتشهر هوس في المدرسة بالجنك الصيني بدأته رئيسة المدرسة, كما ينتشر مرض معد, ثم مات الهوس, كماينتهي المرض المعدي ايضا. وبعد ست وعشرين عاما, وبعد ان ماتت الرئيسة بزمن طويل, ذهبت للمدرسة ذاتها. ونشرة الهوس مرة اخرى وانتشر مرة اخرى, ايضا كمرض معد, ومات بعد ذلك مرة اخرى. ان الواقع بأن مهارات كتلك تنتشر بهذا الشكل يقول لنا شيئا عن امانة النسخ في الميمات. وبإمكاننا الفرض بأن الجنك الذي صنعة اقران والدي في العشرينات في تلك المدرسة ليس مختلفا عن الذي صنعناه نحن بشكل علم في الخمسينات .

ماهو الفرق الجوهري بين المهارتين اليدويتين؟ ان المهارة الاصلية تحتوي على سلسة من الافعال المنفصلة, وليس اي منها صعباعلى التنفيذ. في الغالب العمليات تكون مشابهة ل:" اطوي طرفي الورقة نحو الوسط". وعضو معين في الفريق ربما ينفذ الخطوة بحماقة, ولكن سيكون واضحا للعضو التالي مايريد فعله. وبالتالي فأن خطى الاورغامي فيها شئ من "التطبيع الذاتي" , وذلك ما يجعلها "رقمية" بطبيعتها. تماما كما هو الحال مع المعلم النجار والذي هدفه يبدو واضحا للصانع عن ادخال المسمار بغض النظر عن التفاصيل في عدد ضربات المطرقة. اما الخطوة كاملة او لا. وعلى العكس
من ذلك فإن الرسم هو مهارة نظيرية غير رقمية. الكل يستطيع تقليد الرسوم ولكن البعض يفعله افضل من الاخرين. ولااحد ينقل الرسم بأمانة كاملة. الدقة في النسخ , تعتمد ايضا, على الوقت والحرص على الانتاج الجيد وتلك ايضا متغيرات . وبعض اعضاء الفريق ربما "يحسنون" الرسم بدلا من مجرد نسخ النموذج السابق .

الكلمات – على الاقل عندما تكون مفهومة – فيها تصحيح ذاتي بنفس الطريقة التي تعمل بها الاورغامي. وفي لعبة الهمس الصيني (التلفون) تروى حكاية للطفل الاول, او عبارة ,ويطلب منه ان يمررها للطفل التالي, وهكذا. وعندما تكون العبارة اقل من سبع كلمات ,في اللغة المحكية لكل الاطفال, فهناك فرصة جيدة ان العبارة ستبقى, بدون تحوير ,

لعشرة اجيال. وعندما تكون بلغة اجنبية غير معروفة, بحيث ان الاطفال مجبرن على التقليد الصوتي بدلا عن الكلمات, فإن العبارة لن تبقى. والتدهور عبر الاجيال مشابه للرسم. وستغربل ايضا. عندما تكون العبارة لها معنى باللغة الام للاطفال , ولاتحتوي على كلمات مقعدة مثل "النمط الظاهري" او ماشابهها فإنها تبقى. وعوضا عن محاولة تقليد الصوت النمطي, فإن كل طفل يتعرف على كل كلمة كعضو في مجموعة المفردات النهائية ويختار الكلمة نفسها, ربما ملفوظة بطريقة مختلفة غالبا, عندما يريد تمريرها للطفل التالي. واللغة المكتوبة ايضا لها نفس ميزة التصحيح الذاتي لانه مهما كان الخط مختلفا بميوله فإن هناك عددا محدودا من الاحرف وكل الكلمات تأتي منها .

ان تفسير الامانة في النقل للميمات بموضوع التصحيح الذاتي بشكل من الاشكال يكفي للاجابة عن بعض التساؤلات والرد على الاعتراضات العامة في موضوع تشابة الجينات بالميمات. وعلى اية حال, ان الغرض من نظرية الميمات في هذا الطور المبكر ليس لاعطاء تفسير تفصيلي لنظرية تطور الثقافة, مناظرة لجينات واطسون وكريك. غرضي الرئيسي هنا في الدفاع عن الميمات, كان بالطبع لدفع الفكرة بأن الجينات ليست اللعبة الداروينية الوحيدة في الميدان – خاطرت بذلك الانطباع وكان من مخاوفي في كتابي الجين الاناني – . لقد اكد بيتر ريشرسون وروبرت بويد على النقطة في كتابهم القيم والفكري ليس بالجينات وحدها , برغم انهما اعطيا اسبابا لعدم تبني كلمة "ميمة" بذاتها ,ومفضلين عليها كلمة "التحويرات الثقافية" . و كتاب ستيفان شينان جينات , ميمات ,وتاريخ الانسان استوحي من كتاب اقدم ل بويد وريشرسون , الثقافة وعملية التطور . وهنا الكثير من الكتب مخصصة لشرح الميمات وتتضمن كتاب روبرت اونغر الميمة الكهربائية, وكات ديستين الميمة الانانية , و فيروسات العقل : علم الميمات الجديد للكاتب ريتشارد برودي .

ولكن سوزان بلاكمور,في كتاب الة الميمات,هي التي اعطت دفعا لنظرية الميمات اكثر من اي احد اخر. تصورت بشكل متتالي عالما من الادمغة (او اي اوساط اخرى يمكنها تخزين المعلومات, كالكومبيوترات او امواج الراديو) وميمات تتدافع لاحتلالها. كما الجين في مجموعة الجينات, والميمات التي تربح هي الميمات التي تستطيع ان تؤمن نسخ لنفسها. ربما لان لها مظهرا حسنا يبدو بشكل مباشر, كما نفترض, في حالة فكرة الخلود لدى البعض. او ربما لانها تزدهر في وسط من الميمات الاخرى التي اصبح عددها كبيرا في مجموعة الميمات. ومن ذلك تنشأ الميمات المعقدة . وكما هو الحال في الميمات ,فإننا نستطيع فهمها بالعودة لشبيهتها في الوراثة البيولوجية .

لغرض تعليمي, عالجت موضوع الجينات على انها واحدات منفصلة, وتتصرف بشكل مستقل. ولكن بالطبع انها ليست مستقلة عن بعضها, وهذا واضح من خلال نقطتين .

الاولى , الجينات مصفوفة بشكل خطي على المورثات , وتميل للتحرك معا عبر الاجيال بمرافقة الجينات المجاورة على الكروموزومات. ونحن الاطباء ندعوا ذلك الترابط بالترابط , ولن اقول اكثر من ذلك في هذا الموضوع لان الميمات ليس لها كروموزومات او ارتباطات تتعلق بالجنس .

والنقطة الثانية التي لايكون فيها الجين مستقلا تختلف تماما عن الترابط الجيني, وهناك تشابها بينها وبين الميمات. وتتعلق بعلم الاجنة الذي هو – في معظم الحالات مفهوم خطأ - متميز تماما عن علم الجينات . فالاجسام ليست مصفوفة كالموزاييك وكل منها له مهمة وينتمي لجين مختلف. فليس هناك ما يقابل مخطط يربط الجين بالعضو او السلوك بعلاقة واحد لواحد . الجينات تشترك بالمئات لتطور عملية والتي تظهر في الجسد , بنفس الطريقة التي تشترك فيها كلمات وصفة في كتاب طبخ لتظهر بعد ذلك في الطبق. وليس بأن كل كلمة في الوصفة تؤدي للقمة في الطبق .

الجينات , اذن, تشترك بالاحتكار لبناء الاجسام, وهذا ربما احد اهم المبادئ لعلم الاجنة .ومن المغري القول بأن الانتخاب الطبيعي يفضل احتكار الجينات كشكل من اشكال الانتخاب الجماعي بين مختلف مجموعات الاحتكار. ذلك محير. في الواقع مايحصل ان الجينات الاخرى في مجموعة الجينات تكون الوسط المحيط الذي تختار فيه الجينات وتهمل اخرى. لان كل منها يختار لانه يكون ناجحا بوجود الاخرين – الذي اختيروا ايضا بنفس الطريقة – وبذلك تظهر ظاهرة الاحتكار. ويبدو ان لدينا سوقا حرا عوضا عن تخطيط اقتصادي. هناك اللحام والخباز, ولكن هناك فراغ في صناع الشموع. تلك اليد الطبيعية غير المرئية للانتخاب الطبيعي تملأ الفراغ. وذلك مختلف عن وجود مخطط مركزي والذي يفضل الثلاثي لحام + خباز + صانع شموع. ان اليد الخفية التي تشكل هذا الاحتكار ستكون مركزية في فهمنا لميمات الدين وتفسير فعاليتهم .

احتكارات مختلفة للجينات تظهر في مجموعة الجينات. مجموعة جينات الحيوانات اللاحمة فيها جينات لالتقاط رائحة الفريسة, وجينات للمخالب اللاقكة, لاسنان قاطعة ,وانزيمات لهضم اللحم وجينات اخرى, وكلها معيرة بشكل جيد لتعمل معا . وفي نفس الوقت , في مجموعة جينات العاشبات توجد مجموعات مختلفة من الجينات التي تفضل العمل مع

بعضها. الفكرة التي نألفها هي ان الجينات التي تفضل بسبب تطابقها مع الظروف الخارجية في الوسط المحيط للكائنات: صحراء, غابات او غيره. والنقطة التي انوه لها هنا هو ان الجين يفضل ايضا لتطابقه مع جينات اخرى في مجموعة الجينات .والجين المخصص للاحمات لن يبقى ويستمر في مجموعة العاشبات, والعكس بالعكس .وعلى المدى الطويل. فإن مجموعة جينات كائن ما – مجموعة خلطت تكرارا بالتكاثر الجنسي – تتألف من بيئة جينية حيث يختار الجين لقدرته على التعاون. وبرغم ان مجموعات الميمات ليست منظمة ومخططة كمجموعات الجينات , إلا اننا نستطيع التكلم عن مجموعة الميمات ك "بيئة" مهمة لاي ميمة في المجموعة .

مجموعة الميمات, مع انها ربما لن تنجح بالبقاء بإعتمادها على نفسها فقط, لكنها تصبح اقدر على ذلك بوجود اعضاء اخرين في المجموعة. في الفقرة السابقة كنت قد شككت بأن تفاصيل اللغة وتطورها ستفضل من طرف اي نوع من الانتخاب الطبيعي. واقترحت ان تطور اللغة محكوم بانزياح عشوائي. من البديهي ان بعض الاحرف الصوتية تصل لمسافات ابعد من غيرها في مناطق الهضبات, ولذلك فربما اصبحت خواص للغة المحكية المحلية لمناطق مثل سويسرا , التبت. الخ . بينما احرفة اخرى تكون افضل للهمس في الغابات الكثيفة وبذلك تصبح من خواص لغات الامازون وماشابه. ولكن المثال الذي استشهدت به عن اللغات وخضوعها للانتخاب الطبيعي – النظرية عن تطور الاحرف الصوتية بسبب فعاليتها – ليس من هذا النوع. ولكنه ناتج عن الميمات التي تقع موقعا حسنا في مجموعة الميمات . احد الاحرف الصوتية يتغير في الاول ولسبب غير معلوم – ربما للتقليد لأحد الاشخاص المهمين المحبوبين, كما يقال عن اللثغة الاسبانية .ولكن ليس المهم كيف تحول الحرف الاول: اعتمادا على تلك النظرية, فعند تغير الحرف الاول, تتبعه احرف اخرى مثل عربات القطار لتخفف من الحيرة, وبإستمرار. وفي هذه المرحلة من العملية , اختيرت الميمات من خلفية مجموعة ميمات موجودة , وبنيت منها مجموعة ميمات متالفة جديدة .

واخيرا اصبحنا جاهزين للتطبيق نظرية الميمات على الاديان. بعض الافكار الدينية, مثل بعض الجينات, تبقى وتستمر لانها تستحق. وتلك الميمات ستبقى في اي مجموعة ميمية ,بغض النظر عن الميمات التي حولها.(على ان اركز على اهمية "الاستحقاق" في هذا السياق والتي لاتعني ابدا وجود قيمة ما للفكرة وانما فقط "قدرتها على البقاء في المجموعة"). وبعض الافكار الدينية تبقى لانها متطابقة مع ميمات اخرى متعددة في المجموعة وكجزء منها. فيما يلي استعرض بعض الميمات التي يبدوا انها بقيت واستمرت في مجموعة الميمات, لاستحقاقها او بسبب تطابقها وتماشيها مع ميمات اخرى :

- ستحيا بعد موتك
- لو مت كشهيد, فسيكون لك مكان خاص في الجنة الرائعة حيث تستمتع بإثنين وسبعون حورية عذراء (فكر قليلا بالعذراوات المساكين).
- الزنادقة, الكفار والمرتدين يجب قتلهم (او معاقبتهم بمقاطة عائلاتهم لهم مثلا)
- الايمان بالله هو مميزة على قدر عظيم من الاهمية. وعندما تجد بأن ايمانك يهتز,عليك العمل بجد لترميمه, واطلب من الله ان يساعدك في ذلك. (في مناقشتي لرهان باسكال نوهت على انه من المحير ان الله يريدنا حقا ان نؤمن به. وقتها كان الموضوع احجية والان اصبح لدينا شرح لذلك)
- الايمان (التصديق بدون ادلة) ميزة . وكلما كان ايمانك ينافي الادلة كلما تميزت بشكل اكبر. المؤمنين المميزين يطورون قدرات على الايمان بأشياء غريبة, لااساس لها ولايمكن ان يكون لها اساس عند مواجهة الادلة, هؤلاء لهم اجر عظيم .
- الجميع , وحتى هؤلاء الذين لايؤمنون بالدين, عليهم تقديم اقصى ايات الاحترام الاوتوماتيكي وبدون اي تساؤل عما يتعلق بهذه الاشكال من الايمان (ناقشنا ذلك في الفصل الاول).
- هناك اشياء غريبة (مثل الثالوث الاقدس, القيامة, الصعود للسماء) والتي لم نخلق لفهمها. لاتحاول الفهم لاي منها, لان المحاولة ربما تهدمها. تعلم كيفية الرضا بوصفها بالاشياء الغامضة .
- الموسيقا الجميلة, الفن والكتاب المقدس يعملون كناسخين للافكار الدينية .

هناك بعض العناصر من اللائحة السابقة مما له قيمة مطلقة للبقاء وسيزدهر في اي مجموعة ميمات. ولكن , وكما هو الحال في الجينات, فإن بعض الميمات تبقى فقط في الوسط المناسب من ميمات اخرى, وتؤدي لبناء مجموعة بديلة من الميمات, دينان مختلفان مثلا يمكن ان يكونا مجموعتي ميمات. وربما كان الاسلام يشابه جينات اللاحمات, والبوذية تشابه العاشبات. الفكرة هي انه ليس احد الدينين بأفضل من الاخربشكل مطلق, كما هو الحال من ان اللاحمات "افضل" من العاشبات. والميمات الدينية في هذه الحالة ليس لها اي كفاءة للبقاء, ولكن من جهة اخرى,فإنهم يزدهرون بوجود ميمات اخرى من دينهم , وليس بوجود ميمات من الدين الاخر. وتبعا لذلك النموذج, الروم الكاثوليك والاسلام,مثلا, لم

يصمما من قبل افراد, ولكن تطورا بشكل مستقل كبدائل من الميمات التي ازدهرت بوجود اعضاء اخرى من نفس مجموعة الميمات .

الاديان المنظمة يقوم عليها اشخاص: قسس ومطارين, حاخامات, ائمة وايات الله .ولكن, ومرة اخرى للتأكيد على النقطة التي اريد توضيحها عن مارتن لوثر, ذلك لايعني بأنها مصممة اومخلوقة من الافراد. حتى في حالة استغلال الدين ومعالجته لمصلحة بعض الافراد, فإن الامكانية القوية تبقى بأن تفاصيل كل دين قد شذبت بطريقة تطورية لاواعية. ليس بالانتخاب الطبيعي الجيني, والذي هو بطئ جدا ليكون سببا في التطور السريع والمتنوع للاديان. ودور الانتخاب الطبيعي الجيني يقتصر على تأمين الدماغ, بكل ميوله وانحيازاته–القسم الصلب والبرنامج البدائي والذي يخلق الخلفية . وبهذه الخلفية يبدو لي ان الانتخاب الطبيعي بشكل ما تؤمن مصداقية لتفاصيل التطور لدين ما. في الاطوار البدائية من تطور الدين وقبل ان يصبح منظما , تدين الميمات ببقائها لقيمتها المستقلة وجاذبيتها من ناحية النفسية البشرية. وهنا تتقاطع نظريتي الميمات والناتج العرضي النفسي . والمراحل اللاحقة , حيث يصبح الدين منظما, مدروسا , ومميزا عن الاديان الباقية, تعالج بشكل جيد بنظرية مجموعة الميمات , احتكارات من الميمات المتوافقة . ذلك لايلغي الدور الاخر الذي يلعبه القسس والاخرون لتطويع الدين لمصالحهم. الاديان, على الاقل, مصممة بذكاء, كما هو الحال في المدارس والموضة في الفن .

الدين الوحيد الذي صمم بذكاء, في كل تفاصيله تقريبا, هو السيانتولوجي, ولكني اشتبه في انه حالة استثنائية. والمثال الاخر عن الدين المصصم كليا هو المورمون. جوزيف سميث, الكاذب الجرئ الذي اخترعه, ذهب لحد تأليف كتاب مقدس جديد بشكل كامل ,كتاب المورمون, الف تاريخا مزيفا لامريكا, كتبه بلغة انجليزية مزيفة تعود للقرن السابع عشر. ولكن المورمونية على اية حال تطورت منذ زمن صناعتها في القرن التاسع عشر واصبحت احد اديان امريكا التي تعتبر رئيسية – بالطبع, تدعي انها الديانة الاسرع انتشارا ,وهناك بعض الشائعات عن مرشح للرئاسة الامريكية ممن ينتمون اليها(الشائعة صارت واقعا – السيد رامني كان من المرشحين وانسحب– المترجم).

معظم الاديان تطورت. ومهما كانت نظرية تطور الاديان , فعليها ان تستطيع تفسير السرعة الهائلة للعملية التي تطور فيها الدين, بوجود الظروف المؤاتية, تستطيع الاديان الازدهار. وفي مايلي حالة مدروسة .

طائفة الشحن

في فيلم حياة برايان, كانت احدى النقاط التي برع فريق المونتي بايثون في اظهارها هي السرعة الهائلة التي يستطيع فيها دين جديد الانطلاق. يستطيع الظهور للوجود تقريبا بين ليلة وضحاها وبعدها يصبح جزءا من الثقافة, ويلعب دورا رئيسيا مزعجا. "طائفة الشحن" في ميلانزيا في المحيط الهادي وغويانا الجديدة تستعرض لنا اشهر مثال حي عن ذلك .وتاريخ بعض الطوائف من هذا الشكل, من البداية حتى انتهاء المفعول, يتواجد في الذاكرة الحية. وعلى عكس طائفة المسيح, والتي لايمكن اثبات اصلها بشكل اكيد, فإننا هنا نستطيع رؤية احداث كل مرحلة امام اعيننا(وحتى هنا,كما سنرى, ضاعت بعض التفاصيل). من المثير جدا التفكير بأن طائفة المسيحية قد بدأت بشكل شبه مؤكد بنفس الطريقة, وانتشرت في البدء بنفس السرعة .

مصدري الرئيسي عن طائفة الشحن هو دافيد اتينبورو في كتابه السعي في الجنة. والذي تلطف بتقديمه لي. النمط نفسه للجميع من ابكر طائفة في القرن التاسع عشر حتى الطوائف الاكثر شهرة والتي نمت في بعد احداث الحرب العالمية الثانية. ويبدوا انه في جميع الحالات فقد انصرع اهل الجذر بعجائب املاك المهاجرين البيض الذين قدموا لجزرهم, متضمنا المشرفين والجنود والمبشرين. ربما انهم كانوا ضحية قانون كلارك الثالث , الذي نوهت عنه في الفصل الثاني: "اي تكنولوجيا متقدمة بشكل كاف لايمكن تمييزها عن السحر" .

اهل الجزيرة لاحظوا بأن البيض الذين يتمتعون بتلك العجائب لم يصنعوها انفسهم ابدا .وعندما يحتاج شئ ما للاصلاح فإنه يرسل لمكان اخر, واشياء اخرى واضبت على القدوم في "شحنات" في بواخر, وبعدها ,بالطائرات. لم يشاهد رجل ابيض يصنع او يصلح شيئا البتة, ولاحتى فعلوا اي شئ مما يمكن اعتباره عملا من اي نوع (الجلوس خلف المكتب واللعب بأوراق بدا واضحا بأنه نوع من الولاء الديني). من الواضح ,اذن, بأن "الشحنة" يجب ان تكون ذات اصل غير عادي. وكتعزيز لتلك الفكرة, فإن البيض يقومون بأشياء لايمكن تفسيرها الا بأنها طقوس احتفالية دينية :

يبنون سواري مع اشرطة متعلقة بها, ويجلسون يستمعون لصندوق صغير يشع بضوء ضعيف ويصدر ضجة مثيرة للفضول وصوت مخنوق, اغروا السكان المحليين لارتداء زي موحد, والمشي في صف منظم ذهابا وايابا – ومن الصعب التفكير بشئ اقل فائدة من ذلك. وبعدها لاحظ السكان المحليون انهم وصلوا للجواب على السؤال الغامض. تلك التصرفات الغير مفهومة هي الطقوس التي يستعملها البيض لاغراء الاله ليرسلوا الشحنة. ولو اراد المحليون الحصول على الشحنة, فإن عليهم فعل ذات الشئ .

من الملفت للنظر بأن طوائف شحن ظهرت فجأة وفي الوقت نفسه بشكل مستقل في جزر متباعدة جغرافيا وثقافيا. دافيد اتينبورو يقص علينا بأن علماء الانثروبولوجيا لاحظوا بأن عوارض مفاجئة متباعدة ظهرت في كاليدونيا الجديدة , اربعة في السلومون, واربعة في فيوجي, سبعة في هيبريد الجديدة, وحوالي خمسين في غويانا الجديدة, الغالبية كانت مستقلة وليس هناك علاقة بين احدها والاخرى. غالبية تلك الاديان تتدعي بأن هناك مخلصا ما سيأتي بشحنة في يوم القيامة .

ان الازدهار المستقل للعديد من الطوائف المتماثلة يقترح علينا بعض الامور المشتركة عن النفسية الانسانية .
احد الطوائف المشهورة في جزيرة تانا في هيبريد الجديدة (المعروفة باسم فانواتو منذ عام (1980 لايزال موجودا. ومركزها مبشر يسمى جون فروم. هناك ذكر لجون فروم في سجلات الدولة الانكليزية يعود ل , 1940 ولكن حتى وقت قريب لاحد يعرف ان كان شخصا حقيقيا او ان كان قد وجد بالفعل كرجل حقيقي. احد الاساطير تصفه كرجل قصير بصوت حاد وشعر مصفف, يلبس معطفا بأزرار لامعة. اصدر العديد من النبوءات الغريبة ,وتكبد مشاقا ليقلب الناس ضد المبشرين. وفي الاخر عاد الى الاسلاف, بعد ان وعد بعودة ظافرة , مع شحنة عظيمة. ورؤيته عنه القيامة تتضمن "كارثة عظيمة, جبال تسطح ووديان تمتلئ, العجائز سيستعيدون صباهم والامراض ستختفي, البيض سيطردون من الجزيرة بدون عودة, وشحنة ستصل بكميات كبيرة بحيث ان كل واحد سيحصل على كل ما يريد ".

اكثر ما يقلق الحكومة, هو ان جون فروم تنبأ بأنه في عودته, سيحضر معه عملة جديدة ,مصكوكة بصورة جوزة هند. ولذلك فإنه على السكان المحليين ان يتخلصوا من كل العملة الخاصة بالرجل الابيض. في عام 1941 ادى ذلك لحصول حركة صرف نقود مرحة, توقف السكان عن العمل وتضرر اقتصاد الجزيرة بشكل جدي. وادارة الاحتلال سجنت زعماء الحلقات الدينية ولكن لاشئ نفع لالغاء الطائفة, وهجر الناس الكنائس والمدارس .

بعد ذلك بفترة قصيرة, نشأ تلقين جديد بأن جون فروم هو ملك امريكا. وللحظ, حطت فرق جيش امريكية رحالها في جزر هيبريد الجديدة في نفس الوقت, واعجب العجائب حصل, كان بينهم رجال سود ولم يكونوا فقراء كأهل الجزيرة انفسهم ولكن :

"موهوبون واغنياء بالشحنات تماما كما هو الحال في الجنود البيض. واثارة عارمة اجتاحت الجزيرة المسماة تانا. لقد اقترب يوم القيامة. وبدا بأن كل شخص يحضر نفسه لوصول جون فروم. واحد القادة قال بأن جون فروم سيأتي من امريكا بطائرة وبدأ المئات من الرجال بتنظيف الاحراش في مركز الجزيرة حتى يكون هناك مجال لتحط الطائرة على مهبط ".

والمهبط له برج مراقبة مصنوع من قصب البامبو وفيه "مراقب للحركة الجوية" يلبس سماعات رأس مزيفة مصنوعة من الخشب. وهناك نماذج طائرات على "المهبط" تعمل كفخ ومصممة لتسحر طائرة جون فروم وتسحبها للاسفل .

وفي عام , 1950 ابحر دافيد اتينبورو الشاب الى تانا مع مصور ,اسمه جيفري موليغان ,لتحري موضوع طائفة جون فروم. وجدوا العديد من الادلة على الدين وتعرفوا في الاخر على الكاهن الاعلى, رجل اسمه نامباس .

نامباس يتكلم عن المخلص ب جون, ويدعي بأنه يتكلم معه بشكل منتظم, ب "الراديو" . وهذا (الراديو خصوصية جون) عبارة عن امرأة عجوز وشريط كهربائي يلف خصرها وتصاب بما يشبه نوبة الصرع وتتكلم بغمغمة غير مفهومة, ونامباس يفسر كلمات جون فروم. نامباس يدعي بأنه عرف مسبقا بقدوم اتينبورو لرؤيته, لان جون اخبره بذلك ب "الراديو" . اتينبوروا طلب ان يرى "الراديو" ولكن طلبه رفض(لاعجب). وتغير الموضوع وسأل نامباس عما اذا كان قد رأي جون فروم :
نامباس هز رأسه بالايجاب بشكل مؤكد. " انا ارى جون مرات كثير"

"كيف هو شكله؟"

اشار نامباس بأصبعه على ." هو يشبه انت. هو له وجه ابيض, هو رجل طويل, هو يعيش طويلا في امريكا جنوبية طويلا" تلك التفاصيل تناقض الاسطورة عن ان جون فروم كان قصير القامة, وهذه احدى الطرق التي تتطور بها الاساطير .
من الامور المسلم بها بأن عودة جون فروم ستكون في 15 شباط, ولكن ليس من المعروف في اي عام. وفي 15 شباط من كل عام يجتمع اتباعه لاحتفال ديني للترحيب بقدومه. وحتى الان لم يعد ولكنهم لم ييأسوا. دافيد اتينبورو قال لاحد افراد الطائفة ,واسمه سام :

"ولكن ياسام, لقد مضى تسعة عشر عاما منذ الوقت الذي قال فيه جون ان الشحنة ستصل. لقد وعد ووعد, لكن الشحنة لم تصل بعد. اليست تسعة عشر عاما وقتا طويلا للانتظار؟"

سام رفع عينيه من الارض ونظر الي قائلا :
"اذا كنت تستطيع الانتظار لالفي عام حتى يعود المسيح ولم يعد, فأنا اذن استطيع انتظار جون اكثر من 19 عاما"

في كتابه هل بإستطاعتنا ان نكون صالحين بدون الاله؟ لروبرت بوكمان يقتبس الكاتب الرد السريع والمدهش لتابع جون فروم, وهذه المرة لصحفي كندي بعد حوالي اربعين عاما من لقاء اتينبورو .

الملكة والامير فيليب زارا المنطقة عام 1974, وبالنتيجة اصبح الامير اعادة تتحدى نموذج جون فروم (مرة اخرى, لاحظ السرعة التي تتطور بها تفاصيل الدين وتتغير) الامير رجل وسيم وبهندام عسكري ابيض انيق وخوذة مريشة, وليس مفاجئأ بأنه – وليس الملكة – قد حصل على السمو بتلك الطريقة, وذلك بعيدا عن تقاليد اهل الجزيرة والتي تستصعب وجود انثى الهية .

لااريد ان اعطي طوئف الشحن الكثير من الاهمية . ولكنهم يقدمون لنا مثالا ساحرا حديثا عن نموذج للطريقة التي تنشأ بها الاديان من العدم تقريبا. والاهم ان ذلك يعلمنا اربعة دروس عن اصول الدين بشكل عام, وسأستعرضهم بشكل مقتضب هنا .

الاول هو السرعة الهائلة التي تنشأ بها طائفة ما .
الثاني هو السرعة التي تمحي بها الفكرة الاصلية اثارها. ان جون فروم – بفرض انه وجد حقا – قد فعل ذلك في مرحلة الذاكرة الحية. ولكن حتى بتلك الاونة الحديثة من التاريخ فإنه من غير المؤكد انه قد وجد من اصله .
الدرس الثالث ناخذه من الظهور المستقل لطوائف متماثلة في جزر متباعدة.والدراسة المنظمة للتشابهات تعلمنا بعضا من سيكولوجيا الانسان واستعدادها للتدين .
الدرس الرابع, طوائف الشحن متشابهة, ليس فقط مع بعضها ولكن من الاديان القديمة كالمسيحية التي انتشرت عالميا وربما بدأت بطائفة محلية مثل طائفة جون فروم .

وبالتأكيد, فإن بعض الدارسين مثل غيزا فيرميس, بروفيسور في الدراسات اليهودية في اوكسفورد, يقترح بأن المسيح كان واحدا من العديد من الشخصيات المؤثرة التي ظهرت في فلسطين في وقته, ومحاطة بالعديد من الاساطير المشابهة. العديد من تلك الطوائف اندثرت. والتي بقيت,في رأيه, هي التي نراها حتى اليوم. وبمرور القرون ,شحذت بتطورات (انتخاب ميماتي, لو اردت التعبير عنها بهذا الشكل) لتشكل نموذجا معقدا – او نماذج احفاد مختلفة من نفس السلف – والتي سيطرت على مناطق واسعة من العالم اليوم. ان موت شخصية مؤثرة في العالم الحديث مثل هيلا سيلاسي, الفيس برسلي والاميرة ديانا يعطينا فرصا اخرى لدراسة النشوء السريع للطوائف وظواهر تطور ميماتها . هذا كل ما اردت ان اقوله عن اصل الاديان, عدا عن فاصل صغير في الفصل العاشر عندما اناقش الظاهرة الطفولية "الصديق الخيالي" تحت عنوان "الحاجات" النفسية التي يؤمنها الدين .

من المتعارف عليه ان الاخلاق تأتي من الدين, وفي الفصل التالي سأناقش وجهة النظر تلك. وسأحاجج بأن الاخلاق بحد ذاتها هي موضوع دارويني. تماما كما كان سألنا سابقا :ماهي القيمة الداروينية للبقاء التي يقدمها الدين؟ , نستطيع طرح السؤال نفسه عن الاخلاق. الاخلاق ,بدون شك, ربما سبقت الاديان. وكما اعدنا صياغة السؤال بالنسبة للدين, سنفعل نفس الشئ وربما نجد ان الاخلاق ربما كانت ناتج عرضي لشئ اخر .

الفصل السادس

منشأ الأخلاق:

لماذا نحن طيبون

غريب وضعنا على الارض. كل منا يأتي في زيارة قصيرة, لايعرف لماذا, ولكن في بعض الاحيان يبدو بان هناك سببا مقدسا. من وجهة نظر الحياة اليومية, على كل حال, هناك اشياء نعرفها: بأن الانسان هنا من اجل الانسان الاخر وقبل كل شئ لاجل هؤلاء الذين نعتمد على سعادتهم وابتساماتهم لاسعادنا

البرت اينشتاين

الكثيرون من المتدينين يجدون صعوبة في التصور, كيف يمكن للمرء ان يكون جيدا بدون الدين, او حتى كيف يمكن ان يريد احد ان يكون جيدا بدونه. سأناقش ذلك السؤال في هذا الفصل . ولكن الشك يمضي لابعد من ذلك, ويسوق بعض المتدينين لنوبات كراهية ضد من لايقاسمونهم ايمانهم. وهذا مهم لاعتبارات اخلاقية تختبئ وراء مواقف دينية ازاء مواضيع اخرى ليس لها ارتباط بالاخلاق. معظم الاعتراضات على تدريس التطور ليس لها علاقة بالنظرية نفسها, او بأي شئ علمي اخر, ولكنها تتسبب في غضب اخلاقي. وعلى مدى يبدأ بالسذاجة " لو درست اطفالك بأنهم تطوروا من السعادين, فيستصرفون كالسعادين" وينتهي بالاسلوب الرفيع الذي يقبع خلف "الوتد" المسمى استراتيجية "التصميم الذكي", كما عرض من قبل بربارا فورست وباول كروس بشكل عار في كتاب حصان الخلق لطروادة: الوتد في التصميم الذكي .

يصلني عدد كبير من الرسائل من كثير من قرائي, معظمهم لطيف وحماسي, والبعض ناقد بشكل نافع, وقلة من الرسائل القذرة وحتى الشريرة. والاكثر قذارة, واسف للقول ,بشكل عام من دافع ديني. سوء الاستخدام للتسامح المسيحي يتعرض له كل من يعتبر عدوا للمسيحية. وهذه, على سبيل المثال, رسالة نشرت على الانترنت موجهة لبريان فيلمينغ, كاتب ومخرج الفيلم الاله الذي لم يكن هناك , فيلم يدعوا للالحاد بصدق. عنوان الرسالة "لتحترق بينما نحن نضحك" وتاريخها 21 كانون الاول , 2005 الرسالة كما يلي :

"من المؤكد ان لديك الكثير من الشجاعة. اود ان اخرج امعائك بسكين ايها المجنون ,واصرخ من الفرح عندما يخرج ما بداخلك للخارج امامك. انك تحاول اشعال حرب مقدسة حتى استطيع انا, واخرين مثلي, ان نحصل على فرحتنا الكبرى بعمل ما نوهت لك عنه؟

وحتى هنا لاتبدوا الرسالة بلغة مسيحية , ويبدوا ان الكاتب تأخر في معرفة ذلك ولذلك فهو يتابع, بشكل اكثر تسامحا :

"ولكن, الله علمنا الا نسعى للانتقام, بل نصلي لكل من هو مثلك"

ولكن يبدوا ان التسامح يموت بسرعة :

"سأجد الراحة في معرفة ان عقاب الله سيكون 1000 مرة اسوأ من اي شئ استطيع فعله انا. وافضل ما هنالك هو انك ستتعذب للابد لتلك الذنوب التي تتجاهلها تماما. انتقام الله لن يريك اي رحمة. ولأجلك , اتمنى ان تتضح الحقيقة لك قبل ان تصل السكين اليك .

ميلاد سعيد

ملاحظة: ليس لديك اي معلومة عم ينتظرك.. اشكر الله اني لست انت"

اجد انه من المحير بصدق ان مجرد اختلاف في رأي ديني يمكن ان يولد سما كذاك .واليكم مثالا اخر (الكلمات ذاتها) من جعبة الرسائل لمحرر مجلة التفكير الحر لهذا العصر , نشرت من قبل مؤسسة الحرية من الاديان , والتي تشن حملات سلمية ضد الحركات المضادة لقانون فصل الدين عن الدولة :

" مرحبا, يا اكلي الجبن التافهون. المسيحيون منا هم الاغلبية الفائقة عليكم ايها الخاسرون. لن يكون هناك فصل للكنيسة عن الدولة وستخسرون ايها الكفرة " ...

ماهو موضوع الجبن؟ بعض الاصدقاء الامريكان اقترحوا ان لذلك علاقة بالولاية الحرة ويسكانسون – موطن مؤسسة الحرية من الاديان وصناعات الالبان – ولكن من المؤكد ان هناك سبب اخر لذلك؟ وماذا عن الفرنسيين "اكلي الجبن المحاطون بالقرود"؟ ما هي الرمزية للجبن؟ لنكمل :

"يا عباد الشيطان التافهون .. ارجوكم موتوا واذهبوا للجحيم.. امل ان يصيبكم وباء مؤلم مثل سرطان القولون وتموتوا ببطء وألم, حتى تلاقوا الهكم , الشيطان, ... ياصاح ان تلك الحرية من الدين لهي شئ مقرف .. ولذلك ايها الشواذ المخندقون إهدأوا وانتبهوا لخطاكم لان الله سيأخذكم في الوقت الذي لن تتوقعونه .. اذا كنتم لاتحبون هذه البلد والاسس التي بنيت عليها , اخرجوا منها يا منايك واذهبوا للجحيم

ملاحظة: انتاكوا , ايها الشيوعيون العواهر .. خذوا مؤخراتكم السوداء الى خارج الولايات المتحدة .. ليس لكم عذر. ان الخليقة هي اكثر من دليل كاف على القدرة المطلة التي يملكها الاله عيسى المسيح "

لماذا ليست القوة المطلقة لله؟ او السيد براهما؟ او حتى يهوه؟

"لن نتركم بحالكم. ولو تطلب الامر في المستقبل استعمال القوة تذكروا انكم انتم من بدأ. بندقيتي ملقمة"

لاستطيع التوقف عن التساؤل, لماذا يحتاج الله للدفاع عنه بتلك الطريقة الشرسة؟ ربما على المرء ان يفكر بأن الله يستطيع تدبر امره بنفسه. خذ بالاعتبار ان المحرر الذي تعرض للتهديد بهذا الشكل الشرس ليس الا سيدة مهذبة ولطيفة جدا .

ربما لانني لاعيش في امريكا, فإن معظم بريد الكراهية الذي اتلقاه ليس بذلك المستوى, ولكنها ايضا لاتستعرض كرم الاخلاق الذي يفترض ان مؤسس المسيحية تميز به. وما يلي هو رسالة من طبيب بريطاني مؤرخة في ايار , 2005 ورغم انها مملوئة بالكراهية تبدو لي وكأنها مملوءة بالعذاب اكثر منها نتنة, وتوحي لنا بوضوح موضوع تأصل الاخلاق وتأصل العداوة نحو الالحاد. بعد شئ من المقدمات تسلخ فيها نظرية التطور سلخا (والسؤال بسخرية عما اذا كان "العبد الاسود" هو جزء من العملية لايزال قيد التطور) , والهزء بداروين شخصيا, والاقتباس المزور من هاكسلي على انه معادي للتطور, وتشجيعي على قراءة كتاب (قرأته) والذي يحاجج بأن العالم عمره 8000 سنة)
هل يمكن ان يكون حقا طبيب؟) ومن ثم يستنتج ان :

"كتبك, ومنصبك في اوكسفورد, وكل ما تحب في هذه الحياة, وكل ما حققته, لايعدو كونه شيئا من العبث .. سؤال كامو المحرج يبدو لامهرب منه هنا: لماذا لاننتحر جميعا؟ بالتأكيد, نظرتك عن العالم لديها تأثير على الطلاب والكثير من الاخرين .. بأننا تطورنا بمحض الصدفة العمياء, من لاشئ, وسنعود لللاشئ. حتى لو كانت الاديان ليست صحيحة , فإنه من الافضل , كثيرا , ان نؤمن بالاساطير, مثل افلاطون, اذا كانت تؤدي لراحة البال في الحياة. ولكن رؤياك للعالم تؤدي للارهاق, واستعمال المخدرات, والعنف ,والانكارية, اللذة, وعلم فرانكشتاين, وجهنم على الارض, والحرب العالمية الثالثة ... اتساءل عن مدى سعادتك في علاقاتك الشخصية؟ هل انت مطلق؟ ارمل؟ شاذ؟ من هم مثلك ليسوا سعداء مطلقا, او انهم يحاولو جاهدين ان يبرهنوا انه ليس هناك سعادة او معنى لاي شئ"

الشعور الذي يعطيه وقع تلك الرسالة ليس الا احد الامثلة الكثيرة. يؤمن هذا الشخص بأن الداروينية وريثة العدمية, واننا تطورنا بصدفة عمياء (وللمرة التريليون الانتخاب الطبيعي هو المعاكس تماما للصدفة) واننا سنعود للعدم بعد موتنا. وكنيجة مباشرة للمعنى السلبي المزعوم, تأتي كل اخلاقيات الشر. ربما انه لم يعني اقتراح موضوع الترمل كدافع للداروينية , ولكن الرسالة, في تلك النقطة , وصلت لمستوى مسعور من السوء والذي الاحظه بشكل عام في مراسلي المسيحيون. لقد خصصت كتابا كاملا (حل قوس قزح) للمعنى النهائي ولشاعرية العلم, وبإسهاب وبشكل مطول نقضت تهمة السلبية العدمية, ولذلك سأمتنع هنا عن ذلك. هذا الفصل هو عن الشر, ونقيضه, الخير ,عن الاخلاق: من اين اتت ولماذا علينا الالتزام بها, وعما اذا كنا نحتاج للدين لفعل ذلك .

هل للمعاني الاخلاقية اصل دارويني؟

العديد من الكتب, ومنها كتاب روبرت هيند لماذا الخير جيد , ومايكل شيرمر علم الخير والشر, وروبرت باكمان هل نستطيع ان نكون جيدين بدون الله؟ و مارك هاوزر العقل الاخلاقي, كلها تناقش بأن معنى الصح والخطأ يمكن ان يأتي من الماضي الدارويني . وهذا القسم هو رأيي الخاص في هذا الموضوع .

بهذا الخصوص تبدو فكرة الانتخاب الطبيعي غير ملائمة بالمرة لشرح الخير التي نمتلكها ,او حتى شعورنا عن القيم الاخلاقية, الامانة, التعاطف والاسف. الانتخاب الطبيعي يستطيع شرح الجوع, الخوف , و الرغبة الجنسية, وكل ما يمكن ان يساهم مباشرة في بقائنا او الحفاظ على جيناتنا. ولكن ماذا عن الشفقة التي نشعر بها عند رؤيتنا ليتيم يبكي, او ارملة عجوز قانطة تشكو الوحدة؟ ما الذي يدفعنا لارسال هدية من مجهول او نقودا او ملابس لضحايا التسونامي في الطرف

الاخر من العالم , لن نراهم قط واحتمال ان يردوا الجميل لنا هو اقل من ان نفكر به؟ من اين يأتي الخير السامري المتأصل فينا؟ اليس الخير متناقضا مع نظرية "الجين الاناني"؟ لا .. هذا فهم خاطئ للنظرية – فهم خاطئ محزن (وبشكل ما متوقع) . من الضروري ان نركز على الكلمات الصحيحة .وذلك بالتركيز على الجين الاناني, لان ذلك متناقض مع الكائن الاناني , مثلا, او الصنف الاناني. دعوني اشرح .

المنطق الدارويني يفرض علينا استنتاج أن واحدات الحياة في التدرج الطبقي التي تبقى لتنتقل من خلال الانتخاب الطبيعي تميل لان تكون انانية. والواحدات التي تبقى ستكون على حساب الواحدات المنافسة في نفس الدرجة من الطبقية. وهذا بالضبط ما تعنيه الانانية بهذا الصدد. السؤال هو, ماهي تدرجات هذا الفعل؟ كل فكرة الجين الاناني ,ولنركز على الكلمة الاخيرة, هو ان واحدات الانتخاب الطبيعي (الواحدة التي تهتم بذاتها) ليست الكائن الحي الاناني, وليست المجموعة الانانية او الصنف الاناني, بل الجين الاناني . ان الجين بهذا الصدد هو من يبقى للاجيال او لايبقى. وعلى عكس الجينات (والميمات ايضا), فإن الكائن الحي, او المجموعة او الصنف ليسوا بالواحدات التي يمكن ان تخدمنا بهذا المعنى, لانهم ببساطة لايصنعون نسخا مطابقة لانفسهم, ولا يتنافسون في موضوع النسخ الذاتي المطابق تماما. وهذا بالضبط ما تفعله الجينات, وهذا هو الاصل المنطقي الذي يبرر اختيار الجين فقط ليكون واحدة (الانانية) بالمعنى الدارويني لكلمة انانية .

ان الطريقة البديهية للجينات لضمان "انانيتها" هو ان تبرمج الكائنات لتكون انانية. وهناك بالطبع العديد من الظروف التي يقتضي فيها بقاء الكائنات من اجل بقاء الجينات التي تحويها. ولكن في ظروف اخرى يستعمل تكتيك اخر. وهناك بعض الظروف – ليست نادرة بأي شكل – حيث يضمن الجين بقاءه بجعل الكائن يتصرف بطريقة ايثارية. وهذه الظرف اصبحت مفهومة بشكل جيد في ايامنا وتصنف على فئتين رئيسيتين. الجين الذي يبرمج الكائن ليفضل احتوائه في نسله سيحوز على الكثير من النسخ احصائيا. وجين كهذا سيتزايد في مجموعة الجينات بحيث ان التصرف الايثاري سيصبح هو المعيار الجديد .ومثال واضح على ذلك هو رعاية الاطفال, ولكنه ليس المثال الوحيد. فالنحل والنمل وسوس الخشب ونقار الدف ,كلها طورت مجتمعات يقوم فيها الكبار برعاية صغارهم (والذين يتقاسمون الجينات معهم غالبا). وبشكل عام وكما استعرض زميلي المتوفي هاميلتون ,فالحيوانات تميل لرعاية من يقاسمونهم جيناتهم والدفاع عنهم وتحذيرهم من الخطر وايثارهم لان الاحتمال الاحصائي لشراكة الجينات كبير .

النوع الاخر من الايثار والذي له تفسير عقلاني دارويني هو الايثار المتبادل("حك لي لاحك لك"). هذه النظرية, قدمها لاول مرة البيولوجي روبرت تريفيرس وغالبا ما يعبر عنها بشكل رياضي لنظرية الالعاب, ولاتعتمد على اقتسام الجينات. وبالتأكيد تعمل بشكل ممتاز, وحتى بشكل افضل, بين كائنات متباينة ومختلفة, وتسمى عندها بالسمبيوسيس. المبدا هو التبادل والمقايضة الذي يعتمده الانسان. الصياد يحتاج لرمح والحداد يحتاج لحما. واللاتساوي بينهما يؤدي لعقد من نوع ما. النحل يحتاج للنكتار والزهور بحاجة للالقاح. الزهور لاتستطيع الطيران وبالتالي فإنها تدفع للنحل بنقود النكتار لاستعمال اجنحتها. الطير المسمى بمرشد العسل يستطيع ايجاد عش النحل ولكنه لايستطيع اقتحامه. والغرير يستطيع اقتحامه ولكنه بدون اجنحة للبحث عنهم. مرشد النحل يقود الغرير (والانسان في بعض الاحيان) للعسل بطريقة طيران مغرية ,ولاتستعمل تلك الطريقة في الطيران لاي غرض اخر. والطرفان يستفيدان من العقد . ربما تقع قطعة من الذهب تحت حجر لايستطيع المكتشف تحريكه بمفرده. ويطلب المساعدة من الاخرين رغم انهم سيقاسمونه به, لانه بدون مساعدتهم لن يحصل على اي شئ. ومملكة الحياة غنية بأمثلة كهذه عن العلاقات المشتركة: الثيران الامريكية والعصفور ناقر الثيران.الزهور الحمر والطائر الونان, البقر والكائنات المجهرية في امعائها. الايثار المشترك يعمل لان عدم التناظر في الاحتياجات والمقدرات يساعدها في ذلك , ولذلك تعمل بنجاح اكبر بين الكائنات المختلفة, حيث عدم التناظر اكبر واوضح .

عند الانسان, تعتبر النقود ادوات تؤخر التبادل الفعلي. والاطراف التي تتبادل لاتسلم وتستلم البضائع بشكل مباشر, بل تحتفظ بما يشبه الدين للمستقبل, او حتى التجارة بالدين مع الاخرين. وعلى حد علمي ليس هناك كائنات حيوانية غير انسانية ممن لديهم ما يوازي النقود. ولكن الذاكرة الفردية والشخصية تلعب دورا موازيا بشكل غير نظامي .الخفافيش المصاصة للدماء يتعلمون من الذي يستطيعون الاعتماد عليه من ابناء عشيرتهم لدفع ديونهم (بالقيء الدموي) ومن الذين يغشون . والانتخاب الطبيعي يفضل اولئك المهيئين, بما يتعلق بعدم تناظر الاحتياجات والفرص, للعطاء عند المقدرة والتوقف عنه عند عدم الاستطاعة. وتفضل الميل لتذكر الواجبات, تذمر الدب, تبادل العلاقات البوليسية وعقاب الغشاشين الذين يأخذون ولايعطون عندما يأتي دورهم .

وبما انه سيكون هناك غش بشكل دائم, فإن الحل المتوازن سيكون بفرض عقاب على الغشاشين في لعبة اللايثار المتبادل. والنظريات الرياضية للالعاب تسمح بصنفين من الحلول التي تسمح بإستقرار لعبة كهذه. "كن قذرا كل الوقت" , عندما

يكون الجميع كذلك فإن الفرد اللطيف لن تسنح له الفرصة ليؤدي عملا افضل. ولكن هناك استراتيجية اخرى تسمح بالاستقرار ايضا.("الاستقرار" يعني , عندما يصل عدد الافراد للحد الحرج ,فلن يكون هناك اي تصرف بديل يؤدي لنتيجة افضل). وهاكم تلك الاستراتيجية " ابدأ بكونك لطيفا, ثم اعط الاخرين الفرصة ليعرفوك, قابل المعروف بالمعروف, وعاقب التصرفات البشعة". وبتعريفات نظريات الالعاب الرياضية, فإن هذه الاستراتيجية (او ماشابهها) تصنف تحت اسماء مختلفة, ومنها "هذه بتلك" , "الانتقام والتبادل". وهي تسمح بالاستقرار التطوري تحت ظروف ما بمعنى, لو كانت هناك عشيرة تطغى فيها المشاركة المتبادلة, فلا الفرد القذر, ولا الفرد الطيف سيكونون قادرين على ان يتميزوا بأي شكل. هناك تنوعات اخرى من "هذه بتلك" والتي يمكنها ان تعمل بشكل افضل في ظروف مماثلة .

كنت قد نوهت على القرابة والتبادل كعمودين رئيسيين للايثار في العالم الدارويني, ولكن هناك بناء ثانوي يقع على قمة تلك الاعمدة. وبخاصة في المجتمع الانساني, بوجود لغة وغيبة,تصبح السمعة مهمة. واحد الافراد تكون له سمعة كشخص لطيف او كريم. واخر له سمعة كغشاش وكسول ومرتجع بكلامه. واخر تصبح له سمعة كريمة عندما تبنى ثقة به ,من خلال معاقبته للغش بشكل عنيف. النظرية غير المنقحة عن الايثار المشترك تتوقع ان تبني الحيوانات سلوكها على تبادل غير واعي لتلك المميزة مع اقرانها. وعند الانسان اردفنا اللغة وقوتها لنشر السمعة, وعادة على شكل لغط كلامي. لاتحتاج للمعاناة الشخصية من فشل س بشراء المشروب للاصدقاء في البار. بل تسمع "على شجرة العنب" بأن س "حشوة ضيقة" (تعابير انكليزية عن البخل – المترجم). او – لاضافة بعض السخرية على الموضوع – بأن ع مثلا نمام رهيب. السمعة مهمة , والبيولوجيون يستطيعون الاعتراف بأن البقاء الدارويني يقتضي ليس فقط ان يكون الفرد مشاركا ولكن ايضا ان يكون له سمعة جيدة كمشارك ايضا. مات ريدلي في كتابه اصل القيم , فيه الكثير من الدراسة عن السمعة اضافة لكونه مرجعا مشرقا عن الاخلاقية الداروينية ايضا .

عالم الاقتصاد النرويجي تورستين فيبلين و ,وبطريقة اخرى, عالم الحيوان الاسرائيلي اموتز زاهافي , اضافا فكرة جذابة اخرى. الايثار ربما يكون كدعاية او استعراض السلطة والتفوق. الانثروبولوجيون يعرفون مايسمى بتأثير بولتاتش. والذي سمي تيمنا بتقليد يتبارز فيه الزعماء المتنافسون في قبائل الشمال الغربي بإقامة مأدبة مدمرة بكرمها .وفي حالات التطرف , تتمادي النوبات الانتقامية حتى يصبح احد الطرفين شديد الفقر ,تاركا الطرف الاخر ليس بأفضل حال منه. مبدأ فابلان عن "الاستهلاك المظهري" يضرب على الوتر الحساس عند الذي يشاهد المنظر المعاصر. ومساهمة زاهافي , التي طورها العديد من البيولوجيون ومن ثم وضع الرياضي اللامع الان غارفين نموذجا رياضيا لها ,ساهمت في وضع نسخة تطورية لفكرة البولتاتش. زاهافي درس العصافير الثرثارة البنية التي تعيش وتتكاثر في مجموعات. ومثل العديد من الطيور الصغيرة فإن الثرثار يطلق صيحات تحذير ويبترعون بالاكل لبعضهم. وتحقيق دارويني عن ذلك الايثار سيبدو, لاول وهلة, وكأنه للتبادل والقرابة بين العصافير. وعندما يطعم الثرثار طيرا اخر فهل يتوقع ان بأن يحصل على الطعام منه في وقت لاحق؟ ام ان ذلك فقط يحصل بسبب القرابة الجينية؟ وتفسير زاهافي غير متوقع بالمرة. الثرثار المتسلط يؤكد هيمنته بإطعام اتباعه .وبإستعمال تعابير تشبيهية لارضاء زاهافي, فإن الطائر المهيمن وكانه يقول ," انظروا كم انا متفوق بالنسبة لكم, انا عندي المقدرة على اعطائكم طعاما." او "انظروا كيف اتفوق عليكم بأن اجعل نفسي عرضة للنسور بالجلوس على فرع عال لاعطي اشارة الانذار للباقين الذين يأكلون على الارض" . وملاحظات زاهافي وزملائه ترينا بأن طيور الثرثار تتبارى بشكل دائم على دور الحارس. وعندما يحاول احد الطيور الاتباع اعطاء الطعام لطائر مهيمن فإن محاولته تقابل برفض عنيف. وملخص فكرة زاهافي هو ان استعراض التفوق يتماشى مع كلفته. والمتفوق فقط يستطيع استعراض تفوقه بتلك الهدايا الثمينة .وبذلك السعر يستطيعون جذب عدد اكبر من الاناث, وذلك بإستعراض الكرم والاستعداد للمخاطرة من اجل الاخرين .

لدينا اربعة اسباب جيدة من الناحية الداروينية ليتمتع الفرد بالايثاروالكرم ؤ "الاخلاق الحميدة" تجاه الاخرين. الاول , هو وجود القرابة الجينية كحالة خاصة. الثاني , وجود رد الجميل المتبادل والمعروف بالمعروف, وعمل المعروف "بتوقع" الدفع لاحقا. وذلك يقودنا للنقطة الثالثة, المنافع الداروينية الناتجة من وجود السمعة الحسنة للكرم واللطف. والرابع, لوكان زاهافي محقا, فهناك منفعة اضافية للكرم المتبادل كطريقة لشراء دعاية اصيلة وغير قابلة للتزييف .

معظم الوقت فيما قبل التاريخ, عاش الانسان في ظروف تقتضي تفضيل مناحي الايثار الاربعة المذكورة من اجل التطور. عشنا في قرى, اوابكر من ذلك في مجموعات متجولة كما يفعل قرد البابون, وبشكل جزئي معزولين عن الجيران او القرى القريبة. ومعظم الذين يشاركونا الحياة من الاقارب, وقرابتهم لك اكثر بكثير من القرابة للعشيرة الاخرى لك – وهناك الكثير من الفرص لتطور الايثار . وبشكل عام كنا لنقابل الفرد الاخر من العشيرة مرة تلو اخرى بغض النظر عن كونه قريبا ام لا – وهذه ظروف مثالية لتطور الايثار المتبادل. وهي ايضا الشروط المثالية لبناء سمعة ايثارية والاعلان عنها للشخص باحد او جميع الطرق الاربع التي ذكرناها. والاتجاه الجيني للايثار يجب ان يفضل من قبل الانتخاب الطبيعي في الانسان الاول. ومن السهل ان نرى لماذا كان اسلافنا جيدين بالنسبة لمجموعاتهم وسيئين

وخوافين من المجموعات الاجنبية الاخرى. ولكن لماذا – بما انتا الان نعيش في مدن كبيرة ولسنا محاطين بالاقارب بشكل عام, وفي كل يوم نرى اشخاصا لن نراهم بعد ذلك طوال حياتنا – لماذا نحن جيدون بالنسبة للاخرين, وحتى بالنسبة للاخرين الذين ينتمون لمجموعات خارجة عن نوعنا؟

من المهم الا نخطئ بتقدير دور الانتخاب الطبيعي. فالانتخاب لايفضل تطور من هو مدرك بوعي لما هو جيد بالنسبة لجيناته. وذلك الادراك كان عليه ان ينتظر القرن العشرين ليصل الى مستوى من الوعي , بل الفهم الكامل في حالة قلة من العلماء المختصين . القاعدة فيما يفضله الانتخاب الطبيعي عموما هو نشر الجينات التي صنعت القاعدة . والقواعد بشكل عام وبطبيعتها تخطئ اهدافها احيانا. وفي دماغ هناك القاعدة التي تقول :" ابحث عن احياء صغيرة تزقزق في العش وادفع ببعض الطعام في الفراغ الاحمر في رؤوسها" تؤدي الى الحفاظ على الجينات التي بنت تلك القاعدة,لان الاشياء الصغيرة التي تزقزق ستكون بشكل طبيعي من نسله. ولكن القاعدة تخطئ عندما يصل ابن طائر اخر للعش بشكل ما, وذلك شئ يبرع طائر الواقواق فيه. هل من الممكن ان يكون اندفاعنا الاخلاقي الجيد في سومريتنا الجيدة هو الذي يخطئ الهدف. كما اخطات غريزة الطائر الاحمر وتسببت له بإجهاد نفسة من اجل طائر الواقواق؟ بل هناك تشبيه اقرب وهو اندفاع الانسان لتبني طفل. وهنا على ان اسرع بتوضيح ان "اخطاء الهدف" مقصود به المعنى الدارويني المحط. ولايحمل اي معنى انتقاصي بأي شكل من الاشكال .

فكرة "الخطأ" او "الناتج العرضي", الذي اريد الدفاع عنه, يعمل بالشكل التالي. الانتخاب الطبيعي, في زمن الاسلاف عندما كنا نعيش في مجموعات جوالة كالبابون, برمج في ادمغتنا الاندفاع للايثار, الى جانب الاندفاع الجنسي, والجوع, والخوف من الاجنبي ..الخ . .وعندما يقرأ زوجين من الاذكياء كتاب داروين فإنهما يعرفان بأن السبب النهائي لاندفاعهم الجنسي هو التكاثر. ويعلمون بأن المرأة لن تحمل لانها اخذت الحبة. ولكن ذلك لم يؤدي بأي شكل لتخفيض الدافع الجنسي بتلك المعرفة. ان الرغبة الجنسية هي رغبة جنسية في النفس وهي مستقلة تماما عن هدفها الدارويني الذي ساقها . انها حاجة قوية موجودة بشكل مستقل عن هدفها النهائي والعقلاني .

وانا اقترح هنا ان الحاجة والدافع هو نفسه بالنسبة للطف والطيبة والايثار والكرم والتعاطف والرأفة. في ايام الاسلاف, كانت لدينا الفرصة لنكون ايثاريين فقط بالنسبة للاقرباء ومن يحتمل الن يبادلنا المعروف. وفي ايامنا هذه لم تعد تلك القيود موجودة , لكن القاعدة بقيت. ولماذا لا؟ انها كالرغبة الجنسية . ولانستطيع شيئاً ازاء الشعور بالرأفة عند رؤية شخص يبكي لمصيبة ما (وليس بالقريب او ممن نتوقع منه رد الجميل) تماما كما لانستطيع شيئاً ازاء رغبتنا في شخص من الجنس الاخر (رغم انه من الممكن ان يكون عقيما او غير مهئ للانجاب). الاثنان خطأ بالهدف, اخطاء داروينية: اخطاء مباركة وثمينة .

لاتفكر ولو للحظة بأننا عندما "ندرون" الاشياء (نردها لنظرية داروين – المترجم) فإن ذلك يقلل من قيمة المشاعر النبيلة والكرم . والامر نفسه بالنسبة للرغبة الجنسية ,والتي ادى استخدامها في اللغة والثقافة لظهور الكثير من الشعر الباهر والدراما العظيمة: كما قصائد الحب لجون دون, او روميو وجولييت. وبالطبع يحدث الشئ نفسه بالنسبة للخطأ في الهدف بالنسبة للمشاعر تجاه للاقرباء او من يبادلون المعروف. العفو عن المدين مثلا , عندما نراه خارج الموضوع, فهو لادارويني تماما مثل تبني طفل شخص اخر :

الرحمة لا تعرف القوة
بل انها تنهمر كالمطر اللطيف من السماء
على الارض التي تحتها .

الرغبة الجنسية هي القوة الدافعة المسببة للكثير من الطموح الانساني والكفاح في الحياة, وغالبها يأتي كخطأ في الهدف. وليس هناك اي سبب لئلا ينطبق الشئ ذاته على الرغبة بالكرم او التعاطف, اذا كان ذلك يأتي من الحياة القروية للاسلاف. الطريقة المثلى للانتخاب الطبيعي لبناء نوعي الرغبة في وقت الاسلاف هو بتركيب قواعد ما في المخ . وتلك القواعد لاتزال تهيمن علينا حتى اليوم, حتى عندما تجعلم الظروف غير مناسبين للغرض الاساسي الذي كان مطلوبا منهم .

قواعد كتلك تتحكم فينا حتى الان, ليس بطريقة حتمية ولكن بطريقة مصفاة بتأثير الادب والعادات, القوانين والتقاليد – وبالطبع ايضا . الدين. وكما تمر الرغبة الجنسية عبر مصفاة الحضارة لتظهر كقصة حب بين روميو وجولييت, فإن قواعد اخرى بدائية في المخ عن الثأر بيننا وبين الاخرين يظهر بشكل معارك بين الكابوليت والمونتاغ: بينما قواعد

بدائية اخرى عن الايثار و التعاطف تؤدي بنتيجة اخطاء الهدف لان نشعر بالفرح في مقاعدنا في المنصة عندما يمثل المشهد الاخير في مسرحية شكسبير .

حالة دراسية عن منشأ الاخلاقيات

لو ان احساسنا الخلقي, مثل رغبتنا الجنسية , تعود جذوره لاصولنا الداروينية في الماضي السحيق قبل ظهور الاديان, فعلينا ان نتوقع ان البحث في العقل الانساني سوف يرينا بأن بعض الاخلاق عالمية وليس لها حدود جغرافية او ثقافية, وايضا, وبشكل حرج, لاحدود دينية. البولوجي مار هاوسر من هارفارد, في كتابه العقل الاخلاقي: كيف صممت الطبيعة الاحساس العالمي بالصح والخطأ, توسع في فكرة تجريبية طرحها بالاصل فلاسفة الاخلاق. ودراسة هاوسر ستخدم الهدف الاضافي من تقديم الطريقة التي يفكر بها فلاسفة الاخلاق .

تطرح قضية اخلاقية فرضية, والتردد في الاجابة والصعوبة التي نواجهها فيها تنبئنا عن قدرتنا على الاحساس بالصح والخطأ. بينما يذهب هاوسر لابعد من ذلك بأن يجري احصائيات وتجارب سيكولوجية, وذلك بإستعمال اسئلة على الانترنت ,كمثال, للتحري عن عن الاحساس الاخلاقي للناس الحقيقيين. ومن وجهة النظر العصرية, فإنه من المثير بأن معظم الناس يقررون نفس القرارات عندما تطرح عليهم نفس الاسئلة, واتفاقهم على الاراء نفسها يبدوا اقوى من قابليتهم على التعبير عن السبب الكامن وراء ذلك. وهذا ما علينا ان نتوقعه اذا كنا نتوقع ان هناك احساسا اخلاقيا مركبا في ادمغتنا, كما هو الحال في الرغبة الجنسية او خوفنا من الاماكن العالية أو, كما يفضل هاوسر وصفه بمقدرتنا اللغوية (التفاصيل تختلف من ثقافة لاخرى ولكن ما يختفي تحت خطوط القواعد العريضة عالمي). وكما سنرى, فإن الطريقة التي يجيب بها الناس على اسئلة الاخلاقيات والطريقة التي يعبرون فيها عن الاسباب, تبدوا مستقلة تماما عن وجود دينهم او معتقداتهم او عدم وجوهما. والعبرة من كتاب هاوسر , ولنذكرها كما عبر هو عنها :"سلوكنا فيما يتعلق بالقرارات الاخلاقية هو عبارة عن قواعد عالمية, فرع من العقل قد تطور عبر ملايين السنين ليحتوي على مجموعة من المبادئ تبنى عليها نظم اخلاقية. وكما في اللغة, فإن المبادئ التي تجعل القواعد الاخلاقية تطير تحت مستوى رادارنا الواعي ".

من الاحجيات الاخلاقية التقليدية التي يطرحها هاوسر احجية القاطرة او "الترام" على السكة والتي تهدد بقتل عدد ما من البشر 5 ,مثلا .القصة الابسط تتخيل شخصا اسمه (او اسمها) دينيس, يقف في منطقة يمكنه منها ان يوجه القطار لتحويلة فرعية, وبذلك ينقذ حياة الناس العالقين في الخط الرئيسي .للاسف هناك شخص عالق على التحويلة. ولكن بما انه شخص واحد فقط والاخرين كثر .فإن غالبية الناس يوافقون على انه من الاخلاق, وربما اجباري , ان يضغط دينيس على ذراع تحويل السكة ليحافظ على حياة الخمسة بقتل ذلك الواحد. ونحن نتجاهل امكانية ان يكون الشخص على التحويلة هو بيتهوفن مثلا .. او صديق حميم .

اكمال التجربة يعرض علينا مسائل يتعالى فيها مستوى الاثارة للالغاز الاخلاقية. ماذا لو كان بالامكان ايقاف الترام بإلقاء حمل ثقيل امامه من على جسر فوق السكة؟ وهذا سهل: من الواضح انه علينا ان نرمي الثقل. ولكن ماذا لو كان الثقل الوحيد المتوفر هو رجل سمين جدا يجلس على حافة الجسر, ويتأمل في غروب الشمس؟ الجميع تقريبا اتفق على انه من غير الاخلاقي دفع الرجل السمين من على الجسر, على الرغم من انه , من وجهة نظر ما , فإن الاحجية مشابهة لحالة دينيس, حيث ان دفع ذراع تحويل السكة سيقتل واحد لينقذ خمسا. ولكن غالبيتنا عندهم احساس قوي بأن هناك اختلافا حرجا بين الحالتين ولكننا لانعرف كيف نعبر عنه .

ان دفع الرجل السمين من على الجسر يذكرنا باحجية اخرى يعتبرها هاوسر ايضا في حساباته. خمس مصابين في مستشفى يحتضرون, كل منهم يشكو انهيار عضو مختلف في جسمه. وبالامكان انقاذهم جميعا لو وجدنا متبرعا لكل عضو في كل منهم, ولكن ليس من متبرع. يلاحظ الجراح شخصا في غرفة الانتظار, ولديه تلك الاعضاء الخمسة وتعمل بشكل جيد وجاهزين للنقل والزراعة. في تلك الحالة لن يوافق احد تقريبا على القول بأنه من الاخلاقي قتل ذلك الشخص لانقاذ الخمسة .

وفي حالة الرجل السمين على الجسر, فإن الاحساس الداخلي لغالبيتنا بأن ذلك الجالس البرئ لايجب ان يجر فجأة لموقف سئ لمصلحة اخرين بدون موافقته. وقد عبر عن ذلك بشكل واضح ايمانويل كانط بأن الكائنات العاقلة لايجب ان تستخدم

بدون موافقة كوسائل لمنع او انهاء اوضاع ما, حتى لو كانت تلك النهاية لمصلحة الاخرين. هذا يعطينا الفرق الحرج الذي بين الرجل السمين او الرجل في المستشفى والرجل العالق على السكة في حالة دينيس. الرجل السمين على الجسر سيستخدم كأداة لايقاف القاطرة .وهذا يخالف مبدأ كانط بوضوح. بينما الشخص الذي على السكة لن يستخدم لانقاذ حياة الخمس الاخرين. بل ان محول السكة الذي يستخدم , والرجل سئ الحظ لكونه موجودا عليها. ولكن .. عندما يتوضح الفرق بذلك الشكل, لماذا يرضينا ذلك؟ بالنسبة لكانط فإن ذلك شئ اخلاقي محض. اما بالنسبة لهاوسر فإن ذلك مبني فينا جميعا بواسطة التطور .

فرضيات الاوضاع التي يطرحها هاوسر عن القاطرة تزداد ابداعا, والدوامة الاخلاقية تزداد تعقيدا والتواء. ويضع هاوسر شخصيات هي نيد و اوسكار , نيد يقف على السكة , وخلافا لدينيس , الذي يستطيع تغيير السكة التي يسير عليها القطار. ولكنه يستطيع ان يغير مسيره للفة بسيطة يعود بعدها للسكة الرئيسية في طريقه للاشخاص الخمسة. وبالتالي دفع ساعد تغيير المسار لن ينفع والقطار سيصدم الخمسة اشخاص في اي حال عندما يعود للسكة الرئيسية. ولكن هناك شخص سمين جدا على اللفة وثقيل بشكل يكفي لان يوقف العربة. هل يجب على نيد تغيير المسار للقطار؟ رد الفعل الاول لمعظم الناس انه لايجب ان يفعل ذلك. ولكن ما هو الفرق بين حيرة نيد وحيرة دينيس؟ الفرض هنا ان الناس يطبقون مبدأ كانط بالحدس . دينيس يغير مسار القطار ليتفادى صدم الاشخاص الخمسة والضحية على المسار اخر هو "ضرر جانبي", باستعمالنا لتعبير رامسفيلد الجذاب هنا. ليس مستخدما من قبل دينيس لينقذ الخمس الاخرين . بينما ند يستخدم الرجل السمين بالفعل هنا ليوقف القطار, ومعظم الناس (ربما بدون تفكير), ومنهم كانط (الذي فكر بكل تفاصيلها), يرون ان ذلك فرق مهم جدا .

الفرق يظهر مرة اخرى بمسالة محيرة مع اوسكار. اوضاع اوسكار مطابقة لاوضاع نيد ,بإستثناء ان هناك كتلة ثقيلة من الحديد على اللفة, وواضح بأن اوسكار لن يفكر وليس لديه مشكلة في القرار بتغيير مسار القاطرة. بإستثناء ان هناك شخص يتمشى قبل الكتلة الحديدية. وسيقتل بالتأكيد لو غير اوسكار المسار كما هو الحال مع الرجل السمين. الفرق هو ان الشخص الذي يتمشى في حالة اوسكار لي يستخدم لايقاف القطار: بل هو ضرر جانبي, كما في حالة دينيس. وكما هو الحال في هاوسر والكثيرين ممن اجروا تجاربه, اشعر انا بصعوبة تبرير مواقفي الحدسية. النقطة التي يريد هاوسر التركيز عليها هي ان اخلاقيات بالحدس كهذه لم يفكر بها كثيرا وانما تأتي من خلال الاحساس, وذلك بسبب التوارث التطوري فينا .

قام هاوسر وزملائه بمغامرة انثروبية مثيرة, وذلك بأخذ تجربتهم لقبيلة كونا الصغيرة التي تعيش بمعزل تام تقريبا عن الغرب وليس لها دين رسمي. واستبدل الباحثون "القاطرة على السكة" بمواز لها مما يفهمه السكان المحليين , كتمساح يسبح نحو قارب. وما عدا تغييرات بسيطة غير مهمة عبر اشخاص الكونا عن نفس الاحكام الاخلاقية مثل الاخرين منا .

وبما يهتم به هذا الكتاب, فإن هاوسر تساءل ايضا عما اذا كان المتدينون يختلفون عن الملحدين فيما يتعلق بالحدس الاخلاقي. لو كنا نأخذ اخلاقنا من الدين فإنه من المفترض ان يكون هناك اختلاف. ولكن يبدوا انه لايوجد. وقد عمل هاوسر مع فيلسوف الاخلاق بيتر سينغر, وركزا على ثلاثة فرضيات محيرة وقارنوا النتائج بين الملحدين والمتدينين .

في كل حالة يطلب من الممتحن ان يقرر اذا ما كان تصرف ما "اجباري" , "مسموح" او ممنوع. وتلك هي النتائج .

1. حالة دينيس. تسعون بالمئة قالوا بأنه من المسموح له ان يحول مسار القاطرة, قتل شخص لانقاذ خمسة .
2. ترى طفلا يغرق وليس هناك من منقذ. بإستطاعتك انقاذه , ولكنك ستسخر بنطالك .سبع وتسعون بالمئة وافقوا ان عليهم ان ينقذوا الطفل (من المدهش ان هناك ثلاثة بالمئة ممن ارادوا الحفاظ على سراويلهم).
3. موضوع زراعة الاعضاء الذي شرحناه سابقا. سبع وتسعون بالمئة وافقوا بأنه من الممنوع قتل الشخص السليم لانقاذ الاخرين بزراعة اعضائه .

الاستنتاج الرئيسي الذي وصل اليه هاوسر وسينغر هو انه ليس هناك فروق احصائية تذكر بين الملحدين والمتدينين من ناحية اتخاذ قرار اخلاقي. وهذا يبدوا متطابقا مع وجهة النظر , التي اتمسك والعديدين بها, بأننا لسنا بحاجة لله لنكون جيدين – او سيئين .

لو لم يكن هناك اله, فلماذا نكون صالحين؟

ان طرح السؤال بتلك الطريقة يبدوا دنيئا. وعندما يطرحه على رجل دين بهذا الشكل(والعديد منهم يفعل ذلك), تغمرني رغبة ملحة بالتحدي التالي:" هل تعني ان تقول لي بان السبب الوحيد الذي تحاول لاجله ان تكون صالحا هو لتحصل على رضا الله ومكافأته, او لتفادي غضبه وعقوبته؟ هذا ليس اخلاقيا, بل انه تملق, وتمسيح جوخ, ترمق النظر من خلفك للكاميرا العظيمة للمراقبة في السماء, او الميكروفون التجسسي في رأسك, والذي يراقب كل حركاتك, وحتى ادنى الافكار التي تدور في رأسك" . وكما قال اينشتاين,: " لو ان الناس صالحون فقط لخوفهم من العقوبة, وطمعهم بالمكافأة, فإننا صنف يؤسف لنا بالتأكيد". مايكل شيرمر, في علم الخير و الشر, يضع ذلك كحاسم للنقاش. لو وافقت على انك, في غياب الله, سوف "تسرق, تغتصب وتقتل", فإنك شخص لااخلاقي, " وعلينا فعلا ان نحتاط منك" . ولو, على الطرف الاخر, لو وافقت ان تستمر في كونك صالحا حتى بدون وجودك تحت مراقبة السماء, فإنك تقوض زعمك بأن الله ضروري لنكون صالحين. اشتبه في ان كثيرا من المتدينين يفكرون بأن الدين هو ما يدفعهم ليكونوا صالحين, خصوصا تابعي احد فروع الايمان الذي يستغل الشعور الشخصي بالذنب .

يبدو لي بأن التفكير بذلك يستدعي وجود عدم ثقة بالنفس ,بحيث انه لو الايمان بالله اختفى فجأة من العالم, فإننا جميعا سننقلب لقساة انانيين نهتم بالمتعة فقط, بدو صلاح او صدقة او كرم, لاشئ مما يستحق ان يوصف بالجودة على الاطلاق. من المصدق به بشكل واسع ان ديستويفسكي كان له هذا الرأي, مستنتجين ذلك من الكلمات التي وضعها في فم ايفان كرامازوف :

"ايفان لاحظ بجدية بأنه ليس هناك اي قانون في الطبيعة مما يمكن ان يجعل الانسان يحب الانسانية, ولو ان الحب وجد ولايزال في العالم فإنه ليس ميزه من مزايا قانون الطبيعة, لكنه يعود بشكل تام لايمان الانسان بخلوده الشخصي. وزاد تعليقا جانبيا بأن ذلك بالضبط هو ما يحدد القوانين الطبيعية, وذلك يعني, بأنه لو تحطم ايمان الانسان بخلوده, فلن تتعطل قدرته على الحب فحسب, ولكن ستتعطل كل القوى الضرورية لبقاء الحياة على هذه الارض. والاكثر من ذلك, لن يكون هناك اي شئ لااخلاقي, وسيكون كل شئ مسموحا, حتى اكل لحم البشر.واخيرا, وكأن كل ذلك لم يكن كافيا, صرح بأن كل شخص, مثلي ومثلك, مثلا, والذي لايؤمن بإله او بخلوده الشخصي, فإن قوانين الطبيعة تقتضي فورا بأن يكون الشخصية المعاكسة تماما لقوانين الدين التي سبقتها, وان الانانية, وحتى ارتكاب الجرائم سيعتبر ليس فقط مسموحا بل واساسيا ايضا, وسيكون هو الاكثر عقلانية, والاكثر نبلا من اجل البقاء في تلك الظروف ".

ربما انها سذاجتي , ولكني اميل لوجهة نظر اقل تهكما عن الطبيعة الانسانية من ايفان كرامازوف. هل نحتاج حقيقة لان نكون مراقبين من الله او من بعضنا البعض – حتى نتوقف عن الانانية والسلوك الاجرامي؟ اريد وامل ان اصدق بأني لااحتاج مراقبة كتلك - ولاانت ياعزيزي القارئ. ومن ناحية اخرى ولنقوي ثقتنا , لنستمع الى ستيفن بينكر وتجربته الحقيقية خلال اضراب البوليس في مونتريال, والذي وصفه باللوح الاسود :
"كيافع في كندا الفخورة بإستقرارها وسلامها خلال الستينات, كنت مؤمنا تماما بالفوضوية التي دعا لها باكونين. وكنت اضحك من رأي اهلي القائل بأنه لو القت الحكومة سلاحها فإنها تفتح ابواب الجحيم. وأراؤنا المتفاوتة وضعت قيد الامتحان عندما اضربت قوات الامن في مونتريال في الساعة الثامنة من يوم 17 تشرين الثاني . 1969 وعندما بدأ اضراب البوليس في الساعة 11:20 تعرض اول بنك للسرقة . وعند الظهر اغلقت معظم متاجر مركز المدينة ابوابها بسبب السرقات. وبعد بضع ساعات احرق سائقو تكسي كاراجا لسيارات الليموزين كان ينافسهم على زبائن المطار. قناص من سقف قتل شرطيا محليا, اقتحامات حصلت في العديد من الفنادق والمطاعم, وحصيلة النهار كانت , ستة بنوك, مئة متجر 12 ,حريقا 40 ,سيارة محملة ببضائع على واجهات المحلات المهشمة, وثلاثة ملايين دولار اضرار للمتلكات. حتى اضطرت المدينة ان تستعين بالجيش, لاحلال النظام. ذلك الامتحان التجريبي لارائي تركها ممزقة كخرقة بالية "....

ربما اني ايضا اميل بسذاجة لتصديق ان الناس سيبقون جيدين في غياب المراقبة الالهية .ولكن من ناحية اخرى, فإن غالبية اهل مونتريال من المفروض انهم مؤمنينب. فلماذا لم يخافوا من عقوبته عندما غاب رجال الشرطة الارضيين مؤقتا عن الساحة؟ اليس اضراب مونتريال تجربة جيدة لتجربة النظرية القائلة بأن الايمان بالله يجعلنا صالحين؟ ام ان الساخر مينكين اصاب بملاحظته اللاذعة:" الناس يقولون بأنهم بحاجة للدين في حين انهم في حاجة للبوليس"

بالطبع لن يتصرف كل شخص في مونتريال بشكل سيئ بمجرد غياب الشرطة عن الساحة. وسيكون من المثير معرفة فيما لوكان هناك اية ميول احصائية, ولو بشكل ضئيل, للمؤمنين بالدين لان يسرقوا ويحطموا اكثر من غير المؤمنين. وتوقعي الغير مبني على اية معلومات هو العكس. هناك من يقول بتهكم انه لايوجد ملحدين في مخابئ الثعالب. وانا اميل للشك (مع بعض الادلة, برغم انها بسيطة لدرجة انها لايمكن الاعتماد عليها لاي استنتاج) بأن هناك اقلية من الملحدين في السجون. انا لاازعم بالضرورة بأن الالحاد يرفع مستوى الاخلاق, على الرغم من ان الانسانية – النظام

الاخلاقي الذي يتماشى مع الالحاد – ربما تفعل ذلك. والامكانية الاخرى هي ان الالحاد يتناسب مع عامل ثالث, كمستوى دراسي اعلى, او ذكاء او تفكير, والتي بشكل عام تتعارض مع الاندفاع الاجرامي. والابحاث من هذا القبيل لاتدعم بالتأكيد النظرة العامة بأن الدين يتناسب طردا مع الاخلاق. والتناسب الطردي لايعني صحة النتيجة ولكن المعلومات التالية, والتي وصفها سام هاريس في كتابه رسالة الى وطن مسيحي, لابد انها مثيرة جدا :

"ان علاقة الدين بالاحزاب السياسية في امريكا ليس علامة فارقة, ولكن ليس من السر ان الولايات الحمراء<الجمهوريين> قد سميت كذلك نظرا للنفوذ القوي للمسيحية المحافظة. ولو كان هناك علاقة بين الصحة الاجتماعية والمسيحية المحافظة فيجب ان نتبينها في تلك الولايات الحمراء في امريكا. و ضمن المحافظات ال 25 والتي فيها اقل نسبة جرائم, فإن 62 بالمئة منها تقع في ولايات زرقاء <ديمقراطيين> و 38 تقع في ولايات حمراء. والواقع ان ثلاث محافظات من اصل خمس والتي فيها اعلى نسبة اجرام في الولايات المتحدة تقع في ولاية تكساس التقية. الولايات ال 12 والتي تتميز بأعلى نسب سرقات ولايات حمراء. ومن الولايات ال 22 بأعلى نسبة جرائم قتل هناك 17 ولاية حمراء " .

ان الابحاث المنظمة تميل بشكل عام لدعم معلومات مثل هذه. دان دينيت, في كتابه كسر الطوطم, عقل بسخرية مريرة , ليس على كتاب هاريس , ولكن بشكل عام على دراسات كتلك :

"لسنا بحاجة للقول, بأن نتائج كتلك تصدم الزعم القائل بالمثل الاخلاقية العليا وقيمها بين المتدينين لدرجة انه اصبح هناك اندفاع من قبل المؤسسات الدينية لدحضهم ... يمكننا ان نكون متأكدين من شئ واحد وهو , لو كان هناك اي علاقة ايجابية بين الاخلاقيات والتدين, او الممارسات الدينية, او الايمان, فإنها ستكتشف قريبا, بما ان الكثير من المؤسسات الدينية تسعى بجهد لاثبات ايمانهم التقليدي عن ذلك علميا.(معجبون تماما بقدرة العلم على اكتشاف الحقيقة عندما توافق ما يؤمنون به). وكل شهر يمضي بدون اكتشاف كهذا يضع خطا احمرا تحت الشبهة بأن تلك العلاقة ليست موجودة " .

معظم من يفكر بالموضوع يصل لنتيجة بأن الاخلاقيات الموجودة في غياب البوليس اكثر صدقا بشكل ما من تلك التي تتبخر فور اعلان البوليس للاضراب او عند اطفاء كاميرا التجسس, سواء كانت الكاميرا حقيقية ومراقبة من قبل مخفر البوليس او كانت خيالية في السماء. ربما لايكون من العدل تفسير السؤال " لو لم يكن هناك اله, لماذا تزعج نفسك بالصلاح؟" بتلك الطريقة التهكمية. ويمكن لمفكر ديني ان يعطينا تفسيرا اخلاقيا صادقا, وتلكم بعض من اقوال مؤمن خيالي. " بما انك لاتؤمن بالله, فإنك لاتؤمن بأن هناك اي قواعد اخلاقية نموذجية. وربما تحاول ان تكون انسانا صالحا بكل الصدق الموجود في الارض, ولكن كيف يمكنك القرار بما هو جيد وما هو سئ؟ الدين وحده يستطيع تأمين القواعد النموذجية للصالح والطالح. وبدو الدين عليك ان تخترعها من خلال ممارساتك. وتلك اخلاق بدون كتاب للقواعد: وهذا ينقض الاخلاق برمتها. فلو كانت الاخلاق مسألة خيار, لاستطاع هيتلر الزعم بأنه اخلاقي بالقياس لنظريته المتعلقة بتحسين النسل, ويستطيع كل الملحدون ان يختاروا شخصيا قواعدا ليعيشوا في ضوئها .بعكس اليهود والمسيحيين والمسلمين, الذين يستطيعون الزعم بأن الشر له معنى حقيقي و ازلي وواحد في كل مكان, وبناء عليه فإن هيتلر هو شرير مطلق " .

حتى ولو كان حقيقيا اننا بحاجة للاله لنكون اخلاقيين, فذلك لن يجعل بأي شكل من الاشكال وجود الاله اكثر احتمالا, ولكن اكثر رغبة في وجوده (الكثيرين لايستطيعون ملاحظة الفرق). ولكن ليس هذا هو المهم. ان متديني التخيلي لايحتاج للاعتراف بأن تملق الاله هو الدافع لعمل الخير في الدين. بل زعمه كالتالي, لايهم من اين اتى الدافع لعمل الخير, ولكن بدو الدين لن يكون لدينا قواعد لتحديد الصلاح, والتصرف على اساسه. المبادئ الاخلاقية المبنية فقط على الدين (على خلاف " القاعدة الذهبية" مثلا ,والتي تعتبر غالبا متعلقة بالدين ولكن يمكننا استخلاصها من مكان اخر) ربما تسمى بالمطلقة. الخير خير والشر شر, وليس علينا ان نقرر بحسب الحالات, كمعانات شخص ما على سبيل المثال. ومتديني الخيالي يزعم بأن الدين وحده يستطيع تحديد ما هو جيد .

بعض الفلاسفة, وكانط بالاخص, جربوا استخراج اخلاقيات مطلقة ليست من اصول دينية .وكونه هو ذاته متدينا معروفا حيث لم يكن هناك اي مخرج اخر تقريبا في ايامه, فقد حاول كانط ان يبني الاخلاقيات عن الواجبات لاجل الواجبات فقط, بدلا عن الله .وتصنيفاته للواجبات المشهورة توجهنا لأن "نتصرف فقط بتلك الحكمة بإعتبارها تسري في نفس الوقت كقانون عالمي عام". وكمثال يوضح بشكل مرتي سنأخذ الكذب. تخيل ان هناك عالما بأكمله حيث الجميع يكذب بإعتبار ان ذلك هو الاساس, والكذب يعتبر شيئا اخلاقيا وجيدا. في عالم كهذا سيفقد الكذب معناه. الكذب يحتاج للفرض بأن هناك صدق وحقيقة بالتعريف. ولو ان نظاما اخلاقيا هو شئ علينا اتباعه , فإن الكذب لايمكن ان يكون نظاما اخلاقيا لان المبدأ بذاته يتلاشى معنويا. الكذب, كقاعدة للحياة, لايمكن ان تكون مستقرة. وبشكل اعم , الانانية ,

والتطفل بإستغلال النوايا الطيبة للاخرين, ربما يكون مفيدا لي كفرد اناني وحيد ويعطيني سعادة شخصية , ولكن لااستطيع ان امل ان يكون الجميع طفيليين وانانيين بالمبدأ, لانني لن احصل على من اتطفل عليه عندها .

الاولويات الكانطية تبدوا وكأنها فعالة في حالات الصدق وبعض الحالات الاخرى. ولكن ليس من السهل تعميمها على الاخلاقيات العامة. وبالرغم من كانط, فإنه من المغري الموافقة مع فرضية المتدين التخيلي بأن الاخلاقيات المطلقة تنحدر بشكل عام من الدين. أيعتبر تخليص مريض بمرض عضال من عذابه وبطلبه هو خطأ دائما؟ هل من الخطأ المطلق ممارسة الجنس مع شخص من نفس الجنس؟ هل قتل بويضة مخصبة يعتبر خطأ اكيدا؟ هناك من يؤمن بذلك, والقواعد عندهم مطلقة. لايساقون لاي نقاش او جدال. وكل من يخالفهم الرأي يستاهل القتل: نتكلم بالرموز بكل تأكيد هنا, وليس الكلام حرفيا – ماعدا حالة بعض الاطباء الامريكيين في عيادات الاجهاض (انظر الفصل القادم). لحسن الحظ ,وبشكل عام, فالاخلاق لايجب ان تكون مطلقة .

فلاسفة الاخلاق هم الاخصائيون عندما يتعلق الامر بالتفكير بالصح والخطأ. كما عبر عن ذلك بالمختصر المفيد روبرت هيند, اتفقوا على ان "النصائح الاخلاقية, بالرغم من انها ليست بالضرورة مبنية عقلانيا , يجب ان تستطيع العقلانية الدفاع عنها". يصنفون انفسهم بعدة طرق , ولكن التعاريف الحديثة تقسمهم بين"المحاججين بالواجبات(سنسميهم الواجبيون)" (كانط كمثال) و "المحاججين بالنتائج(النتائجيون)" (يتضمنون النفعيين مثل جيريمي بينثام – 1748 1832).

الواجبيون هو اسم مفخم للايمان بأن الاخلاقيات تبنى على اساس طاعة القوانين .وحرفيا هي علم الواجبات, واصل الكلمة من الاغريقية ومعناها "الشئ الملزم" . وذلك ليس ما يسمى بالاخلاقيات المطلقة, ولكن في اغلب الحالات لكتاب ديني لانحتاج لمعرفة الفرق. المطلقيون يؤمنون بأن هناك صح مطلق وخطأ مطلق, الاولويات التي تشدهم لاتنوه بأي شكل للنائج. النتائجيون يشددون ببراغماتية على ان اخلاقيات عمل ما يجب ان تقاس بنتائجها. واحد انواع النتائجية هو النفعية, وهي الفلسفة المرتبطة ببينثام , وصديقه جيمس ميلل (1773 – 1936) وابنه جون ستيوارت ميل (73 – 1806)النفعية غالبا تتلخص بعبارة بينثام البراقة للاسف: " السعادة الكبرى لاعظم عدد هي القاعدة للاخلاقيات والقوانين" .

ليست كل القواعد المطلقة نابعة من الدين. برغم ذلك, من الصعب ان ندافع عن الاخلاقيات المطلقة على اسس غير دينية. والمنافس الوحيد الذي استطيع التفكير به هو الوطنية, وخصوصا في اوقات الحرب. كما قال المخرج الاسباني المميز," الله والوطن فريق لايمكن الفوز عليه: يحطمون كل الارقام القياسية للظلم واراقة الدماء" . ضباط التجنيد يعتمدون بشكل كبير على احاسيس ضحاياهم بالواجب الوطني. وفي الحرب العالمية الاولى اهدت النساء ريشة بيضاء للشباب الذين لايلبسون اللباس الموحد .

"لانريد فقدانك , ولكن نظن بأن عليك ان تذهب, لان الملك والوطن يحتاجون لك"

البشر يكرهون الفارون الواعون, حتى اولئك الذين في بلد العدو, لان الوطنية تعتبر مزية مطلقة. ومن الصعب ان نحصل على مطلق اكثر من "انه وطني سواء كان على حق او على خطأ" من جندي ما, ذلك الشعار الذي يلزمك بقتل كل من يقع عليه اختيار سياسيوا المستقبل لاعطائهم لقب عدو. ربما يفلح منطق النتائجيون في التأثير على القرار السياسي بخوض الحرب, ولكن بمجرد اعلان الحرب, فإن الوطنية المطلقة تستلم زمام الامور بقوة وطاقة لاتوجد خارج نطاق الدين. والجندي الذي تدفعه افكاره الاخلاقية النتائجية لعدم تخطي الحدود سيجد نفسه غالبا في محكمة ميدانية وربما يواجه الاعدام .

ان الدافع لتلك المناقشة عن الفلسفة الاخلاقية كان فرضية الدين الزاعمة بأنه, لو لم يكن هناك اله, فإن الاخلاق نسبة واعتباطية. كانط واخرون من الفلاسفة الاخلاقيين المختصين على حده, ومع كل الاعتراف بالتأجج الوطني, فإن المصدر المفضل للاخلاقيات المطلقة يكون عادة كتابا مقدسا دينيا من نوع ما, ويفسر على ان لديه سلطة اكبر من ان يستطيع تاريخه تبريرها. وبكل تأكيد, فإن اتباع السلطة المقدسة يبدون القليل جدا لدرجة مؤلمة من الفضول بما يتعلق بالاصول التاريخية (المريبة عادة) لكتبهم الدينية . الفصل التالي سيستعرض التالي, على اي حال, الناس الزاعمون بأخذهم للاخلاقيات من الكتب المقدسة لايفعلون ذلك عمليا. وهذا شئ جيد ايضا, كما يجب عليهم انفسهم الموافقة بعد التفكر .

الكتاب الصالح والاخلاقيات روح العصر المتغيرة

السياسة قتلت الالاف, ولكن الدين قتل مئات الالاف

شون اوكايسي

توجد طريقتان يمكن بهما ان يكون الكتاب المقدس مصدرا للاخلاقيات او قوانين العيش . الاول بالاوامر المباشرة, مثلا عبر الوصايا العشرة, والتي كانت احد اسباب المرارة في الحروب الثقافية في بعض اماكن امريكا النائية. والثاني هو بالمثال: الله,ا و احد الشخصيات الانجيلية الاخرى والذي يجب علينا اعتباره – ولنستعمل التعبير الحديث – مثالا اعلى. والطريقتين , لو اتبعتا بتزمت (والتعبير هنا برمزيته يشير الى اصله) , ستقودا لاخلاقيات معينة واي شخص عصري, متدين ام لا, سيعتبرها – ولااجد تعبيرا الطف هنا – بغيضة .

للعدل, الكثير من الانجيل ليس شريرا بشكل مقصود ولكنه مؤسي بشكل غريب, كما هو متوقع من وثيقة ادبية لامور غير متعلقة ببعضها اعدت بشكل عشوائي , وحررت , وروجعت, وترجمت, وشوهت و"حسنت" من قبل المئات من الكتاب والمحررين والناسخين المجهولين بالنسبة لنا وغالبا غير معروفين من قبل بعضهم البعض, وخلال تسعة قرون. قد يفسر هذا الغرابة المطلقة للانجيل. ولكن للاسف,فأن تلك الوثيقة الدينية المتطرفة الغريبة مفروضة علينا لتكون المصدر للاخلاقيات وطريقة الحياة. هؤلاء الذين يرغبون ان يأسسوا حياتهم بحسب الانجيل لم يقرأوه او يفهموه غالبا,كما لاحظ الاسقف جون شيلبي سبونغ, في كتابه اثام الكتاب المقدس. الاسقف سبونغ, على فكرة , هو مثال لطيف لرجل الدين الحر وصاحب ايمان لايعترف به غالبية من يسمون انفسهم بالمسيحيين. وخلافا لريتشار هالواي, المتقاعد حديثا من منصبه كأسقف ادنبرة . الاسقف هالواي يصف نفسه بأنه "مسيحي متعافي". لقيته في مناقشة علنية في ادنبره , وكانت احدى اهم واكثر اللقاءات اثارة للحوافز .

العهد القديم

لنبدأ بسفر التكوين والقصة المثيرة للاعجاب لنوح, والمأخوذة من اسطورة بابلية لاوتنابشتيم والمعروفة في اساطير اقدم عند كثير من الحضارات. ان اسطورة الحيوانات التي تذهب للسفينة زوجا زوجا جذابة جدا, ولكن اخلاقيات قصة نوح تستحق التمحيص. نظر الله للبشرية نظرة ظلماء, وقرر (بإستثناء عائلة واحدة) ان يغرقهم جميعا ومن ضمنهم اطفال, وايضا, لاسباب جيدة, كل باقي (المفترض انه لاعتب عليهم) الحيوانات ايضا .

طبعا رجال الدين المتضايقين سيعترضون بأننا لاناخذ قداس التكوين بحرفيته . ولكن تلك هي القضية بعينها! نحن نختار وننتقي المقاطع التي نؤمن بها من الكتاب المقدس ,والمقاطع التي نعتبرها رمزية او مجرد حكايات. وانتقاء واختيار كهذا هو موضوع اختيار شخصي, تماما كما يختار الملحد ان يتبع اخلاقيات كهذه او تلك كقرار شخصي, وبدون اي اسس مطلقة. ولو ان ايا من هذه "الاخلاقيات تستحق حقا معينا" فكذلك الاخلاقيات الاخرى .

على كل حال, وبالرغم من النوايا الحميدة لرجال الدين المرموقين, فإن الغالبية من الناس لاتزال تأخذ الكتاب المقدس, ومن ضمنه قصة نوح , بشكل حرفي. واعتمادا على احصائيات, فالعدد يتضمن 50 بالمئة من المنتخبين في الولايات المتحدة. وكذلك, وبدون شك, الكثيرين من القديسين الاسيويين الذين القوا تبعة التسونامي عام 2004 ليس على التحركات التكتونية للارض ولكن على ذنوب البشر, وتتراوح الذنوب بين الشرب والرقص في البارات حتى نقض بعض قواعد العمل يوم السبت. منقوعين بقصة نوح , ومتجاهلين كل شي ماعدا تعاليم الانجيل, ومن يلومهم؟ كل ثقافتهم تدفعهم للتفكير بأن الكوارث الطبيعية مرتبطة بأعمال البشر بدلا من ارتباطها بالحركات التكتونية للقارات . وبالمناسبة, فإن ذلك الصلف المتطرف للايمان بأن ارتجاج الارض بالدرجات التي يتبعها الله(او المسطحات التكتونية) يجب ان يتعلق بالبشر. لماذا يجب على الخالق, والذي في عقله تكمن الازلية والخليقة, ان يكترث لتصرفات خاطئة تصدر عن انسان تافه؟ نحن البشر نهوى, بل نعطي فخامة لتضخيم "ذنوبنا" الصغيرة لمستويات كونية .

وعندما اجريت تلفزيونية مقابلة مع الموقر مايكل براي, احد الناشطين المميزين الامريكان ضد الاجهاض, سألته عن سبب هوس الانجيليين المسيحين بأمور الجنس الخصوصية كالمثلية, والتي لاتؤثر على حياة احد اخر. واحتوى جوابه على شئ كالدفاع عن النفس. المواطنون الابرياء يمكن ان يكونوا ضحايا غير مقصودين عندما يقرر الله ان يضرب مدينة بكارثة طبيعية لانها تحوي مذنبين. وفي , 2005 ضرب طوفان مدينة نيو اورليانز الجميلة كنتيجة لاعصار, كاترينا. وصدرت تقارير عن الموقر بات روبرتسون, احد اشهر الانجيلين التلفزيونيين في امريكا واحد المرشحين السابقين للرئاسة, بأنه القى باللائمة على احدى الكوميديات المثليات التي تعيش في مدينة نيو اورليانز(الخبر منشور في الانترنت ليس اكيدا, ولكنه ليس بالمستغرب فلطالما صرح اللانجيليون بتصريحات مماثلة – المترجم) . لابد انك تفكر

بأن الها كلي القدرة سيستخذ اسلوبا اكثر تحديدا للهدف لو اراد عقاب مذنب ما: كستكة قلبية مثلا, عوضا عن مدينة كاملة كانت لسوء حظ ساكنيها مكان سكن زوج من السحاقيات؟

وفي نوفمبر , 2005 قام مواطنو دوفر في ولاية بنسلفانيا بإقالة الهيئة التدريسية من المتطرفين ذوي السمعة السيئة, الذين ارادوا ان يفرضوا تدريس مايسمى "التصميم الذكي" . وعندما سمع بات روبرتسون بأن المتطرفون ابعدوا ديموقراطيا في الانتخابات ,اعطى تحذيرا اخيرا لسكان دوفر :

"احب ان اقول لسكان دوفر, بأنه لو حصلت كارثة في منطقتكم, لاتلجأوا للرب. لانكم رفضتموه من مدينتكم, ولاتتساءلوا لماذا لم يساعدكم عندما تبدأ المشاكل, هذا لو حصلت مشاكل, وانا لااقول بأنها ستحصل. لكن لو بدأت , تذكروا فقط بأنكم صوتتم لاخراج الله من مدينتكم. وفي حالة كتلك, لاتسألوه العون, لانه ربما ليس هناك ".

بات روبرتسون سيبدوا ككوميدي عديم الاذى, وهو احد الامثلة للناس الذين لديهم سلطة في الولايات المتحدة .

في تحطيم صادوم وعامورة, كان الانسان الموازي لنوح, والذي قدر له النجاة مع عائلته لانه كان المستقيم الوحيد, كان ابن اخ ابراهيم والمسمى لوط. ملاكان على هيئة رجال ارسلوا على لوط لتحذيره ودفعه لترك البلد قبل وصول الحريق. ورحب لوط بالضيوف الملائكة في بيته, بينما اجتمع رجال صادوم حول بيته وسألوه بأن يسلم الملائكة لهم حتى يستطيعوا (ماذا غير؟) ممارسة الصادومية معهم: " اين الرجال الذين اتو اليك في الليل؟ اجلبهم لنا حتى نستطيع التعرف عليهم" (التكوين 19:5) نعم , "نتعرف" كانت الكلمة التي استخدمتها النسخة المعتمدة كمعنى تلطيفي, والذي يبدوا مضحكا جدا في موقف كهذا. وكياسة لوط في رفض طلبهم يقترح علينا بأن الله ربما يخطط لشئ ما عندما اختاره من بين الجميع كالرجل الوحيد الجيد في صادوم. ولكن الهالة على لوط تتبخر عندما يعرض رفضه:"ارجوكم يا اخوتي, لاتفعلوا هذا الشر. انظروا, عندي ابنتان لم تعرفا الرجال من قبل: جعوني , ارجوكم, بأن احضرهما للخارج اليكم, وافعلوا بهم ما يحلوا لكم: ولكن لاتفعلوا شيئا لهؤلاء الرجال: لانهم تحت سقفي(التكوين7 :19 و 8) مهما قالت لنا هذا القصة الغريبة, فإنها بالتاكيد تخبرنا عن احترام النساء في تلك الحضارة المتدينة بعنف. وعندما تحصل القصة. فأن المساومة التي يضحي فيها لوط بعذريه بناته كانت غير ضرورية, لان الملائكة نجحوا في طرد اللصوص بأن جعلوهم عميانا بمعجزه فجائية. وبعدها فورا حذروا لوط بأن عليه ان يرحل مع عائلته فورا لان المدينة ستدمر. وكل العائلة هربت, بإستثناء زوجته المنحوسة, والتي حولها الرب لكومة ملح لانها ارتكبت معصية – ربما نعتبرها بسيطة بالمقارنة بالعقوبة – التطلع للوراء لرؤية النار المستعرة .

وابنتا لوط تظهران بشكل مختصر مرة اخرى في القصة. وبعد ان تحولت امهما لكومة ملح, عاشتا مع ابيهما في كهف في الجبال. تحترقان على مصاحبة رجل, وقررتا ان تسكرا والدهما وتناما معه. ولوط لم يكن في وضع يسمح له بالملاحظة عندما اقتربت ابنته الكبرى من سريره او عندما تركته, ولكنه لم يكن سكرانا بشكل لم يسمح له بجعلها حامل. وفي الليلة التالية اتفقت البنتان على ان دور الصغرى قد حان. ومرة اخرى جعلها لوط حاملا(التكوين31-6 :19) لو ان تلك العائلة المريبة هي افضل الموجود في صادوم اخلاقيا, ربما يشعر البعض بالتعاطف مع الاله وقراره باحراقها .

حكاية لوط والصادوميين لها اعادة مماثلة للصدى بشكل مخيف في الفصل 19 من كتاب الحكماء, حيث كان احد القديسين مسافرا مع محظيته في جباها. وقد امضوا ليلتهم بضيافة رجل عجوز . وبينما كانوا يتنالون العشاء, اتى رجال المدينة يقرعون الباب ,يطلبون من صاحب المنزل ان يسلمهم الضيف الذكر حتى "يتعرفوا عليه". وبشكل مطابق تقريبا لما قاله لوط, قال العجوز: " لا, ياخوتي ,لا, ارجوكم بدون شرور: ترون ان الرجل قدم لمنزلي فلا تمسوه بحماقة. انظروا, هذه ابنتي العذراء, وتلك محظيته :سأحضرهم الى الخارج, ولتفعلوا بهما ما يرضيكم: ولكن لاتؤذوا هذا الرجل بأي شئ" (الحكماء4 -23 :19) .ومرة اخرى, الاخلاقيات الشريرة المضادة للنساء تحضر, بكل قوة ووضوح. إنني اجد العبارة "حضوا من امرهم" تثير القشعريرة. تمتعوا بإغتصاب ابنتي ورفيقة القديس, ولكن قدموا الاحترام لضيفي, لانه , قبل كل شي,رجل ذكر. وبالرغم من التماثل بين القصتين , فإن خاتمتها كانت اقل سعادة لرفيقة القديس من مثيلتها لابنتي لوط .

القديس سلمها للعصابة, التي اغتصبتها جماعيا طول اليل:" تعرفوا عليها واستخدموها طوال اليل, وعندما حل الفجر, تركوها تذهب. ووصلت المرأة عند الفجر, وسقطت على الباب حيث كان سيدها, حتى طلوع النهار"(الحكماء :19 25-6) .وفي الصباح,, وجد القديس محظيته ساجدة على درج المنزل وقال – بطريقة نعتبرها اليوم فظة وقاسية - " انهضي ودعينا نذهب" ولكنها لم تتحرك. كانت ميتة. "فأخذ سكينا, وقطع محظيته لاثني عشر قطعة, وارسلها لكل

شواطئ اسرائيل" . نعم لقد صحت قرائتكم. انظروا الى الحكماء 19:29. دعونا نحسن الظن ونضعها مع باقي الامور الغريبة الموجودة في كل مكان في الانجيل. تلك القصة مماثلة بشكل ما لقصة لوط, ولايمكننا الا ان نتساءل عما اذا كان ذلك الجزء من المخطوط قد وضع بالخطأ في مكان خاطئ من المخطوطة المنسية: مما يوضح العصبية نحو النص المقدس .

ابراهيم عم لوط هو الاب المؤسس للديانات التوحيدية "العظيمة" الثلاث. وتلك المنزلة الابوية تجعله بشكل ما اقل من يتبع كنموذج. ولكن من هو الاخلاقي المعاصر الذي يريد ان يتبع خطواته؟ في باكورة حياته الطويلة, ذهب ابراهيم لمصر هربا من المجاعة مع زوجته سارة. لاحظ عندها بأن امرأة بجمالهاستكون مرغوبة من قبل المصريين , وبالتالي ستكون في خطر وكذلك سيكون زوجها. لذلك قرر ان يعرف عنها بأنها اخته. وبهذا الصدد اخذت وضمت لحريم الفرعون, واصبح ابراهيم غنيا بفضل فرعون. الله لم يوافق على هذه الصفقة, وارسل طاعونا على الفرعون ومنزله(لماذا ليس على ابراهيم؟) والفرعون الحزين طلب من ابراهيم تفسيرا عن انه لم يقل للفرعون ان ساره هي زوجته. واعادها له وطردهم من مصر(التكوين.19-18 :12) للغرابة, يبدو ان هذان الاثنان حاولا ان يفعلا نفس الشئ مرة اخرى, وهذه المرة مع ابيميليخ ملك جيرار. وهو ايضا دفع من قبل ابراهيم ليتزوج سارة, ومرة اخرى على انها اخت ابراهيم, وليست زوجته (التكوين5-2 :20) .وهو ايضا ابدا الامتعاض, بطريقة مشابهة كثيرا لفرعون ,واحدنا لايملك الا ان يتعاطف مع الاثنين. اليس التشابه مؤشرا على ان النص ليس مما يمكن الثقة فيه؟

تلك الاحداث الغير سارة في حياة سيرة ابراهيم تبدوا كهفوات فقط عند مقارنتها بالقصة البغيضة عن التضحية بإبنه اسحق (في الكتاب المقدس الاسلامي تقال نفس القصة عن الابن الاخر اسماعيل). الرب امر ابراهيم بتقديم قربان على النار مكون من الابن الذي طالما حلم بأن يكون لديه . بنى ابراهيم المذبح , ووضع حطب النار عليه, وربط ابنه اسحق فوق الحطب . وسكين القتل كان في يده عندما تدخل ملاك بشكل درامي ومعه اخبار بتغيير الخطة في اللحظات الاخيرة: الرب كان يمزح فقط, "ليغري" ابراهيم ,وليختبر ايمانه. والاخلاقي الحديث سيتساءل بالتأكيد عن امكانية التعافي النفسي للطفل بعد صدمة نفسية كتلك. وبمقاييس الاخلاق الحالية, فإن تلك القصة تحتوي على العنف ضد الاطفال, الشراسة من جهتين مختلفتين في الروابط والقوة, واول حادث استعملت به طريقة دفاع محاكم نيورنبرغ النازية: " كنت انفذ الاوامر فقط" . ولكن تلك الاسطورة هي احدى الاساسات الرئيسية في الاديان التوحيدية الثلاثة .

ومرة اخرى سيعترض علماء الدين بأن قصة تضحية ابراهيم بإبنه لايجب ان تؤخذ كواقعة .ومرة اخرى ايضا, فالاجابة الصحيحة لها شقان. الاول, الكثيرون الكثيرون من الناس في عصرنا لايزالون يأخذون الكتاب المقدس كأحداث واقعية حصلت, وهؤلاء لديهم قوة وسيطرة سياسية على الاخرين ونحن منهم, وبالاخص في الولايات المتحدة والعالم الاسلامي. الثاني, لو لم ناخذ القصة كواقع فكيف علينا ان نأخذها؟ فقط كحكاية؟ ولكن حكاية عن ماذا؟ بالتأكيد لاشيئ يستحق التقدير فيها. انأخذها كدرس في الاخلاق؟ ولكن ما نوع الاخلاق التي يمكن ان نستوحيها من تلك القصة المروعة؟ لنتذكر هنا. بأن ما اوحاوله في هذه اللحظة هو اثبات اننا عمليا لانستقي اخلاقنا من الكتاب المقدس. او, اذا فعلنا ذلك فإننا نختار وننتقي ماهو لطيف فيه ونرمي ماهو قذر. ولكن يجب ان يكون لدينا تصنيفات مستقلة والتي بواسطتها نقرر ماهو التصرف الاخلاقي: تصنيف ,مهما كان مصدره, لايمكن ان يكون من الكتاب المقدس ويجب ان يكون المصدر متوفرا للجميع سواء كانوا متدينين ام لا .

المتدينون يحاولون حتى ان يعطوا للاله بعض الحشمة في تلك القصة المحزنة. اليس خير الاله هو الذي انقذ حياة اسحق في اللحظة الاخيرة؟ وفي حالة سقوط احد القراء ضحية لتلك المقولة, سأسرد قصة اخرى من الاضاحي الانسانية, والتي انتهت بنهاية اقل سعادة. في سفر الحكماء, الفصل 11, ينذر القائد العسكري جيبثاه لله, بأنه لو ضمن له النصر ضد الامونيين, فإنه سيضحي , بدون اي استثناء, "اول من سيستقبله على ابواب منزله" عندما يعود للبلد. وجيبثاه بالتأكيد ينتصر على الامونيين ("بمذبحة عظيمة", كما هو الحال عموما في كتاب الحكماء). ويعود للبيت منتصرا. لامفاجأة هنا, ان ابنته الوحيدة ,خرجت لتستقبله(وهي ترقص وتغني) و– للاسف – كانت هي الكائن الحي الاول الذي فعل ذلك. ومن المفهمو ان جيبثاه وقع في مازق, ولكن ليس هناك ما يستطيع فعله .ويبدوا ان الله كان ينتظر ضحيته بفارغ الصبر, وبناء على الظروف فقد رضيت الفتاة ان تكون الاضحية. وطلبت فقط ان تخلو بنفسها في الجبل لشهرين لتندب عذريتها. وفي النهاية عادت بوداعة, حيث طبخها جيبثاه. والرب لم يتدخل هذه المرة .

ان غضب الله العظيم عندما يتلعب شعبه المختار مع اله اخر لايشابه اي شئ كمشابهته للغيرة الجنسية في اسوأ حالتها. ومرة اخرى تبدوا واضحة لاخلاقي حديث بعيدة كل البعد عما يمكن دعوته بالمثال الاعلى. ان الاغراء الجنسي المسبب لعدم الاخلاص مفهوم .حتى لهؤلاء الذين لايستسلمون له ابدا, وهو اقرب ما يكون لشبكة درامية او خيالية ,ابتداء بشكسبير وحتى مهزلة غرفة النوم. ولكن يبدوا لنا في الوقت الحاضر بأن الاغراء الذي لايقاوم للعبث مع الهة غريبة

اصعب من ان نتعاطف معه. وفي رأيي الساذج اجد انه من السهل جدا الالتزام بعبارة "لايكن لك اله غيري" : هذا سهل, ربما تفكر, مقارنة ب" لاتشتهي امرأة جارك". او حمارها (او ثورها). وبرغم ذلك فخلال العهد القديم ,وبنفس الطريقة المتوقعة في مهزلة غرفة النوم, كان على الرب ان يدير ظهره لبرهة ,حتى يبدأ ابناء اسرائبل بعبادة بعل, او صورة محفورة اخرى او , بصورة مفجعة, العجل الذهبي ...

ان موسى,اكثر من ابراهيم, يمكن اعتباره المثال لاتباع الديانات التوحيدة الثلاث. ربما يكون ابراهيم الاب الاول لتلك الديانات. ولكن من يمكن دعوته بالملقن الاول لتلك الديانات هو موسى. وفي حادثة العجل الذهبي , كان موسى في طريقه لاعلى جبل سيناء,يناجي ربه ويأخذ منه الالواح المنقوشة من قبله. والناس في الاسفل (يتألمون من الجوع لدرجة لايمكنهم معها لمس الجبل) لم يضيعوا الوقت :

"عندما رأي الناس ان موسى تأخر في النزول من الجبل, جمعوا شتاتهم وقالوا لهارون ,
هيا, اجعل لنا الهة, لتعمل في صالحنا كما فعلت مع موسى, الرجل الذي اتى بنا لهنا
واخرجنا من مصر, ولانعلم ماحصل معه (سفر الخروج1 :32) "

هارون امر الجميع بأن يخرجوا ما لديهم من ذهب, اذابه وصنع منه العجل الذهبي, ولذلك الاله المخترع بنى مذبحا حتى يبدأ الناس بالتضحية من اجله .حسنا, كان عليهم ان يعرفوا عاقبة العبث مع الرب بهذا الشك. ربما انه كان في اعلى الجبل , ولكن بالرغم من ذلك,فهو كلي المعرفة ولم يضيع اي وقت في اعلام موسى بأنه المنفذ لاوامره. وموسى سارع بالنزول من الجبل, حاملا الالواح الحجرية التي كتب عليها الله الوصايا العشر. وعند وصوله رأي العجل الذهبي وغضب لدرجة انه اوقع الالواح من يده وتحطمت (الله اعطاه الواحا بديلة لاحقا, وبذلك رجعت الامور لنصابها). امسك موسى بالعجل الذهبي واحرقه, وحوله لبودرة, وخلطها بالماء وارغم الناس على ابتلاعه .ثم قال للجميع في عشيرة ليفي لان يستلوا سيوفهم ويقتلوا اكبر عدد ممكن من الناس .ووصل العدد لحوالي ثلاثة الاف, وربما يحق لنا ان نأمل بأن ذلك كاف لتخفيف زعل الاله الغيور. لكن لا, لم ينته الله بعد. ففي الاية الاخيرة من هذا الفصل المرعب كانت الضربة الاخيرة بإرسال طاعون على من بقي من الناس"لانهم صنعوا العجل, الذي صنعه هارون".

وكتاب سفر العدد يخبرنا كيف الهم الناس موسى بأن يهاجم الميديانايت. كان علي جيشه ان يذبح كل الرجال, ويحرق كل مدن الميديانايت, ولكنهم لم يقتلوا النساء والاطفال. وتلك الرحمة التي مارسها الجنود اغضبت موسى, واعطى اوامره بقتل الصبيان جميعهم ,وكذلك كل الاناث الغير عذراوات. "ولكن كل النساء الصغار ,اللاتي لم يعرفن رجلا بعد بالنوم معه, ابقوهم على قيد الحياة لانفسكم"(سفر العدد 1:18) لا.. لم يكن موسى مثالا عظيما يحتذى بالنسبة للاخلاق العصرية .

في الوقت الحاضر عندما يحاول المتدينون الكتابة عن الموضوع وارفاق معنى رمزي او مجازي فإن ذلك المعنى يأخذ الاتجاه الخاطئ. الميدياناتيين المساكين, بحسب ما نستطيع قوله من الانجيل, كانو ضحية مذبحة في عقر دارهم. وبالرغم من ذلك يعيش اسمهم في العلم المسيحي فقط في تلك الترنيمة المسيحية (الذي لازال استطيع ترنيمه بلحنين مختلفين بعد خمسين عاما) و التي تدعو المؤمنين للهجوم الكامل.

يا مسيحيين انظروا
على الارض المقدسة
كيف يجول فرسان الميادينيين؟
يامسيحيين قوموا واضربوهم
واجعلوا ربحهم خسارة
اضربوهم لاستحقاقهم
ليبقى الى الابد حكم الصليب المقدس

للاسف, الميايدينون , المفترى عليهم والمذبوحين, يذكرون فقط كرمز شعري عن الشر العالمي في احد ترانيم النصر .

الاله المحلي بعل يبدوا انه كان دائم الاغراء للعباد الفالتين. وفي الارقام, الفصل 25, اغرت امرأة الكثيرين من بني اسرائيل ان يضحوا لبعل. وردة فعل الرب كانت تشخيصا للغضب. امر موسى "خذ رؤوس جميع الناس وعلقها للرب في الشمس, حتى يتوجه غضب الله الكبير في اتجاه اخر وليس في اتجاه ارض اسرائيل". ولااحد يستطيع الا ان يتعجب على وجهة النظر المتشددة نحو ذنب مغازلة احد الاله المحليين. وبالنسبة لحسنا العصري بالقيم والعدالة تبدوا تلك الامور

لنا ابسط كثيرا من ,لنقل مثلا, تقديم ابنتك لاغتصاب جماعي. وهذا مثال اخر على عدم التواصل بين الكتاب المقدس والاخلاق العصرية (من المغري هن القول: الحضارية). وبالتأكيد, ذلك يفهم بسهولة باستعمال نظرية الميمات, والمواضيع التي تحتاجها الالهة لتستمر في الوجود في مجموعة الميمات .

ان المهزلة التراجيدية لغيرة الاله المهووس من الالهة الاخرى تتكرر خلال العهد القديم .انها الدافع الاول للوصايا العشرة (التي كتبت على الالواح التي كسرها موسى: الخروج , 20 التثنية5) ,وتظهر بوضوح اكبر (وبشكل مختلف) بالوصايا البديلة التي قدمها الله لتحل محل الالواح المكسورة(الخروج 34) .ووفاء بوعده بطرد العموريين والكنعانيين والحثيين والفرزّيين والحوّيين واليبوسيين من الشعوب من ارضهم, يبدأ الله بشرح الاسباب : الالهة المنافسة . !

"عليكم تحطيم مذابحهم, وتكسير صورهم, وقطع اشجار بساتينهم, لان من الممنوع عبادة اله اخر: لانك لاتسجد لاله اخر لان الرب اسمه غيورر, هو اله غيور, احذر من ان تقطع عهدا مع سكان الارض التي انت ات فيزنون وراء الهتهم ويذبحون لالهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم وتأخذ من بناتهم لبيك, فتزني بناتهم وراء الهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء الهتهن. لاتضع لنفسك الهة مسبوكة (الخروج17-13 :34) ".

اه .بالطبع, بالطبع, لقد تغير الزمن, وليس هناك من رؤساء رجال الدين(بإستثناء ماشابه طالبان و اشباههم من المسيحيين الامريكان) من يفكر بنفس طريقة موسى. ولكن تلك هي النقطة التي اريد ان اركز عليها. كل اما اريد ان ابنيه هنا هو بأن الاخلاقيات الحديثة ,مهما كان مصدرها, ليست من الكتب المقدسة. لايمكن للمتدينين التملص هنا بالادعاء بأن الدين يمدهم بالطريقة التي تجعلهم يتعرفون على ما هو جيد وما هو سئ – كمصدر رفيع غير متوفر للملحدين. لايستطيعون التملص ولن تفيدهم خدعهم المفضلة عن تفسير الكتاب بشكل "رمزي" عوضا عن حرفي. ماهي المعايير التي تجعلك تقرر ما هي العبارة الرمزية وماهي الحرفية؟

ان تصفية الشعوب التي بدأت في عهد موسى اثمرت دمويتها في كتاب يوشع, كتاب ملحوظ في مذابحه المتعطشة للدم والخوف من الغرباء الذين يتوجب ذبحهم. كما تقول الاغنية البهيجة, " يوشع وفي معركة اريحا, اهتزت الحيطان ووقعت.. ليس هناك احد مثل يوشع عند الاله, في معركة اريحا". يوشع الكبير لم يسترح حتى دمر اريحا بالكامل , رجالها ونسائها, المسن والطفل, الثور والنعجة والحمار, على حد سيفه" (يوشع 6:21)

ومرة اخرى ,يعترض رجال الدين, ذلك لم يحدث, حسنا, القصة تقول بأن الحيطان تهدمت من اصوات الرجال يزعقون وينفخون النفير, بالطبع لم يحدث ذلك, ولكن ليس ذلك ما هو مهم في الموضوع. النقطة هنا هي ان, صح ام خطأ, الكتاب المقدس يفرض علينا بإعتباره مصدر الاخلاق. وقصة يوشع وتدميره لاريحا, واحتلال ارض الميعاد بشكل عام, لايمكن تمييزها عن غزو هتلر لبولونيا, او مذبحة صدام حسين بالاكراد والعرب. ربما يكون الكتاب المقدس عمل شاعري وخيالي, ولكنه ليس ذلك الكتاب الذي يجب ان تدرسه لاطفالك ليستقوا منه اخلاقياتهم. وهنا اريد الذكر بأن قصة يوشع كانت موضوع تجربة مثيرة للاهتمام في اخلاقيات الطفل, والتي سنناقشها لاحقا في هذا الفصل .

وعلى فكرة, ارجو الا تظن, بان الشخصية الالهية في تلك القصة كان لديها اي اعتراض على المذبح والتدمير الذان رافقا احتلال الارض الموعودة. على العكس, فأوامره على سبيل المثال في سفر الخروج كانت مفصلة بعدم الرحمة. لقد اوضح الفروق بين الاناس الذين يعيشون على الارض الموعودة, واولئك الذين يعيشون بعيدا عنها, والذين يجب ان يستسلموا بهدوء. وفي حال رفضهم, فيجب قتل كل الرجال واخذ كل النساء للانجاب .وعلى العكس من ذلك الحكم الذي يبدوا بالمقارنة انسانيا, لننظر لما ينتظر اؤلئك المتعوسين بشكل كاف ليكونوا سكان الارض الموعودة: " ولكن في تلك المدن التي يسكنها هؤلاء, والتي يورثكم الرب اياها, يجب عدم الحفاظ على اي شئ يتنفس: بل يجب عليكم تدميره: الحثيين والاراميين والكنعانيين ...... لان الرب قد امركم بذلك"

هل يعرف هؤلاء, الذين يرشحون الكتاب المقدس كملهم للاخلاق , ما هو مكتوب فيه؟ التهم التالية عقوبتها القتل, كما ورد في سفر اللاويين: سب الاهل, الزنا, ممارسة الجنس مع زوجة الاب او الكنة, المثلية الجنسية, الزواج من امرأة وابنتها, ممارسة الجنس من البهائم (وزيادة بالملح على الجرح, البهيمة المسكينة يجب قتلها ايضا). ويجب اعدامك ايضا, بالطبع, كعقوبة للعمل يوم السبت: النقطة تؤكد نفسها مرة تلو اخرى من خلال العهد القديم. وفي كتاب موسى الرابع يواجه بنو اسرائيل شخصا يجمع الحطب في الغابة في اليوم المحرم. اوقفوه وسألوا الله ما يفعلون به. وكما تبين, لم يكن الله في مزاج لتقبل انصاف الحلول في ذلك اليوم." وقال الاله لموسى, يجب بالتأكيد قتل ذلك الرجل: كل الجموع يجب ان ترجمه بالحجارة وبدون حماية. واتت به الجموع بدون شئ يحميه ,ورموه بالحجارة, ومات" . هل كان لدى جامع

الحطب المسالم زوجة واطفال ينعوه بحزن؟ هل نشج من الخوف عندما طارت اول حجرة, وهل صرخ من الالم عدما اصطدمت برأسه؟ ما يصدمني في يومنا هذا في قصص كهذه ليس انها حدثت بالفعل .فربما لم تحدث. ما يجعلني فاغر الفم هو ان بعض الناس يظنون ان عليهم ان يبنوا حياتهم ويتمثلون يهوه كنموذج يحتذى بهديه – والاسوأ من ذلك, بأن عليهم ان يحاولوا ان يفرضوا ذلك الشر الاخلاقي (بغض النظر عن كونه واقعي ام خيالي) على الاخرين منا .

إن القوه السياسية للوصايا العشرة في امريكا هي مما يؤسف له بشكل خاص في تلك الجمهورية العظيمة ,والتي سنت قوانينها قبل اي شئ اخر من قبل رجال متنورين وعلمانيين بشكل كامل. ولو اخذنا الوصايا العشر بشكل جدي, لاعتبرنا عبادة الهة اخرى ونحت صور لها كذنوب من الدرجة الاولى والثانية. وعوضا عن استنكار عمل طالبان التخريبي, الذي فجر بالديناميت تمثال بوذا الباميانى في جبال افغانستان, يجب علينا ابدا ايات التقدير لتقواهم المستقيمة. وما نفكر بأنه عمل تخريبي كان بالتأكيد مدفوعا من شعور ديني صادق الحماس. وما يؤكد لنا ذلك هو القصة الغريبة التي كانت قائدها صحيفة "الاندبيندنت" في لندن في عددها بتاريخ 6 اب .2005 وعلى صحيفتها الاولى وبالخط العريض كان العنوان, " تدمير مكة", وكتبت الاندبيندنت :

"مكة التاريخية, مهد الاسلام, اصبحت تحت هجوم لم يسبق له مثيل من قبل الاتقياء المتدينين. كل التاريخ الغني والمتعدد الاوجه لتلك المدينة المقدسة ذهب ... والان تواجه المدينة التي ولد بها النبي محمد الجرافات, وبالتغاضي التام من قبل الحكومة الدينية في السعودية والتي يدفعها تفسيرها للاسلام لمحو كل الارث التاريخي... الدافع خلف ذلك الدمار هو خوف الوهابيين المتطرفين من ان مكانا بتلك المكانة التاريخية بإمكانه ان يكون سببا في عبادة الاصنام والاشرك بالله. وعبادة الهة متعددة ومتساوية. وممارسة الشرك في السعودية لايزال يعتبر جريمة عقوبتها قطع الرأس" .

لااظن بأن هناك ملحدا في العالم يمكن ان يفكر بأن يهدم مكة بالجرافة او شارتر يورك او نوتردام او تنين تشو او معبد كيوتو وبالطبع ايضا تمثال بوذا البامياني. وكما قال العالم الامريكي الحائز على جائزة نوبل ستيفن واينبرغ" الدين اهانة لكرامة البشر, معه وبدونه ,هناك طيبون يفعلون الخير وسيئون يفعلون الشر, ولكن لتجعل الطيبين يفعلون الشر فإنك تحتاج للدين" . بليز باسكال (صاحب الرهان) قال شيئا مشابها:" لايقترف الانسان عملا شريرا بسرور وبشكل كامل الا اذا فعلها بسبب قناعة دينية".

هدفي الاساسي هنا ليس ان اعرض بأنه ليس علينا ان نأخذ اخلاقنا من الكتب المقدسة (رغم ان ذلك هو رأيي الشخصي). ان هدفي هو توضيح الواقع باننا (وهذا يتضمن الكثيرين من المتدينين) في الحقيقة لانأخذ اخلاقنا من الكتب المقدسة. لو فعلنا, لحفظنا يوم السبت وفكرنا بأنه من المنطقي والعادي اعدام اي شخص لايفعل ذلك. كنا رجمنا اي عروس لاتستطيع اثبات بأنها عذراء ليلة دخلتها, وذلك عندما يعلن الزوج عدم قناعته بذلك. لاعدمنا الاطفال العاقين. و و و .. ولكن انتظر. ربما انن لست عادلا هنا .والمسيحيون اللطيفون سيعترضون على هذا الفصل: الكل يعرف بأن العهد القديم ليس لطيفا. والعهد الجديد الذي نزل على المسيح اصلح الخطأ وجعل كل شئ على ما يرام . .اليس كذلك؟

هل العهد الجديد افضل بأي حال من الاحوال؟

حسنا. لايمكن ان ننفي انه من ناحية الاخلاق, يعتبر المسيح تطورا عظيما بالنسبة للغول القاسي من العهد القديم. بالتأكيد, المسيح, على فرض انه وجد (او ايا كان من كتب العهد الجديد اذا لم يوجد المسيح) كان بالتأكيد احد ا اعظم المبتكرين الاخلاقيين على مدى العصور. الخطبة من رأس الجبل سبقت عصرها بكثير. و"ادارة الخد الاخر" سبقت غاندي ومارتن لوثر كينغ بألفي عام. وليس عبثا انني كتبت مقالا بعنوان "ملحدين لنصرة المسيح" (وبعد ذلك قدم العنوان مطبوعا على تي شيرت).

ولكن تفوق المسيح الاخلاقي هو ما يدعم النقطة التي ادعو لها. المسيح لم يأخذ اخلاقياته من الكتاب المقدس الذي تربى عليه. بل انه ابتعد عنه كثيرا. كمثال عندما اهمل موضوع السبت. "السبت صنع من اجل الانسان ولم يصنع الانسان من اجل السبت", تلك المقولة اصبحت مثلا متداولا. وعندما تكون رسالته الاساسية هي انه علينا الا نأخذ اخلاقياتنا من الكتاب المقدس, اعتقد انه علينا ان نقلده ميدالية على تلك الرسالة .

اما بالنسبة لموضوع العلاقات العائلية, فإن علينا ان نعترف بتقصيره حيالها, لدرجة الفظاظة, حتى مع امه ذاتها, وشجع تلاميذه ان يتركوا عائلاتهم ويتبعوه. "لو ان رجلا اتي الي ولايكره اباه, وامه, وزوجته, واطفاله, واخوته واخواته, وحتى حياته نفسها, لايمكنه ان يكون تلميذي". الكوميدية الامريكية جوليا سويني عبرت عن حيرتها من خلال عرضها المسرحي,دعنا نترك الاله . اليس هذا ما يفعله الطائفيون؟ يجعلونك ترفض عائلتك ليغرسوا افكارهم في رأسك؟

برغم قيمه العائلية الخداعة, كانت تعليمات المسيح الاخلاقية – على الاقل بالمقارنة مع الاخلاقيات الكارثية للعهد القديم – مثيرة للاعجاب: ولكن هناك تعليمات اخرى في العهد الجديد وعلى الطيبين ان يتبعوها. وهنا انوه بالاخص للفكرة المركزية للمسيحية " غفران الخطيئة الاصلية" . تلك التعليمات التي تشكل لب العهد الجديد, تقارب بأخلاقياتها البغيضة قصة ابراهيم وقراره بشي ابنه اسحق, والتي تشابه – وليس ذلك صدفة, كما يوضح غيزا فيرميس في كتابه الاوجه المختلفة للمسيح . الخطيئة الاصلية بحد ذاتها اتت من العهد القديم ومن اسطورة ادم وحواء ووارتكابهم الذنب باكلهم من الفاكهة المحرمة - تبدوا بسيطة لتستحق بعض التوبيخ. ولكن الطبيعة الرمزية للفاكهة (المعرفة للخير والشر, والتي اصبحت عمليا المعرفة بأنهما كانا عاريين) كانت كافية لتحويل تلك السرقة الطائشة لتصبح اما وابا لكل ذنب. هم وكل نسلهم حرموا للابد من جنات عدن, ومنعت عنهم الحياة الابدية, ولعنوا لاجيال من العمل الشاق, في الحقول والم الولادة على التوالي .

كل ذلك, كل التخريب: هو الحال في العهد القديم. العهد الجديد اضاف ظلما اخر, وزاد عليه السادومازوشية العنيفة التي لاتقارن حتى بالعهد القديم. ان من المثير للتساؤل ,عندما تمعن التفكير, ان الدين يتبنى اداة للتعذيب والاعدام كرمز مقدس, وتلبس غالبا حول العنق. ليني بروس لديه الحق في الاستهزاء عندما قال:" لو اعدم المسيح قبل عشرين عاما. سيلبس اطفال المدارس الكاثوليكية كراسي اعدام كهربائية صغيرة حول اعناقهم عوضا عن الصليب". ولكن النظرية الدينية والعقابية التي بنيت عليها كانت حتى اسوأ. ذنب ادم وحواء يبدو وكأنه ورث عبر سلالة الذكور – مرورا عبر الحيوانات المنوية كما ورد عن القديس اغوستين. ما تلك الفلسفة الاخلاقية التي تلعن كل طفل, حتى قبل ان يولد, ليرث ذنب سلف بعيد له؟ اغوستين, بالمناسبة, الذي اعتبر نفسه نوعا من السلطة في موضوع الذنوب, هو الذي اوجد التعبير "الخطيئة الاصلية". وقبله كانت معروفة ب"خطيئة الاسلاف". التعديلات و النقاش يلخصان بالنسبة لي من انشغال علماء الدين المسيحي المريض بمسألة الذنب. كان بوسعهم تكريس الصفحات للتسبيح للسماء المرصعة بالنجوم, او الجبال بغاباتها الخضراء, البحار وجوقات المساء. تلك الامور اشير اليها في المناسبات, ولكن المسيحية ركزت بشكل كبير على الذنب الذنب الذنب الذنب .ما اتفه ذلك ليكون شغل حياتك الشاغل. سام هاريس عبر عن ذلك بشكل رائع في كتابه رسالة الى وطن مسيحي :" شغلكم الشاغل هو القلق بسبب ان خالق الكون لايقر بالاشياء التي يؤديها الناس وهم عراة. ذلك التزمت هو مساهمتكم اليومية تجاه البؤس الانساني ".

ولكن الان. الاله السادومازوشي. يتجلى في هيئة انسان, المسيح, ليتعذب ويعدم كتفكير عن خطيئة ادم المتوارثة. ومنذ ان نشر بولص تعاليمه البغيضة, بدأت عبادة المسيح كشفيع لكل خطايانا. وليس فقط لخطيئة ادم في الماضي: وكذلك الخطايا المستقبلية ,ولايهم ان كان سكان المستقبل سيفعلونها ام لا .

ومن جانب اخر, خطرت للبعض , ومنهم روبرت غرافيس في قصته الملحمية الملك المسيح, بان المسكين يهوذا الاسخريوطي قد حصل على سمعة غير عادلة تاريخيا, نظرا لان "خيانته" كانت ضرورية للمخطط الكوني. ويمكن قول نفس الشئ عن قتلة المسيح .عندما يريد المسيح ان يخان ويعدم, لاجل ان يخلصنا جميعا, فهل من العدل ان يحمل هؤلاء المخلصين البغضاء ليهوذا عبر التاريخ؟ لقد اشرت الى اللائحة الطويلة عن الاناجيل الغير قانونية. واحدها يعتبر الانجيل الضائع الذي كتبه يهوذا وقد ترجم حديثا وبالتالي اصبحت له دعاية. ان ملابسات اكتشافه لازالت قيد التمحيص, ولكن على ما يبدوا انه ظهر في مصر في الستينات او السبعينات. وهو مخطوط باللغة القبطية من 62 صفحة من ورق البردى وتاريخة الكربوني يعود لـــ 300 ميلادية وربما كان اصله من مخطوط ابكر باللغة اليونانية. مهما كان الكاتب فإن المخطوط هو وجهة نظر يهوذا الاسخريوطي ويدعي بأن المسيح قد طلب منه ان يلعب هذا الدور. كل شئ كان جزءا من الخطة لصلب الميسح حتى يستطيع تخليص الانسانية. مهما كان ذلك التلقين بغيضا, فإنه يبدوا كثر كترتيب للكراهية التي حصل عليها يهوذا من ذلك الحين .

لقد وصفت التكفير عن الذنب, الذي هو لب المسيحية, كشر سادومازوشي وبغيض .وعلينا ان ننبذه كنباح مجنون, ولكن وجوده في كل مكان والالفة التي صارت لنا معه قد بلدت موضوعيتنا. لو اراد الله ان يغفر ذنوبنا, لماذا لايغفرهم وحسب, بدون ان يتعذب ويعدم بالمقابل – وكنتيجة لتلك الحادثة يسبب اللعنة للاجيال القادمة من اليهود ليقاسوا المذابح المدبرة والاضطهاد لانهم "قتلة المسيح": هل انتقل الذنب خلال الحيوانات المنوية ايضا؟

بولص, كما يوضح لنا العالم اليهودي غيزا فيرم, كان منقوعا بالنظريات الدينية اليهودية القديمة ومبادئها عن انه لاغفران بدون دم. بالتأكيد, ففي رسالته للاحبار (22:9)قال ذلك. ودارس الاخلاق التقدميون في ايامنا يجدون صعوبة في الدفاع عناي من انواع الانتقام في نظرية العقاب, ناهيك عن نظرية كبش الفداء- عن اعدام برئ للغفران للمذنب. على اي حال (لايملك المرء الا ان يتساءل), من ذا الذي اراد الله ان يثير الانطباع لديه؟ ربما هو نفسه – الحاكم والمحكوم وضحية الاعدام. والملخص, ادم, الخائن المفترض الذي اقترف الخطيئة الاصلية, لم يوجد على الاطلاق اولا: حقيقة محيرة لم تكن معروفة لبولص ولكن المفترض انها معروفة من الاله الكلي المعرفة (وللمسيح, لو كنت تؤمن بأنه الاله؟) – وذلك يهز بعمق كل اسس قصة التعذيب التافهة ونظريتها. اوه , ولكن بالطبع, ان قصة ادم وحواء رمزية فقط , اليست كذلك؟ رمزية؟ حسنا. لاجل ان يثير المسيح الانطباع المؤثر في نفسه, فقد عذب واعدم نفسه, في عقوبة مريعة لاجل ذنب رمزي ارتكبه فرد لم يوجد اصلا؟ وكما قلت, نباح مجنون, وعنف رهيب .

قبل ان اترك الكتاب المقدس, احتاج لان انبه تحديدا لاحد الطرق الغير مستساغة في تعليماته. من النادر ان ينتبه المسيحيون للقيم الاخلاقية التي يروج لها العهدان القديم والجديد وانها بالاصل مخصصة للعمل في المجتمعات المغلقة. "احبب جارك" لم تعني ما نظن انها تعنيه اليوم. بل عنت "احبب اليهودي الاخر". تلك النقطة ركز عليها بشكل دقيق الطبيب الامريكي وعالم التطور الانساني جون هارتونغ. لقد كتب مقالا هاملا عن التطور وتاريخ الكتاب المقدس في المجتمعات المغلقة, مركزا بشدة على الطرف الاخر من الصورة, العنف تجاه الجماعات الخارجية .

حب قريبك

ان الكوميديا السوداء التي اتى بها جون هارتونغ واضحة من مطلعها,"عندما يحكي عن مبادرة مسيحي من جنوب الولايات المتحدة المعروفين بالميثوديون بتقدير عدد سكان الاباما الذين سيذهبون لجهنم. وكما روت صحيفة نيويورك تايمز ونيوزداي كان العدد النهائي 1,86 ,ميلون, وذلك بإستعمال معادلة سرية للاحتمالات وفيها سيخلص الجنوبيون الميثوديون بنسبة اكبر من الروم الكاثوليكيين , بينما اي شخص لاينتمي لجمهور الكنيسة يحتسب من بين الضائعين". تلك الافكار الغير طبيعية المتعجرفة نراها اليوم في عدد من صفحات الانترنت الداعية لموضوع "القيامة", حيث يعتبر الكاتب نفسه من بين الذين سيتبخرون للجنة بشكل مؤكد عندما تأتي نهاية الايام. اليكم مثالا نموذجيا, من كاتب "جاهز للقيامة", احد امثلة المنافقين المقرفين بذلك الصدد:" عندما تأتي القيامة ,واختفي كنتيجة لذلك, سيكون من الضروري ان يدعم قديسو المحنة صفحة الانترنت هذه". (ربما لاتعرف معنى قديسو المحنة هنا.. لاتزعج نفسك فلديك ما هو اهم من ذلك).

ما استلهمه هارتونغ من الانجيل يقترح بانه ليست هناك اي قواعد يمكن ان تؤدي لذلك التعجرف بين المسيحيين. المسيح حدد المجموعة التي سينوبها الخلاص لتكون من اليهود, وذلك بإتباع تقاليد العهد القديم, والذي كان كل ما يعرفه . يوضح هارتونغ بأن "لاتقتل" لم يقصد بها ابدا ما نظن انها تعنيه الان. بل انها عنت بخصوصية, لاتقتل اليهود. وكل تلك الوصايا التي تشير الى " الجيران" مخصصة ايضا. "الجيران" تعني الرفاق اليهود. ابن ميمون, العالم المحترم من القرن الثاني عشر والطبيب والراباي, يشرح معنى "لاتقتل" كالتالي: " عندما يقتل احد ما اسرائيليا, فهو يخالف الوصايا, لان الكتاب المقدس يقول , لاتقتل. وعندما يقتل احد شخصا بإرادته وبوجود شهود, فيجب اعدامه بالسيف. ولانحتاج للقول بأننا لانحتاج لاعدام من يقتل وثنيا. "لانحتاج للقول ."!!

وينقل هارتونغ اقولا من السانهدرين (المحكمة اليهودية العليا, المرؤوسة من قبل الكاهن الاعلى) وبدون جدوى ايضا, لتبرئة رجل من المفترض انه قتل اسرائيليا بالخطأ بينما كان يحاول قتل حيوان او وثني. ذلك اللغز الاخلاقي المحير يثير نقطة لطيفة. ماذا لو اننا رمينا احجارا على تسعة وثنيين واسرائيليا واحدا ولسوء الحظ قتلنا الاسرائيلي؟ . . همممم.. صعبة !. ولكن الجواب جهز."لامسؤولية تجاه ذلك كون الغالبية كانت من الوثنيين" .

يتسعمل هارتونغ العديد من العبارات الانجيلية كما فعلت انا في هذا الفصل, عن احتلال الارض الموعودة من قبل موسى, يوشع والحكماء. كنت حريصا على الايضاح بأن المتدينين لم يعودوا يفكرون بطريقة الكتاب المقدس. وبالنسبة لي فإن ذلك يبين بأن اخلاقنا, بغض النظر عن كوننا متدينين ام لا, تأتي من مصدر اخر, بغض النظر عن التدين او عدمه. ولكن هارتونغ يحكي لنا عن دراسة مرعبة قام بها عالم النفس الاسرائيلي جورج تامارين. لقد اعطى تامارين لاكثر من الف طالب اعمارهم بين الثامنة والرابعة عشر من اسرائيل, نصا عن معركة اريحا من كتاب يوشع .

قال يوشع,: اصرخوا, لان الاله قد اعطانا تلك المدينة. وهي وكل من فيها يجب ان يكون مقدما للاله لتحطيمه .. ولكن الفضة والذهب, واواني البرونز والحديد, هي مقدسة للاله :ويجب ان تذهب لاملاكه"... وبعدها دمروا المدينة بما فيها, رجالا ونساء, صغارا وكبارا ,ثيران, اغنام,حمير .. بحد السيف .. واحرقوا المدينة بالنار,بكل ما فيها: فقط الفضة والذهب واواني البرونز والحديد وضعت في خزينة بيت الله .

تامارين سأل التلاميذ سؤالا اخلاقيا بسيطا:" هل تقر ان يوشع والاسرائيليين تصرفوا بشكل صحيح ام لا؟" والخيارات التي كانت لديهم. (ا). اقرار بشكل كامل. (ب) اقرار جزئي . (ت) رفض بشكل كامل. النتائج كانت واضحة 66 : بالمئة اقرار بشكل كامل. و 26نفي بشكل كامل. و 8 بالمئة اقرار جزئي . اليكم ثلاثة امثلة من المقرين بشكل كامل :

برأيي ان يوشع وابناء اسرائيل فعلوا الخير, واليكم السبب: الله وعدهم بالارض ,واعطاهم الاذن بإحتلالها. ولو لم يفعلوا ما فعلوه ولم يقتلوا احدا فلربما كان هناك خطر من احتمال بأن يتفرق ابناء اسرائيل بين الغوييم .

برأيي ان يوشع على حق فيما فعل, السبب الاول هو ان الله امره بالقضاء على الاخرين حتى يستطيع بنو اسرائيل ان يندمجوا مع الاخرين ويتعلموا منهم العادات السيئة .

يوشع فعل شيئا جيدا لان سكان تلك المنطقة من دين مختلف, وعندما قتلهم يوشع محى اديانهم من الارض .

في كل حالة من تلك الحالات كان تبرير المذبحة دينيا. حتى في حالى الرفض بشكل كامل (ت), وفي بعض الحالات, لامور متعلقة بالدين. احد الفتيات مثلا, رفضت احتلال يوشع لاريحا بسبب ان,احتلالها يستدعي دخولها :

"اظن ان ذلك سيئا, لان العرب نجاسة وعندما يدخل احد ما ارض نجسة سيصبح ايضا نجس وملعون مثلهم؟

واثنان اخران من الذين رفضوا بشكل كامل, بسبب ان يوشع دمر كل شئ, حتى الحيوانات والاملاك, بدلا من ان يضعها في خدمة الاسرائيللن :

اظن ان يوشع لم يتصرف بشكل جيد, لانهم كان بإستطاعتهم ان يستخدموا الحيوانات .

اظن ان يوشع لم يتصرف بشكل جيد, لانه كان يستطيع ان يترك املاك اريحا بحالها: لو لم يدمرها لاصبحت للاسرائيلين .

ومرة اخرى. ابن ميمون , الذي غالبا ما يستشهد بحكمته العلمية, نرى موقفه بدون شك في امر كهذا:" انها وصية ايجابية تدمير الشعوب السبعة, لانه قال: عليكم تدميرهم بالكامل. ولو ترك اي منهم حيا رغم استطاعة قتله لكان ذلك مخالفة للوصية, لانها تقول:" لاتتركوا اي شئ يتنفس على قيد الحياة" .

وعلى عكس ابن ميمون, فإن الاطفال في تجربة تاميران صغار وابرياء. وربما كانت وجهة النظر الوحشية تلك من اهاليهم, او الثقافة في الوسط المحيط الذي تربوا فيه .وعلى ما اظن فإن الاطفال في فلسطين قد تربوا بطريقة مماثلة في البلد الذي تشتته الحروب, وسيعطون اراء مماثلة ولكن في الاتجاه المعاكس. تلك الاعتبارات تملؤني باليأس. يبدوا انها تستعرض الطاقة الهائلة للدين, وبالاخص التربية الدينية للاطفال ,لتقسيم الناس وبناء العداوات التاريخية والثأر الوراثي. لااستطيع تجاهل ان 2 من اصل 3 ملاحظات في تجربة تاميران نوهت على الشر المصاحب للمخالطة, بينما الثلث الاخر ركز على اهمية قتل الناس لمحي دياناتهم .

تاميران اجرى تجربة مقارنة مثيرة. اعطي نفس النص لمجموعة اخرى من اطفال اسرائيليين عددهم 168 و الذين حصلوا على نفس الايات من كتاب يوشع, ولكن استبدل اسمع يوشع بإسم "الجنرال لين" و"اسرائيل" استبدلت ب"مملكة الصين قبل 3000 عام" . وهنا اعطت التجربة نتائج معاكسة 7 . بالمئة من الطلاب وافقوا على تصرف الجنرال لين, و 75بالمئة رفضواه .وبتعبير اخر, عندما سحبنا ولائهم لليهودية من الحسابات, وافقت الغالبية على المبدأ الاخلاقي الذي يتفق عليه معظم البشر في الوقت الحاضر. تصرف يوشع كان مذبحة بربرية. ولكن كل شئ يبدوا مختلفا عند النظر اليه من وجهة نظر الدين. والفرق يبدأ في مراحل مبكره من الحياة. الدين هو الفرق بين الاطفال الذين يلعنون المذبحة والذين يباركونها .

في فصل اخر من بحث هارتونغ, ينتقل للعهد الجديد. ولاعطاء ملخص عن البحث ,المسيح كان مكرسا لفكرة الجماعة الداخلية واخلاقياتها ومايتبعها من عنف تجاه الجماعات الخارجية التي كانت من الامور البديهية في العهد القديم. المسيح كان يهوديا مخلصا. ان بولص هو مخترع فكرة اخذ الاله اليهودي للوثنيين. هارتونغ يقول بصراحة لااجرؤ عليها."سيتقلب المسيح في قبره لو علم بأن بولص سيأخذ خطته ويعطيها للخنازير"

لقد حصل هارتونغ على بعض الفكاهة من كتاب الوحي, والذي هو بدون شك احد اكثر الكتب حيرة في الانجيل. من المفترض انه مكتوب من قبل يوحنا. وكما يصفه دليل كين للكتاب المقدس بشكل طريف, لو نظرنا لرسالته على انها يوحنا في الطنجرة فإن كتاب الوحي يعتبر يوحنا على الحمض. هارتونغ يلفت انتباهنا لجملتين في كتاب الوحي حيث يكون عدد هؤلاء الذين "يختمون" (بعض الطوائف , مثل شهود يهوه , يفسرون تلك الكلمة ب "يخلصون") محدودا ب 144000 شخصا. هارتونغ يركز على ان كلهم يجب ان يكونوا يهودا 12000 :من كل قبيلة من القبائل الاثني عشر. كين سميث يذهب لابعد من ذلك, مشيرا الى ان ال 144000 لا يتضمنون ايا من النساء مما يعني ربما بأنه ليس هناك نساء في الموضوع, وذلك شئ يجب ان نقبله .

هناك الكثير الكثير في دراسة هارتونغ المسلية. ومرة اخرى اوصي بقراءتها, وسألخص بعضها في العبارات التالية :

الكتاب المقدس مخطط للاخلاقيات في داخل المجموعة, مع تعليمات لذبح, واستعباد ماهو خارجها, والسيطرة على العالم. ولكن الكتاب المقدس ليس شريرا بقيمه واهدافه او حتى تعظيمه للقتل, والظلم, والاغتصاب. العديد من الاعمال القديمة فيها ما يشابه ذلك – الالياذة, القصص الايسلانديه, حكايات السوريين القديمة ومخطوطات المايا القديمة, امثلة لذلك. ولكن لااحد يدعو لافكار الالياذة كأساس للاخلاق. وهنا تكمن المشكلة. الكتاب المقدس ,يباع ويشرى, على انه الطريقة التي يجب على الناس ان يعيشوا حياتهم تبعا لها. والكتاب , على فكرة, هو اكثر الكتب مبيعا عبر التاريخ .

وخشية التفكير بأن الخصوصية محصورة فقط في اليهودية التقليدية فقط, اليكم هذا المقطع من نشيد كتبه ايزاك وات (1674-1748) الذي كتبه وفيه يشكر الله لانه ولد مسيحياً. :

الهي, انها رحمتك
وليس الصدفة. كما يظن الاخرون
ماجعلني اولد بعرق مسيحي
وليس وثنيا او يهوديا

مايحيرني ليس خصوصية الموضوع ولكن منطقه. بما ان العديدون ولدوا لاديان اخرى ليست مسيحية, فكيف قرر الله من هم الذين سيكونون سعداء المستقبل ليمنحوا تلك الولادة المفضله لديه؟ لماذا فضل ايزاك وات وهؤلاء الذين رأهم يغنون النشيد؟ على ايه حال, وقبل ان يخصب وات في رحم امه, ماذا كان وضع الفئة المفضلة؟ تلك امور محيرة, لكن ربما ليست محيرة كثيرا للعقول التي تربت على الدين. نشيد ايزاك وات يذكرنا بثلاث صلوات يومية من قبل ذكور اليهود الاثودوكسيين والمحافظين (وليس المجددين) والتي تتلى بالشكل التالي: " مبارك انت لانك خلقتني غير وثني, مبارك انت لانك لم تخلقني انثى, مبارك انت لانك لم تخلقني عبدا" .

الدين قوة للتفرقة وبدون شك, وذلك احد الاسباب الرئيسية التي تؤخذ عليه. ولكن يقال كثيرا وبحق بأن الحروب, والعداءات بين الجماعات الدينية او الطوائف, نادرا ما يكون في الواقع لاختلافات دينية. وعندما يقتل يقتل بروتستانتي كاثوليكيا, فهو لايقول في نفسه "خذ, ايها البائس اللقيط!" بل هو على الاغلب ينتقم لموت بروتستانتي اخر قتل على يد كاثوليكي, وربما في قصة ثأر عبر الاجيال. الدين هو لافتة للتمييز بين داخل الجماعة وخارجها, ليس بالضرورة اسوأ من لافتات اخرى كلون الجلد, اللغة, او فريق الكرة المفضل, ولكنها بشكل عام متوفرة عندما لاتتوفر اللافتات الاخرى .

نعم , بالتأكيد, ان مشاكل ايرلندا الشمالية سياسية. وهناك بالتأكيد ضغوط اقتصادية وسياسية من قبل فئة تجاه الاخرى, وذلك لقرون مضت. هناك شكاوى وظلم, وذلك ليس له علاقة بالدين. ماعدا ان – وذلك هام جدا ولااحد يبدوا منتبها لذلك – لو لم يكن هناك دين لما كانت هناك لافتات تفرق و تحدد من الذي يجب الضغط عليه ومن هو الظالم .والمشكلة الحقيقية في شمال ايرلندا هي تلك اللافتات التي توارثوها عبر الاجيال .الكاثوليكيين, الذين ذهب اباءهم واجدادهم للمدارس الكاثوليكية, يرسلون ابناءهم للمدارس الكاثوليكية. والبروتستانت يفعلون نفس الشئ. الاثنان لهما نفس لون الجلد ويتكلمون نفس اللغة, ويسرون بالاشياء نفسها, ولكن بالامكان اعتبارهم نوعا مختلفا من المخلوقات, عميقة جدا تلك

الفروق التاريخية. وبدون الدين, والمدارس المعزولة على اساس ديني, فلن يكون هناك تفرقة. بدأ من كوسوفو لفلسطين, من العراق للسودان ,ومن اولستر حتى القارة الهندية, لننظر بدقة لاي منطقة من العالم حيث توجد مشاكل وعداءات بين الجماعات المختلفة. لاستطيع ضمان ان يكون الدين هو اللافتة التي تحدد من هو ضمن المجموعة ومن هو خارجها ولكن الرهان على ذلك هو رهان لابأس به على الاطلاق .

في الهند وفي وقت التقسيم, قتل اكثر من مليون شخص بغارات دينية بين الهندوسيين والمسلمين (وتشرد اكثر من 15 مليون من منازلهم). لم يكن هناك اي فرق سوى الدين الذي حدد من الذي يجب قتله. وبالنتيجة, لم يكن هناك ما يفرقهم سوى الدين. سلمان رشدي تأثر كثيرا بنوبة دينية قاتلة حديثة في الهند عندما كتب مقالا بعنون "الدين, كما هو الحال دائما, هو السم في الدم الهندي". واليكم المقطع النهائي منها :

"ما الذي يجب احترامه في ذلك, او في اي من الجرائم الاخرى التي تحصل في العالم يوميا تحت اسم الدين؟ ما ابرع الدين , في انشاء الطواطم ونتائجها القاتلة, وما اكبر رغبتنا في ان نقتل من اجل ذلك! وعندما نفعل ذلك بشكل كاف فإن نتائج الافعال تلك لها تأثير يجعل عملها مرة اخرى اسهل. مشاكل الهند اصبحت مشاكل العالم. وماحدث فيها حدث بإسم الله. المشكلة اسمها الله" .

لا انكر بأن ميول البشرية القوية نحو الولاء للجماعة والعداوة لمن هم خارج الجماعة موجود حتى في غياب الدين. ان معجبي فريق كرة مثال صغير على تلك الظاهرة. وحتى معجبو الفرق المختلفة يمكن ان يقسموا بناء على الدين, كما هو الحال في غلاسكو رينجرز وغلاسكو سيلتيك. اللغة (كما هو حال البلجيكيين), العرق والقبيلة (بالاخص في افريقيا) يمكن ان تكون عوامل تقسيم. ولكن الدين يضخم ويقوي الاذى في تلك التقسيمات بثلاث طرق على الاقل :

- وصم الاطفال . الاطفال يوصفون بـــ "طفل كاثوليكي" او "طفل بروتستانتي" الخ. وذلك في عمرمبكر جدا, وبالتأكيد مبكر جدا ليكونوا على دراية بالتبعية لاي دين او حتى التفكير فيه (سأعود لذلك الموضوع في الفصل التاسع).
- فصل المدارس. يدرس الاطفال ,مرة اخرى, من عمر مبكر جدا, من قبل اعضاء من داخل المجموعة الدينية وبشكل منفصل عن الاطفال الاخرين التابعين لاهل ينتمون لدين اخر. ليس من المبالغة القول بأن المشاكل في ايرلندا الشمالية ستختفي لو الغي التدريس المنفصل .
- تحريم "الزواج للخارج"يقوي من شكيمة الثأر المتوارث بمنع الاختلاط بين الجهات المتعادية. ولو سمح بالزواج المختلط لخفت العداوات بشكل طبيعي .

قرية غلينام هي موطن ايرل انترم. وفي احد الايام التي لاتزال في الذاكرة, فعل ايرل ما لم يخطر على بال احد: لقد تزوج بكاثوليكية. وفورا اسدلت الستائر في كل منازل غلينام كنعوة. ان رعب "الزواج للخارج" منتشر ايضا بشكل كبير بين اليهود المتدينين. الكثيرون من اطفال اسرائيل الذين نوهت عنهم اعلاه نوهوا عن الاخطار المريعة الناتجة عن "الاندماج" في دفاعهم عن معركة يوشع في اريحا. وعندما يتزودج اناس من اديان مختلفة, يشار اليهم كنذير شؤم من الطرفين كون زواجهم "مختلطا" وسيكون هناك معارك على كيفية تربية الاطفال من ناحية العقيدة. وعندما كنت طفلا ولاازال احمل مشعل الكنيسة الانجيلية, اذكر اني صعقت عندما علمت بأنه عندما يتزوج كاثوليكي وانجيلي فإن الاطفال سيربون دائما على الكاثوليكية. كان بإمكاني ان افهم بسهولة لماذا يصر كاهن من اي طرف على تلك الشروط. وما لم استطع فهمه (وحتى الان) كان عدم التناظر. لماذا لم ينتقم الكهنة الانجيليون بوضع نفس الشروط بالمقلوب؟ اعتقدت ببساطة ان القسيس العجوز وابونا"بيتجامان" الطف واقل عدوانية من الاخرين .

علماء الاجتماع عملوا استفتاءات عن التناغم الديني(الزواج من نفس الدين) والمتخالف (الزواج من دين اخر). نورفال د. غلين, من جامعة تكساس في اوستن, جمع عددا من الدراسات حتى 1978 واجرى تحليلا عليها. واستنتج ان هناك ميلا عظيما للزواج من نفس الدين عند المسيحيين (البروتستانت يتزوج بروتستانت والكاثوليك كاثوليك الخ , وذلك يذهب لابعد من ان يكون لسبب العادي " لكونه ابن الجيران"), ولكن الظاهرة ملاحظة اكثر عند اليهود. من اصل 6021 ممن اجابوا على الاستفتاء ,كان هناك 140 ممن قالوا عن انفسهم انهم يهود و 85,7 بالمئة منهم متزوجين من يهود. وذلك اكبر بكثير من النسبة العشوائية التي نتوقعها في الزواج من نفس الدين. وبالطبع ليس بجديد على احد كيف يحاول اليهود منع "الزواج للخارج", وهذا الحرام يظهر نفسه في نكتة يهودية عن ام تحذر ابنائها من الشقراء التي تحاول الايقاع بهم. واليكم تلك التعليقات من الحاخامات الامريكيين .

- "انا ارفض تزويج مختلط الدين"
- "انا ازوجهما عندما يعلن الزوجان عزمهما على تربية الاطفال على اليهودية"
- "أنا اازوجهما لو وافق الزوجان على الاستشارة قبل الزواج"

الحاخامات الذين يوافقون على التزويج بوجود قسيس نادرين جدا , ومطلوبين جدا .حتى لو لم يكن الدين مؤذيا بأي شئ اخر, فإن ميله وتغذيته الحريصة على تفريق البشر وزرع وقيادة البشر للميل نحو ماهو "داخل المجموعة" وتجنب من هو خارجها سيكون كافيا لجعله اداة قوية للشر في العالم .

روح العصر الاخلاقية

بدأ هذا الفصل بالعرض بأننا لا- وحتى المتدينين منا – نبني اخلاقنا على الكتب المقدسة ,بغض النظر عن كيفية تخيلنا للموضوع. كيف نقرر, اذن, ماهو خطأ؟ وبغض النظر هن اجابتنا على هذا السؤال, فهناك اتفاق على ما نعتبره بالواقع صح او خطأ: اتفاق يفاجئنا بعموميته. ذاك الاتفاق ليس له صلة واضحة بالدين. ولكنه يمتد لمعظم المتدينين, وبغض النظر عما تفكيرهم بأن اخلاقهم اتت من الكتاب المقدس. بإستثناء امثال طالبان الافعاني او ما يساويهم من المسيحيين الامريكان, فإن الغالبية من البشر تصمت حيال ذاك الاتفاق الحر والعام عن مبدأ الاخلاق. ومعظمنا لايسبب معاناة للاخرين بدون سبب ,نؤمن بحرية الرأي حتى وإن كنا نعارض ما يقال: ندفع الضرائب, لانغش, ولانقتل ,ولانزني, ولانتصرف حيال الاخرين بغير ما نريد ان يتصرفوا حيالنا. بعض تلك المبادئ الحميدة موجودة بالكتب المقدسة, جنبا الى جنب مع الكثير مما لايريد اي انسان خير ان يتبعه, والكتاب المقدس لايعطي اي قواعد لتمييز المبادئ الجيدة من السيئة .

احدى الطرق للتعبير عن التزامنا بالاخلاق هي "الوصايا العشر الجدد". العديد من الافراد والمؤسسات حاولوا ذلك. ما هو مميز في هذا الموضوع هو ان نتائجهم كانت متشابهة بشكل كبير, والنتائج لها مواصفات تتبع الزمن الذي كانوا يعيشون فيه. اليكم لائحة ب"الوصايا العشر الجدد" من عصرنا , والتي وجدتها على احدى صفحات الانترنت للملحدين .

- لا تتصرف حيال الاخرين بالطريقة التي لاتريدهم ان يتصرفوا بها تجاهك .
- في كل شئ, اسع الا تؤذي احدا .
- عامل رفاقك البشر, والاحياء الاخرى, والعالم بشكل عام, بحب وامانة, واخلاص واحترام .
- لاتتغاضى عن الشر او تتراجع عن اقامة العدالة, ولكن كن مستعدا دائما لغفران الاساءات التي ارتكبت بحرية و نالت الندم بصدق .
- عش حياتك بفرح واعجاب .
- اسع دائما للمعرفة المتجددة .
- اختبر وافحص كل شئ: قارن افكارك مع الوقائع, كن مستعدا لترك حتى اهم ماتؤمن بها اذا لم يتطابق مع الوقائع .
- لا تسعى للكبت او تبتعد عن المعارضة: احترم دائما رأي الاخرين في اي يعارضوك .
- كون رأيك الخاص على اسس عقلانية ومن تجربتك الخاصة: لاتسمح لنفسك بأن تقاد من الاخرين بشكل اعمى .
- تساءل عن كل شئ .

ليست تلك المجموعة من اعمال حكيم عظيم او نبي او حتى اخلاقي محترف. بل مجرد كاتب انترنت عادي حاول تلخيص مبادئ الحياة الجيدة المعاصرة, بالمقارنة بالوصايا الانجيلية العشر. انها اول صفحة وجدتها عندما طبعت "الوصايا العشر الجديدة" في محرك للبحث, وقصدت الا ابحث ابعد من ذلك. النقطة بكاملها هنا هي ان لائحة كتلك يمكن لان شخص ان يأتي بها في ايامنا. لن يكتب الجميع نفس الوصايا بالضبط طبعا .ربما يضع الفيلسوف جون راولز عبارة مشابهة لما يلي:" لتكن قاعدتك بالقسمة بغض النظر عن كونك ستكون اول المتحاصصين او اخرهم" .تلك القاعدة مشتقة من نظام تقسيم الطعام لهي مثال جيد على مبدأ راولز: من يقسم الطعام يكون اخر من يحصل على حصته .

وفي ما يختص بوصاياي العشر, سأختار بعض ما سبق, وسأحاول افساح المجال لامور اخرى :

- تمتع بحياتك الجنسية (على شرط الا تضر الاخرين) ودع الاخرين يفعلون الشئ نفسه فيما يتعلق بذلك بغض النظر عما هم عليه والذي ليس من شأنك ابدا .
- لاتقلل من شأن الاخرين ولاتظلمهم على اساس الجنس, العرق او (على قدر الامكان) على اساس انهم مخلوقات اخرى .
- لا تلقن اطفالك. علمهم كيفية التفكير لانفسهم, وكيفية فحص الادلة, وكيف يمكنهم معارضتك في الرأي .
- احسب حساب المستقبل بمقياس زمني اطول من حياتك .

ليست الفروق والاولويات مهمة. النقطة هي اننا جميعا تقريبا قطعنا شوطا كبيرا, منذ زمن الكتب المقدسة, العبودية, التي كانت تعتبر عادية في الكتاب المقدس وعبر معظم التاريخ الزمني, اختفت في الدول المتحضرة في القرن التاسع عشر. كل الامم المتحضرة الان تقبل ماكان محظورا حوالي , 1920 بأن النساء تستطيع الاشتراك في الانتخابات, وانهن مساويات للرجال. في ايامنا وفي المجتمعات المتنورة (وذلك الصنف لايحتوي بالضرورة , مثلا, السعودية), لاتعتبر النساء كممتلكات, كما كان عليه الحال ايام الكتاب المقدس. واي نظام عصري سيقاضي ابراهيم كمسئ للاطفال. ولو مضى في خطته لقتل ابنه لكان سيحاكم بتهمة القتل العمد. ورغم كل ذلك فإن تصرفه الاخلاقي في زمنه كان موضوع اعجاب, طاعة اوامر الله. بدين ان بدون دين, فقد تغيرنا بشكل كبير تجاه ما نعتبره صح او خطأ. ما طبيعة ذلك التغيير؟ وما سببه؟

في اي مجتمع كان يوجد هناك اتفاقيات تتغير عبر العقود, وسنستعير الكلمة (روح العصر) للتعبير عن ذلك. قلت قبل قليل بأن حق المرأة في التصويت موجود الان في جميع الديموقراطيات في العالم, ولكن هذا الاصلاح اتي في وقت متأخر جداً لحد مدهش. اليكم بعض التواريخ التي سمح فيها للنساء بالتصويت.

نيوزيلاندا	1893
اوستراليا	1902
فنلندا	1906
النرويج	1913
امريكا	1920
بريطانيا	1928
فرنسا	1945
سويسرا	1971
الكويت	2006

تلك التواريخ الممتدة عبر القرن العشرين هي مقياس لانزياح روح العصر. والمؤشر الاخر هو تفكيرنا بالعرقية. في اوائل القرن العشرين, كان الجميع تقريبا في بريطانيا(ودول كثيرة اخرى) سيحسبون كمييزين عنصريين بمقاييس اليوم الحالي. معظم البيض كانوا يؤمنون بأن السود (فئة تتضمن الافريقيين وما لايقاربهم ابدا من الهنود وسكان اوستراليا الاصليين) هم فئة وضيعة بالنسبة للبيض فيما يتعلق بكل شئ تقريبا ماعدا – بتفضل متعالي – احساسهم بالايقاع. وجيمس بوند تلك الايام كان البطل البشوش دراموند بولدوغ. وفي احدى الروايات , عصبة السود, يشير الى "يهود, اغراب ,والاخرون من الشعوب الغير نظيفة". وفي رواية مرأة المخلوقات. يتنكر دراموند بزي بيدرو, الخادم الاسود للامير الوغد. وعند الكشف الدرامي عن هويته للقارئ كما هو الحال بالنسبة للامير, بان بيدرو هو دراموند نفسه, كان يستطيع القول: "هل ظننت بأني بيدرو. لم تلاحظ ابدا بأني عدوك اللدود دراموند, متنكر كأسود". ولكنه بدلا عن ذلك قال" ليست كل الذقون مستعارة, ولكن كل عبد له رائحة كريهة. ولذلك ظننت بأن هناك خطأ ما في الامر" . قرأت تلك الرواية عام ,1950 بعد كتابتها بثلاثة عقود, وكان من الممكن(بعد) لصبي ان يتأثر بالدراما ولايلاحظ العنصرية. في ايامنا هذه لايمكن تخيل ذلك .

كان توماس هنري هكسلي, بمقاييس عصره, رجلا متسنيرا وتحرريا متقدما. ولكن زمانه ليس زماننا وفي 1871 كتب ما يلي :

"ليس هناك رجل عقلاني في الواقع, ممن يؤمن بأن الزنجي العادي مساو, او متفوق ,على الرجل الابيض. ولو كان ذلك صحيحا, فإنه ببساطة من غير المعقول, بأنه فيما لو تغيرت الظروف المسببة لاعاقته, وحصل على حقله الخاص وبدون اي مساعدات ,سيكون قابلا لمقارعة نظيره الاكبر مخا واصغر حنكا في اي مسابقة تستدعي التفكير وليس العض. ان الاماكن العليا في المجتمع المتحضر بالتأكيد لن تكون من نصيب اولاد عمنا الداكنين ."

من المتفق عليه بين المؤرخين الا يحكموا على اقوال من الماضي بمقاييس الحاضر بالنسبة لهم. وابراهام لينكولن, مثل هاكسلي, كان سابقا لعصره, ولكن اراءه بالنسبة للعرق تبدوا متخلفة وعنصرية في ايامنا. واليكم ما قاله في مناظرة مع ستيفين دوغلاس عالم 1858 :

سأقول, اذن, بانني لست, ولم اكن ابدا, من مناصري او مؤيدي موضوع المساواة بين البيض والسود فيما يتعلق بالامور المجتمع والسياسة: انا لست , ولم اكن ابدا, مؤيدا لحقوقهم في ان يكونوا قضاة او حتى مصوتين في الانتخابات, او اعتبارهم مؤهلين لتولي مناصب, او يتزوجوا من البيض: وسأقول, بالاضافة لما قلت, بأن هناك فروقا فيزيائية بين البيض والسود والتي تجعلني اؤمن بتأييد منعهم من العيش جنبا الى جنب وعلى قدم المساواة فيما يتعلق بأمور المجتمع والسياسة. وستتطلب الحياة التي يعيشونها ,بوجودهم مع بعض ان يكون هناك رئيس وتابع, وانا كما هو الحال مع الجميع من مؤيدي ان تعطى المناصب الرئاسية للبيض .

لوكان هاكسلي ولينكولن ابناء عصرنا هذا, لكانو اول من يعتذر على مشاعر فيكتورية وافكار متزلفة كتلك. لقد اقتبست منهم فقط لابين كيف مضت روح العصر للامام. وحتى هاكسلي, احد اكبر العقول المتحررة في عصره, وحتى لينكولن, محرر العبيد, قالوا اشياء كتلك, فكر فقط بطريقة تفكير الفرد العادي في العصر الفيكتوري. وبالعودة للقرن الثامن عشر, من المعروف ان جفرسون, وواشنطون, واخرون من العصر المتنور كان لديهم عبيد. روح العصر مضت للامام, وبعناد لدرجة اننا نأخذها بشكل عادي اليوم وننسى بأن التغيير هو ظاهرة حقيقية ولها حقها الخاص .

هناك امثال كثيرة اخرى. عندما حط البحارة في الموريتيوس ورأوا طيور الدودو اللطيفة .لم يخطر ببالهم سوى ضربهم بالعصي حتى يموتوا. لم يكونوا حتى يفكرون بأكلهم (حيث انهم وصفوا بكونهم غير مستساغين). من المفترض ان ضرب طير مسالم لايستطيع الدفاع عن نفسه بالعصا على رأسه كان فقط شيئا لتمضية الوقت. وفي ايامنا يعتبر سلوك كهذا مما لايفكر فيه احد, وانقراض حيوان من اقرباء طائر الدودو, حتى لسبب طبيعي , وليس بسبب القتل العمد من قبل الانسان, يعتبر من التراجيديا .

تراجيديا كتلك, بمقاييس عصرنا وجونا الثقافي, كانت عن انقراض ثيلسينوس, الذئب التسماني. كانت هناك جائزة لرأس ذاك المخلوق المرثي رمزيا حتى عام 1909. وفي روايات العصر الفيكتوري الافريقية, "الفيل" , الاسد" والانتلوب كانو لعبة وماذا تفعل باللعبة, ترمها بالرصاص بدون اي تفكير. ليس من اجل الاكل. ليس للدفاع عن النفس .بل "للرياضة". تغيرت روح العصر الان. وللامانة, هناك من الاغنياء "الرياضيين" من لايزال يرمي حيوانا افريقيا بالرصاص من سيارة لاند روفر ويأخذ معه الرأس المحنط للبيت. ولكنهم يدفعون الغالي ليفعلوا ذلك, وهم مكروهين بشكل كبير لفعلهم هذا. حفظ حياة الادغال والحفاظ على البيئة اصبحا امران مقبولان ويحافظ عليهما بنفس الدرجة من الاهمية التي كانت للحفاظ على يوم السبت وتجنب نحت الصور .

عرف عن الستينات اسطوريتها نحو التحرر العصري. ولكن بداية ذلك العقد كانت محاكمة الاحكام, خلال محكمة مجون عشيق السيدة شاترلي, كان بالامكان سؤال المحكمين:" هل توافق على ان يقرأ ابنك او ابنتك اليافعين – لان البنات قادرات على القراءة كالشباب (هل تصدق انه قال ذالك؟) – ذاك الكتاب؟ هل هذا كتاب يترك في متناول الجميع في بيتك؟ هل تتمنى حتى ان تقرأ زوجتك او خدمك هذا الكتاب؟ إن بلاغة السؤال الاخير تدلنا على السرعة التي تغيرت بها روح العصر .

احتلال امريكا للعراق ملعون من قبل الاغلبية بسبب الضحايا المدنيين, ولكن هؤلاء الضحايا عدديا اقل كثيرا من ضحايا الحرب العالمية الثانية. يبدوا بأن هناك انزياحا مستمرا في مقاييس ما هو مقبول اخلاقيا. دونالد رامسفيلد, الذي يبدو لنا مقرفا وقاسيا في ايامنا, سيبدو كرحيم قلب حر لو قال نفس ما قاله خلال الحرب العالمية الثانية. شئ ما تغير خلال العقود. انزاح فينا جميعا, وذاك الانزياح ليس متعلقا بالدين. بل انه حدث بالرغم من الدين, وليس بسببه .

بالامكان التعرف على اتجاه ذلك الانزياح, ومعظمنا يحكم بأنه تطور. حتى ادولف هتلر ,والذي يعتبر بشكل واسع احد الذين دفعوا بالشر لخارج الحدود, لايقارن ب غاليكولا او جينكيز خان. لاشك بأن هتلر قتل عددا اكبر من الناس, ولكنه

امتلك تكنولوجيا القرن العشرين لخدمته. هل حصل هتلر على متعته العظمى كما عرف عن جينكيز خان, من رؤية ضحاياه "يغرقون في دموعهم"؟ نحكم على مستوى الشر عند هتلر بمعايير اليوم ,وروح العصر مضت للامام منذ عهد غاليكولا, كما فعلت التكنولوجيا. هتلر يبدو اكثر شرا فقط لان معاييرنا عن الموضوع في هذا العصر اكثر رحمة .

خلال فترة حياتي, نقص تداول بعض الكلمات الانتقاصية فيما يتعلق بالذم والافكار الوطنية الشائعة: ضفدع, كلب, ديك.. الخ. لن ازعم بأن تلك الكلمات اختفت, ولكنها مستهجنة بشكل واسع في الاوساط المؤدبة. كلمة "نيغرو – عبد", على الرغم انه لم يقصد بها الاهانة, يمكن استخدامها لتأريخ النثر الانكليزي. وفي الحقيقة فإن الاجحاف يكشف لنا شيئا من تاريخ قطعة من الادب. عالم الدين المحترم من كامبريدج. أي سي بوكيت, في وقته, كان قادرا على ان يبدأ فصلا في كتابته عن الاسلام في كتابه مقارنة الديانات بالكلمات التالية: "السامي ليس متدينا بديانة توحيدة طبيعية, كما اعتبرت في منتصف القرن التاسع عشر. بل هو روحاني". ان الهوس بالعرقية (بدلا من الثقافة) واستعمال صيغة المفرد "السامي.. روحاني" يكشف لنا محاولة لتصغير شعب كامل الى "فرد بمواصفات" ليس متداولا بأي من مقاييس ايامنا الحالية. ولن يستعمل اي عالم سواء ديني او في اي مجال اخر, كلمات كتلك. تلميحات كتلك لم تعد موجودة في الكتابات منذ منتصف القرن العشرين. ولكنها كانت واقعا عام 1941 .

لو عدنا اربعة عقود الى الوراء. لتوضح تغير المعايير بدون اي شك. في احد كتبي السابقة اقتبست من اتش جي ويللز. الجمهورية الجديدة, وسأفعل ذلك الان مجددا لان في ذلك توضيح صاعق للنقطة التي اريد التأكيد عليها :

"وكيف ستعمل الجمهورية الجديدة الاعراق الاقل شأنا؟ كيف ستعامل السود؟ .. الصفر؟ اليهود؟ تلك الجماهير من السود, البنيين, والبيض المشوبين, والصفر, والذين لم يصلوا بعد للفعالية المطلوبة؟ حسنا, العالم هو العالم, وليس منظمة احسان, واعتقد ان عليه ان يذهبوا .. والنظام الاخلاقي في الجمهورية الجديدة, النظام الاخلاقي الذي سيسود العالم , سيصاغ بالدرجة الاولى لدعم كل ما هو ابداعي وعملي وجميل في الانسانية .اجسام جميلة وقوية, وعقول نيرة وقادرة.. والطريقة التي اتبعتها الطبيعة في صياغة العالم, حيث منع الضعيف من نشر الضعف هي الموت.. ان البشرفي الجمهورية الجديدة .. سيكون لديهم من المثالية ما يجعل القتل مبررا ".

كتب ذلك عام 1902, و كان ويللز يعتبر من المتطورين في عصره. وفي 1902 وعلى الرغم من ان شعورا كهذا لم يكن مقبولا بشكل واسع , فإنه كان من الممكن مناقشة فكرة كتلك خلال حفل عشاء. وعلى العكس من ذلك , فإن قراء العصر سيشهقون برعب عند رؤيتهم لعبارات كهذه. نحن مجبرون على اعتبار ان هتلر, على الرغم مما كان عليه, لم يكن بعيدا عن دائرة روح العصر في زمانه كما يبوا لنا من خلال نظرتنا العصرية المتفتحة. كم تغيرت روح العصر بسرعة – وتتغير بالموازاة مع الافكار في العالم المثقف .

ماهو, اذن, مصدر تلك التغييرات الثابتة الاتجاه في الوعي الاجتماعي؟ ليست الاجابة من مسؤوليتي. لان هدفي يتحقق عندما ابرهن بأنها لم تأتي من الدين بأي شكل. ولو اجبرت على ان احقق في تلك النظرية, فإنني سأبدأ بما يلي. نحتاج لشرح التالي, لماذا تعتبر التغيرات في روح العصر متواقتة بشكل واسع وفي عدد كبير من البشر, وعلينا ايضا ان نشرح سبب كونها في اتجاه موحد ومحدد .

اولا, لماذا تتواقت عبر العديدين من الناس؟ تنتشر من نفس لنفس من خلال المحادثات في البارات وحفلات العشاء, من خلال الكتب والمراجعات, من خلال الجرائد والبرامج المبثوثة. وفي ايامنا من خلال الانترنت. تغيرات الطقوس الاخلاقية يشار اليها في المقالات, الراديو, البرامج الجدلية, الخطابات السياسية, في الكوميديا وفي مسلسلات التلفزيون, في انتخابات البرلمانات التي تجعل القوانين تعبر عنها. ويمكن ان يعبر عنها بتغير الميمة المتكرر في مجموعة الميمات , ولن اخوض بالموضوع اكثر من ذلك .

بعضنا يتخلف عن موجة التغيير الاخلاقية لروح العصر والبعض الاخر يتقدم عليها بشكل بسيط, ولكن الغالبية منا في القرن الواحد والعشرين متقاربة ومتقدمة عن اسلافنا في العصور الوسطى, او زمن ابراهيم, او حتى الازمنة الحديثة نسبيا في العشرينات من القرن الماضي. الموجة تتحرك بإستمرار, وسيجد السابقون في قرن مضى (مثل تي اتش هاكسلي) انفسهم متخلفين عن السواد الاعظم في قرن لاحق. بالطبع, ذلك التطور لم يكن سلسا في صعوده بل كان متعرجا كأسنان المنشار. كان هناك عقبات محيلة ووقتية كما كان الحال في معاناة امريكا من حكومتها في مطلع الالف الثاني. ولكن بمقياس الزمن الطويل فإن التطور لايزال يمشي بنفس الاتجاه وبدون اي شك .

ماالذي يدفع روح العصر بذلك الاتجاه؟ لانستطيع انكار دور القادة والذين كانوا سابقين لعصرهم, لقد نهضوا واقنعوا الاخرين بأن يسيروا معهم. في امريكا. دفعت الفكرة المثالية عن مساواة الاعراق من قبل قادة مثل مارتن لوثر كينغ, ومن قبل الكوميديين ورجال الرياضة واخرون من الشخصيات المشهورة شعبيا مثل باول روبنسون, سيندي بواتييه, جيسسي اوينز.وكذلك اعتاق العبيد والنساء فإنه يدين الى شخصيات من القادة اللامعين. بعضهم كان متدينا, والبعض الاخر لم يكن كذلك. بعض المتديني فعلوا ذلك لانهم متدينون. ولكن بالنسبة للبعض الاخر كان الدين مجرد مصادفة. وعلى الرغم من ان مارتن لوثر كينغ كان مسيحيا, فإنه استقى فلسفته عن اللاعنف من غاندي الذي لم يكن كذلك .

كذلك لدينا تطور الثقافة وبالاخص تزايد فهمنا بأن كل منا يشترك مع الاخرين بالانسانية مع اشخاص من عرق اخر او جنس اخر – فكرتان مضادتان بصراحة لمحتوى الكتاب المقدس ومصدرهما علم البيولوجيا, وخصوصا التطور. ان احد اسباب معاملة السود والنساء واليهود والغجر في ايام المانيا النازية كان اعتبارهم بشرا ناقصين في بشريتهم .الفيلسوف بيتر سينغر, في كتابه تحرير الحيوانات. هو ابلغ مثال للمحاماة عن وجهة النظر بأن علينا ان نخصص معاملات للكائنات الاخرى بما يضمن سعادتها بقدر ما يسمح لها مخها الخاص لقدير ذلك. وربما هذا تنويه عن الاتجاه الذي ستتحرك به روح العصر في القرون القادمة. سيكون ذلك استنباطا طبيعيا للاصلاحات السالفة مثل تحرير العبيد وانعتاق المرأة .

ان مؤهلاتي كهاو في علم الاجتماع وعلم النفس لاتؤهلاني لشرح سبب التناسق الواسع في تغيرات روح العصر. ويكفي لشرح الغرض الذي اقصده بإنها تتغير, وانها غير مدفوعة من الدين – وبالتأكيد ليس بسبب الكتب المقدسة. ربما انها ليست قوة وحيدة كالجاذبية ولكن عدةة قوى تتلاعب فيما بينها مثل قوانين مور, والتي تشرح سبب التصاعد في قوة الكومبيوتر بشكل أسي. ومهما كان السبب, فإن التعاقب المستمر لمظاهر روح العصر هو اكثر من كاف لنقض الزعم بأننا بجاجة للاله من ان نكون جيدين, او حتى لتحديد ما هو جيد .

ماذا عن هتلر وستالين؟ اليسا ملحدين؟

ربما ان روح العصر تسير قدما, وبشكل عام للامام, ولكن كما قلت فإن مسيرها كأسنان المنشار وليست بطريق ممهدة, ووجد العديد من العقبات المروعة, عقبات عظيمة , عمقية ومرعبة, سببها ديكتاتوريو القرن العشرين. من المهم ان نفرق بين النوايا الشريرة لرجال مثل هتلر وستالين عن القوة العظيمة التي مكنتهم من تحقيق تلك الشرور. لقد استعرضت موضوع ان الافكار الشريرة لهتلر ليس اكثر من اللاتي كانت عند كاليفولا – او حتى عند سلاطين الاتراك, والذين وصف نويل باربر في كتابه سادة القرن الذهبي مفاخرهم المدهشة في قذارتها. لكن هتلر توفرت له اسلحة القرن العشرين, وتكنولوجيا لاتصالات. وبالرغم من ذلك يعتبر هلتر وستالين اشرارا بمقاييس كل العصور وبشكل مريع .

"هتلر وستالين كانا ملحدين, ماذا تقول عن ذلك؟" يطرح ذلك السؤال في كل محاضرة عامة القيتها عن موضوع الدين, وفي كل مقابلات الراديو ايضا. وتطرح الاسئلة بشكل مشاكس ومشحون بالسخط مع فرضيتين. اولا: هتلر وستالين كانا ملحدين. وثانيا: لقد فعلا ما فعلاه لانهما كانا ملحدين. الفرض الاول صحيح في حالة ستالين ومشكوك به في حالة هتلر. الفرضية الثانية لااهمية لها. لانها خاطئة. ومن غير المنطقي ان نستنتجها من الفرضية الاولى. حتى ولو قبلنا بأن هتلر وستالين تقاسما صفة الالحاد المشتركة, كلاهما كان له شارب ايضا, كما كان لصدام حسين. وماذا اذن؟ السؤال المثير ليس عما اذا كان الشرير (او الطيب) ملحدا او متدينا. لسنا بصدد عد الرؤوس واستخلاص لائحتين من الاضداد المتنافسة. الواقع ان احزمة النازيين منقوش عليها "الله معنا" لايبرهن على اي شئ, على الاقل ليس بدون مناقشات مطولة. ما يهم هنا ليس موضوع كون هتلر وستالين ملحدين, ولكن موضوع اذا ما كان الالحاد يؤثر على الناس بشكل منتظم لعمل الاشياء الشريرة. ليس هناك اي دليل ولو صغير على ذلك .

ليس هناك شك بأن ستالين كان ملحدا, بالواقع انه تلقى تعليمه في دير اوثودوكسي, ولم تخف امه خيبة املها في انه لم يلتحق بالرهبنة كما ارادت له– وبناء على رأي الان بولاك -فإن ذلك كان يسبب العجب لستالين. ربما ان ثقافة ستالين الكنسية الاورثودوكسية, اراد ستالين الناضج ايذاء الكنيسة الاورثودوكسية الروسية وكذلك المسيحية والتدين بشكل عام. ولكن ليس هناك اي ادلة عن ان الحاده دفعه للظلم العنيف. وربما لم يكن هناك علاقة لذلك مع تربيته الدينية المبكرة, الا من خلال تلقينها له ان يوقر الايمان المطلق ,والسيطرة القوية والايمان بأن الغاية تبرر الوسيلة .

الاسطورة بأن هتلر كان ملحدا طورت بعناية فائقة لدرجة ان العديدين من الناس يصدقونها بدون سؤال, وتطرح تلك الفكرة بشكل دائم من محبيها المدافعين عن الدين .الا ان الواقع بعيد عن اي يكون واضحا. هتلر ولد لعائلة كاثوليكية,

ودرس في مدرسة كاثوليكية وزار الكنائس الكاثوليكية في طفولته. طبعا لايمكن اعتبار ذلك ذو قيمة: لانه من الممكن بدون شك ان يكون قد تخلى عن التدين لاحقا, كما فعل ستالين عندما تخلى عن كنيسة الروس الارثودوكسية بعد ان ترك الدير في تبيليسي. ولكن هتلر لم يعلن تخليه عن معتقده الكاثوليكي علنا وهناك بعض الدلائل من خلال حياته تنبئنا عن ان انه بقي متدينا. وحتى لو لم يبق معتقده كاثوليكيا فإنه على الاغلب ظل مؤمنا بوجود سلطة مقدسة. كمثال, اعلن في كتابه كفاحي بأنه عندما سمع خبر اعلان الحرب العالمية الاولى,"جثوت على ركبتي وشكرت السماء من كل قلبي والتي جعلتني اعيش في الزمان الذي حصل فيه ما يحصل الان" . ذلك كان عام , 1914 عندما كان في عمر الخامسة والعشرين. ربما تغير بعد ذلك؟

في 1920 عندما كان هتلر في الحادية والثلاثين كتب اخلص معاوينه وردولف هيس ,والذي اصبح فيما بعد نائبه, رسالة الى رئيس وزراء بافارياو" اعرف هتلر شخصيا معرفة جيدة وانا قريب جدا له. انه شخصية شريفة بشكل غير عادي, مليئة باللطف, هو متدين ,وكاثوليكي جيد". وبالتأكيد بما ان هس اخطأ تماما وبشكل فاضح في موضوع "شخصية شريفة, ومليئة باللطف" فربما اخطأ ايضا في موضوع "الكاثوليكي الجيد" !. ليس هناك ما يمكننا من ان نصف هتلر ب"الجيد" في اي مجال, وهذا يذكرني بحجة جريئة بشكل هزلي كنت قد سمعتها عن الاقتراح بوجوب كون هتلر ملحدا. هتلر كان انسانا سيئا ,المسيحية تعلمنا ما هو جيد, ولذلك فإنه ليس بإمكان هتلر ان يكون مسيحيا! . تلك مقولة
ل غورينغ عن هتلر. " فقط انسان كاثوليكي هو نيستطيع توحيد المانيا", انا افترض ان ذلك يعني شخصا تربى على الكاثوليكية وليس شخصا مؤمنا بها .

في خطابه عام 1933 في برلين, قال هتلر,"اقتنعنا بأن الناس يحتاجون ويريدون الايمان .ولذلك فإننا اخذنا على عاتقنا ان نحارب الحركات الالحادية, وليس بشكل اعلانات نظرية فقط, بل اننا وقعنا القرار". ربما يشير ذلك بأن هتلر , كما هو الحال مع الكثيرين, يؤمن بالايمان, ولكنه في 1941 قال لمساعده, الجنرال غيرهارد انحل,"سأبقى كاثوليكيا للابد" حتى ولو لم يبق هتلر مسيحيا صادقا, فإنه من غير العادي بالتأكيد الا يكون متأثرا بالافكار المسيحية التقليدية الازلية التي تلوم اليهود كقتلة المسيح. في خطابه عام 1923 في ميونيخ قال" اول ما يجب ان نفعله هو ان ننقذ المانيا من اليهود الذين يخربون بلاددنا ...علينا ان نحمي بلادنا من المعاناة التي عاناها الذي مات على الصليب". وفي كتاب ادولف هتلر: سيرة الحياة الاكيدة, كتب جون تولاند عن موقف هتلر الديني اوقات " الحل الاخير" :

لازال عضوا مميزا في كنيسة الروم الكاثوليك , وعلى الرغم من كرهه للقائمين عليها ,فإنه لايزال يحمل تعاليمها عن ان اليهود هم قتلة الاله. ولذلك كان القضاء عليهم ممكنا بدون اي تفكير ضميري , ومن مبدأ كونه اليد التي تنتقم لله – وبذلك يتم الموضوع كما لو انه ليس شخصيا, وليس فيه اي ظلم .

ان الكره المسيحي لليهود ليس فقط تقليدا كاثوليكيا. مارتن لوثر كان معاديا للسامية .وكتب في حمية الديدان بان"يجب طرد جميع اليهود من المانيا" وكتب كتابا كاملا. عن اليهود واكائيبهم, والذي ربما كان له تأثير على هتلر. لوثر وصف اليهود ب"ذرية الافاعي" ,ونفس العبارة استخدمت من قبل هتلر في خطابه المشهور عام .1922 الذي كرر فيه مرارا بأنه مسيحي :

شعوري كمسيحي يوجهني نحو الهي ومخلصي كمحارب. يوجهني نحو الرجل الذي في وحدته, محاطا بقليل من الاتباع, عرف حقيقة هؤلاء اليهود ودعى الرجال ليحاربوهم و الحقيقة الالهية انه كمحارب اعظم منه كمعاني. وبحب لامتناه كمسيحي وكرجل اقرأ من خلال العبارات التي تقول لنا كيف انتصب الاله في قدرته اخيرا واخذ السوط بيده لطرة ذرية الافاعي من المعبد. كانت حربه مثالا مثاليا للعالم ضد السم اليهودي. واليوم بعد الفي عام, وبأعمق العواطف. اعرف بثقة لم اعرفها قبلا بأنه من اجل ذلك قد بذل دمائة على الصليب. وكمسيحي لايتوجب على لاسمح لاحد بحداعي , ولكن يتوجب على ان اكون محاربا للحق والعدالة....وليس اوضح دليلا على اننا نتصرف التصرفات الصحيحة من الضيق الذي نعانيه. وكمسيحي فإن لدي واجبا تجاه شعبي ايضا .

من الصعب معرفة اذا ما كان هتلر قد انتقى عبارة "ذرية الافاعي" من لوثر. او اخذها مباشرة من انجيل متى (3,7) كما نفترض ان لوثر قد فعل. ولكن بالنسبة لموضوع مقاضاة اليهود كرغبة من الاله,فإن هتلر عاد اليها في كتابه كفاحي: " ولذلك اؤمن اليوم بأنني اتصرف وفقا لرغبة الخالق الاعظم: و بالدفاع عن نفسي ضد اليهود فإنني اقاتل من اجل الاله" ذلك كان عام .1925 وقد كرر ذلك ثانية في خطابه في الرايخشتايغ عام ,1938 وقال اشياء مشابهة على الدوام خلال حياته المهنية . ان تساؤلات كهذه لها ما يساويها من تساؤلات تطرح من خلال مناقشاته على الطاولة

والتي عبر فيها عن اراء معادية بصراحة للمسيحية ورؤيتها, كما سجلت من قبل سكريتيره الخاص.. وما يلي حدث عام 1941:

"ان الضربة الاقوى التي اصابت الانسانية هي قيام المسيحية. المسيحية هي الطفل الغير الشرعي للبلشفية. وكلاهما من اختراع اليهود. ان الكذبة المدبرة فيما يختص بالدين هي ما قدمته المسيحية للعالم ...

ان السبب الحقيقي في كون العالم القديم نقيا وصادقا ومضيئا هي انهم لم يعرفوا السوطين الرئيسيين .. الطاعون والمسيحية .

بعد كل ما قيل, لااجد سببا لاتمنى للايطاليين والاسبان ان يتخلصوا من مخدر المسيحية ,دعونا نكون النوحيدين الذين لديهم مناعة ضد ذلك المرض"

ان كلام هتلر على الطاولة يحتوي الكثير من تلك الاقتباسات, غالبا ما يقارن المسيحية بالبلشفية, وبعض الاحيان يقارن ماركس بالقديس بولص ولاينسى ابدا ان كلاهما كان يهوديا(بالرغم من ان هتلر, للغرابة, كان مصرا دائما على ان المسيح لم يكن يهوديا). من الممكن ان يكون هتلر قد مر بتجارب حتى عام 1941 من النوع الذي كشف له زيف المسيحية. او انه كان بالنتيجة فقط كاذبا نهازا للفرص ممن لايمكن ان نثق بكلامهم, في كلتا الجهتين؟

وبالامكان المحاججة بأن هتلر برغم كلماته وكلمات مساعديه عنه, بانه كان محتالا يستخدم ويستغل تدين مستمعيه. ربما انه يوافق نابليون الذي قال:" الدين شئ ممتاز لابقاء العامة من الناس هادئين". وايضا مع سينيكا الشاب:" الدين من قبل العامة يعتبر حقيقيا, ومن قبل الحكماء كاذبا , ومن قبل الحكام مفيدا." لااحد يمكنه ان ينفي بأن هتلر كان قادرا على عدم الا مانة تلك. ولو كان هذا هو دافعه لان يبدو متدينا, فعلينا ان نذكر ايضا بأن هتلر لم يرتكب ما ارتكبه من ظلم وحده. ولكن الافعال ذاتها ارتكبت من قبل العديد من الجنود وضباطهم, وغالبيتهم كانوا مسيحيين. وبالتأكيد, فإن مسيحية الالمان وراء النظرية التي نناقشها نفسها – الفرضية التي تشرح لنا عدم صدق هتلر الديني واستغلاله ! او, ربما يكون الامر بأن هتلر فقط اراد ان يبدي بعض التعاطف مع المسيحية, وإلا فلن يحظى نظامه بالدعم الذي حصل عليه من الكنيسة. وذلك الدعم نيستطيع استعراضه بطرق متنوعة, ويتضمن ذلك البابا بيوس الثاني عشر واصراره على الا يتخذ موقفا معاديا للنازية – وهذا موضوع يسبب الارباك للكنيسة الحديثة. إما ان يكون هتلر صادقا في مسيحيته, او انه كذب فيما يتعلق بذلك ليربح – بنجاح – تعاون المسيحيين الالمان والكنيسة الكاثوليكية. وفي كلتا الحالتين, فإن شر الظام الهتلري لايمكن اعتباره نتيجة للالحاد .

حتى عند تجريحه بالمسيحية, لم يتوقف هتلر عن استخدام الرموز الدينية عن ذلك العنصر الغامض, الذي اختاره من بين الجميع في مهمة مقدسة لقيادة المانيا. كان يدعوا ذلك العنصر بالقدوس, وفي احيان اخرى بالرب. وبعد "الوصل" وعندما عاد هتلر ظافرا من فيينا عام 1938, ذكر الله في خطابه المبتهج والبسه شخصية المحظوظ: " اؤمن بأنها ارادة الله بأن يرسل صبيا الى الرايخ, ويتركه ليكبر ويرفعه ليكون قائد الامة ليتمكن من اعادة ارض الوطن الى الرايخ" .

وعندما نجا بأعجدوبة من حادثة الاغتيال في ميونيخ في نوفمبر 1939, عزا هتلر نجاته لتدخل مقدس لانقاذه بأن سبب تغييرا في برنامجه:" انا الان مسرور تماما. ان تركي للبرغربانكيلير ابكر من المعتاد كان تعزيزا لرغبة القدوس لاصل لهدفي". وبعد فشل الاغتيال فإن البيشوب الرئيسي لميونيخ, الكاردينال ميشال فاوللبابر, امر بأن تتلى (تي ديوم) في كاتدرائيته, " لشكر القدوس بإسم الارشيدوقية لنجاة الفوهرر المسرة" .وبعض اتباع هتلر, وبدعم من غوبلز, لم يخفوا الرغبة في ان ياسسوا دينا مستقلا مبني على الفكرة النازية . والنص التالي , مكتوب من قبل رئيس نقابة التجار, يعطي شعورا بأنه نص دعاء وصلوات حتى ان خاتمته تذكر الاله المسيحي (ابانا):

"ادولف هتلر! نحن متعاضدين معك وحدك! نريد ان نجدد عهدنا الان: في هذه الارض نؤمن فقط بأدولف هتلر. نؤمن بأن المجتمع الوطني هو الذي سيحفظ شعبنا. نؤمن بأن الله في السموات هو الذي خلقنا, الذي قادنا, وجهنا وباركنا. ونؤمن بأن هذا الاله ارسل ادولف هتلر لنا. وذلك حتى تصبح المانيا القاعدة المتينة حتى الابد"

ستالين كان ملحدا وربما لم يكن هتلر كذلك. ولكن حتى لو كان, فأن المهم في فمناقشتنا حول ستالين وهتلر هو نقطة بسيطة. سيفعل بعض الملحدين الشرور ولكنهم لن يفعلونا بإسم الالحاد. ستالين وهتلر فعلوا العظيم من الشرور, بإسم, العقيدة والتلقين الماركسي, وبإسم نظرية لاعلمية محبوكة بهذيانات فاغنرية . ولكن الحر وب الدينية حصلت بسبب الدين, وتكررت كثيرا عبر التاريخ. ولااذكر اي حرب حصلت تحت اسم الالحاد. ولماذ تحصل؟ ربما يكون الدافع

للحرب طمعا اقتصاديا, او طموح سياسي ,تعصب عرفي او عنصري, انتقام او شكوى, او بدالع من الايمان الوطني بحق الامة .والقناعة التي لاتتزعزع بأن الدين الذي يؤمن به البعض هو الدين الوحيد الصحيح, وبدعم من كتاب مقدس يكرس اللعنة بوضوح كل المنافقين واتباعهم من ديانات منافسة حتى الموت, ويعد المقاتلين في سبيل الله بجنة الشهداء. سام هاريس, كالعادة, يصيب كبد الهدف, في كتابه نهاية الايمان :

" ان خطر الدين هو في انه يجعل من انسان عادي وطبيعي على حنى ثمار الجنون واعتبار المقدسات. لان كل جيل جديد من الاطفال يلقن بأن ما يطرحه الدين لايحتاج لاي نقاش لاثباته كما هو الامر في الطروحات الاخرى, المدينة لاتزال مهددة بجيوش اللامعقولية. نحن, وحتى الان, نقتل انفسنا من اجل كتابات قديمة. من كان يعتقد ان شيئا تراجيديا كهذا يمكن ان يحصل؟؟

ومن الجهة الاخرى, لماذا يجب على اي كان ان يخوض حربا بسبب عدم الايمان بشئ ما؟

الفصل الثامن

ما هي مشكلة الدين؟

ما سبب كل هذه العدوانية؟

الدين اقنع الناس فعلا بأن هناك شخصا خفيا – يعيش في السماء – ويراقب كل ما تفعل في كل لحظة من كل يوم. وهذا الشخص الخفي لديه لائحة بعشرة اشياء لايريدك ان تفعلها. وان فعلت ايا منها , فإن لدية مكانا خاصا, مليئا بالنار والدخان والحريق والتعذيب والالم, وسيرسلك لهناك حيث تعيش وتعاني وتحترق وتختنق وتصيح وتصرخ الى ابد الابدين والى نهاية الزمن ....
ولكنه يحبك

جورج كارلتن

بطبعي لاارغب في المواجهة. ولااظن ان المعاداة طريقة مناسبة للوصول للحقيقة , وارفض بشكل مستمر الدعوات لان اشارك في مناقشات. دعيت مرة لنقاش مع مطران منطقة يورك, في ادنبره. تشرفت بتلك الدعوة. وتقبلتها. وبعد النقاش, كتب الفيزيائي المتدين راسل ستانارد رسالة ادرجها في كتابه التخلص من الله؟ وجهها لصحيفة الاوبزرفر :

" سيدي. تحت العنوان اللامع " الله يأتي في المرتبة الثانية بتواضع امام عظمة العلم". كتب مراسلكم لشؤون العلم (يوم الاحد الموافق لعيد الفصح دونا عن باقي الايام) كيف ان ريتشارد دوكنز " وجه اصابات بالغة فيما يتعلق بالفكر " لمطران منطقة يورك في نقاشهما عن العلم والدين. وصلتنا انباء عن "ملحدون مبتسمون بتعجرف " و "مسيحيين يستأسدون باللاشئ" .

ومضى ستانارد بتوبيخه لصحيفة الاوبزرفر لفشلها في نشر خبر عن لقاء لاحق بيننا نحن الاثنين مع البيشوب من برمنجهام وعالم الكونيات السير هيرمان بوندي, في الاكاديمية الملكة للعلوم. والذي لم تخصص له دعاية كافية, والذي كان بناء اكثر بكثير بالنتيجة . استطيع الموافقة فقط على ما يبديه من سخط تجاه شكلية الدعاية للنقاش. وخصوصا لاسباب شرحتها في كتابي القديس الشيطاني, انا ام اكن طرفا ابدا في نقاش مع الخلوقيين .

بالرغم من عدم محبتي للصراعات, يبدو لي بأني اكتسبت شهرة كمحب للقتال ضد الدين. الاصدقاء الذين يوافقون معي بأنه ليس هناك اله, والذين يوافقون بأننا لانحتاج للدين لنكون صالحين, ويوافقون على اننا قادرون على شرح اسباب التدين والاخلاق بتعابير غير دينية, هؤلاء اتو الي بسؤال محير . لماذا انت بهذا العداء؟ ماهو الخطأ في الدين؟ هل يسبب الاذى فعلا لدرجة انه يجب علينا فعلا ان نناضل ضده؟ لماذا لانعيش ونترك الاخرين يعيشون , كما نفعل في حالة برج الثور والعقرب والطاقة من خطوط الارض؟ اليس كل ماسبق هراء لايؤذي؟

ربما ارد سريعا بأن العداء الذي امارسه او يمارسه بعض الملحدين الاخرين تجاه الدين لايتعدى الكلمات. انا لن افجر احدا, او اقطع راسه او ارجمه او احرقه على السيخ او اصلبه, او اصدم طائرة بناطحات السحاب التابعة له, فقط لانني لا اتفق مع فكره الديني .ولكن الحديث لايتوقف عند ذلك عادة. ربما يقول شيئاً مثل:" الا يجعلك كلامك بهذا الشكل تبدوا وكأنك ملحد متطرف, متطرف بطريقتك الخاصة كما هو الحال بالذين تصفهم بالتطرف من اهل الحزام الانجيلي؟". وهنا اريد ان افند تلك الاتهامات بالتطرف ,لانها مطروقة بشكل مؤلم .

التطرف وفتنة العلم

المتطرفون يعلمون بأنهم على حق لانهم قرأو الحقيقة في الكتاب المقدس ويعرفون مقدما, بأن لاشئ يمكن ان يحرفهم عن عن ايمانهم. حقيقة الكتاب المقدس من البديهيات. وليست نتيجة لعملية عقلانية. الكتاب صحيح, وعندما تبدوا الادلة وكأنها تناقضه, فعندها يجب رمي الادلة خارجا, وليس الكتاب. وعلى العكس من ذلك, ما أؤمن به كمشتغل بالعلم (وكمثال : نظرية التطور), فإنما اؤمن به ليس لانني قرأت كتابا مقدسا بل لانني درست الادلة. وهذا موضوع مختلف تماما. ان الايمان بكتب التطور لايأتي من كونها مقدسة. بل لانها تقدم ادلة دامغة كثيرة ومسندة بشكل متبادل. وكمبدأ , فإن اي قارئ يستطيع ان يفحص الادلة. وعندما يخطئ كتاب علمي ما, فإن شخصا ما سيكتضف الخطأ وستصحح في كتاب يليه. ومن الواضح ان ذلك لايحصل مع الكتب المقدسة .

الفلاسفة, وخصوصا الهواة منهم بمعرفة قليلة عن الفلسفة, وبالاخص هؤلاء المصابين بما يسمى "الثقافة النسبية", يبدأون بشكوك منهكة عند تلك النقطة. ان ايمان المشتغلين بالعلوم ب"الادلة" هو بحد ذاته ايمان متطرف. لقد عالجت تلك الفكرة في مكان اخر, وسأعيد الفكرة بشكل مختصر هنا. كلنا نؤمن بالادلة خلال حياتنا, مهما صرحنا وتفلسفنا. ولو كنت متهما بجريمة قتل, وسألني المدعي العام عما اذا كنت في شيكاغو ليلة الجريمة, فلن استطيع التملص بالمراوغة الفلسفية:" هذا يعتمد على ما تعنيه بكلمة (الحقيقة)". ولا بإلتماس انثروبولوجي نسبي :" انها فقط بمفهومك الغربي عن كلمة "في" والتي تعني انني كنت في شيكاغو. ولكن البونغول لديهم معنى مختلف تماما لـــ "في" ويستعمل هذا التعبير ويكون صحيحا فقط عندما تكون مؤهلا لان تأخذ شيئا من كيس الصفن المجفف لكبش"

ربما ان العلماء متطرفون عندما يتعلق الموضوع بعاني تجريدية لكلمة "الحقيقة". ولكن ذلك ينطبق على كل الناس. انا لن اكون متطرفا عندما اقول بأن التطور حقيقي اكثر من قولي بأن نيوزيلاندا تقع في القسم الجنوبي من الكرة الارضية.

نؤمن بالتطور لان الادلة تدعمها. وسنهملها بين عشية وضواحيها عندما تظهر ادلة تنفيها. المتطرف الحقيقي لن يقول شيئا كهذا ابدا .

من السهل جدا الخلط بين التطرف والعاطفة. ولربما ابدو عاطفيا عندما ادافع عن التطور امام المتطرفين الخلوقيين, ولكن ذلك لايأتي من تنافس متطرف من جهتي. بل ان ذلك بسبب ان الادلة الداعمة للتطور قوية بشكل هائل ورفض خصمي لرؤيتها – وغالبا رفضه للالتفات اليهالانها تعارض الكتاب المقدس – يصيبني بالكأبة. وعواطفي تتأجج اكثر عندما افكر بما يفتقده هؤلاء المتطرفين المساكين وكل من يتأثر بهم,. حقيقة التطور, والحقائق العلمية العديدة الاخرى, ساحرة بشكل رائع, وجميلة جدا. ومن التراجيديا ان يموت المرء دون ان يدرك ذلك! وبالطبع فإن ذلك يجعلني عاطفيا. وكيف لا؟ ولكن ايماني بالتطور ليس تطرفا, وليس ايمانا دينيا, لانني اعرف تماما ما يمكن ان يغير تفكيري, وسأغيره بإمتنان عندما تظهر الادلة الكافية على ذلك .

ذلك يحدث. لقد ذكرت قصة انسان عجوز محترم في قسم دراسة سلوك الحيوانات في اكسفورد عندما كنت طالبا في الجامعة. ولسنوات عديدة كان يؤمن بحماس, ويدرس بحماس مماثل, بأن جهاز غولجي(قسم من الخلية) لم يكن له وظيفة حقيقا. مظهر فقط, نوع من الوهم. وبعد ظهيرة كل يوم اثنين كانت العادة ان نستمع لمحاضرة من استاذ ضيف على الجامعة. وفي احد تلك الايام كان الاستاذ الزائر امريكيا اختصاصيا في بيولوجيا الخلايا وكانت لديه ادلة قاطعة على ان جهاز غولجي كان حقيقيا. وفي نهاية المحاضرة, تقدم الانسان العجوز من المنصة , وصافح الاستاذ الامريكي بحرارة قائلا بحماس– "يازميلي العزيز, اريد ان اعبر عن شكري لك, لقد كنت مخطئا لخمسة عشرة سنة خلت". صفقنا حتى احمرت ايدينا. ليس هناك من متطرف يقول ذلك عمليا. ولايفعل ذلك كل المشتغلون بالعلم. ولكن الجميع يصمتون حيال ذلك, ولايفعلون الشئ نفسه حيال السياسيين مثلا والذين يصابون باللعنات عندما يخطئون. ان ذكريات تلك الحادثة لاتزال تصيبني بالغصة .

كرجل علم, احمل العداء للتطرف الديني لانه يتهم الهيئات العلمية بالفسوق. انه يعلمنا الا نغير رأينا, ولايريد لنا نتعلم المعلومات المثيرة المتوفرة للمعرفة. انه يخرب العلم ويستنزف الفكر. واكثر الامثلة اثارة للحزن مما اعرف هو الباحث الامريكي كيرت وايز ,والذي يدير مركز الابحاث عن الاصل في كلية بريان في دايتون بولاية تنيسي. وليس من الصدفة ان كلية بريان سميت على اسم ويليام جينيكس بريان, المدعي العام الذي قاضى استاذ العلوم الطبيعية جون سكوبس فيما يمسى" محماكمة القرد" عام 1825 في دايتون. كان بإمكان وايز ان يحقق حلم صباه في ان يكون استاذا للجيولوجيا في جامعة عادية, جامعة من اهدافها الحث على "التفكير النقدي" بدلا عن التفكير البليد المتجلي بوضوع في موقع كلية بريان على الانترنت:"فكر بشكل ناقد وانجيلي". بالتأكيد لقد حصل على شهادته الجامعية من جامعة شيكاغو, وحصل على درجتي دكتوراه في الجيولوجيا وعلم المستحاثات من هارفارد (لااقل من ذلك) حيث درس تحت اشراف سيفن جاي غولد(لااقل من ذلك). كان مؤهلا وواعدا بمستقبل علمي كباحث شاب, وعلى الطريق الصحيح ليحقق حلمه بالتدريس واجراء الابحاث في جامعة محترمة .

ولكن شيئاً تراجيديا اعترض طريقه. لم يأت من الخارج ولكنه اتى من داخل عقله. عقل اضعفته وخربته نشأة دينية متطرفة تطلبت منه ان يصدق بأن الارض – موضوع دراسته الجيولوجية في شيكاغو وهارفارد – عمرها اقل من عشرة الاف عام. لقد كان اكثر معرفة من ان يتجاهل التناقض بين دينه وعلمه, وهذا التناحر في عقله لم يكن سهلا . وفي احد الايام, اتى بمقص. واخذ الكتاب المقدس وبدأ بقراءته من الاول وهو يقص ويرمي كل جملة يتوجب رميها فيما لو كان العلم صحيحا. وفي نهاية تلك المحاولة الامينة بشكل هائل والمتطلبة لجهد كبير لم يتبق الكثير من كتابه المقدس بحيث انه كتب :

" بعد التجربة, حتى بوجود الهوامش السليمة على الصفحات, وجدت انه من المستحيل ان التقط الكتاب المقدس دون ان ينفرط. وعلى ان اقرر بين التطور والكتاب المقدس . اما ان الكتاب المقدس صحيح وان التطور خطأ. او ان التطور صحيح وعلى ان اهمل الكتاب المقدس... وفي ذلك الوقت قررت ان اتقبل كلام الله وارفض كل ما يتعارض معها, متضمنا التطور. وبذلك, وبحزن شديد, رميت العلم واماني العلمية كلها في النار"

اجد ذلك حزينا بشكل مؤلم. وبينما تحرك قصة جهاز غولجي تجعل الدموع تغرغر في عيني, اجد قصة كيرت وايز مأساة تثير الشفقة. الشفقة لوضاعتها. الجرح لمستقبله المهني وسعادته في الحياة هو من عمل يديه, لم يكن له ضرورة, من السهل تفاديه. كل ما كان عليه ان يفعله هو ان يرمي الكتاب المقدس. او تفسيره بشكل رمزي, او مجازي ,كما يفعل رجال الدين. بدلا عن ذلك, فعل ما يفعله المتطرفون ورمي بالعلم, الادلة والعقلانية للخارج ومعها كل احلامه وامانه .

ربما تكون حالة فريدة في التطرف, حالة كورت وايز الامين, اميو بشكل مؤلم, امانة تصيبك بالصدمة. اعطه جائزة تمبلتون: ربما يكون متلقيها الامين الوحيد. وايز يكشف لنا ما يجري في الخفاء, في عقول المتطرفين بشكل عام, عندما تعترض الادلة العلمية على ايمانهم. لنستمع لخطبته المنمقة :

" على الرغم من وجود اسباب علمية لتقبل الارض الشابة, فأنا من المؤمنين بصغر عمرها لان ذلك ما افهمه من الكتاب المقدس. وكما قلت لاساتذتي في الجامعة سابقا ,لو كل ادلة العالم كانت مضادة لنظرية الخلق, فسأكون اول من يعترف بها, ولكنني سأظل خلوقيا لان ذلك ما يشير اليه كلام الله. وهذا هو موقفي" .

يبدوا انه يقتبس من لوثر الذي ثبت اطروحته لعلم الدين بمسمار على باب الكنيسة في ويتنبرغ, ولكن المسكين كورت يذكرني اكثر ب ونستون سميث في قصة 1984 (جورج اورويل) والذي يسعى ويعاني لتصديق ان اثنان زائد اثنان يجب ان يساووا خمسة اذا قال الاخ الكبير ذلك. ولكن ونستون كان تحت التعذيب. والتفكير المزدوج ل وايز لم يأت من اوامر تحت التعذيب ولكن من اوامر تبدوا غير قابلة للنفي من قبل البعض مصدرها الايمان الديني: يمكن اعتبارها كتعذيب عقلي. انا اعادي الدين لما فعله ب كورت وايز .وعندما يكون الدين قادرا على فعل ذلك مع جيولوجي من هارفارد, فكر فقط بما يمكن ان يفعله بأخرين اقل قدرة على التفكير واقل قابلية على التعقل .

التطرف الديني نزعة جحيمية لتخريب الثقافة العلمية للالاف مما لايحصى من الابرياء ,ذوو النوايا الطيبة, والعقول الشابة المندفعة. والاعتدال (اللاتطرف) ربما لايفعل ذلك .ولكنه يجعل الطريق ممندا للمتطرفين عندما يدرس الاطفال, منذ اعوامهم الاولى, بأن الايمان بدون سؤال فيه قيم عليا .

الوجه المظلم للاحكام المطلقة

في الفصل السابق, عندما حاولت شرح الانزياح الاخلاقي لروح العصر, ادرجت المضامني الواسعة المتفق عليها بين الاجرار المتنورين والشرفاء من الناس. ورسمت صورة وردية بالافتراض بأننا جميعا نوافق على تلك الاتفاقيات والبعض منا يتفق اكثر من الاخرين ,ووضعت في اعتباري اغلب من سيقرأ هذا الكتاب, بغض النظر عن كونهم متدينين او ليسوا كذلك. ولكن بالطبع, ليس الجميع على اتفاق (ولن يكون للجميع الرغبة في قراءة الكتاب). يجب الاعتراف بأن الاحكام المطلقة بعيدة جدا عن كونها ميتة. بالطبع, فإنها تتحكم بعقول الكثيرين من البشر في العالم اليوم. والخطورة في معظمها هنا في العالم الاسلامي والحكومة الدينية الامريكية (انظر كتاب كيفن فيليبس بهذا العنوان). المطلقين كهؤلاء في اغلب الاحيان هم نتيجة ايمان ديني قوي, وتشكل سببا رئيسيا للاقتراح بأن الدين يمكن ان يكون قوة شريرة في العالم .

ان احد اعنف العقوبات التي في العهد القديم هي التي تنفذ بحق الكافر. ولاتزال تطبق في بعض الدول. القانون رقم 295 في القانون الباكستاني يفرض عقوبة الموت لتلك (الجريمة). في 18 اب ,2001 حكم على الطبيب المحاضر يونس شيخ بالموت لكفره .وجريمته كانت بأنه قال لطلابه بأن محمد لم يكن مسلما قبل يخترع ذلك الدين في الاربعين من عمره. احد عشر طالبا من طلابه كتبوا به تقريرا للسلطات عن "تهجه". قانون الكفر في الباكستان يطبق بشكل خاص ضد المسيحيين, مثل اوغستين عاشق "كنغري" مسيح, والذي حكم عليه بالموت في فيصل اباد عام 2000. أوغستين مسيح ,كمسيحي, لم يكن مسموحا له بالزواج من حبيبة قلبه لانها كانت مسلمة و – بشكل لايصدق – لايسمح القانون الباكستاني (والاسلامي) بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم .وبالتالي حاول ان يعتنق الاسلام وعندها اتهم بأنه يفعل ذلك لدوافع اخرى. ليس من الواضح في التقرير الذي قرأته بأن تلك كان هي الجريمة الرئيسية او انها كانت بسبب الزعم بأنه قال شيئأ سيئأ عن اخلاق النبي. وفي كلتا الحالتين, فإن الامر بالتأكيد لايستدعي عقوبة الموت في اي بلد لديها قانون مستقل عن التعصب الديني .

في 2006 وفي افعانستان, حكم على عبد الرحمن بالموت لانه اعتنق المسيحية. هل قتل احدا؟ هل اذى احدا؟ سرق شيئأ؟ تسبب بالضرر لاحد؟ لا. كل ما فعله هو انه غير معتقده. بشكل شخصي وداخلي, اصبح تفكيره مختلفا عن التفكير الذي يروق للحزب الحاكم في بلده. ولنتذكر بأن ذلك لم يحدث في فترة طالبان بل في فترة "الحرية" الافغانية تحت سلطة حامد كرزاي, الذي تسلم السلطة من الحلفاء الذين قادتهم امريكا . السيد رحمن تخلص من الاعدام, بعد كل ذلك ولكن فقط بإدعائة الجنون, وبعد الكثير من الضغط العالمي. وهو الان لاجئ في ايطاليا, ليتفادى القتل من قبل المتطرفين

المتحمسين لاداء واجباتهم الاسلامية. لايزال ذلك القانون نافذا في افغانستان "المحررة" بأن عقوبة الردة هي الموت. و لنتذكر هنا بأن الردة لاتعني اي ضرر يلحق بشخص او اي شئ اخر. انها فقد جريمة فكرية, كما وصفها جورج اورويل في كتابه 1984, والعقوبة الرسمية في القانون الاسلامي هي الموت. في 3 ايليو عام 1992, وكمثال على تنفيذ ذلك الحكم, قطع رأس صديق عبد الكريم ملاله امام الجموع في السعودية لانه اتهم رسميا بالكفر والارتداد .

التقيت مرة في برنامج تلفزيوني مع السير اقبال ساكراني, والذي نوهت عنه في الفصل الاول كونه القائد للاسلام "المعتدل" في انكلترا. وتحديته عن منطقية عقوبة القتل لجريمة الردة. حاول التلوي في الرد ولكنه لم يستطع نفيها او الانتقاص منها. ظل يحاول تغيير الموضوع, قائلا بأنها تفاصيل غير مهمة. هذ الرجل اعطي لقب فارس من الحكومة البريطانية لبناء علاقات جيدة "بين المعتقدات" .

ولكن دعونا لانعبر عن الرضى في المملكة المسيحية. ففي عام 1922 وفي بريطانيا ,حكم على حون ويليامز غوت بالسجن لتسعة اشهر مع الاشغال الشاقة لكفره, لقد شبه المسيح بالمهرج. وبشكل يكاد لايصدق, لاتزال العقوبة قائمة في كتب القانون في بريطانيا. وفي عام 2005 حاولت حماعة مقاضاة محطة البي بي سي بتهمة الكفر لعرضها برنامج جيري سبرينغفيلد, الاوبرا

في الولايات المتحدة الحديثة, طرحت العبارة "الطالبان الامريكيين", وببحث سريع في غوغل نجد اكثر من دزينة مواقع قد طرحتها. المختارات التي جمعوها, من القادة المتدينين الامريكان والسياسيين ذوو القواعد الدينية, تصيب بالقشعريرة لتعصبها, وعنفها الخالي من الرحمة والدناءة المشابهة لحركة طالبان الافغانية واية الله الخميني والسلطة الوهابية في السعودية. الموقع المدعو "الطالبان الامريكيين" مصدر غني بشكل خاص بتلك العبارات البغيضة واولها من شخصية تدعى ان كولتير والتي, كما قال لي زملاء امريكيون, ليست ساخرة بأقولها. قالت في مجلة الاريون:" يجب ان نتحل بلادهم ونقتل زعمائهم ونحولهم للمسيحية". اخرون من بينهم عضو الكونغرس بوب دورنان قال"لاتستعمل الكلمة "غيي (كلمة تطلق على الشواذ جنسيا)" الا في حالة كونها في جملة مثل "ليساعد الله .. ؟) الجنرال وليام جي بويكين قال "جورج بوش لم ينتخب من اغلبية المصوتين في امريكا, ولكنه تعين في منصبه من الله". وعبارة اخرى في معرض الحديث عن قوانين الحفاظ على البيئة من قبل نائب رونالد ريغان للشؤو الداخلية"لايجب علينا حماية البيئة لان القدوم الثاني (للمخلص) في ايدينا". الطالبان الافغانيين والامريكيين مثال جيد على ما يحدث عندما يأخذ الناس كتابهم المقدس بشكل حرفي وجدي. انهم يقدمون لنا مثالا عصريا عما سيؤول اليه الحال تحت السلطة الدينية للعهد القديم. كتاب كيمبرلي بلاكر: اسس التطرف: المسيحية في قلب امريكا. هو كتاب مكرس لفضح الخبث في المسيحية الطالبانية (لايذكر هذا الاسم في الكتاب).

ألأيمان والمثلية الجنسية

في افغانستان وتحت حكم طالبان, كانت العقوبة الرسمية للمثلية الجنسية هي الاعدام ,وذلك بدفن الشخص حيا تحت جدار يدفع فوق الضحية. كون "الجريمة" موضوع يتم بشكل شخصي وبعيد عن الاخرين وتمارس بين بالغين راشدين لايقصدون الاذى لاي كان ,وهنا ثانية لدينا علامة فارقة فيما يتعلق بالاحكام المطلقة . وبلدي انا ليس له الحق في التعجرف. المثلية الخصوصية كانت تعتبر جريمة حتى عام 1967 . في عام 1954 انتحر الرياضي البريطاني الان تورينغ , والذي كان مؤهلا الى جانب جون فون نيومان للقب مخترع الكومبيوتر بعد ان اتهم بجريمة المثلية الجنيسة. واعترف بأن تورينغ لم يدفن حيا بهدم حائط على رأسه بواسطة دبابة. بل اعطي الخيار بين عامين في السجن (تستطيع تخيل معاملة بقية السجناء له) وبين معالجة هرمونية والتي كان يمكن ان تؤدي به لكارثة كيماوية, وسينمو له صدر, وخياره كان تفاحة حقنها بالسيانيد .

وكفكر محوري في تحطيم الشيفرة الالمانية الغامضة, من الممكن ان نعتبر ان مساهمة تورنينغ في هزيمة الالمان اكبر من تلك التي لايزنهاور وتشرشل. وبفضل تورينغ وزملائه اللامعين في باتشلي بارك. كان القادة من الجنرالات في الجبهة يحصلون على كل المعلومات عن التحركات الالمانية وبشكل مستمر خلال الحرب قبل ان يتمكن الضباط الالمان من تينفيذها. وبعد الحرب, عندما لم يعد دور تورينغ سريا جدا, كان يجب تقليده رتبة فارس واعتباره احد منقذي امته. عوضا عن ذلك, فإن ذلك العبقري اللطيف والغريب الاطوار دمر تماما, لـــ"جريمة" ارتكبت بمعزل عن الجميع ولم تؤذ احدا ابدا .مرة اخرى نرى العلامة الواضحة بأن الاخلاقي الايماني يجب ان يهتم بما يفعله الاخرون (و حتى مايفكرون) في عزلتهم .

ان موقف "الطالبان الامريكيين" نحو المثلية يلخص احكام تدينهم المطلقة. لتستمع للموقر جيري فالويل, مؤسس جامعة الحرية:"الايدز ليس فقط عقوبة الله للمثليين الجنيسيين : بل انه عقوبة الله للمجتمع الذي يتحمل المثليين". الشئ الذي لاحظته في اؤلئك الناس هو كرمهم المسيحي الرائع. من ذا الذي يصوت مرة بعد اخرى لرجل قليل الاطلاع متعصب مثل السيناتور جيسي هيلم, الجمهوري في كارولينا الشمالية؟ رجل يحقر قائلا:" صحيفة النيويورك تايمز والواشنطن بوست متخمتان بالمثليين. وتقريبا كل شخص هناك مثلي جنسي". الجواب, افترض انا , هو اؤلئك المصوتون الذين يرون الاخلاقيات من منظارها الديني الضيق ويشعرون بالتهديد من اي شخص لايشاركهم ايمانهم المطلق .

لقد اقتبست عن بات روبرتسون سابقا, مؤسس التحالف المسيحي. كان مرة مرشحا قويا لرئاسة امريكا من قبل الحزب الجمهوري في 1988, وحصل على اكثر من ثلاثة ملايين متبرع للعمل في حملته الانتخابية, اضافة الى مثل ذلك العدد من الدولارات: دعم يدفع للصمت, مع العلم بأن العبارات التالية هي نموذج ما خطابه:" (المثليون) يريدون ان يأتوا للكنيسة ويعرقلوا القداس ويرشون الدم حولهم محاولين اصابة الناس بالايدز ويبصقون في وجه الكاهن". (صحيفة بلاند بارنتهود) تعلم الاطفال على الزنا, وتعلم الناس بأن يرتكبوا الفاحشة وكل انواع البهيمية, اللواط,السحاق – كل ما يلعنه الكتاب المقدس". مواقف روبرتسون نجو المرأة, ايضا, تدفئ القلوب السوداء للطالبان الافعان: "اعرف بأنه من المؤلم لامرأة ان تسمع ما اقول, ولكنك حينما تتزوجين, فإنت قد قبلت رئاسة الرجل. زوجك, المسيح هو رأس الكنيسة والزوج هو رأس الزوجة, وذكل هو الطريق الصحيح, نقطة انتهى".

غاري بوتر, رئيس الحركة السياسية الكاثوليكية للمسيحيين, قال:" عندما تتسلم الاغلبية المسيحية قيادة هذا البلد, لن يبقى هناك كنائس شيطانية, ولا توزيع مجاني لافلام الاباحة ,ولاكلام عن حقوق المثليين. بعد ان تستلم الاغلبية المسيحية زمام الامور, ستصبح التعددية غير اخلاقية وشريرة ولن تسمح الدولة لاي كان بإرتكاب الشر". "الشر", كما هو واضح من العبارة, لاتعني عمل اشياء قد يكون لها عواقب على الناس. بل تعني الافكار والاعمال بمعزل عن الاخرين والتي لا تروق ل" الاغلبية المسيحية" .

القسيس فريد فيلبه, من كنيسة وستبورو, هو خطيب قوي اخر مع كره شديد للمثلية .وعندما ماتت ارملة مارتن لوثر كينغ, رتب القسيس فريد خطبة في جنارتها واعلن:" الله يكره اللوطيين ومشجعي اللواطة, ولهذا, فإن الله يكره كوريتا سكوت كينغ وهو الان يعذبها بالنار والكبريت حيث لاتموت الديدان ابدا ولاتخبو النار, ودخان عذابها يصعد عاليا لابد الابدين". من السهل ان نأخذ فريد فيلبس على انه مجنون, ولكن لديه عددا هائلا من الاتباع واموالهم. وبناء على موقعه في الانترنت, فلبس قد رتب 22000 مظاهرة مضدة للمثلية منذ عام 1991 (بمعدل مظاهرة كل اربعة ايام). في امريكا وكندا, الاردن والعراق, وعرض المتظاهرون شعارات مثل "نشكر الله على الايدز". ومن الامور الجذابة في موقعه بشكل خاص حسابات الية عن عدد الايام في الجحيم لبعض الشخصيات المثلية المتوفية .

المواقف نحو المثليين ترينا الكثير عن نوع الاخلاقيات التي تستوحى من الدين. امثلة مشابه نتعلم منها بشكل مشابه هي عن الاجهاض وقداسة الحياة الانسانية .

ألايمان وقدسية الحياة الانسانية

البويضات الانسانية امثلة على الحياة الانسانية. ولذلك, وفي ضوء التدين والقيم المطلقة, فإن الاجهاض ببساطة خطأ بالتمام. لاعرف بماذا احكم عن ملاحظتي الظريفة عن ان العديدين ممن يعارضون اخد بويضة يتحمسون بشكل عام اكثر من المعتاد لاهلاك حياة شخص بالغ. وللانصاف فأن ذلك لاينطبق , كقاعدة, على الروم الكاثوليكيين, والذين هم من الد اعداء الاجهاض. إلا ان المولود ثانية (جورج بوش), هو نموذج للتصاعد الديني .هو , وهم, من انصار المدافعين عن الحياة الانسانية, طالما انها في مرحلة البويضة (او مريضة بمرض مميت) – لدرجة منع ابحاث طبية كانت لتنقذ حياة الكثيرين. ان السبب الرئيسي لرفض عقوبة الاعدام هو احترام حياة الانسان. ومنذ 1976 حين اقرت المحكمة العليا عقوبة الاعدام, اصبحت تكساس مسؤولة عن حوالي ثلث الاعدامات التي جرت في كل الولايات. والرئيس بوش ترأس اعدامات عندما كان حاكما للولاية اكثر من اي حاكم اخر في تاريخ الولاية, بمعدل اعدام كل اربعة ايام. ربما كن ببساطة ينفذ القانون. لكن, عندئذ ماذا تقول عن التقرير الشهير ل سي ان ان للمحرر تاكر كارلسون؟ . كارلسون , الذي يصادق على عقوبة الاعدام , صعق عند مشاهدته بوش يقلد "بمسخرة" سجينة تنتظر الاعدام, وتلتمس من الحاكم ان لاتعدم: "ارجوك" , ينشج بوش, ويزم شفتيه بيأس وهمي,"لاتقتلني". ربما لقيت تلك المرأة تعاطفا اكبر لو

انها اشارت الى انها كانت بويضة في يوم ما. ان النظر لموضوع البويضة يبدو وكان له اكبر الاثر على العديدين من المؤمنين. الام تريزا قالت فعلا, في خطابها عند حيازتها على جائزة نوبل, "ان اكبر مدمر للبشرية هو الاجهاض". ماذا؟ كيف يمكن لامرأة تمتلك رأيا كهذا ان تؤخذ بجدية في اي موضوع جدي. ناهيك عن كون الفكرة جدية لتستحق جائزة نوبل؟ واي شخص يود ان يعرف اكثر عن نفاقها وتظاهرها بالتقوى عليه ان يقرأ كتاب كريستوفر هيتشينز الوضعية التبشيرية: الام تريزا بين النظرية والواقع .

وعودة للطالبان الامريكيين, لنستمع الى راندال تيري, مؤسس (حركة الانقاذ), وهي مؤسسة مضادة لاطباء الاجهاض." عندما اكون, او احد مثلي, حاكما للبلد, من الافضل ان تهربوا, لاننا سنجدكم, سنحاكمكم, وسنعدمكم. واعني كل كلمة قلتها. سأجعل ذلك جزأ من مهمتي بأن تحاكموا جميعكم وتعدموا" تيري يقصد الاطباء الذين يعملون عمليات الاجهاض, والهامه المسيحي يرى في تعليق اخر :

"اريد منكم ان تشكلوا موجة من المضايقات. اريد ان تتركوا موجة من الكره تجتاحكم .نعم, الكره جيد ... هدفنا هو دولة مسيحية. لدينا واجبات انجيلية, والله نادانا, لاخذ البلد غصبا. لانريد مساواه, لانريد تعددية .هدفنا يجب ان يكون بسيطا. علينا ان نكون دولة مسيحية مبنية على قوانين الله, على الوصايا العشرة. ولاحرج"

إن الطموح لانجاز دولة فاشية مسيحية نموذجي جدا في حالة الطالبان الامريكان. وكأنها انعكاس لصورة الحماس لاقامة الدولة الاسلامية الفاشية في اركان اخرى من العالم .راندال تيري لايمتلك – بعد – قوة سياسية. ولكن ليس هناك من مراقب للمسرح السياسي الامريكي في وقت كتابة هذا الكتاب (2006) بإمكانه احتمال حدوث ذلك .

ان النصير للمذهب النفعي او النتائجي سيقارب السؤال عن الاجهاض بطريقة مختلفة ,وذلك بأن يقارن المعاناه. هي تعاني البويضة؟(المفترض ان الجواب لا. اذا اجهضت قبل امتلاكها لجهاز عصبي, وحتى لو كانت من السن بحيث ان لديها جهاز عصبي فإنها بالتأكيد تعاني اقل ,ولنقل كمثال, بقرة بالغة في المسلخ). هل تعاني المرأة الحامل او عائلتها لو لم تجهض؟ ممكن جدا: وعلى اية حال, وبما ان البويضة لاتمتلك جهازا عصبيا, الا يجب على الام ذات الجهاز العصبي المكتمل ان يكون لها رأي؟ لن اعارض في انه من الممكن ان تكون هناك اسباب للنتائجيين لمعارضة الاجهاض. حجة "المنحدر الزلق" يمكن ان يكونها النتائجيون(ولن افعل هذا في هذه الحالة). ربما لاتعاني البويضة, ولكن في مجتمع يسمح فيه بإزهاق الحياة البشرية يكمن خطر ان الذهاب لابعد من الحد: اين يقع خط النهاية؟ الوأد؟ ان لحظة الولادة تعطينا مؤشرا طبيعيا لتعريف الثواعد, وبالمستطاع الجدل بأنه من الصعب ايجاد لحظة ابكر من خلال تطور البويضة .
ان حجة المنحدر الزلق يمكن ان تجعلنا نعطي للحظة الولادة مميزات اكبر مما يريد النتائجيون بإستنتاجاتهم الضيقة الافق .

والجدلية حول موت الرحمة ايضا, يمكن ان توضع في اطار المنحدر الزلق. لنتخيل عبارة من فيلسوف اخلاقي:"عندما تسمح للاطباء بأن يضعوا حدا لمعاناة المحتضر, فسيضرب كل واحد جدته لحد الاحتضار للحصول على اموالها. نحن الفلاسفة ربما ترفعنا عن الاحكام المطلقة, ولكن عامة الشعب يجب ان تلتزم بقوانين مطلقة مثل "لاتقبل" وإلا فإنها لن تعرف حدودها. تحت طائلة بعض الظروف, يمكن للاحكام المطلقة احيانا ,ولاسباب خاطئة في مجتمع غير مثالي, ان يكون لها نتائج افضل من النتائجية الساذجة ,نحن الفلاسفة ربما نجد صعوبة في منع اكل الانسان الميت والغير مندوب مثل صعلوك مقتول بسبب حادث على حافة طريق, ولكن, ولاسباب تتعلق بالمنحدر الزلق, فإن الحكم المطلق بتحريم اكل البشر لايمكن ان نخاطر بخسارته" .

ربما تعتبر حجة المنحدرالزلق طريقة تمكن النتائجيين من ادخال شكل من الحكم المطلق بشكل غير مباشر. ولكن خصومة الاديان للاجهاض لاتزعج نفسها بالمنحدرات الزلقة. بالنسبة لهم, الموضوع ابسط بكثير. البويضة "طفل", قتلها هو جريمة قتل, وهذا كل شئ: انتهى الحوار. يتبع ذلك الكثير من المواقف المطلقة. وكبداية, ان ابحاث البويضات المتعلقة بخلايا المنشأ يجب ان تتوقف, برغم توقع الفوائد الضخمة في علوم الطب, لاها تتطلب موت بويضات. والتضارب واضح عندما تفكر بمجتمع يتقبل التخصيب خارج الجسم, والذي يحرض فيه الاطباء جسم المرأة بإستمرار لانتاج عدد اضافي من البويضات, لاخصابها خارج الجسم. ربما يصل العدد لدزينة, ومنها اثنتان او ثلاث تزرع في الرحم. والتوقع هنا بأن واحدة او اثنتان على الاكثر تكمل الحمل. وبالتالي فإن الاخصاب الخارجي يقتل في مرحلتين من مراحله, والمجتمع بشكل عام ليس لديه اي اعتراض على ذلك. ولخمسة وعشرين عاما, يظل الاخصاب الخارجي اجراءا نموذجيا لجلب البهجة لحياة الازواج الغير منجبين .

ربما يكون للمتدينين المطلقين مشكلة مع الاخصاب الخارجي. صحيفة الغارديان في 3 حزيران 2005 كتبت قصة محيرة تحت عنوان" استجابة زوج وزوجة مسيحيان لنداء من اجل انقاذ بويضة زائدة من عملية اخصاب خارجي". القصة عن مؤسسة تسمى ندف الثلج والتي تهتم بإنقاذ البويضات الزائدة من عيادات الاخصاب الخارجي. "لقد شعرنا حقيقة بأن الاله يدعونا لمحاولة اعطاء احدى هذه البويضات – الاطفال – فرصة للحياة" .قالتها امرأة من ولاية واشنطن, والتي كان طفلها الرابع نتيجة ذلك "التحالف الغير متوقع للمسيحيين المتحفظين مع عالم اطفال الانابيب". ولقلقها من هذا التحالف, فقد قام زوجها بسؤال الكاهن في الكنيسة, والذي اجابه," لو اردت تحرير عبد, فعليك في بعض الاوقات ان تتعاقد مع تاجر العبيد". اعجب عما سيقوله هؤلاء لو عرفوا بأن غالبية البويضات الملقحة تجهض في الحالة العامة. ربما يعتبرونها نوعا من "التحكم بالنوعية" .

بعض المتدينين لايستطيعون التمييز بين قتل بضعة خلايا ميكروسكوبية من ناحية وبين قتل طبيب مكتمل النمو من الناحية الاخرى. لقد اقتبست من راندال تيري مسبقا و حزبه"عملية الانقاذ" . مارك يورغينسماير, في كتابه الذي يصيب بالقشعريرة الارهاب في عقل الاله , عرض فيه صورة الموقر مايكل باري مع صديقه الموقر باول هيل, يمسكان بلافتة تقول:"هل من الخطأ منع قتل الاطفال الابرياء؟" . الاثنان يبدوان لطيفين, شابان يافعان, يبتسمان بود, بملابس انيقة, صورة معاكسة تماما للمجانين بعيونهم المشخصة .رغم ذلك وبمشاركة زميلهما الثالث من جيش الاله, فقد جعلوا مهمتهم احراق عيادات الاجهاض, ولم يترددوا في البوح برغبتهم بقتل الاطباء. وفي 29 تموز 1994 قتل باول هيل الدكتور جون بريتون ببندقية صيد مع مرافقه جيمس باريت خارج عيادة بريتون في بنساكولا بولاية فلوريدا. وبعدها سلم نفسه للشرطة, قائلا بأنه قتل الطبيب ليمنع اي قتل مستقبلي بحق "الاطفال الابرياء" .

مايكل براي دافع عن ذاك التصرف في كل مقابلة اجراها تتمحور حول الاخلاق, كما اكتشفت عندما اجريت معه مقابلة في حديقة عامة في كولورادو سبرينغ, وذلك من اجل البرنامج الوثائقي عن الدين. وقبل ان نأتي الى موضوع الاجهاض, فحصت معايير براي عن الاخلاق المبينة على الكتاب المقدس بسؤاله بعض الاسئلة التمهيدية. اشرت الى ان القانون الانجيلي يحكم على الزاني بالموت رجما. وتوقعت ان ينكر هذا المثال الخصوصي لوضوح كونه خارج حدود المعقول, ولكنه فاجأني. لقد ابدا سعادته بالموافقة على ان يعدم الزاني بعد الاجراءات القانونية. بعد ذلك اشرت الى ان باول هيل, مع كل دعم براي, لم يتبع الاجراءات بل تصرف وكأن القانون بيده وقتل الطبيب. براي دافع عن تصرف صديقه الكاهن, بنفس الطريقة التي اتبعها عندما اجرى يورغينسماير المقابلة معه, بأن فرق بين القتل الجزائي, مثل قتل طبيب متقاعد, وقتل طبيب لايزال يعمل وذلك لمنعه من ارتكاب "القتل المتواصل" للاطفال. عندها وضعته في الصورة التالية , بفرض ان اعتقاد باول هيل لايشك في امانتها, ولكن المجتمع سينحط لفوضوية مرعبة عندما يعتبر كل فرد فيه ان قناعاته هي القانون ويتصرف على اساسها, بدلا عن طاعة قانون البلد. اليس من الصحيح محاولة تغيير القانون ديموقراطيا؟ اجاب براي: "تلك هي المشكلة عندما لايكون لدينا قانون مبين على قانون اصلي: عندما تكون قوانينا موضوعة من قبل بشر نزويين, كما رأينا في حالة القانون المدعو قانون حقوق الاجهاض, لقد فرض هذا القانون على الناس من قبل الحكام.." بعدها وصلنا الى جدل حول الدستور الامريكي ومن اين اتت القوانين. وموقف براي من ذلك ضهر مشابها جدا لمواقف العسكريين الاسلاميين الذين يعيشون في بريطانيا والذين يعلنون عن انهم مرتبطون بقانون الاسلام فقط, وليس بالقانون الديموقراطي المطبق في الدولة التي تبنتهم .

في 2003 اعدم باول هيل لقتله الدكتور بريتون ومرافقه الشخصي, قائلا بأنه لو استطاع لفعلها ثانية لانقاذ الاجنة. وبينما يترقب ان يموت من اجل فكرته, قال في مؤتمر صحفي," اؤمن بان اعدامي من قبل الدولة سيجعل مني شهيدا". يمينيون من المناهضين لقانون الاجهاض تظاهروا ضد الاعدام وانضم اليهم يساريون من المناهضين لحكم الاعدام والتي حرضت حاكم فلوريدا جاب بوش(الاخ الاصغر لجورج بوش) لان"يوقف استشهاد باول هيل". ومعقولية الجدال كانت عن ان القتل القانوني لباول هيل ربما يشجع على حدوث جرائم قتل مماثلة, وهذا مضاد تماما للهدف من عقوبة الاعدام. هيل كان مبتسما طوال الطريق الى غرفة الاعدام قائلا,"اتوقع جزاء عظيما في السماء .. وانتظر الظفر العظيم بفارغ الصبر" واقترح بأن على الاخرين ان يحذو حذوه بذلك العنف. ولتوقع هجوم انتقامي "لاستشهاد" باول هيل, صعد البوليس مستوى الانذار لاعلى مستوى بينما كان هيل يعدم, والعديدون ممن لهم علاقات بالقضية تلقوا رسائل تهديد بداخلها رصاصات مسدس .

كل ذلك الرعب اصله من اختلاف بسيط في المعايير. هناك من الناس, وبسبب قناعاتهم الدينية, من يظنون بأن الاجهاض قتل ومستعدون للقتل دفاعا عن البويضات, والتي يسمونها"اطفالا". ومن جهة اخرى هناك من هم صادقون بشكل مماثل ومؤيدون للاجهاض, ومنهم من لديه قناعات دينية مختلفة, او بدون دين, مع اخلاق مبنية على النتائجية. هؤلاء يرون انفسهم ايضا كمثاليين, يؤمنون خدمات طبية للمرضى المحتاجين ,والذين كانوا سيؤولون لوضع انفسهم تحت رحمة

دجالين عاجزين في شارع خلفي. كل طرف يرى الطرف الاخر قاتلا او داعيا للقتل. الطرفان, بإلقاء الضوء عليهم, متساويان في الصدق .

احدى المتحدثات بإسم عيادة اجهاض اخرى وصفت باول هيل كمجنون خطر. ولكن من هم مثله لايفكرون بأنهم مجانين خطرين, بل يفكرون بأنهم طيبين, اخلاقيين, موجهين من قبل الاله. بالتأكيد, لااظن ان باول هيل كان مضطرب العقل, ولكنه فقط متدين. خطر؟ نعم, ولكن ليس مضطرب العقل. متدين بشكل خطر. ومن وجهة نظر ايمانه الديني, فإن هيل كان محقا واخلاقيا تماما عندما رمى الدكتور بريتون بالرصاص. ما هو خاطئ في هيل هو ايمانه الديني بحد ذاته. مايكل براي, ايضا, عندما قابلته, لم يعطني انطباعا عن انه مضطرب عقليا. بل انه حتى اعجبني. فكرت بأنه انسان امين ومخلص, يتكلم بهدوء وبعد تفكير, ولكن عقله للاسف كان غارقا في ترهات دينية مسمومة .

ان معظم معارضي الاجهاض بقوة هم من المتدينين العميقين, ومؤيدي الاجهاض الصادقين, بعض النظر عن كونهم متدينين شخصيا ام لا, يلحقون غالبا بالغير متدينين ,فلاسفة الاخلاق النتائجيون, غالبا يستعملون سؤال جيرمي بويثام."هل يستطيعون المعاناة". باول هيل ومايكل براي لم يروا فرقا اخلاقيا بين قتل بويضة وطبيب غير ان البويضة بالنسبة لهم "طفلا" بريئا لايلام. النتائجيون يرون الموضوع من عالم مختلف. ان بويضة مبكرة ليس لها مظهر, او شبها حتى للدعموص. الطبيب بالغ يأمل ويحب ولع تطلعات ومخاوف, مخزن انساني ملئ بالمعرفة, والقدرة على الشعور العميق, ومن المرجح ان هناك ارملة يائسة ويتامي وربما اهل كبار في السن مخرفين يعتمدون عليه .

باول هيل سبب معاناة عميقة وحقيقة لكائنات لديها اجهزة عصبية قادرة على المعاناة .بينما ضحيته الطبيب لم يفعل شيئا كهدا. البويضات المبكرة ليس لها جهاز عصبي وبالتأكيد لاتعاني. ولو ان البويضة المجهضة المتأخرى مع جهاز عصبي تعاني – برغم ان كل معاناة محزنة – فالمعاني ليس انسانا. ليس هناك اسباب عامة لافتراض بأن البويضة الانسانية في اي عمر تعاني اكثر من بويضة بقرة او خروف في نفس مرحلة التطور .وهناك كل الاسباب لافتراض بأن البويضات كلها, انسانية او غيرها, تعاني اقل بكثير من البقرة البالغة او الخروف البالغ في المسلخ, خصوصا في المسالخ حيث, ولاسباب دينية ,يجب ان يكونوا في كامل وعيهم عند قطع جناجرهم بشكل احتفالي .

من الصعب قياس المعاناة. والتفاصيل ربما تناقش. ولكن ذلك لايؤثر على نقطتي الرئيسية, والتي تركز على الفرق بين النتائجيين العلمانيين والمطلقين المتدينين من ناحية الفلسفة الاخلاقية. احد مدارس الفكر يهمها اذا ما كانت البويضات تعاني. والاخرى يهمها كونها بشرا. اخلاقيوا الدين يسمعون وهم يناقشون اسئلة من قبيل,"متى تصبح البويضة المتطورة شخصا – انسانا؟". ان الاخلاقيين العلمانيين سيسألون, "ليس من المهم كونها انسانا ام لا(هل يعني ذلك اي شئ لمجموعة من الخلايا؟): في اي عمر تصبح بويضة متطورة ,لاي كائن كان, قادرة على المعاناة"

حجة بيتهوفن الكاذبة

الحركة التاليه التي يأتي بها إعداء الاجهاض عادة في المناظارت تجري بالشكل التالي .ان النقطة ليست في ان البويضة تستطيع المعاناه ام لا في الوقت الحاضر. النقطة تتركز حول (امكانياتها). الاجهاض منعها من ان تكون انسانا مكتملا في المستقبل. هذه الفكرة تلخص بحجة بلاغية, غباءها الشديد هو الدفاع الوحيد عن التهمة بكذبها الجدي .وانا اتحدث عن كذبة بيتهوفن الكبرى. والتي تتواجد بأشكال عدة. بيتر و جان ميدو, في كتاب علم الحياة, يعزيان الوجه التالي للقسة لنورمان سانت جون ستيفاس (والذي هو الان اللورد جون). عضو في البرلمان البريطاني وينتمي للروم الكاثوليك غير المتخصصين. وبدوره اخذ القصة من مرويس بارينغ ,(1874-1945) احد معتنقي مذهب الروم الكاثوليك واحد رفاق خادميها ج.ك تشيستيرتون وهيلاري بيلاوك. يعطي المحادثة التالية بين طبيبين كفرضية .

"ماذا عن انهاء الحمل, اريد رأيك. الاب مصاب بالسفلس, والام مصابة بإلتهاب الرئة. من اطفالهم الاربعة, الاول اعمي والثني مات, والثالث اطرش ومتخلف, والرابع مصاب بإلتهاب الرئة. ماذا كنت لتفعل؟"
"كنت لانهي الحمل"
"لقد قتلت بيتهوفين للتو"

الانترنت مليئة بمواقع تلقب نفسها با(انصار الحياة) ممن يعيدون هذه القصة السخفية ,ويغيرون فيها بحيوية طائشة. اليكم وجها اخر للقصة " لو علمت بأن امرأة حامل, كان لديها 8 اولاد, ثلاثة طرشان, اثنان عميان, واحد متخلف(كل ذلك لانها مصابة بالسفلس , (هل تفضل له ا ان تجهض؟ لكنت قتلت بيتهوفن اذن". تلك الاعادة تخفض رتبة المؤلف العظيم من خمسة الى تسعة في ترتيب الولادة, وترفع عدد الاعضاء المولودين طرشانا الى ثلاثة والعميان الى اثنان, وتعطي السفلس للام بدلا عن الاب. واغلب المواقع الثلاثة والاربعين التي وجدتها عند بحثي عن اوجه للقصة ,لاتعزيها لموريس بارينغ وإنما لبروفيسور يسمى ل. ر. اغنيو من جامعة كاليفورنيا للطب, والذي وضع الحزورة لطلابة وقال لهم "تهانينا, لقد قتلتم بيتهوفن للتو". ربما نعطي عذرا هنا بالشك بعدم وجود ل. ر .اغنيو – من المدهش كيف تنتشر تلك الشائعات. لا استطيع معرفة فيما لو اذا كان بارينغ هو من اسس الاسطورة, ام انها اخترعت قبلا .

اما عن كونها مخترعة فهذا اكيد. انها كاذبة بكاملها. الاحقيقة ان لودفيغ فاي بيتهوفن لم يكن الطفل التاسع او الخامس . انما هو البكر – بالتحديد رقم اثنين ولكن اخوه الاول مات في مهده, وكان ذلك شائعا ايامها, ولم يكن, على حد العلم, اعمى او اطرش او متخلف او غبي. ليس هناك اي ادلة على ان ايا من ابويه مريض بالسفلس, مع العلم ان امه ماتت بألتهاب الرئة, وكان ذلك شائعا ايامها .

هذه, في الواقع, قسة كاذبة بالكامل , مفبركة ومحاكة وبشكل مدروس من قبل اناس مهتمين بنشرها. ولكن الواقع بأنها كذب, على اية حال, ليس متعلقا بالنقطة التي اناقشها. وحتى لو لم تكن كاذبة, فإن الحجة المستقاة منها سيئة للغاية. بيتر و جين ميداوار لم يحتاجا للشك بالقصة ليثبتا كذب الحجة:"العقلانية خلف تلك الحجة الصغيرة كاذب بشكل يقطع الانفاس. على الاقل الافتراض بأن هناك علاقة ما بين الام المصابة بالتهاب الرئة والاب المصاب بالسفلس يؤدي لولادة عبقري موسيقي مثل بيتهوفن وان العالم كان ليحرم منه بواسطة الاجهاض بأحتمالية اكبر من حرمانه منه بعدم الاتصال الجنسي". ان نقض الحجة من ميداوار بشكل مشين ليس له اجابة (واستعير هنا احدى قصص روالد داهل القصيرة, ان ان القرار برفض للاجهاض مماثل عام 1888 انجب ادولف هيتلر). ولكنك لست بحاجة لكثير من المعرفة – ولا حتى حرية من نوع معين من التربية الدينية – لتعرف القصد. من المواقع الثلاثة والاربعين ل(انصار الحياة) يعرضون اوجها مختلفة لقصة بيتهوفن الاسطورية والتي اتاني بها غوغل بينما كنت اكتب هذا المقطع, لم تنتبه ايا منها الا لامنطقية الحجة. بل كلها (وكلها صفحات دينية) وقعت ضحية الكذبة, بالصنارة. واحدة منها قالت بأن المصدر هو ميداوار. متحمسين جدا اؤلئك الذين سارعوا لتصديق كذبة متجانسة مع دينهم, لدرجة انهم لم يلاحظوا حتى بأن ميداوار كتب حجته ليفجر الكذبة في الماء .

ان ميداوار على حق تماما عندما اشار الى الاستنتاج المنطقي لحجة "الامكانية الانسانية" بأننا نمنع انسانا من امكانية ان يكون موجودا كلما فشلنا بأنتهاز الفرصة لممارسة الجنس. كل رفض لاي عرض للاتصال بين شخصين خصبين هو, في ذلك الصدد(نصرة الحياة) المنطقي, مساو منطقيا لقتل امكانية ولادة طفل! حتى رفض الاغتصاب يمكن ان يعرف على انه قتل امكانية ولادة طفل (و, على فكرة, هناك الكثيرين من "انصار الحياة" من الذين يرفضون الاجهاض حتى للمرأة التي اغتصبت بعنف). نرى بوضوح سوء المنطق للجحة الخاصة ببيتهوفن. انها غباء غير طبيعي يعبر عنه بالاغنية اللامعة "كل نطفة مقدسة" والتي يغنهيا مايكل بالين, مع كورس من مئات الاطفال, في فيلم مونتي بايتون معنى الحياة (شاهده من فضلك اذا لم تفعل بعد). ان كذبة بيتهوفن الكبرى هي مثال نمودجي عن نوع الفوضى المنطقية التي نقع فيها عندما نخدع بالاحكام المطلقة المستوحاة من الدين .

لاحظ بأن "نصرة الحياة" لاتعني بالضبط نصرة الحياة بكل أشكالها على الاطلاق. بل انها تعني نصرة الحياة الانسانية فقط. إن المطالبة بضمان لحقوق خاصة فريدة من نوعها لخلايا النوع (هومو سابيان) يصعب ان يلتقي مع واقع التطور.ولنعترف, بأن ذلك لن يقلق اعداء الاجهاض والذين لايفهمون بأن التطور واقع! ولكن دعونا نوضح الحجة من اجل اعداء الاجهاض الاقل جهلا بالعلم .

ان وجهة نظر التطور بسيطة جدا. ان انسانية البويضة لايمكنها ان تمنح وضعا اخلاقيا غير متصل. لايمكن ذلك بسبب التطور المستمر مع الشمبانزي وبشكل ابعد, مع كل كائن حي على الكوكب. لنرى ذلك, تخيل بأن كائنا متوسطا, لنقل اوسترابيثيسوس اورانسيس ,اعطي الفرصة للبقاء واكتشف في منطقة نائية في افريقيا. هل يعتبر هذا الكائن انسانا ام لا؟ بالنسبة لشخص نتائجي مثلي, السؤال لايستحق حتى اجابة, لان ذلك لن يضيف شيئا. من الكافي ان نحصل على السحر والشرف بلقاء "لوسي" جديدة. مؤيد الاحكام المطلقة, من الجهة اللاخرى, عليه ان يجيب على السؤال, ليستطيع ان يطبق مبادئ الاخلاق الخاصة عن ضمان المميزات الخاصة والفريدة للبشر لانهم بشر . وعندما يصل الامر للنزاع, فأنا افترض بأنهم سيحتاجون لانشاء محاكم, كما حال التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا, لتحديد لو ان كائنا ما يعتبر انسانا .

وحتى لو كان هناك جوابا واضحا في حالة الاوسترالوبنثوكوس, فإن الاسمترار المتدرج الذي لامهرب منه للتطور البيولوجي يقول لنا بأنه يجب ان يكون هنالك "متوسط ما" قريب جدا "لخط الحدود" ويمكن ان يعشي المبادئ الاخلاقية ويدمر اطلاقيتها. الطريقة الافضل هنا هو ان نقول بأنه ليس هناك حدود في التطور. وان وهم الخط الجدودي خلق بسبب ان "المتوسطون" في تاريخ التطور قد انقرضوا. بالطبع, من الممكن الجدال في ان الانسان لديه القدرة على المعناة اكثر من كائن اخر. ويمكن ان يكون ذلك حقيقيا حقا, وبالتالي يمكن ان نعطي الانسان بشكل قانوني وضعا خاصا بسبب تلك القيمة .ولكن اسمترار التطور يرينا بأنه ليس هناك فرق مطلق. وان التطور يهدم بشكل صارخ التمييز الذي تمارسه الاحكام المطلقة. ان الادراك لتلك الحقيقة ليس هينا وربما,بالتأكيد ,يكون خلف الدافع الرئيسي للخلوقيين ليعارضوا التطور: لانهم يخافون ما يؤمنون بانه سيكنون نتيجة اخلاقية لها. انهم مخطئون بذلك, لكن فيما يتعلق بي, من المؤكد انه من المحير ان نظن بأن حقيقة العالم يمكن ان تعكس فقط لاعتبارات اخلاقية .

كيف يعطي الاعتدال الديني الحاجة للتطرف

بإلقاء الضوء على الجانب المظلم للاحكام المطلقة, اشرت الى مسيحيي امريكا الذين يفجرون عيادات الاجهاض, والطالبان في افغانستان, والذين اجدا أن لائحة قسوتهم ,وخصوصا نحو النساء, اكثر ايلاما من ان تحصى. وكنت أستطيع ان امتد لايران تحت حكم ايات الله, او السعوديين تحت حكم امراء سعود, حيث لاتستطيع النساء قيادة السيارة, ويقعون بمشاكل لمجرد خروجهم من المنزل بدون مرافقة ذكر من الاقارب (والذي قد يكون,كمثال لكرم الاخلاق, طفلا صغيرا). اقرأ كتاب جان غوديون ثمن الرعب الذي يفضح المعاملة المدمرة للمرأة في العربية السعودية وفي امكنة اخرى تحت الحكم الديني. جوهان هاري, احد اظرف الكتاب في صحيفة الاندبندنت في لندن ,كتب مقالا عنوانه يشرح عن نفسه:"افضل طريقة لتقويض الجهاديين تكون بدفع المرأة المسلمة للثورة" .

ولنعد للمسيحية, استطيع الاستشهاد بأن اؤلئك المسيحيين الامريكيين "المنتشين" لديهم نفوذ هائل على السياسة تجاه الشرق الاوسط ومحكومة بإعتقاداتهم الانجيلية بأن اسرائيل لديها حق الهي لكل الارض في فلسطين. بعض هؤلا ء المنتشين يذهب لابعد من ذلك املا في حرب نووية لانهم يفسروها على انها"الدينونة" والتي,وبناء على تفسيرهم الغريب والمنتشر لدرجة مقلقة لكتاب الوحي, سوف تعجل قدوم المخلص الثاني ,ولااستطيع ان اكتب ملاحظات افضل من التي كتبها سام هاريس في رسالة الى وطن مسيحي :

"ولهذا السبب, فليس من المبالغة القول بأن نسبة لابأس بها من الامريكيين سينظرون البطانة الفضية في غيمة عش الغراب النووية أذا تحولت نيويورك مثلا الى كرة من النار لان هذا و حسب معتقدهم بأن افضل ما يمكن ان يحصل هو على وشك الحصول: عودة المسيح. ويجب ان يكون واضح حتى للاعمى بأن ايمانا بهذا الشكل لن يشكل مساعدة تذكر لخلق مستقبل صلب لنا – خصوصا بما يتعلق بالاقتصاد, والبيئة, او الجغرافيا السياسية. تخيل العواقب لو ان اي فئة من حكومة امريكا تؤمن فعلا بأن العالم على وشك الزوال وان نهايته ستكون رائعة. ان الواقع بأن حوالي نصف الامريكيين يبدو وكأنهم يؤمنون بذلك, وفقط لاسباب دينية, يجب ان يعتبر كحالة طوارئ خطرة فيما يتعلق بالاخلاق والمعرفة .

اذن , هناك اناس ممن يأخذهم معتقدهم الديني مباشرة خارج حدود "روح العصر" الاخلاقية. ويمثلون ما سميته الجانب المظلم من الاحكام المطلقة الدينية ,وغالبا ما يطلق عليهم لقب المتطرفين. ولكن نقطتي في هذا الفصل هي في ان المتدينين, وحتى المعتدلين واللطيفين, يساعدون في خلق جو الايمان الديني والذي يزدهر فيه التطرف .

في عام 2005, صارت لندن ضيحة لهجوم انتحاري: ثلاث قنابل في نفق المواصلات وواحدة في باص. لم يكن بسوء الهجوم على مبنيي التجارة العالميين في 2001. وبالتأكيد اكثر توقعا بالحدوث (بالتأكيد, فلندن اصبحت مهددة بحادثة كتلك منذ اليوم الذي تبرع فيه طوني بلير بنا كرفسات اضافية غير مرغوب فيها في احتلال بوش للعراق). رغم ذلك فقد روع الحادث انكلترا, وامتلات الصحف بتحليلات غير مجدية عن ما الذي يدفع اربعة شباب لتفجير انفسهم وقتل الكثيرين من الابرياء معهم. القتلة كانوا مواطنين بريطانيين عاديين, يلعبون الكريكيت, يتصرفون بلطف, من الذين كنت لتستمع بصحبتهم .

لماذا فعل اؤلئك الشباب محبي الكريكيت ما فعلوا؟ بعكس نظائرهم الفلسطينيين, او انظارهم الكاميكاز اليابانيين, او نمور التاميل في سريلاكا, فإن تلك القنابل البشرية لم يكن لهم توقعات بأن عائلاتهم سيحتفى بها او ان احد سيدفع لهم "تقاعد الشهيد" على العكس فبعض اقاربهم كان عليهم الهروب والاختباء. احدهم ترك خلفة ارملة حامل ورضيع يتيم. ان

تصرفهم لايمكن ان يوصف بأقل من انه كارثي وليس فقط لهم ولضحاياهم, بل لعائلاتهم ولكل الجالية المسلمة في انكلترا, والتي تواجه الان ردة الفعل . الايمان الديني فقط هو من القوة ليكون دافعا لجنون مطلق في شخص سيكون عاديا وطبيعيا فيما عدا ذلك. ومرة اخرى, سام هاريس يوضح النقطة بكلال مدرك, بأخذه اسامة بن لادن قائد منظمة القاعدة كمثال (والذي, على فكرة, ليس له علاقة بتفجيرات لندن). لماذا يود اي شخص تدمير مبنى التجارة العالمي وكل من فيه؟ ان وصف بن لادن بالشرير هو محاولة للهروب من الاجابة الامينة لهذا السؤال المهم .

"إن الاجابة على هذا السؤال واضحة – ولو انها وضعت من قبل بن لادن نفسه بحماس يدعو للغثيان.الاجابة هي في ان رجال امثال بن لادن يؤمنون فعلا بما يقولون بأنهم يؤمنون به. انهم يؤمنون بحقيقة القرآن حرفياً. لماذا بدل تسعة عشر شخصا دارسا ومن عائلات متوسطة حياتهم لاجل منفعة قتل الالاف من جيراننا؟ لانهم يؤمنون بأنهم سيذهبون للجنة مباشرة بعملهم ذلك. من النادر وجود سلوك انساني يمكن تفسيره بشكل مرضي وكامل. لماذا نتردد في قبول تفسير كهذا؟"

المحرر المحترم موريل غراي, الذي يكتب في صحيفة هيرالد في غلاسكو, كتب في 25 تموز 2005, شيئا مشابها وفي حالته كان الحديث عم حادثة لندن .

"لقد القي اللوم على الجميع, بدأ بثنائي الشر جورج بوش وتوني بلير, الى تكاسل "الجالية" الاسلامية. ولكن الموضوع لم يكن اكثر وضوحا مما هو الان بأن هناك مكانا واحدا لتلقي اللوم عليه والامر بهذا الشكل. ان سبب هذا البؤس و الفوضى و العنف و ألارهاب والجهل هو بالطبع الدين نفسه, وحتى لو بدا لنا بأنه من السخف ان نوضح شيئا بديهيا كتلك الحقيقة, فإن الواقع هو ان الحكومة والاعلان يؤدون عملا جيدا بالتظاهر بأن الامر ليس كذلك"

سياسيونا الغربيون يتفادون الاشارة للدين وبدلا عنه يصفون حربهم ضد "الارهاب", كما لو ان الارهاب هو روح او قوة, وله افكار وعقل خاص. او انهم يصفون الارهابيين كما لو انهم مدفوعون من قبل "الشر". ولكنهم ليسوا مدفوعين من قبل الشر. ومهما كنا نظن بأننا مخدوعون, فإنهم مدفوعون, كما هو الحال في حال المسيحيين قتلة اطباء الاجهاض ,بما يظنون بأنه الحق, ويتبعون بصدق ما يقوله دينهم. ليسوا مجانين: بل انهم مثاليين دينيين , ومن وجهة نظرهم, عقلانيين. يأخذون تصرفاتهم على انها جيدة, وليس بسبب خاصية شخصية مشوهة, وليس بسبب انهم متلبسون من قبل الشيطان, بل لانهم قد تربوا, من المهد, لان يكون لديهم ايمان ديني كامل لايقبل النقاش. سام هاريس يقتبس من الفلسطيني الذي فشل بتفجير نفسه قوله بأن ما دفعه لقتل الاسرائيليين هو حبه للشهادة ... لم اريد الانتقام لاي شئ. فقط اردت ان اصبح شهيدا" في 19 تشرين الثاني . 2001 نشرت صحيفة النيويوركر مقابلة اجراها حسان نصرا, انتحاري اخر فشل في محاولته, شاب فلسطيني مؤدب عمره 27 سنة رمز له "س". ان بلاغة سحر الجنة وشاعرية وصفها من قبل الزعماء والمعلمين الدينيين المعتدلين جعلني افكر بأن اعطيها هنا مع بعض التفصيل :

سألته "ما هي الجاذبية للشهادة؟ "
أجاب "قوة الروح ترفعنا للاعى, بينما القوة المادية تجرنا للاسفل"
و أسترسل قائلاً "ان المصمم على الشهادة يصبح منيعا ضد الاغراء المادي. ومخطط العملية سألنا (ماذا لو فشلت العملية" فقلنا له) مهما حصل فأننا اليوم سنقابل النبي والصحابة ان شاءالله" ثم أكمل
"لقد كنا نسبح في المشاعر بأننا سندخل الابدية حالاً. لم يكن لدينا اي شك. اقسمنا على القران, وامام الله –قسما لارجوع عنه. هذا الالتزام الجهادي يدعى بيت الرضوان, وسمي على اسم الحديقة في الجنة والمخصصة للنبي والشهداء. اعرف بأن هناك طرقا اخرى للجهاد. ولكن هذه احلى واحدة. كل العمليات الاستشهادية, عندما تؤدى في سبيل الله ,المها اقل من عضة بعوضة"

س عرض علي فيديو وثائقي عن المخططات النهائية للعملية. ورأيته مع اثنين اخرين يتحاورون بأسئلة واجوبة عن الظفر بالشهادة . .

بعد ذلك ركع الشباب ومعهم راسم المخطط للعملية ووضعوا يدهم اليمنى على القران .وقال المخطط:"هل انتم جاهزون؟ غداً ستكونون في الجنة"

لو كنا انا "س", فستعتريني الرغبة بأن اقول للمخطط,"حسنا, في هذه الحالة, لماذا لاتضع نفسك عند كلامك؟" لماذا لاتؤدي العملية الانتحارية وتأخذ الطريق السريع للجنة؟ ما هو عصي على فهمنا هو – واكرر النقطة لانها مهمة جدا – ان هؤلاء يؤمنون فعلا بما يقولون انهم يؤمنون به. والعبارة التي يجب ان تبقى معنا هي بأن علينا ان نلوم الدين نفسه.

وليس التطرف الديني – كما لو انه صنف مرعب من النشوز عن الدين المحترم .لقد اصاب فولتير من زمن بعيد:" هؤلاء الذين بإستطاعتهم ان يجعلونك تصدق اللامعقول يستطيعون دفعك لارتكاب المظالم " وايضا برتراند راسل:" الكثيرون يموتون قبل ان يفكروا, انهم يفعلون ذلك بالواقع" .

طالما اننا نقبل ان نحترم الايمان الديني فقط لانه ايمان ديني, سيكون من الصعب ان نسحب الاحترام من ايمان اسامة بن لادن والانتحاريين. البديل, بشفافية لاتحتاج لاي توضيح, او اهمال مبدأ الاحترام الاوتوماتيكي للايمان الديني. وهذا سبب من الاسباب التي تجعلني افعل كل ما بوسعي لانبه الناس ضد الايمان الديني بحد ذاته, وليس فقط ضد مايسمى الايمان " المتطرف". ان نشر تعاليم الدين" المعتدل", برغم انها ليست متطرفة بحد ذاتها, هي دعوة مفتوحة للتطرف .

ربما يقال بأنه ليس هناك اي خصوصية للايمان الديني هنا. الوطنية وحب الوطن او الجماعة العرقية يمكن ان تكون مهدا حاميا لنوعها الخاص من التطرف, اليس كذلك؟ نعم, يمكنها ذلك, كما حصل من الكاميكاز اليابانيين ونمور التاميل السريلانكيين. ولكن الامان الدين هو كاتم فعال خصوصا للحسابات العقلانية. والتي عادة تتفوق على كل العوامل الاخرى. وذللك غالبا, كما اظن, بسبب الوعود البسيطة والخادعة بأن الموت ليس هو النهاية, وان هناك جنة شهداء خاصة وعظيمة. وايضا لان التدين يثبط من التساؤل, وذلك بطبيعته الذاتية .

المسيحية, تماما كالاسلام, تعلم الاطفال بأن عدم التساؤل في الايمان هو شي قيم . لايجب عليك ان تتحقق مما تؤمن به. وعندما يعلن احد ما بأن شيئا ما هو جزء من ايمانه ,فإن بقية المجتمع, سواء كانت مؤمنة بانفس الشئ, او بشئ مختلف, او بلاشئ, مجبرة ,وبشكل تقليدي مرروعة, ان "تحترم" ذلك بدون اي سؤال: احترام يمتد حتى الوقت التي يكفشف الايمان فيه عن نفسه بمجزرة مرعبة كما في تدمير ابراج التجارة او حادثة لندن او مدريد. وعندئذ سيكون هناك جوقة عظيمة من الملتحقين, كرجال الدين و "قواد الجاليات"(بالمناسبة؟ من الذي انتخبهم؟) يصطفون لشرح ان هذا التطرف هو نشوز عن الايمان "الحقيقي". ولكن كيف يمكن ان يكون هناك نشوز عن الايمان, بينما الايمان نفسه منقوص البرهان, ولايعرض اسسا لمعرفة النشوز؟

منذ عشر سنين, ابن وراق, في كتابه الممتاز لماذا لست مسلما, عرض نقطة مشابهة من وجهة نظر لدارس عليم بعمق للاسلام. والبديل الجيد لعنوان الكتاب ربما يكون اسطورة الاسلام المعتدل, والذي هو عنوان مقال احدث في مجلة سبكتاتور في لندن عدد 30 تموز 2005 كتبه دارس اخر هو باتريك سوكديو, مدير كلية الدراسات الاسلامية والمسيحية. " مع ان غالبية المسلمين يعيشون حياتهم اليوم بدون اللجوء للعنف, مع ان القران القران خليط من المختارات, لو اردت السلام,, فهناك ايات سلمية ,وان اردت الحرب, فستجد ايات عدوانية" .

سوكديو يمضي بشرح كيف طور علماء الاسلام, ليدوروا حول التناقضات العديدة في القران, مبدأ الناسخ والمنسوخ, حيث ان النصوص المتأخرة تلغي النصوص المبكرة, ان الايات السلمية في القران معظمها مبكر, وتاريخها يعود الى الوقت الذي كان فيه محمد في مكة. وايات المحارب تاريخها متأخر, بعد ان طار الى المدينة. والنتيجة :

"ان الكلمة السحرية"الاسلام سلام" بطلت منذ حوالي 1400 سنة. وفقط لمدة 13 عاما كان الاسلام سلاما ولاشئ غير السلام.. ولكن بالنسبة للمسلمين المتعصبين – كما هو الحال عند حكام القرون الوسطى والذين طوروا الاسلام التقليدي – فإنه من الاصح ان يقال "الاسلام هو الحرب". واحد الاحزاب الاسلامية الاكثر تعصبا في انكلترا "الغرباء" , صرح في الصحوة بعد تفجيرات لندن ,"اي مسلم لايعترف بأن الارهاب هو جزء من الاسلام يعتبر كافرا" والكافر يعني (الغير مسلم)هي كلمة تعتبر اهانة كبيرة للمسلم طبعاً.

قد يفكر البعض بأن يكون هؤلاء الذين نفذوا العمليات الانتحارية ليسوا جزءا من المجتمع الاسلامي في بريطانيا, ويتبعون التفسير المتعصب للأسلام , ولكنهم حقيقة كانوا جزء من صميم المجتمع الاسلامي و مدفوعين من التفسيرات الشائعة للاسلام؟"

وبشكل عام (وهذا ينطبق على المسيحية تماما كما هو الحال مع الاسلام), فالخطر الحقيقي في الموضوع يكمن في أن الاطفال يتم تلقينهم بأن المعتقد بحد ذاته هو ميزة جيدة. ان المعتقد شر بحد ذاته لانه لايتطلب اي تبريرات او ادلة. أن تدريس الاطفال بأن الايمان بدون سؤال ميزة بحد ذاته يوفر ارض خصبة – وبوجود عناصر اخرى ليس من الصعب توفيرها – كي يصبحوا ادوات قتل جاهزة للجهاديين او الصليبيين في المستقبل. أن المناعة ضد الخوف بسبب الوعود بجنة الشهداء تجعل من الايمان الديني يستحق مكانة عالية في تاريخ السلاح, جنبا الى جنب مع القوس, والخيل, والدبابة, والقنبلة العنقودية. لو درس الاطفال بأن يتساءلوا وان يفكروا حول منطقية ايمانهم , بدلا من تعليمهم بأن القيمة

العالية للايمان هي الايمان بدون سؤال , فالرهان سيكون جيداً بأنه لن يكون هناك انتحاريون. الانتحاريون يفعلون ما يفعلوه لانهم يؤمنون بصدق ما درسوه في مدرسة الدين: بأن واجباتهم تجاه الله تسبق كل الاولويات الاخرى ,وان الشهادة ستكافأ في جنان الجنة.وليس من الضروري ان يكونوا قد درسوا هذا على يدي متطرف متعصب , بل ربما تحت اشراف رجل محترم, لطيف, مدرس دين عادي ,يصفهم في المدرسة, جالسين في الصفوف, يهزون رؤوسهم البريئة بشكل ايقاعي بينما يتعلمون كل كلمة من الكتاب كالببغاوات. الايمان يمكن ان يكون خطرا جدا جدا, وزرعه بشكل مدروس في العقول البريئة السهلة المنال للاطفال خطأ كبير. بل انه خطأ بحق الطفولة نفسها, وننتقل بفكرة انتهاك حقوق الطفولة الى الفصل التالي .

الفصل التاسع

الطفولة

الاعتداء والهرب من الدين

في كل قرية يوجد شعلة – المعلم

ويوجد من يطفأها –   رجل الدين

فيكتور هوغو

سأبدا بقصة قصيرة من القرن التاسع عشر في ايطاليا. لااقصد هنا بأن قصة مرعبة كهذه يمكن ان تحصل اليوم. ولكن الموقف العقلي الذي تنبثنا عنه لايزال متداولا وللاسف, حتى وإن كانت التفاصيل العملية ليست كذلك. ان تلك المأساة الانسانية من القرن التاسع عشر تلقي الضوء وبدون رحمة على المواقف الدينية الحالية للدين حيال الاطفال.

عام 1858 اخذ ادغاردو مورتارا, طفل في السادسة من العمر لابوين يهوديين , عنوة بالقانون من البوليس البابوي بأمر من المحققين. ادغاردو اخذ بالقوة من امه التي تشهق بالبكاء وابيه المذهول الى الكاتشومين (البيت المخصص لتحويل المسلمين واليهود للمسيحية) في روما, ومن وقتها تربى على مذهب الروم الكاثوليك. وعدا عن بضعة زيارات مراقبة بشدة من قبل الرهبان, لم يستطع اهلة رؤيته , القصة رواها دافيد كرويتزر في كتابه المميز, اختطاف ادغاردو مورتارا.

قصة ادغاردو لم تكن بشكل من الاشكال غير عادية في ايطاليا في ذلك الوقت, والسبب في ذلك الاختطاف الرهباني كان هو نفسه دائما. وفي كل حالة, كان الطفل يعمد بشكل سري في يوم سابق, وعادة من قبل مربة كاثوليكية, ويسمع المحققون بموضوع العماد .وكان من احد الامور المركزية في النموذج الايماني وقتها, بأنه بمجرد تعميد الطفل , وكيفما تم الموضوع بشكل غير رسمي او سري,فإن الطفل قد تحول بلا رجعة الى مسيحي. وفي عالمهم العقلي, فإن السماح ل"طفل مسيحي" بالبقاء مع ابوين يهوديين لم يكن خيارا, واستمروا في تلك المواقف الغريبة والقاسية بصمود, وبكل اخلاص, في وجه كل الاعتراضات الهائجة في العالم. وذلك الهيجان, على فكرة, قد نفته الصحيفة الكاثوليكية سيفيلتا كاتوليكا وعزته لسلطة اليهود الاغنياء – يبدو مألوفا, اليس كذلك؟ وبغض النظر عن الدعاية اتي نشأت, فإن قصة ادغاردو مورتارا برمتها قصة نموذجية وامثالها كثيرات. مرة تولت رعايته اننا موريسي, فتاة جاهلة كاثوليكية كانت في الرابعة عشر من عمرها انذاك. ومرض الطفل وارتبكت الفتاة لخوفها من ان يموت. وبما انها تربت على الفكرة بأن الطفل الذي يموت بغير عماد سيعاني في جهنم للابد, فقد سألت النصيحة من جار كاثوليكي والذي علمها كيفية اجراء العماد. فعادت الى المنزل ورشت بعض الماء من سطل على رأس الطفل ادغاردو وقالت,: اعمدك بإسم الاب والابن والروح القدس". وهذا كان كل شئ. ومنذ تلك اللحظة, اصبح ادعاردو مسيحيا رسميا .وعندما سمع خوارنة التحقيق بالحادثة بعد اعوام, تصرفوا فورا وبشكل حاسم, ولم يعطوا اي تفكير للنتائج المأساوية لتصرفهم.

ومن المدهش بان طقسا كهذا يمكن ان يؤثر بشكل عظئم على كل العائلة, وان الكنيسة الكاثوليكية تسمح (ولاتزال تسمح) بأن يعمد اي شخص من قبل اي شخص اخر . المعمدان لايجب ان يكون قسيسا. ولايحتاج الامر لموافقة من الطفل او من اي من افراد عائلته او اي احد اخر. لاشئ للتوقيع. ولايحتاج الامر لاي شهود. كل ماهو ضروري هو رشة من الماء, وبعض الكلمات, وطفل لاحيلة له, ومربية مغسولة الدماغ بالغيبيات . الواقع, ان تلك الاخيرة هي الوحيدة الضرورية الوجود, بفرض ان الطفل صغير جدا ليشهد, فمن سيدري؟ احدى الزميلات الامريكانيات التي تربت على الكاثوليكية كتبت لي ما يلي:"كنا نعمد العابنا. ولااذكر ان احدا منا عمد احد اصدقائنا البروتستانتيين ولكني متأكد من ان ذلك قد حصل ويحصل اليوم. لقد جعلنا من العابنا كاثوليكيين صغارا ,اخذناهم للكنيسة, وعملنا لهم اول مناولة. لقد كان دماغنا مغسولا لنصبح امهات كاثوليكيات جيدات في وقت مبكر جدا".

لو ان فتايات القرن التاسع عشرا كن مثل زميلتي, فإنه من المفاجئ بأن قضايا مثل ادواردو مورتارا لم تكون شائعة اكثر مما كانت فعلا. وكما كان الوضع, فإن قصصا كتلك كانت شائعة بشكل مزعج في ايطاليا القرن التاسع عشر, والتي تتركنا مع السؤال البديهي. لماذا استخدم اليهود في دولة البابوية بنات كاثوليكيات كخادمات, مع العلم بالمخاطرة الناتجة عن الموضو؟ لماذا لم يحرصوا على توظيف مستخدمة يهودية؟ الجواب , مرة اخرى, ليس له علاقة بالمنطق بل متعلق بالدين كليا. اليهود احتاجوالخادمات ممن لاينمنعهم دينهم من العمل يوم السبت. من الموكد انه يمكن الثقة بأن المستخدمة اليهودية لن تعمد الطفل وتجعله يتيم روحي. ولكنها لن تشعل نارا او تنظف بيتا يوم السبت. ولهذا السبب فإن العائلات اليهودية التي تستطيع تأمين خادمة في بولون, اختاروا الكاثوليكيات لهذا العمل.

وفي هذا الكتاب, تراجعت عامدا عن تفصيل الرعب الذي ارتكبه الصليبيون, ومحاكم التفتيش الاسبانية. بالامكان وجود اشرار وقساة في كل بلد وفي كل فرصة. ولكن هذه القصة عن المحاكم الايطالية وموقفها حيال الاطفال مثال عملي يكشف لنا العقل الديني, والشر الذي يحصل بشكل خاص بسبب الاديان. اولا الاعتبار الديني الغريب بأن رشة ماء وبعض جمل الشفوية يمكن ان تغير بشكل حياة الطفل بشكل كلي, ويأخذ اولوية على موافقة الاهل , وحتى موافقة الطفل نفسه, وسعادته وصحته العقلية... بل على كل شئ يمليه المنطق العادي الشائع وما يراه الشعور الانساني كشئ ضروري. الكاردينال انتونيللي قالها علنا وقتها في رسالة الى ليونيل روتشيل, اول عضو برلمان يهودي في بريطانيا, والذي كتب محتجا على قضية اختطاف ادواردو. اجاب الكاردينال بأنه لم يستطع التدخل, واضاف " ربما تلك فرصة

للملاحظة, لو ان صوت الطبيعة قوي,فإن صوت الواجبات الدينية المقدسة اقوى" . حسنا , تلك المقولة هي كل شئ تقريبا, اليس كذلك؟

ثانياً فأن الواقع الغير عادي بان القساوسة, والكاردينالات والبابا يبدون وكأنهم لايفهمون بشكل عام الرعب الذي يحدثونه لادواردو مورتارا يأتي ثانيا. ذلك يتجاوز كل الاحاسيس المفهومة, ولكنهم يؤمنون بصدق بأنهم يفعلون الخير له بأخذه من اهله واعطائه تربية مسيحية. يشعرون بواحب الحماية! احدى الصحف الامريكية دافعت عن موقف البابا في قضية موربارا, وحجتها كانت بأنه من غير المعقول لحكومة مسيحية ان "تترك طفلا مسيحيا ليربيه اليهود" ويستخدمون هنا مبدأ الحرية الدينية "ان حرية الطفل في اي يكون مسيحيا ولايجب الزامه بأن يكون يهوديا .. حماية الاب المقدس للطفل, في وجه كل شراسة التطرف للكفار والمعصبين, هوالاستعراض الاكبر للاخلاقيات التي رأها العالم منذ اجيال". هل يوجد تضليل صارخ لاستعمال كلمات مثل "الزام","اجبار","شرس" , "متطرف" و"متعصب" اكثر من ذلك؟ رغم ذلك فكل المؤشرات تشير لان الملتزمين الكاثوليكيين, من البابا وهلم جرا, يؤمنون بصدق بأنه ما كانوا يفعلونه صحيح: صحيح بشكل مطلق فيما يتعلق بالاخلاق, بالاضافة الى ما يتعلق بسلامة الطفل. تلك هي قوة (الاغلبية,"المعتدلة") الدين التي تضغى على الحكم المنطقي و تبسبب نشاز الامانة الانسانية. ان صحيفة الكاتوليكو صرحت بحيرتها حول السبب الذي يجعل الغالبية تفشل في روية حجم المعروف الذي ادته الكنيسة لادواردو مورتارا عندما انقذته من عائلته اليهودية:

"لو ان ايا منا فكر بهذا الامر بجدية للحظة, وقارن ظروف اليهود – بدون كنيسة حقيقة ,بدون ملك, وبدون وطن, متفرقين ويعتبرون غرباء اينما كانو على وجه الارض, بل اكثر من ذلك , مكروهين ايضا للوصمة البشعة التي قتلوا بها المسيح ... سيفهم فورا الميزة الكبية التي من بها البابا على مورتارا الصبي"

ثالثا يأتينا هنا القناعة الدينية للناس بمعرفتهم , وبدون اي دليل, بأن الايمان الذي ولدوا عليه هو الايمان الصحيح, وكل شئ اخر هو انحراف او خطأ بالتأكيد. ان الاقتباس اعلاه يعطينا مثالا حيا عن موقف الطرف المسيحي. وربما يبدو من الجور ان نساوي بين الطرفين في هذه القضية, ولكنه الوقت المناسب لنلاحظ بأن عائلة مورتورا كانت لتستطيع استرداد ادواردو بلحظة, لو انهم قبلوا بعرض القسس ووافقوا على ان يعمدوا شخصيا. لقد سرق ادواردو بسبب رشة ماء ودزينة من الكلمات عديمة المعنى. تلك هي حماقة العقول الملقنة بالدين, رشتان من الماء هما كل شئ يحتاجه المرء لعكس الحكم . بالنسبة للبعض , رفض الاباء يشير الى العناد الطائش. ولاخرين , يبدوا بأن المبدأ يدخل في لائحة طويلة من الاستشهاديين من اجل الاديان عبر الاجيال.

"لتكن مطمئنا سيد ريدلي كن رجلا: بإذن الله سنشعل شمعة بيومنا هذا في انكلترا, واثق بأنها لن تطفأ ابدا". لاشك بأن هناك اسبابا تجعل الموت في سبيلها نبلا. ولكن كيف يمكن للشهداء ريدلي, لاتيمر وكرامر ان يتركوا انفسهم يحرقون بدلا عن ترك التزامهم بالاقلية البوتستانتيه لمصلحة الاكثرية الكاثوليكية – هل يهم من اي طرف تفتح البيضة المسلوقة؟ هذا هو العناد – او الاعجاب اذا كانت تلك وجهة نظرك – العقلي للقناعة الدينية, لدرجة ان الشهداء لم يستطيعوا ان يستغلوا الفرصة المعروضة عليهم للتعميد. الم يكن بإستطاعتهم الضغط على انفسهم, والهمس بكلمة "لا" اثناء تعميدهم؟ لا, ذلك لانهم تربوا في وسط متدين (معتدل), و اخذو الاحجية السخيفة بشكل جدي. بالنسبة لي ,اعتقد بأن المسكين ادواردو الصغير – ولد بدون رغبته في عالم يسيطر عليه العقل الديني, منحوس في تقاطع نيران, او اي شئ اخر غير انه تيتم بفعل حصل بنية طيبة ,ولكن بالنسبة للطفل, فتلك قساوة مدمرة.

رابعا, ولمتابعة نفس الفكرة, الافتراض بأن طفلا في السادسة يمكن ان يقال عنه بأن له دين , سواء كان يهوديا او مسيحيا او اي شئ اخر. ولنضع الفكرة بشكل اخر, ان الفكرة بأن التعميد لطفل بدون علمه او فهمه للموضوع يستطيع تغييره من دين لاخر في لحظة يبدوا سخيفا – ولكن ليست اسخف من وصم طفل بتبعية لاي من الاديان في المقام الاول . ماكان مهما في حالة ادواردو لم يكن "دينه" (لانه كان صغيرا جدا على امتلاك رأيه الديني الخاص) ولكنه العطف والاهتمام من عائلته, واصبح محروما منه بسبب قسيسين عزاب لايتفوق على وحشيتهم المشوهة الا بلادتهم وعدم حساسيتهم لشعور الانسان الطبيعي – عدم الحساسية ذاك يأتي بسهولة لعقول اختطفها الايمان الديني.

وحتى بدون الاختطاف الجسدي, اليس نوعا من ايذاء الطفولة ان نصم الاطفال بأن لديهم ايمانا هم في الحقيقة اصغر من اي يفكروا به؟ رغم ذلك فإن تلك الممارسة تستمر حتى يومنا هذا, وتقريبا بدون اي تساؤلات. والتساؤل عن هذا الموضوع بالذات هو هدفي الاساسي في هذا الفصل.

الاعتداء الجسدي و النفسي

عندما نتحدث عن أعتداء الكهنة على الاطفال يتصور الكثيرين في ايامنا هذه بأننا نتحدث عن أعتداء جنسي النوع, واشعر بأني مجبر, من البداية, على ان اضع موضوع الاعتداء الجنسي في مكانه وخارج الطريق. اخرون لاحظوا بأننا نعيش في زمن هيستيري فيما يتعلق بالشذوذ نحو الاطفال, (الغلمانية) هذه الهستريا الجماعية تذكرنا بشكل أو بآخر بظاهرة مطاردة الساحرات في أوربا العصور الوسطى. في مدينة سالم عام .في تموز عام 2000 نظمت صحيفة اخبار العالم, التي تعتبر, برغم المنافسة , الصحيفة الانكليزية الاكثر اثارة للقرف ,مسابقة اسمها "اسم وعار", والتي قامت بما يشبه تحريض الناس عن الهجوم على الشاذين جنسيا . وهوجم مستشفى الاطفال من قبل متطرفين لايعرفون الفرق بين طبيب الاطفال والشاذ تجاه الاطفال (كلمتان فيهما بعض التشابه بالانكليزية – المترجم). الغوغاء الهستيرية نحو الشاذين جنسيا وصلت لابعاد وبائية والاهالي شعروا بالرعب. ان الاطفال اليوم ممنوعين من حرية التجول بحرية كالتي كانت من متع الطفولة في الماضي (عندما كان خطر التحرش الفعلي, ربما ليس اقل من الخطر المحسوس حاليا).

لانصاف فإن اخبار العالم في الوقت الذي طرحت فيه تلك الحملة, كانت المشاعر متأججة بسبب جريمة مروعة, وبدافع جنسي, ارتكبت بحق طفلة في الثامنة حيث اختطفت في مقاطعة سوسكس. وبالرغم من ذلك فإنه من الخطأ الواضح بأن الجور بحق الشاذين جميعهم من اجل القلة الذين هم قتلة اضافة لشذوذهم. المدارس الثلاث التي درست فيها الابتدائية كانوا يوظفون اساتذة بمودة للصغار تتعدى حدود صلاحياتهم . وهذا في الحقيقة يجب ان يكون داعيا للتعنيف. رغم ذلك لو انهم, وبعد خمسون عاما ,هوجموا من قبل اشرار او محامون بشكل ليس افضل من قتلة الاطفال, سأكون مجبرا لان ادافع عنهم, حتى ولو كنت ضحية احدهم في وقت ما (موضوع محرج وفيما عدا ذلك كان تجربة عديمة الاذى).

لقد حملت الكنيسة الكاثوليكية حملا ثقيلا من العار ذو الاثر الرجعي. ولاسباب عديدة فأنا لااحب الكنيسة الكاثوليكية. ولكنى لااحب الظلم بدرجة اكبر. ولااستطيع الا التساؤل عما إذا كانت تلك المنظمة قد تحملت سوء السمعة بشكل غير عادل فيما يتعلق بهذه القضية, وخصوصا في امريكا. ان الاستياء من الكهنة المنافقين والذين مهمتهم في الحياة تتلخص في تعظيم الشعور بالذنب من اجل "الخطايا". وبعد ذلك تأتي الخيانة للثقة من قبل شخص ذو مركز, والذي تدرب الطفل على توقيره من نعومة اظفاره. انه استياء اضافيا يجب ان يجعلنا اكثر حذرا من ان نسارع في حكمنا. وعلينا ان ندرك قدرة العقل على إعداد الذكريات السيئة, خصوصا عندما يكون هناك معالجون عديمي الضمير ومحامون جشعون. ان العالمة النفسية اليزابيت لوفتوس ابدت شجاعة عظيمة, في وجه 1996 المصالح الشخصية الحقودة, عندما شرحت كم هو من السهل على الناس ان يعدوا ذكريات كاذبة تماما ولكن تبدو بالنسبة للضحية وكأنها صحيحة تماما كما لو كانت في ذاكرته. هذا مضاد للحدس الذي تهتز له هيئة المحكمين بسهولة وصدق بينما هو تلفيقة مزورة من الشاهد.في تلك الحالة الخاصة في ايرلندا, وحتى لو لم يكن هناك ايذاء جنسي, فإن عنف الاخوة المسيحيين , المسؤولين عن تعليم قسم كبير من ذكور البلد, اسطوري. ونفس الشئ يمكن ان يقال عن الراهبات الساديات اللاتي يدرن العديد من مدارس البنات. ملجا ماجدالين الكريه السمعة, الذي كان موضوع فيلم بيتر مولان اخوات ماجدالينا, استمرحتى عام . لمدة اربعين عاما, من الاصعب ان تأخذ تعويضا عن الجلد عن اخذك تعويضا عن الاذية الجنسية, وليس هناك نقص بعدد المحامين الناشطون بالالتماسات من الضحايا الذين ماكانوا ليأبهون بالماضي البعيد. ففيهم يوجد ذهب يستطيعون تحسسه , بالتأكيد, لكن ذلك يأخذ وقتا لدرجة ان المدعي يمكن ان يموت بدون امكانية ان يصل حتى لان يحكي القصة من وجهة نظره. الكنيسة الكاثوليكية دفعت اكثر من مليار دولار حول العامل كتعويضات. ربما انك تتعاطف معهم حتى الوقت الذي تتذكر فيه مصدر تلك الاموال في المقام الاول.

مرة بعد محاضرة في دبلن ووقت طرح الاسئلة, سئلت عن رأيي في الانتشار الشعبي لقضايا الايذاء الجنسي من قبل القسس الكاثوليكيين في ايرلندا. اجبت , بالرغم من عدم الشك في رعب الاذى الجنسي, فإن الاذى الذي الحقه ربما يكون اقل من الاذى النفسي وعلى المدى الطويل والذي يحدث جراء التربية الكاثوليكية في المقام الاول. كانت عبارة انية خرجت في حرارة اللحظة, وفوجئت بالحقيقة بأنها استقبلت بالتصفيق الحماسي من الجهور الايرلندي (واعترف, انه كان مؤلفا من نخبة معرفية في دبلن ولايمكن اعتبارهم ممثلين للبلد بشكل عام). وقد ذكرت بتلك الحادثة لاحقاعندما وصلتني رسالة من امرأة امريكية في الاربعينات تربت بطريقة الروم الكاثوليك. قالت بأنها عندما كانت في السابعة من عمرها, مرت بحاذثتين غير سعيدتين, تلقت الاذى الجنسي على يدي القسيس في سيارته. و.. , تقريبا في الفترة ذاتها, ماتت فتاة صغيرة صديقة لها في المدرسة وذهبت لجهنم لانها كانت بروتستانتيه. أو ان كاتبة الرسالة دفعت لتصديق ذلك من قبل

التلقين الرسمي للكنيسة التي تنتمي عائلتها اليها. نظرتها كبالغة كانت, بأنه بمقارنة الاذى الذي الحقته الحادثتان بها, الاول الجسدي والاخر المعنوي, كان الثاني يفوق الاول بكثير. فقد كتبت:

"كوني تأذيت من القسيس ترك في الانطباع (بالنسبة لفتاة بسبعة سنين) يشبه "القرف" ولكن ذكرى صديقتي تذهب للجحيم كان شعورا باردا, مع خوف لايقاس. لم اتأرق ليلة واحدة بسبب حادثة القسيس – ولكني قضيت ليال من الرعب افكر بأن اناس احبهم يذهبون للجحيم. كنت ارى كوابيسا"

يجب الاعتراف, بأن الملاطفة الجنسية التي عانتها في سيارة القس كانت خفيفة بالمقارنة مع , مثلا, الالم والقرف لطفل مغتصب. وفي ايامنا هذه لاتتكلم الكنيسة الكاثوليكية عن الجحيم بكثرة كما فعلت سابقا. ولكن المثال يرينا بأن الاذى النفسي يمكن ان يتجاوز الايذاء الجسدي. يقال بأن الفريد هتشكوك, المخرج العظيم المتخصص في فن تخويف الناس, كانت مرة يقود سيارته عبر سويسرا عندما اشار فجأة عبر زجاج السيارة قائلا," هذا هو اكثر المشاهد رعبا مما شاهدت حتى الان". كان عبارة عن قسيس يتكلم مع طفل صغير. ويده على كتف الصبي. هيتشكوك اخرج رأسه من نافذة السيارة وصرخ " اركض ايها الولد, انج بحياتك".

"العصي والحجارة يمكن ان تكسر عظامي, ولكن الكلمات لايمكن ان تؤذيني". هذا المثل صحيح طالما انك لاتؤمن بصحة الكلمات. ولكن حال ان تربيتك كلها, وكل ما قيل لك من الاهل, والاساتده والكهنة, جعلتك تؤمن, وبشكل حقيقي, وكامل, بأن المذنبين يحرقون في الجحيم (او اي شئ اخر متزمت من التلقين مثل كون المرأة ملك لزوجها , (فإنه من الممكن تماما ان يكون للكلمات اثر مستمر ومؤذ اكثر من الافعال. انا مقتنع بأن العبارة "ايداء الطفولة" ليس فيها مبالغة عندما تكون في وصف ما يفعله المعلمون والكهنة بالاطفال وتشجيعهم على الايمان بشئ مثل ان عقوبة عدم الاعتراف بالذنوب هي الجحيم الابدي.

في المسلسل الوثائقي جذرة الشر؟ والذي نوهت عنه سابقا, اجريت مقابلات عدة مع زعماء للتدين وقوبلت بالنقد لانني اخترت احد الامريكيين المتطرفين وليس اجد العموم من القادة المحترمين مثل رؤساء الاساقفة. يبدو وكانه نقد في محله – بإستثناء انه, في بداية القرن الواحد والعشرين في امريكا, ما يبدوا متطرفا للعالم الخارجي, هو الشائع فعليا. احد من اجريت معهم مقابلة والذي روع جمهور بريطانيا, كمثال, كان الباستور تيد هاغارد من كولورادو سبرينغ. ولكن بعيدا عن كونه متطرفا في امريكا وقت بوش. "الباستور تيد" هو رئيس الهيئة الكنسية الوطنية للانجيليين التي لها ثلاثين مليون تابعا , ويزعم بأنه محظي بمشاورة تلفونية مع الرئيس بوش كل يوم اثنين. ولو اردت اناجري مقابلة مع متطرف حقيقي بمعايير امريكا العصرية, لكان على ان اقابل احد هؤلاءالذين يدعون للسلطة الدينية بشكل علني. كما ان زميلا امريكيا قلقا كتب لي:
"الاوروبيون يجتاجون لمعرفة بان هناك عرض متنقل انزويين بالدين والذين فعلا يدعون لاعادة قانون العهد القديم للعالم – قتل الشاذين جنسيا الخ.. – وان الحق في مكاتب الدولة , وحتى حق الانتخاب , يجب ان يكون للمسيحيين وحدهم. ان الطبقة المتوسطة تفرح بتلك الخطابات. وبدون ان يتيقظ العلمانيون, سيكون هؤلاء المنادون بالسيادة واعادة البناء هم الطرف الغالب في دولة امريكا الدينية"

شخص اخر كان ممن اجريت معهم مقابلة في البرنامج كان الباستور كينان روبرتس, من ولاية كولورادو مثل الباستور تيد. باستور روبرتس له نوعه الخاص من الجنون الذي هو عبارة عما يسميه بيت الجحيم. بيت الجحيم هو مكان يأتي الاطفال اليه مصحوبين من اهاليهم او مدارسهم المسيحية, ليتم تخويفهم بشكل غبي مما يمكن ان يحدث لهم بعد ان يموتوا. ممثلون يلعبون ادوارا ولوحات عن بعض انواع "الخطايا" مثل الاجهاض والمثلية الجنيسة, مع شيطان يرتدي القرمزي يحظى بشماتة الحضور. تلك مقدمة لـــ(مقطوعة المقاومة). اما الجحيم , مصحوبة برائحة الكبريت وصياح المعاناة من الملعونين للابد.

بعد ان شاهدت العرض, والذي بدا فيه الشيطان بشكل شرير في زي اشبه ما يكون بوغد في مسرحية درامية من العصر الفيكتوري. اجريت مقابلة متع الباستور روبرتس بوجود الممثلين. قال لي بأن العمر المثالي للاطفال من زوار بيت الجحيم هو اثني عشر عاما. صدمني ذلك لوهلة, وسألته عما اذا كان يقلقه ان يعاني طفل في الثانية عشرة من كوابيس بعد رؤيته للاستعراض. وجوابه كان امينا كما افترض:
"افضل ان يفهموا بأن الجحيم هو المكان الذي لايريدون الذهاب اليه اطلاقا. والافضل ان اصل اليهم برسالتي وهم في الثانية عشر عن الا تصل لهم واتركهم يعيشون حياة الخطايا واضاعتهم للرب المسيح. وان سبب ذلك لهم الكوابيس, كنتيجة لتجربتهم هذه , فأعتقد ان هناك سوف يحصلون عليه اهم اكبر كثيرا من مجرد كوابيس بسيطة."

افترض هنا, بأنك لو كنت فعلا تؤمن بما يقول الباستور روبرتس انه يؤمن به, فأنت ايضا ستجد انه من الصحيح ان تخيف الاطفال.

لايمكننا شطب الباستور روبرتس واعتباره متطرف مجنون, ومثل تيد هاغارد, فهو ينتمي للاتجاه العام في امريكا اليوم. حتى انهم سيؤيدون الفكرة الايمانية لبعض اقرانهم في الدين والذين يصغون لصوت الملعونين عندما يصغون لانفجار بركان, وان الدودة الانبوبية العملاقة في قاع المحيط الحار هي من النبوءات في انجيل مرقص 9:43:4 "واذا اعثرتك يدك فإقطعها. خير لك ان تدخل الحياة اعرج من ان تكون لك رجلان وتطرف في جهنم في النار التي لاتطفأ ,جيث الدود لايموت, والنار لاتطفأ". ومهما كان اعتقادهم عن الجحيم فإن هؤلاء المؤمنون بها يبدون وكأنهم يشتركون في الشماتة بالخاسرين والرضا عن من يعروفون بأنهم من بين الناجين, اول من قال بذلك من علماء الدين , سانت توماس اكويناس, في كتابه "سوما تيولوجيكا": القديسون سينعمون بالحياة السعيدة وبركة الاله الوافرة وسيسمح لهم برؤية العقوبة للملعونين في جهنم". لطيف جدا هذا الرجل.

الخوف من نار الجحيم يمكن ان تكون حقيقية, حتى بين الذين يكونون عقلانيين في امور اخرى. بعد برنامج التلفزيون الوثائقي عن الدين, ومن بين الرسائل العديدة التي تلقيتها , كانت الرسالة التالية من سيدة تبدوا ذكية وامينة:

"كنت في مدرسة كاثوليكية منذ الخامسة من عمري, ولقنت من قبل الراهبات اللواتي استخدمن العسي والاشرطة والعكازات. وخلال سن المراهقة قرأت داروين, وما قاله عن التطور حمل الكثير من المعنى في القسم المنطقي من عقلي. ولكن مهما كان , فإنني مررت خلال حياتي بمعاناة وتضاربات وخوف عميق من الجحيم ونارها وذلك ينتابي بصورة متكررة. خضعت للمعالجة النفسية وذلك اهلني لان استطيع الخوض في معالجة بعض المشاكل ولكنني لااشعر بأن قادرة على التغلب على هذا الخوف العميق. والسبب الذي اكتب لك من اجله هو اني ارجو منك ارسال اسم وعنوان المعالجة النفسية التي اجريت معها مقابلة في حلقة هذا الاسبوع والتي تعالج هذا النوع من الخوف"

هزتني رسالتها, و محاولا كبت الاسف الدنئ ليس هناك جحيم لتذهب تلك الراهبات اليه اجبتها بأن عليها ان تثق بعقلانيتها كهبة عظيمة والتي – على عكس البعض الاخر الاقل حظا – تمتلكها في الواقع. اقترحت بأن الرعب المتطرف من الجحيم, كما هو موصوف من قبل الكهنة والراهبات, يعظم كثيرا ليعوض ذلك عن عدم مصداقيته. ولو كان الجحيم شيئا يستحق التصديق, لكان من الكافي يكون مزعجا بشكل عادي لكي يردعنا. وبإعتبار انه من غير المتوقع بشكل كبير ان يكون ذلك صحيحا, فيجب ان يعبر عنه بشكل مرعب جدا جدا بالتأكيد, وذلك ليعدل من عدم مصداقيته وليقتى على بعض القيمة الرادعة. ووضعتها على صلة بالمعالجة النفسية التي نوهت عنها, جيل ميتون, امرأة لطيفة وصادقة بعمق وقد اجريت معها مقابلة امام الكاميرا. جيل نفسها تربت في كنف طائفة اكثر من مقرفة تسمى الاخوة الخاصة: مزعجة لدرجة ان هناك موقع انترنت مخصص كليا لرعاية الذين استطاعوا الهرب منه. www.peegs.net

جيل ميتون نفسها ذكرة موضوع رعبها من الجحيم, لقد هربت من المسيحية في سن الرشد, والان تساعد وترشد المصدومين في طفولتهم بشكل مشابة:" عندما ارجع بذاكرتي للطفولة, ارى الخوف هو المسيطر عليها. والخوف كان من الرفض في الحاضر , ولكن ايضا من اللعنة الابدية. وبالنسبة لطفل, فإن صور نار الجحيم وصرير الاسنان تكون حقيقية جدا. انها ليست مجازية على الاطلاق". بعد ذلك سألتها ان تقص ما قيل لها عن الجحيم في طفولتها, واجابتها كانت مثيرة للعواطف تماما كما تعابير وجهها لفترة التردد الطويلة قبل ان تجيب:" انه لغريب جدا ..اليس كذلك ؟ بعد كل هذا الوقت يبدوا وكانه لايزال لذلك القدرة على .. التأثير علي.. .. عندما... عندما تسألني هذا السؤال. الجحيم هو مكان مخيف. انه الرفض الكامل من الله. انه حكمه الكامل, هناك نار حقيقية. هناك عذاب حقيقي, ويستمر للابد وليس هناك تأجيل".

ثم استطردت تخبرني عن مجموعة الدعم التي تقودها لمساعدة الهاربين من طفولة مشابهة لطفولتها, واخبرتني عن صعوبة الهروب بالنسبة للبعض:" ان اجراءات الترك صعبة بشكل غير عادي. اه, لانك تترك ورائك مجموعة اجتماعية كبيرة من العلاقات , ونظام كامل قد تربيت عليه عمليا, تترك ورائك نظام من الايمان كنت قد تسمكت به لسنوات, وغالبا تترك عائلتك واصدقائك... وبالواقع تصبح غير موجودا بالنسبة لهم". وقد تلكمت عن معرفتي الخاصة بالموضوع من خلال الرسائل التي وصلتني من العديد من قرائي الامريكان الذين تركوا دينهم نتيجة قرائتهم لكتابي. والبعض بإرتباك يستطرد ليقول بأنه لم يجرؤ على اخبار اهله , او انه اخبرهم وحصل على نتائج مرعبة. ما يلي هو نموذج لذلك. الكاتب طالب طب امريكي.

"احسست بدافع لكتابة ايميل لاني اشاركك وجهة نظرك بالنسبة للدين, وجهة النظر التي ربما تعرف انها معزولة في امريكا. نشأت في عائلة مسيحية وبرغم ان فكرة الدين لم ترق لي ابدا إلا انني وفقط منذ مدة قصيرة صارت لي الجرأة

لاخبر احدا. هذا الشخص كان صديقتي والتي انتابها الرعب. كنت اعرف بأن إعلان الالحاد يمكن ان يسبب صدمة ولكنها الان تنظر الي كشخص مختلف. لاتستطيع الوثوق بي, وتعلل ذلك بأن اخلاقي لاتأتي من الله. لااعرف اذا كنت سأجتاز تلك المحنة, ولا اريد ان اشارك احدا بمعتقداتي من المقربين لي لاني اخاف ردة فعل الكراهية .. لااتوقع ردا منك. انا اكتب فقط لاني امل بأن تتعاطف وتقاسمني انفعالي. تخيل ان تخسر شخصا تحبه, ويحبك على اسس دينية. و بغض النظر عن رؤيتها لي بأن وثني من غير اله فإنن علاقتنا ممتازة بشكل تام. ذلك ذكرني بملاحظتك بأن الناس يفعلون امورا غير معقولة بإسم ايمانهم. شكرا لاصغائك."

اجبت على رسالة الشاب السئ الحظ, واشرت الى انه ايضا اكتشف شيئا عن صديقته في نفس الوقت الذي اكتشفت هي شيئا عنه. هل هي حقيقة شخص مناسب له؟ اشك في ذلك.

لقد ذكرت الكوميدية الامريكية جوليا سويني والكوميديا العنيدة والمضحكة عن معاناتها لايجاد شئ ما في الدين يستحق انقاذ الاله الطفولي من شكوكها كبالغة. بالنتيجة انتهت مساعيها نهاية سعيدة, وهي الان نمزذج محبب للملحدين الشباب في كل مكان. وربما تكون الخاتمة هي اكثر المشاهد اثرة للمشاعر في عرضها ترك الله . لقد جربت كل شئ.. ومن ثم....

" بينما كنت امشي من مكتبي الى بيتي عبر حديقتي الخلفية, انتبهت لذلك الصوت الخافت الصغير الهامس في رأسي. لست متأكدة من طول الفترة , ولكن فجأة اصبح اعلى ب (ديسيبل) واحد. وهمس. "ليس هناك اله"
وحاولت ان اتجاهله. ولكنه اصبح اعلى بشكل بسيط. "ليس هناك اله.. ليس هناك اله . ." اااه .. ياالهي ليس هناك اله...
أرتعشت في كل جسمي.. احسست وكأنني انزلق من على ظهر الطوافة.
ثم فكرت, "ولكني لا استطيع. لااعرف اذا ماكان بإمكاني عدم الايمان بالله. احتاج لاله. اعني , لدينا تاريخ معه"
"لكني لااعرف كيف لا أؤمن بالله. لااعرف كيف تفعل ذلك. كيف تستيقظ, كيف تمضي يومك؟" احسست بعدم التوازن...
فم فكرت.. "حسنا, اهدائي. لنجرب وضع نظارات اللايمان بالله للحظة, لثانية فقط. فقط ضع نظارة اللايمان بالله والق نظرة حولك وثم القيها بعيدا" ووضعت النظارة ونظرت حولي.
يحرجني ان اقول لكم بأنني اصبت بالدوار. بالواقع فكرت ,"حسنا, كيف تبقة الارض معلقة في السماء؟ تعني , بأننا نتجول في الفضاء؟ هذا ضعف كبير!" اردت ان اجري والتقط الارض عند وقوعها من الفضاء بيدي.
عند ذلك تذكرت " اها نعم, الجاذبية والعزم الزاوي سيحافظون على دوراننا حول الشمس وربما لفترة طويلة جدا"
عندما شاهد العرض **ترك الله** في مسرح لوس انجلس . هزنتني مشاهده بعمق. وخصوصا عندما قصت جوليا عن ردة فعل ابويها عندما علموا من مقال صحفي عن وضعها.

المكالمة الاولى كانت من امي وكان اصبه بالصراخ. ملحدة .. ملحدة ؟!؟!
ثم هتف لي ابي وقال," لقد خنت عائلتك, مدرستك, مدينتك" واحسست وكأنني قد بعت اسرارا عسكرية للروس. كلاهما قال بأنهما لن يتكلما معي بعد الان. ابي قال,"لا اريدك حتى ان تأتي لجنازتي". بعد ان اغلق السماعة ,فكرت, "فقط حاول ان تمنعني".

ان موهبة جوليا سويني هي في ان تجعلك تضحك وتبكي معا في ان واحد:

"اعتقد بأن اهلي اصيبوا بخيبة امل بسيطة عندما قلت لهم بأني لااؤمن بالله بعد الان, ولكن ان اكون ملحدة فهذا شئ اخر بالمرة"

كتاب دان باركر فقدان الايمان بالايمان: من خطيب ديني الى ملحد. هو قصة انقلابه التدريجي من كاهن متطرف مخلص يسافر من مكان لاخر ليخطب في الجموع الى ملحد قوي وواثق من نفسه في يومنا. ما يلاحظ بشكل كبير, هو ان باركر استمر في خطاباته الدينية لفترة بعد اصبح ملحدا, ذلك لانها المهنة الوحيدة التي يعرفها وشعر بأنه محبوس في شبكة من العلاقات الاجتماعية الاجبارية. والان يعرف الكثيرين من رجال الدين الامريكيين الاخرين في نفس الوضع الذي كان فيه ولكنهم يثقون به فقط, بعد قرائتهم لكتابه. لايجرؤون على اعلان الحادهم حتى لعائلاتهم, الى حد الرعب من ردة الفعل المرتقبة. ان قصة باركر تنتهي نهاية سعيدة. وكبداية فإن ابواه صعقا في البداية بشكل عميق ومحزن. ولكنهما اصغيا الى عقلانيته الهادئة , وبالنتيجة اصبحا ملحدين ايضا.

كتب لي استاذان في جامعة امريكية واحدة بشكل مستقل عن اهلهما. احدهما قال بأن امه تعاني من حزن مزمن لانها تخاف على روحه الخالدة. والاخر كتب بأن ابوه تمنى انه لم يولد, مقتنع تماما بأن ابنه سيكون في جهنم للابد. هؤلاء اساتذة جامعيين على درجة عالية من الثقافة, واثقون من دراساتهم ونضجهم العقلي, ويفترض انهم تركوا اهلهم خلفهم في

كل مواضيع المعرفة, وليس فقط الدين. فكر بالصعوبات التي تعترض من هم اقل معرفة, واقل استعدادا بالثقافة والملكات البلاغية منهم, او من جوليا سويني , ليستطيعوا النقاش من زاويتهم الخاصة امام افراد العائلة القساة. كما كان الحال ربما مع العديد من مرضى جيل ميتون.

في بداية حديثنا التلفزيوني, وصفت جيل هذا النوع من التربية الدينية بأنه شكل من اشكال الاذى النفسي, وقد عدت لتلك النقطة, كما يلي:" لقد استعملتي عبارة الايذاء الديني, ولو طلبت منك المقارنة بين الاذى الحاصل من تربية الطفل ليؤمن بالجحيم... فكيف تكون المقارنة بين ذلك وبين الصدمة الحاصلة من الايذاء الجنسي؟ فأجابت:" هذا سؤال صعب جدا .. اعتقد انا هناك الكثير من التشابه بالواقع, لانه في الحالتين هو استغلال للثقة: انه عن حرمان الطفل من حق الاحساس بالحرية والانفتاح والقابلة للاتصال بالعالم بالطريقة الطبيعية .. انه نوع من الاستصغار: انه حرمان الفرد من ان يكون هو نفسه في الحالتين".

دفاعاً عن الاطفال

زميلي الطبيب النفسي نيكولاس هامفري استعمل تعبير "العصي والحجارة" في محاضرته في منظمة العفو في اكسفورد عام 1997. بدأ همفري خطابه بمناقشة فكرة ان هذا المثل ليس صحيحا دائما, ملقيا الضوء على الهايتيين المؤمنين بالفودو والذين ماتوا, على ما يبدو بتأثير فعل كوني-نفسي ارهابي, بعد ايام قليلة من "تعويذة " مؤذية وقعت عليهم. وبعدها تساءل عما اذا يجب على منظمة العفو الدولية, المستفيدة من سلسلة المحاضرات التي شارك بها, ان تنظم حملة ضد الخطابات والنشرات المؤذية والمخربة. وجوابه كان صارخا بالرفض لمثل تلك المراقبة:" حرية التعبير هي حرية اثمن من ان نتدخل بها". ولكنه استطرد بعدها ليفاجئ حتى نفسه كليبرالي عندما دعا لاستثناء مهم جدا: السماح المراقبة في حالة الاطفال الخاصة.

"التعليم الديني والاخلاقي, وبخاصة للاطفال في المنازل, حيث يسمح للاهل – حتى انه يتوقع منهم – ان يقرروا ماهو الحقيقي وما هو الزائف بالنسبة لاطفالهم, ماهو الحق وما هو الباطل, سأجادل هنا , بأن للانسان الحق بألا يشل عقلة بتعريضه لافكار سيئة من اخرين, كائنا من كانوا. فالاهل, هنا لايملكون رخصة الهية لتثقيف اولادهم بأي طريقة يختارونها شخصيا. لاحق لهم بالحد من افق المعارف لاطفالهم وتربيتهم في بيئة من العقائد والغيبيات او الاصرار عليهم بأن يتبعوا الطريق المستقيم و الضيق لايمانهم الديني.
بأختصار, يملك الاطفال الحق بألا تشوش عقولهم بأمور لامعنى لها. ويجب علينا كمجتمع ان نحميهم منها. وبالتالي يجب علينا الا نسمح للاهل بأن يعلموا اولادهم على سبيل المثال , الايمان الحرفي بحقيقة ما هو مكتوب بالكتاب المقدس او بأن الكواكب تتحكم بحياتهم, كما هو الحال بمنعهم من ان يكسروا اسنانهم او حبسهم."

بدون شك, فإن بيانا قويا كهذا يحتاج, ويحظى بمميزات كبيرة. اليس اعتبار شئ ما كهراء موضوع رأي ؟ الا يجب ان تدفعنا اخطاء العلم المتعصب الكثيرة لان نكون حذرين ؟ ربما يفكر العلماء بأنه من الهراء ان نعلم التفليك او ان الكتاب المقدس حرفي , ولكن هناك اخرون من الذين يفكرون بالعكس تماما, اليس لهم الحق لان يعلموا ذلك لاطفالهم؟ اليس من التكبر ان نصر على ان يدرس الاطفال العلم؟

اشكر اهلي لاخذهم بوجهة النظر بأنه يجب على الطفل ان يتعلم ليس بماذا يفكر بل كيف يفكر. لو ان الادلة العلمية عرضت عليهم بشكل عادل, بعد ذلك يستطيعون عندما يكبرون بأن يقرروا فيما اذا كان الكتاب المقدس يمكن ان يكون صحيحا بالحرف او ان حركة الكواكب يمكن ان تتحكم بحياتهم, هذا من حقهم. النقطة المهمة هي انه من حقهم وحدهم ان يقرروا ما يفكروا به, وليس من حق اباءهم ان يفرضوا ذلك عليهم بشكل ارغامي. وذلك بالطبع , مهم بشكل خاص عندما نفكر بأن هؤلاء الاطفال سيكونون اباء الجيل التالي, وسيكونون بوضع يمررون فيه ما "تشكلوا" عليه من التلقين الذي تلقوه سابقا. يقترح همفري بأنه,طالما ان الاطفال صغار, وضعفاء وبحاجة للحماية , فإن الاخلاق الحقيقية تأتي بشكل ظنون امينة عما سيختاروا ان يكونوا عليه عندما يكبرون. وقد ذكر مثالا مؤثرا عن فتاة صغيرة من 500 عام وجدت بقاياها متجمدة في جبال البيرو عام 1995. ان علماء الانسانيات الذين وجدوها كتبوا بأنها كانت ضحية طقوس اضحوية. وقد قال همفري بأن هناك فيلما وثائقيا قد عرض عن "الفتاة المتجمدة" الصغيرة في تلفزيون امريكا. وقد دعي المشاهدون لان:

"يدهشوا من الالتزام الروحي لكهنة الانكا و ليقاسموا الفتاة كبريائها في رحلتها الاخيرة وكذلك فرحتها بإنها قد اختيرت لشرف التضحية. والرسالة التي وصلت للمشاهدين من البرنامج كانت في الواقع بأن التضحية الانسانية كانت بطريقتها الخاصة احد الاختراعات الثقافية المدهشة – جوهرة اخرى في تاج التعددية الثقافية , اذا اردت القول"

همفري اصابه الروع , و أنا كذلك :

" برغم ذلك, كيف يمكن لاحد ان يجرؤ حتى على ان يقترح ذلك؟ كيف يجرؤون على دعوتنا – في غرف معيشتنا, ونحن نشاهد التلفاز – بأن نشعر بالنشوة ونحن نتأمل طقسا لجريمة قتل: قتل طفل من قبل جماعة من كبار السن الاغبياء, منفخين بالغيبيات والجهل؟ كيف يجرؤون على دعوتنا لان نجد شيئا جيدا في انفسنا بتأمل فعل لااخلاقي ضد شخص اخر؟"

ومرة اخرى, فإن القارئ الليبرالي ربما يشعر بوخزة من عدم الارتياح. اللااخلاقية تلك , بمقاييسنا , لاشك بأنها غبية , ولكن ماذا عن مقاييس الانكا؟ بالتأكيد , بالنسبة للانكا كان ذلك فعلا اخلاقيا وبعيدا عن ان يكون غبيا, ومقررا بكل ما يحملون من مقدسات؟ الفتاة الصغيرة كانت بلا شك احدى المؤمنات الصادقات بالدين الذي تربت عليه, من نظن انفسنا لنستعمل كلمات مثل "قتل", ونحكم على كهنة الانكا بمقاييسنا عوضا عن مقاييسهم؟ ربما كانت تلك الفتاة تطرب بالسعادة لمصيرها: ربما كانت تؤمن حقيقة بأنها ذاهبة مباشرة لجنة ابدية, يدفئها شعاع صحبتها لاله الشمس. او ربما – واغلب الظن انه كذلك – كانت تصيح من الرعب .

ان نقطة همفري هنا – ونقطتي ايضا – هي انه بغض النظر عن كونها ضحية برغبتها او لا , فإن هناك سببا يجعلنا نفترض بأنها لن تكون راغبة بذلك لو كانت تمتلك الوقائع. وكنثال , لنفترض بأنها تعرف بأن الشمس هي عبارة عن كرة من الهيدروجين, حرارتها اكثر من 1972 مليون درجة, وتحول نفسها الى هيليوم بالانصهار النووي, وانها تكونت من قرص من الغازات والذي تشكلت منه بقية اجزاء المجموعة الشمسية بما فيها الارض, بالتكاثف... فرضا, عند ذلك , لن تعبدها الفتاة على انها اله, وهذا بدوره سوف يغير اعتباراتها لتكون ضحية لاسترضائها .

لانستطيع لوم كهنة الانكا لجهلهم, وربما يكون من الجور نعتهم بالغباء والبلادة. ولكنهم يلامون لدسهم لايمانهم الخاص في عقل طفل صغير جدا على ان يستطيع القرار اذا ما كان يريد عبادة الشمس ام لا. والنقطة الاضافية لهمفري هي ان الفيلم الوثائقي المعاصر ونحن المشاهدون له, يلامون ايضا لرؤيتهم للجمال في موت الطفلة الصغيرة " كشئ يغني معرفتنا بالتعديدية الثقافية" . وبنفس الطريقة مواقفنا تجاه العادات في الديانات المحلية, وتبرير العنف بإسمها, ومرة تلو اخرى. انه المصدر الاساسي للتضارب الداخلي في عقول اللطفاء من الليبراليين من الناس, والذين لايستطيعون من جهة تحمل المعاملة القاسية, ومن جهة اخرى قد دربوا على احترام ثقافة الاخرين ليس بأقل من احترامهم لثقافتهم, وذلك من قبل المؤمنين بنسبية الامور . إن ختان البنات بدون شك مؤلم جدا, ويمكن ان يؤثر على المتعة الجنسية في النساء (بالتأكيد, ربما يكون ذلك هدفة بالاصل), ونصف العقول الليبرالية تريد الغاء تلك الممارسات. والنصف الاخر, على اية حال, "يحترم" الثقافة المحلية ويشعر بأنه ليس علينا ان نتدخل عندما يريدون "هم" ان يمثلوا بـــ"بناتهم". النقطة بالطبع , هي ان "بناتهم" هم في الحقيقة بنات "انفسهم" , ورغباتهم لايجوز ان يتغاضى عنها. هناك سؤال مخادع هنا: ماذا لو ارادت الفتاة نفسها ان تختتن؟ ,لكن هل ستفعل, عندما تكون على اطلاع على الموضوع كراشدة, وهذا لايحصل ابدا؟ . همفري يركز على نقطة انه ليس هناك من امرأة فقدت فرصتها في الختان عندما كانت طفلة , وتتطوع لاجراء تلك العلمية لاحقا في حياتها .

وبعد مناقشة دارت حول الايميش, وحقوقهم في تربية اطفالهم بطريقتهم, انزعج همفري من حماسنا كمجتمع لـــ:

الحفاظ على التعددية الثقافية. حسنا, ربما تود ان تقول, ربما انه من الصعب بالنسبة للطفل ان يربى لابوين من الاميش, اوالحسيدي, او الغجر – ولكن على الاقل ستكون النتيجة تلك الاستمرارية للتقاليد الثقافية الساحرة. الن تفقر حضارتنا الانسانية بذهاب تلك العناصر؟ انه من المشين, ربما, ان يضحي بأفراد للمحافظة على تعددية كهذه .ولكن اليكم هذا الرأي: انه الثمن الذي ندفعة كمجتمع. بإستثناء , واجد نفسي مرغما على تذكيركم , اننا لاندفع, بل هم (الاطفال) الذين يدفعون .

هذا الموضوع بدأ بالحصول على اهتمام شعبي عام 1973 عندما اصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة في قضية ويسكنسون ضد يودير, والتي اهتمت بموضوع حقوق الاباء في سحب اولادهم من المدارس لاسباب دينية, الاميش هم اناس يعيشون في مجتمعات مغلقة في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة الامريكية, وغالبا ما يتكلمون لهجة المانية

قديمة تسمى بالدوتش البنسلفاني , ويتجنبون بحدود مختلفة , الكهرباء والمحركات الدافعة والازرار ومظاهر اخرى من الحياة العصرية. هناك بالتأكيد ما يمكن ان يكون استعراضا جذابا في منطقة تعيش عيشة القرن السابع عشر بنظر الاشخاص العصريين.. الا يستحق ذلك الحفاظ عليه, من اجل اغناء التعددية الانسانية؟ والطريقة الوحيدة للحفاظ عليها هي في السماح للايميش بأن يربوا ابنائهم بطريقتهم الخاصة , وحمايتهم من التأثير المخرب للحياة العصرية. ولكن هنا نريد بالتأكيد ان نسأل, اليس للاطفال الحق في ان يكون لهم رأيهم في الموضوع؟

كان على المحكمة العليا ان تحكم في , 1972 عندما سحب بعض اباء الايميش ابنائهم من المدرسة الثانوية. وفكرة التعليم نفسها بعد سن معين كانت مناهضة للقيم الدينية للايميش, وبخاصة التعليم العلمي. ولاية ويسكنسون قاضت الاهل واخذتهم للمحكمة , بدعوى حرمان الابناء من حقهم في التعليم. وبعد المداولة, وصلت الدعوى للمحكمة العليا في الولايات المتحدة والتي قررت بمعدل الى لصالح الاباء. واغلبية الاراء , كما كتب رئيس مكتب العدل وارن برغر, تضمنت ما يلي:" كما نرى من السجلات, ان التعليم الالزامي في سن الـــ لاطفال الايميش يشكل تهديدا حقيقيا يمكنه تقويض مجتمع الايميش وممارساته الدينية الموجودة حاليا, وعليهم اما ان يتركوا الايمان وينصهروا في المجتمع العريض, او ان يرغموا على الهجرة لاماكن اكثر تقبلا لامور كهذه" اما عن اراء الاقلية كما يروي ويليام دوغلاس فكانت عن سؤال الاولاد انفسهم, هل يودون فعلا ان يقطعوا دراستهم؟ هل يودون, بالتأكيد, البقاء في دين الايميش؟ نيكولاس همفري ربما كان سيذهب لابعد من ذلك. حتى ولو وافق الاولاد على ان يبقوا ضمن الايميش فهل سيكون رأيهم هو نفسه لو عرفوا ودرسوا الخيارات الاخرى ؟ ليكون لذلك مصداقية , الا يجب ان يصوت بعض الشباب من العالم الخارجي معلنين عن رغبتهم بالانضمام للايميش؟ الحاكم دوغلاس ذهب لابعد من ذلك بطريقة اخرى. فهو لم يجد اي سبب خاص للاخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الاهل من الناحية الدينية في القرار عما اذا كان سيسمح لهم بمنع ابناءهم من الدراسة. لانه لو كان الدين سببا للاستثناءات , افلن يكون هناك رأي علماني مما يجب اخذه بعين الاعتبار ايضا؟ ان الاغلبية في المحكمة العليا اخذوا قراراتهم من القيم الايجابية لوجود نظام رهباني , يغني وجوده مجتمعنا. ولكن كما اشار همفري, فهناك فارق جوهري. إن الرهبات يتطوعون لحياة الرهبنة بمحض ارادتهم.. اطفال الايميش لم يتطوعوا لاي شئ, لقد ولدوا لهذا النظام ولم يكن لهم اي رأي في الموضوع.

هناك شئ يقطع الانفاس بتنازلاته و لتضاربه مع الانسانية, في موضوع التضحية من اي شخص , خصوصا الاطفال, على مذبح "التعددية" والحفاظ على القيم الدينية التقليدية. الباقي منا سعداء بسياراتنا وكومبيوتراتنا, لقاحاتنا ومضاداتنا الحيوية. ولكنك تجذب الصغار من الناس بعربتك واغطيتك وسراويلك القصيرة, بلهجتك القديمة ومرحاضك الترابي, وتغني حياتنا بذلك. وبالطبع يجب ان نسمح لك بأن تضع اولادك بالفخ الزمني للقرن السابع عشر., وإلا فأننا نفقد شيئا لايعوض: جزء من التعددية الرائعة للمعرفة الانسانية. ان جزء صغيرا مني يرى بعض القيمة في ذلك, ولكن الجزء الاكبر من يحس بالغثيان بالتأكيد.

فضيحة تربوية

رئيس مجلس الوزراء في بلدي, طوني بلير, استعمل "التعددية" عندما تحداه احد اعضاء المجلس العام جيني تونغ ليبرر المنحة الحكومية لمدرسة في شمال شرق انكلترا والتي (ربما حالة وحيدة في انكلترا) تدرس نظرية الخلق الانجيلية بحرفيتها. السيد بلير اجاب بأنه من المؤسف ان يكون موضوعا كهذا مهما امام امتلاكنا "لمناهج مدرسية متعددة وجيدة بقدر الامكان". المدرسة هنا هي كلية ايمانويل في غاتشهيد, وهي احد "اكاديميات البلدة" وانشأت تحت رعاية الحكومة المفتخرة لبلير. وبعض الاغنياء طلب منهم وضع مبالغ بسيطة (مليونين جنيه استرليني في حالة ايمانويل) , التي تدفع الحكومة مقابلها حوالي (عشرين مليونا للمدرسة, اضافة لمصاريفها ورواتب دائمة), كما تعطي المتبرعين حق تقرير اخلاقيات المدرسة, وتعيين المدير والموظفين, ومن يحق له الدخول ومن لايحق له ذلك, واشياء كثيرة اخرى.

عشرة بالمئة من التبرعات تأتي من السير بيتر فاردي, بائع سيارات غني وعنده رغبة حقيقية بإعطاء اطفال اليوم الثقافة التي يتمنى لو حصل علها, .ورغبة اقل مصداقية بأن يطبعهم بقناعاته الدينية. للاسف تورط فاردي من اتباع الاساتذة الامريكان المتطرفين دينيا, وعلى رأسهم نيغل ماكويد, الذي يدير كلية ايمانويل بعض الاحيان وهو الان مدير كل مدارس فاردي. ان مستوى فهم ماكوي للعلوم يمكن ان نحكم عليه من خلال ايمانه بأن العالم خلق منذ اقل من عشرة الاف سنة, ومن الاقتباس التالي:" ولكن القول بأننا تطورنا من الانفجار, وبأننا كنا قردة, ذلك يبدوا عديم المصداقية عندما تنظر الى تعقيد الجسم الانساني.. عندما تقول للاطفال بإنهم عبارة عن طفرات كيميائية بأنه ليس هناك غرض من الحياة فإنك لاتساعدهم على بناء الثقة بالنفس".

ليس هناك من عالم يعتقد بأن الطفل هو "طفرات كيميائية". ان استعمل الجملة في ذلك السياق هو بلا اي معنى معرفي, كما هو الحال في تصريح "الخوري" واين مالكولم ,رئيس كنيسة حياة المدينة في كاكني, في شرق لندن, والذي, بحسب مقال في الغارديان في 18 نيسان: 2006 "نزاعات الادلة العلمية للتطور". ان فهم مالكولم للادلة يمكن قياسه من تصريحه بأن "من الواضح ان هناك نقص في سجلات الحفريات لكائنات متوسطة المستوى في التطور. لو ان ضفدعا تحول لقرد , الا يجب ان يكون هناك (ضفدرد)؟."

حسنا, ليس العلم من اختصاص ماكويد ايضا, وعلينا للعدل, ان نوجه عنايتنا لرئيس الهيئة العلمية التابعة له, ستيفن لايفيلد, بدلا عنه. في 21 ايلول ,2001 السيد لايفيل القى محاضرة في كلية ايماويل عن " تدريس العلوم: وجهة نظر الكتاب المقدس". نص المحاضرة نشر على موقع مسيحي في الانترنت. ولكنك لن تجده الان هناك. لقد رفعته المنظمة المسيحية في اليوم التالي بعد تعليقي عليه في مقال كتبته عنه في صحيفة الديلي تلغراف في 18 اذار ,2002 وعرضت افكاره لتشريح محرج. وعلى ايه حال فإنه من الصعب محي اي شئ بشكل دائم من الانترنت. ذلك لان محركات البحث يحصلون على سرعتهم بشكل جزئ من تخزين نسخ من المعلومات في حواسيبهم, وهذا يبقى لبعض الوقت حتى بعد ازالة المعلومة الاصلية. واحد الحصفيين البريطانيين , اندور براون, المسؤول الاول عن مواضيع القسم الديني في الاندبدنت استطاع تحصيل محاضرة لايفيلد, وتحميلها من غوغل ونشرها بأمان من المحي على موقعه الخاص

http://www.darwinwars.com/lunatic/liars/layfield.html

ستلاخظ بأن الكلمات المختارة من قبل براون للرابط لها معنى مسلي بحد ذاتها. ولكنها تفقد قدرتها على الادهاش عندما تطلع على محتويات المحاضرة بذاتها.

وللمصادفة, فعندما كتب احد القراء يسأل كلية ايمانويل عن سبب رفعها للمحاضرة من الموقع, حصل على الاجابة المراوغة التالية من الكلية ومرة اخرى يسجلها اندرو براون:
"ان كلية ايمانويل كانت في مركز مناظرة تتعلق بتدريس الخلوقية في المدارس. وعمليا في كلية ايمانويل تلقينا العديد جدا من المكالمات الصحفية. وذلك استدعى اخذ كمية كبيرة من وقت المدير ومساعديه. وكلهم لديهم واجبات ليقوموا بها. ولذلك قمنا برفع محاضرة ستيفن لايفيلد مؤقتا من موقعنا."

بالتأكيد, مسؤلوا المدرسة كانوا مشغولين بشرح موقفهم للصحفيين عن تدريسهم لنظرية الخلق. ولكن لماذا اذن رفعوا نص المحاضرة من الموقع والتي تشرح تماما موافقهم من الموضوع . الم يكن بإمكانهم ان يدلوا الصحفيين على الرابط الذي يجيب على كل اسئلتهم ويوفر عليهم الوقت؟ . لا. لقد رفعو محاضرة رئيس قسم العلوم لانهملاحظوا عن عليهم ان يخفوا شيئا. اليكم هذا المقطع من بداية نص المحاضرة.

"دعونا نصرح منذ البداية بأننها نرفض ان يكون مشاعا في الوطن, وربما بشكل غير مقصود, ما قاله فرنسيس بيكون في القرن السابع عشر بأنه هناك كتابين (كتاب الطبيعة, والكتاب المقدس) والذان يجب دراستهما بشكل مستقل من اجل الحقيقة. اننا نقف بحزم وراء الافتراض بأن الله تكلم بشكل مسؤول وغير قابل للخطأ في صفحات الكتاب المقدس. ومهما بدا ذلك هشا. وبالاخص بالنسبة لغير مؤمن من مدمنين التلفزيون في ثقافة العصر, فنحن متأكدين انه من امتن القواعد لوضعها والبناء عليها".

عليك ان تقرص نفسك بإستمرار لتعرف بأنك لاتحلم. ليس هذا كاهنا في خيمة في الاباما ولكنه رئيس الهيئة العلمية في مدرسة تصب فيها الحكومة البريطانية المال, وموضوع فخر واعتزاز لطوني بلير. وكونه مسيحيا مخلصا بنفسه فإن السيد بلير كان على رأس حفل الافتتاح عام 2004 لاحدى مدارس الجديدة في سلسلة مدارس فاردي. ربما تكون التعددية ذات قيمة, ولكن التعددية هنا نوع من الجنون.

ويمضي لايفيلد بتصنيف المقارنة بين العلم والكتاب المقدس, ويصل لنتيجة, في كل حالة من الحالات حيث يبدو الموضوع متناقضا, بأن الكتاب المقدس يحتل المركز المفضل. لاحظ بأن علم الارض متضمن الان في منهج الدراسة الوطني, ويقول لايفيلد " انه من العقل لهؤلاء الذين يؤلفون فصول الكتب بأن يطلعوا على دراسات الطوفان الجيولوجية التي اجراها وايتكومب وموريس". نعم "الطوفان الجيولوجي" يعني ما تفكر به. انه يتكلم عن سفينة نوح! – بينما يمكن للاطفال ان يتعلموا ما يشغف العقل من الوقائع بأن افريقيا وامريكا الجنوبية كانتا ملتصقتين , وتبتعدان عن بعضهما

بالسرعة التي تنمو بها الاضافر. واليك مقطعا اخر من لايفيلد(رئيس الهيئة العلمية) عن طوفان نوح كتفسير لظاهره سريعة ومن الماضي القريب, والتي هي تبعا للادلة الجيولوجية , حدثت منذ ملايين السنين:
" يجب علينا الاعتراف بناء المثال الكبير الجيوفيزيائي بأن الطوفان العالمي المشروح في سفر التكوين في الكتاب المقدس صحيح بشكل لايقبل الشك وان الانساب (مثل ما ذكر في التكوين ومتى ولوقا) متصلة بشكل كبير, علينا بالحسابات بأن تلك الكارثة العالمية حدثت في الماضي القريب. وتأثيرها شامل وواضح في كل مكان. وذلك بإعتبار مبدأ الادلة التي توجد في المستحاثات الصخرية, ومخزون الطاقة الهيدروكربونية الكبير(بترول, غاز وفحم) ووجود القصص (الاسطورية) لطوفان عظيم عند العديد من الحضارات في العالم. وموضوع امكانية بناء سفينة مليئة بممثلين عن جميع الكائنات الحية وبقائهم واستمرار حياتهم فيها لسنة كاملة حتى وقت انحسار الماء مدون وبشكل جيد من قبل العديدين ومنهم جون وودمارابي".

بشكل ما يبدو ذلك اسوأ من الاعتراف بعدم المعرفة لاشخاص مثل نايغل ماكويد او البيشوب واين مالكولم اعلاه, ذلك لان لايفيلد مثقف علميا. واليكم مقطعا مدهشا اخر:

"وكما صرحت سابقا,فإن المسيحيين, ولسبب جيد جدا, يعتبرون العهد القديم والعهد الجديد مصدرين موثوقين فيما يتعلق بما نؤمن به. لايعتبران وثيقتين دينيتين فقط ولكنهما ايضا المصدر الصحيح لتاريخ الارض والذي نجهله بشكل خطير".

ان النتيجة بأن الكتاب المقدس يقدم لنا المعلومات الحرفية عن التاريخ الجيولوجي سيصيب اي عالم دين ذو سمعة خسنة بالجفل. صديقي ريتشارد هاريس, بيشوب اوكسفورد وانا كتبنا رسالة مشتركة لطوني بلير, وحصلنا على تواقيع ثمانية خوارنة وتسع علماء متقدمين. ومنهم رئيس الهيئة العلمية الملكية (رئيس هئية المستشارين العلمية لطوني بلير سابقا). مديري قسمي الفيزياء والبيولوجيا, الفلكي الملكي (والذي اصبح حاليا مدير الهئية), مدير متحف التاريخ الطبيعي, والسير دافيد اتيبورو, والذي هو ربما الشخصية الاكثر احتراما في انكلترا. والخوارنة تضمنوا واحدا من الروم الكاثوليك وسبعة من الانجيليين – من رؤساء الهيئات الدينية في كل انكلترا. وصلنا رد ممل وناقص من مكتب رئيس الوزراء, يلمح الى النتائج الجيدة في امتحانات المدرسة بحسب تحريات مكتب الرقابة على التعليم. ربما لم يخطر للسيد بلير انه اذا كان مفتشوا مكتب الرقابة على التعليم قد اعطوا تقريرا جيد عن مدرسة يقول رئيس قسم العلوم فيها بأن كل الكون بدأ بعد استئناس البشر للكلاب وجعلها حيوانات اليفة, فلربما يكون هناك شئ من الخطأ في مقاييس هؤلاء المفتشين.

ربما يكون المقطع الاكثر إزعاجا في محاضرة لايفيلد هو في نهايتها" ماالذي يمكن فعله؟" . حيث اعتبر بعض التكتيكات لاستعمالها من قبل الاساتذة الراغبين بتقديم المسيحية المتطرفة في الحصص العلمية. وكمثال , حث اساتذة العلوم على:

" دون كل فرصة تقدم فيها فكرة قدم الارض (ملايين او مليارات السنين) بشكل صريح او ينوه عنها في كتاب, او سؤال امتحان او من قبل زائر واشر بإحترام للضعف فيها. وكلما كان ذلك ممكنا, علينا ان نعطي البديل(الافضل دوما) الانجيلي في شرح نفس المعلومات. علينا ان نفحص بعض الامثلة من كل كتب الفيزياء, الكيماء والبيولوجيا في المقررات المفروضة كل بدوره"

بقية محاضرة لايفيلد لاتعدو عن كونها تعليمات للدعاية, مصدر لاساتذة البيولوجيا والكيماء والفيزياء المتدينين, الذين يرغبون, مع بقائهم ضمن حدود المنهج الوطني ,بتخريب الادلة المبنية على المبادئ العلمية واستبدالها بالكتاب المقدس, وفي نفس الوقت سيلتزمون بالتوجيهات العامة المقررة في الخطة الدراسية لكل المدارس.

في الخامس عشر من نيسان عام 2006 اجرى جايمس نوتي, احد اكثر محرري ال بي بي سي خبرة مقابلة إذاعية مع السير بيتر فاردي . والموضوع الاساسي كان عن تحريات بوليسية لاتهامات انكرها فاردي, عن رشوى – بلقب فارس شرف – قد عرضت من قبل حكومة بلير لبعض الاغنياء, كمحاولة لاشراكهم في مخططات المدينة الاكاديمية. نوتي سأل فاردي ايضا عن موضوع نظرية الخلق, وفاردي نفى بأن تكون اكامية ايمانويل داعية لنظرية الارض الشابة ونظرية الخلق لطلابها. واحد خريجي كلية ايمانول, بيتر فرنش, صرح بشكل علني, "لقد درسونا بأن عمر الارض ستة الاف عام" فمن منهم يقول الحقيقة؟ حسنا . . لانعرف ذلك, ولكن محاضرة سيفن لايفيلد وبشكل صريح جدا وضعت الخطوط العريضة للموضوع. الم يقرأ فاردي محاضرة لايفيلد؟ الا يعرف فعلا ما ينوي رئيس قسم العلوم في اكادميته فعله؟ لقد جمع بيتر فاردي امواله من بيع السيارات المستعملة. هل ستشتري واحدة منه؟ وهل ستبيعه –كما فعل طوني بلير – مدرسة بعشر ثمنها وتعرض دفع كل مصاريف تشغيلها ؟ لنكن متسامحين مع بلير ونفترض بأنه, على الاقل, لم يقرأ محاضرة لايفيلد. اظن بأن الامل بأن ينتبه للموضوع الان سيكون مبالغا فيه.

المدير الاداري ماكويد دافع عما راه بوضوح كإنفتاح في مدرسته ,وتبدوا فيه المداراة واضحة بشكل ملحوظ:

" المثال الافضل الذي يمكنني ان اعطيه عن الانفتاح هنا في شكل محاضرة فلسفية كنا القيها. شاكيل كان جالسا فيها وقال بأن القرأن صحيح وحقيقي" وكلار, تجلس هناك, قالت" لا. الانجيل صحيح" وبدأنا بالحديث عن التشابهات والتناقضات بينهما . واتفقنا بأنه لايمكن ان يكون كلاهما على حق. وبالنتيجة قلت" اسف يا شاكيل, انت مخطئ, الانجيل هو الصحيح" وهو قال :" اسف ياسيد ماكوي, انت مخطى , بل هو القران". وبعدها ذهبا للغداء واستمرا في المناقشة. ان هذا ما نريد لاطفالنا ان يعرفوه, لماذا يؤمنون بما يؤمنون به و الدفاع عنه"

يالها من صورة جذابة. شاكيل وكلار ذهبا للغاء سويا, يناقشان بحماس القضايا ويدافعان عن اعتقاديهما الغير متناسبين. ولكن هل هذا جذاب في الحقيقة؟ اليست في الحقيقة صورة محزنة تلك التي رسمها ماكويد؟ ما الذي يبنى شاكيل وكلار حججهما عليه؟ ما هي الادلة التي اتى بها كلاهما لدعم كلامه في نقاشهما الحماسي والبناء؟ كلار وشاكيل زعما كلاهما ببساطة بأن كتابه المقدس افضل من الكتاب الاخر. وهذ اكل شئ. هذا كل ما يبدوا انهم قد قالوه وهذا كل ما يمكنك قوله بالتاكيد.عندما يكون ما درسته هو ان الحقيقة تأتي من الكتاب المقدس عوضا عن الادلة. كلار وشاكيل وكل اصحابهم لم يحصلوا على الثقافة. لقد خذلوا من قبل مدرستهم, ومسؤليها اذوهم, وليس جسديا ولكن عقليا.

الـوعـي مـرة أخـرى

والان اليكم صورة جذابة اخرى. في احدى ايام عيد الميلاد كانت صحيفتي اليومية الاندبندنت تبحث عن صورة للموسم ووجدت واحدة عالمية مما يدفئ القلب اخذت من مسرحية للميلاد في مدرسة للاطفال. حيث لعب دور الحكماء الثلاثة, كما هو مكتوب بالخط العريض في العنوان, شادريت(سيخ), مشرف (مسلم) وعادل (مسيحي), جميعهم في الرابعة من العمر.

جذابة؟ تدفئ القلب؟ لا, ليست كذلك, لاهذه ولا تلك, بل انها مشوه. كيف يمكن لشخص شريف ان يفكر بأنه من الصحيح ان نصم طفلا في الرابعة من العمر بالرأي الكوني الديني لاباءه؟ لتوضيح ذلك, تخيل نفس الصورة مع عنوان مغاير بالشكل التاي ": شادريت (كينيزي-صفة لفكرة اقتصادية), مشرف (نقدي) وعادل (ماركسي), جميعهم في الرابعة". هل يعقل ان يكون هذا مقبولا في رسالة احتجاج غاضبة؟ بالتأكيد يجب ذلك. بالرغم من ذلك, وبسبب الامتياز الغامض للدين, لم يسمع اي صرير, ولم يسمع اي شئ مماثل في اي مناسبة مماثلة. تخيل فقط بأن العنوان اصبح "شادريت (ملحد) ,مشرف (لادري) وعادل (علماني انساني), جميعهم في الرابعة من العمر". الا يجب التحقق من ان اباءهم اهل لتربية الاطفال؟ في انكلترا, حيث ينقصنا قانون يفصل الدين عن الدولة, يسبح الاهل الملحدون مع التيار ويتركون المدارس لتعلم اولادهم الديانة المهيمنة على الثقافة. هناك موقع امريكي Thebright.net يصف الملحدين ب"الاذكياء" بالتشابه مع التسمية التي يسمي الشاذون جنسيا انفسهم بكلمة (غاي). يشكك بوضع قواعد للاطفال في عريضة للتوقيع:" ان القرار بأن يصبح الطفل من مجموعة "الاذكياء" يجب ان يكون قرار الطفل نفسه. اي طفل قيل له بأن عليه ان يكون كذلك لايمكن ان يقبل في المجموعة". هل تستطيع تخيل كنيسة او جامع يصدر قرارا معارض لنفسه كهذا؟ ولكن الا يجب عليه ان يجبروا على ذلك؟ بالمصادفة وقعت على عريضة "الاذكياء", واحد اساب ذكل هو انني كنت فضوليا لاعرف اذا ما كانت كلمة كهذه يمكن ان تدخل اللغة بطريقة هندسية مدروسة. لا اعرف , وأود ان اعرف فيما اذا كانت كلمة (غاي) قد دخلت اللغة بطريقة مدروسة او انها حصلت بالصدفة. ان حملة "الاذكياء" بدأت بداية مهزوزة عندما رفضها بعض الملحدين, خوفا من ان يوصفوا ب"التكبر". ان حركة الافتخار بالشذوذ, لحسن الحظ , تعاني من ذلك التواضع الزائف, والذي ربما كان سبب نجاحها.

في فصل سابق, كنت قد طرحت موضوع "رفع الوعي", بدأ بمنجزات مناصري المرأة بجعلنا نجفل عند سماعنا عبارة مثل "رجال النوايا الطيبة" عوضا عن "اناس النوايا الطيبة". وهنا اريد ان ارفع الوعي بطريقة اخرى. اعتقد بأن علينا جميعا ان نجفل عند سماعنا بأن طفلا صغيرا يوصم بانه يتبع دين معينا ما. الاطفال صغار جدا على ان يقرروا وجهة نظرهم عن نشوء الكون, الحياة, والاخلاق. ان العبارة بذاتها"طفل مسيحي" او" طفل مسلم" يجب ان تسمع وكأنها صرير ظفر على سبورة.

اليكم هذا التقرير بتاريخ 3 ايلول ,2001 من راديو ايرلندا اف ام.

تلميذات كاثوليكيات في المدرسة واجهن معارضة من الموالاة عند محاولتهم الدخول لمدرسة الصليب المقدس الابتدائية اللبنات الكائنة في شارع اردبون في شمال بلفاست. ضباط الشرطة الملكية و الجيش البريطاني ازاحوا المعارضين الذين حاولوا سد طريق المدرسة. ووضعت حواجز للسماح للاطفال بالمرور عبر المحتجين للمدرسة. الموالون صخبوا واستهزأوا بالطائفية بينما الاطفال, ومنهم من هو في سن الرابعة, اصطحبوا من قبل ابائهم للمدرسة. وعند دخولهم من باب المدرسة رمى الموالون للمعارضة المدرسة بالزجاجات الفارغة والاحجار.

بشكل طبيعي, اي شخص عادي سيجفل من حدث كهذا يحصل للفتيات الصغيرات. احاول هنا ان اشجع الجفل, ايضا, ضد الفكرة بوصم الاطفال ب" بنات كاثوليكيات في المدرسة" بحد ذاتها. ("الموالون", كمان اشرت اليهم في الفصل الاول هي تلطيف يصف الايرلنديين الشماليين البروتستانتيين, تماما كما يستعمل التلطيف "الوطنيون" لوصف الكاثوليكيين. اناس لن يترددوا في وصف الاطفال ك"كاثوليكيين او بروتستانتيين. ولكنهم يترددون بالنعت بنفس المواصفات الدينية – مع انها اكثر موضوعية – للبالغين من الارهابيين والعصابات).

مجتمعنا, ويتضمن ايضا اللادينيون, قد تقبل الفكرة غير المعقولة عن انه من الطبيعي ومن الحق ان يلقن الاطفال الصغار دين اباءهم, والقاء اللافتات الدينية عليهم –" طفل كاثوليكي" , "طفل بروتستانتي" , "طفل يهودي", "طفل مسلم", والخ.– على الرغم من انه لايوجد لافتة للمقارنة: ليس هناك طفل محافظ, او ليبرالي, لاطفل جمهوري, او ديموقراطي. الرجاء, ارجوكم ان تلفتوا انتباهكم لهذا الموضوع, وعند سماعكم لشئ كهذا افعلوا شيئا. الطفل ليس طفلا مسيحيا, او مسلما. بل هو طفل لابوين مسيحيين اومسلمين. وتلك التاريف , بالمناسبة, هي طريقة عظيمة للفت انتباه الاطفال انفسهم. الطفل الذي يقال له بأنه "طفل لابوين مسلمين" سيعرف فورا بان الدين هو شئ له ان يختاره – او يرفضه – عندما يصبح في عمر يؤهله لذلك.

من المؤكد بأنه من المفيد دراسة مقارنة الاديان. وقد اثير ت شكوكي بالتأكيد عندما كنت في حوالي التاسعة من العمر, وذلك من درس (اتى من اهلي وليس من المدرسة) عن ان المسيحية التي تربيت عليها هي احد الانظمة الايماينة العديدة المتناقضة في العالم. وفي بعض الاحيان يخيف ذلك رجال الدين عندما يلاحظونه. وبعد قصة مسرحية الميلاد في الاندبندنت, لم تصل اي رسالة للمحرر تشتكي من وضع لوائح على الاطفال ذو الاربع سنوات تصفهم بدياناتهم. والرسالة السلبية الوحيدة وصلت من "حملة التعليم الحقيقي", والتي قال المتحث بإسمها نيك سيتون, بأن تدريس الديانات المتعددة خطر لان "الاطفال في ايامنا يتعلمون ان الديانات جميعها لها قيمة متساوية, وهذا يعني بأن دينهم ليس له اي قيمة خاصة". بالتأكيد, هذا ما يعنيه ذلك. حسنا , هل سيكون هذاالمتحدث بإسم المنظمة قلقا اذا ما قيل للطفل في مناسبة اخرى" ان التعريف بأن كل الديانات لها نفس المصداقية هو خطأ. وكل له الحق بأن يظن بأن ايمانه افضل من الايمانات الاخرى, سواء كانوا من النهدوس, اليهود او المسلمين او المسيحيين – وإلا فما قيمة الايمان؟"

نعم, ما قيمته بالتأكيد؟ وكم هو ساذج ذلك الاعتقاد!. ان الايمانات متناقضة فيما بينها. وإلا فماذا يعني ان يكون ايمانك افضل؟. ولهذا فإن غالبيتهم لايمكن ان يكون "افضل من الاخرين". لندع الاطفال يتعلمون الاديان المختلفة, لندعهم يلاحظون التضارب, ولندعهم يستخلصون ارائهم الخاصة عن نتائج هذا التضارب. واما عن موضوع كون احدها "صحيح", فلندعهم يقرروا ذلك بأنفسهم عندما يصبحون في عمر يؤهلهم لذلك.

التعليم الديني كأي جزء من الثقافة الأدبية

على ان اعترف بأنني مندهش من جهل المثقفين العام بالكتاب المقدس في يومنا هذا اكثر من الماضي. وربما ان الامر ليس موضوع عقود من الزمن. فحتى في 1954, و اعتمادا على معلومات روبرت هيند في كتابه الفكري لماذ تستمر الالهه, فإن استطلاع غالوب في الولايات المتحدة وجد مايلي. ثلاثة ارباع الكاثوليكيين والبروتستانتيين لم يستطيعوا تسمية اي نبي من العهد القديم. واكثر من الثلثين لم يعرفوا من القى الموعظة من الجبل. وعدد كبير يظن بأن موسى هو احد تلاميذ يسوع الاثني عشر. هذا , واعيد هنا, كان في الولايات المتحدة, والتي هي اكثر تدينا بشكل درامي من كل البلاد الاخرى في العالم المتحضر.

ان انجيل الملك يعقوب من 1611 الطبعة المعترف بها – يتضمن بعض المقاطع من الادب البارز بحد ذاته, و السرد الرفيع (وقد قيل لي بان الطبعة العبرية الاصلية تتضمن ذلك ايضا). ولكن السبب الرئيسي لان يكون الانجيل الانكليزي احد اجزاء التعليم الادبي هو انه مصدر رئيسي للثقافة الادبية. ونفس الشئ يطبق على الالهه الاغريقية والرومانية , وقد درسناهم بدون المطالبة بالايمان بهم. واليكم لائحة سريعة عن جمل استوحيت من الانجيل والتي تستعمل بشكل متكرر في الادب والمحادثات الانكليزية, ومن بعض الاشعار العظيمة للكليشيهات المبتذلة, من الامثال وحتى الثرثرة.

كن مثمرا وتضاعف. شرقي عدن. ضلع ادم. هل انا حارس لاخي؟ . اشارة قابلي. قديم قدم ميتوشالح. . باع حقوق ولادته. سلم يعقوب. معطف بألوان متعددة. النواة الغريبة . بلا عيون في غزة. دسم الارض. العجل المسمن. غريب في الارض الغريبة. الغابة المشتعله. ارض العسل والحليب. دع اناسي يذهبون. طنجرة اللحم. العين بالعين والسن بالسن. تأكد بأن ذنوبك ستكشفك. تفاحة عينه. النجوم في فصولها. سمن في صحن الهي. مضيفوا مدين. (وكثير من الجمل الاخرى .. وبعضها يقال نفسه بالعربية – المترجم)

.كل واحد من تلك التعابير, الجمل او الكليشيهات ات مباشرة من انجيل الملك يعقوب ..وبالتأكيد فإن الجهل بالانجيل يؤدي لفقر في امكانية تقدير الادب ؟ وليس فقط الادب الجاد. مايلي قصيدة من ابداع اللورد جاستيس باون.

المطر ينزل على فقط
وعلى الانسان الظالم ايضا
ولكن بشكل خاص علي انا
ذلك لان مع الظالم شمسية.

ولكن المتعة تخبو اذا لم تكن تعرف تلميحات المقطع من انجيل متى 5:45 "لانه يشرق شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين". وكذلك النقطة التي اشارت لها اليزا دوليتل في سيدتي الجميلة سوف لاتفهم من قبل من هو جاهل بنهاية حنا المعمدان:

"شكرا جزيلا ايها الملك, اقولها بأسلوب المتربي بشكل جيد, ولكن كل ما اوده هو "

بي . جي. وولدهاوس , في رأيي, هو اعظم كاتب للكوميديا الخفيفة باللغة الانكليزية. وانا اراهن ان نصف جمل اللائحة الانجيلية التي نوهت عنها يمكن ايجاد تلميحات عنها في صفحاته. ان تشريعات وولدهاوس غني بعبارات انجيلية اخرى, وليست مما تضمنت لائحتي وليست مما يستعمل في اللغة التعبيرية او الامثال. لنستمع الى قصة البعث لبيرتي ووستر عن الاستيقاظ مبكرا مع الشعور بصداع الكحول: " حلمت بأن احدا يغرس اشواكا في رأسي– وليست اشواكا عادية, من التي يستعلمها جيل وزوجته في هيبير, بل حارة لدرجة الاحمرار". وبيرتي نفسه فخور جدا بفوزه بالجائزة الفكرية الوحيدة التي حصل عليها في حياته كإنجاز عن معرفته بالكتاب المقدس.

ما ينطبق على الكتابة الكوميدية الانكليزية ينطبق بشكل اكبر على الكتابات الثقافية الجادة . ان حسابات نصيب شاهين بينت بأن هناك اكثر من الف وثلاثمائة عبارة انجيلية في كتابات شكسبير منتشرة بشكل واسع وكبيرة المصداقية. و تقرير الادب الانجيلي منشور في فيرفاكس, فيرجينيا (يجب الاعتراف بأن التمويل ات من مؤسسة تمبلتون السيئة) يعطينا امثلة كثيرة, و يبين بشكل عارم اتفاق اساتذة الادب على ان عبارات الانجيل ضرورية لتقدير المواضيع التي يدرسونها. وبدون شك فالموضوع هو نفسه بالفرنسية والالمانية والروسية والايطالية والاسبانية وكل اللغات الاوروبية الاخرى . وبالنسبة للمتكلمين بالعربية او الهندية فالموضوع ضروري ايضا لجعلهم قادرين على تقدير التراث الادبي للغاتهم. واخيرا, ولختم الموضوع فإنك لاتستطيع تقدير فاغنر (والذي قيل عن موسيقاه بأنها افضل مما تبدوا لسامعها) بدون ان تعرف طريقك حول الهة النرويج.

دعوني هنا اؤكد على نقطة, ربما قلت ما يكفي لاقناع قرائي القدامى بأن وجهة النظر
الالحادية لاتبرر رمي الكتاب المقدس, او اي من الكتب المقدسة, خارج نطاق ثقافتنا. وبالتأكيد علينا ان نكن الولاء للتقاليد الثقافية والادبية , على سبيل المثال, اليهودية , الانجيلية او الاسلامية, وحتى للتقاليد الدينية المتبعة في الزواج والجنازات, بدون ان نفكر بأن هناك نظام ايمان بالخوارق كان الى جانب تلك التقاليد عبر التاريخ. نستطيع ترك
الايمان بالله دون خسران العلاقة مع التراث.

الفصل العاشر

الفجوة المهمة جداً

ماالذي يستطيع ان يحرك المشاعر الروحية اكثر من النظر في تلسكوب بقطر 100 بوصة الى المجرات البعيدة, او ان تكون بين يديك متحجرة عمرها 100 مليون عام او أداة حجرية عمرها 500000 سنة وانت تنظر اليها. توقفك امام الهوة الهائلة للمكان والزمان في وادي جراند كانيون, او الاصغاء لعالم نظر في وجه الكون ولم يرمش له جفن ؟ ذلك هو العلم العميق المقدس

مايكل شيرمر

"هذا الكتاب يملا فجوة مهمة جداً". تلك الدعابة تصلح لاننا نفهم المعنيين المتضادين لها. وبالمصادفة, كنت افكر بانها نكتة مخترعة ولكن, ولدهشتي , وجدت انها استخدمت فعلا وبكل براءة من قبل ناشر لكتاب "ملأ" فراغا يحتاج لملئه في الادب عن حركة ما بعد البناء.

http://www.kcl.ac.uk/kis/schools/hums/french/pgr/tqr.html

يبدو انه من المناسب جدا ان يكون هذا الكتاب الزائد عن الحاجة عن ميشيل فوكو , رونالد بارث, جوليا كريستيثا واخرون من ايقونات الفرانكوفونية.

هل يملأ الدين فراغا نحتاج لملئه؟ غالبا ما يقال بأن هناك فراغا في الدماغ على شكل الاله ويجب ملئه: توجد حاجة نفسية للاله – الصديق التخيلي, الاب, الاخ الاكبر, المعترف له, محل الثقة – وهذه الحاجة يجب سدها سواء وجد الله ام لم يوجد. ولكن هل من الممكن ان يكون من الافضل ان نملا تلك الفجوة الالهي بشئ اخر ؟ علم, ربما ؟ فن؟ صداقة انسانية؟ حب الحياة في العالم الحقيقي, وبدون اعتبارات لحيوات اخرى تلي القبر؟ حب الطبيعة , او ماسماه عالم الحشرات العظيم اي . او . ويلسون بـــ البيوفوليا.

يعتقد بأن الدين في وقت او اخر قد لعب اربعة ادوار رئيسية في يحاة الانسان الا وهي : تفسير, وحث, وعزاء والهام. وتاريخيا فقد طمح الدين لتفسير وجودنا والطبيعة من حولنا والكون الذي وجدنا انفسنا فيه. ودوره في ايامنا قد اخذه العلم بشكل كامل, وقد تعرضت لتلك الفكرة في الفصل الرابع. اما بالنسبة للحث فما اعنيه هو التعليمات الاخلاقية عن السلوك, وقد غطيت ذلك في الفصل السادس والسابع. وحتى الان لم ابرر موضوعي العزاء والالهام, وفي هذا الفصل سوف نتعرض لهما بشكل وجيز. وكتمهيد للعزاء نفسه, اريد ان ابدأ بظاهرة طفولية تسمى "الصديق التخيلي", والتي بإعتقادي لها علاقة مباشرة مع الايمان الديني.

بينكر

في اعتقادي ان كريستوفر روبين ما كان ليصدق بأن صغير الخنزير بيغليت و الدبدوب بووه (شخصيات كارتونية) تكلما معه. ولكن هل كان وضع بينكر مختلفا؟

بينكر – هذا ما ادعوه – هو سري الخاص ,
وبينكر هو السبب في اني لاشعر بالوحدة مطلقا ,
يلعب على السرير, يجلس على الدرج ,
وعندما اكون مشغولا باي شئ, بينكر يكون معي .
اه . ابي ذكي , انه من الرجال الاذكياء ,
وامي هي الافضل منذ بداية العالم ,
ومربيتي مربيية .. وانا اناديها "نان"
ولكنهم جميعا لايرون بينكر .
بينكر يتكلم دائما, لاني اعلمه الكلام
بعض الاحيان يتلكم بشكل مضحك كالصرير ,
وبعض الاحيان يصرخ بزمجرة...
ويجب ان اساعده لان حنجرته تؤلمه .
اه. ابي ذكي, انه من الرجال الاذكياء ,
وامي تعرف كل ما يمكن للمرء معرفته ,
ومربيتي مربية.. وانا اناديها " نان"
ولكنهم لايعرفون بينكر .
بينكر شجاع كالاسد عندما يركض في الحديقة .
بينكر شجاع كالنمر عندما يستلقي في الظلام ,
بينكر شجاع كالفيل, وابدا .. ابدا لايبكي ....
إلا (مثل الاخرين) عندما يدخل الصابون في عينيه . .
اه.. ابي .. ابي .. انه ابي من الرجال ,
وامي هي امي .. كما بإستطاعة اي كان .

ومربيتي .. مربية .. وانا اناديها "نان"
ولكنهم لايحبون بينكر .
بينكر ليس طماعا, ولكنه يحب الاكل ,
ولهذا فعلي ان اقول للناس عندما يعطوني قطع الحلوى .
"أه.. بيكر يريد شوكولا, فهل يمكن ان تعطيني اثنتان؟"
وبعد ذلك اكل انا عنه," لانه اسنانه جديدة"
حسنا, انا احب ابي .. ولكنه لايملك الوقت للعب .
واحب امي كثيرا . .ولكنها تذهب بعض الاحيان ,
واحيانا اعارض مربيتي عندما تريد تمشيط شعري بالفرشاة .
ولكن بينكر, دائما بينكر, موجود هنا معي
أ. أ. ميلن, من قصيدة . الان اصبحنا ستة .

هل ظاهرة الصديق التخيلي وهم قوي من صنف مختلف عما نجعل الاطفال يصدقونه؟ ان تجربتي بهذا الصدد لن تساعد الكثير هنا. وكغالبية الاهل. فقد احتفظت امي بمدونة عن كلماتي الطفولية. وبالاضافة لبعض التظاهرات البسيطة (انا الان هو الرجل على القمر.. المسرع.. انا البابلي) فمن الواضح انني كنت من معجبي التظاهر في المرتبة الثانية (الان ان بومة تتظاهر بأنها ناعورة) .. والتي يمكن اسقاطها على (انا الان صبي صغير يتظاهر بأنه ريتشارد). لم اؤمن على الاطلاق بأني احد تلك الاشياء, واعتقد ان ذلك صحيح في حالات اللعق لجعل الاطفال يصدقون الاشياء. ولكن لم يكن لدي بينكر. ولو صحت اعترافات اؤلئك البالغين عن اصدقاء طفولتهم التخيليين فإن بعض هؤلاء الاطفال الطبيعيين على الاقل كان مؤمنا حقا بأن لديه صديقا تخيليا, وفي بعض الحالات, يرونهم كهلوسة حقيقية وواضحة. اشتبه بأن ظاهرة بينكر الطفولية يمكن ان تكون نموذجا جيدا لفهم الايمان الالوهي عند البالغين. لااعرف اذا كان علم النفس قد درس تلك الظاهرة من وجهة النظر تلك, ولكن بحثا كهذا يستحق العناء. رفيق ومحل للثقة, بينكر لمدى الحياة: ذلك بدون شك احد الادوار التي يلعبها الاله – فجوة متروكة يستطيع الاله ملأها اذا اراد .

طفل اخر, فتاة, عندها "رجل صغير بنفسجي", ويبدو له حقيقي وله وجود مرئي, ويظهر بلمعة خاطفة في الهواء, مع صوت مدغدغ لطيف. يزورها بإنتظام, وخصوصا عندما تشعر بالوحدة, وبتواتر يقل مع كبرها في السن. وفي احد الايام وقبل ان تذهب للروضة , الرجل الصغير البنفسجي اتي اليها, مسبوقا بالبوق المدغدغ, ليعلن لها بأنه لن يزورها بعد الان. احزنها ذلك, ولكن الرجل البنفسجي قال لها بأنها تكبر الان ولن تحتاج اليه في المستقبل. وعليه تركها الان, لان عليه ان يهتم بأطفال اخرين. ووعدها بأن يعود اليها في حال حاجتها اليه بشكل اضطراري فعلا. وقد عاد اليها, بعد عدة اعوام في الحلم, عندما كان لديها مشاكل شخصية تتعلق بما تريد ان تفعل في حياتها. فتح باب غرفة نومها و ظهرت عربة محملة بالكتب يدفعها الرجل البنفسجي الصغير. وفسرت ذلك بأن عليها ان تذهب للدراسة في الجامعة – نصيحة اخذت بها وتبينت انها جيدة فيما بعد. القصة تدفعني لذرف الدموع, وتقربني اكثر ما يمكن للحد الذي يمكنني ان اتفهم فيه دور المواساة والنصح للاله التخيلي. ولكنها تبدوا حقيقية جدا لطفل, وتعطيه الراحة والنصائح الجيدة . وربما افضل من ذلك: الصديق التخيلي – والاله التخيلي – عندهما الوقت والصبر لتكريس كل انتباههم على المعاني. وهما ارخص كثيرا من المعالجين النفسيين او المستشارين المحترفين.

هل تطورت الالهه, بلعب دورها كناصحة ومواسية, من اشباه بينكر, كصنف من "البيدومورفوسيس" النفسي؟ البيدومورفوسيس هو استبقاء الشخصية الطفولية لبعد البلوغ. الكلاب البيكينية لها تلك الخاصية, فالبالغين منها يشبهون المولودين. وذلك احد الانماط المعروفة من خلال التطور, ومقبول بشكل واسع كنمط مهم يفسر بعض المواصفات الانسانية كالجبين المنتفخ والحنك الضيق عند الانسان. التطوريون وصفونا كقرود احداث, وذلك صحيح بالتأكيد لان احداث الشمبانزي والغوريلا تشبه الانسان بأكثر مما تفعله الحيوانات البالغة. هل يمكن ان يكون الدين قد تطور بالاصل من تأجيلات متدرجة عبر الاجيال, بدأ من النقطة التي يترك بها الاطفال "بينكراتهم" – تماما كما تباطنا نحن من خلال التطور في تسطيح جبهاتها و اظهار النتوءات في احناكنا؟ افترض, للكمال هنا, بأن علينا ان ناخذ بعين الاعتبار الامكانية المعاكسة. عوضا عن ان يتطور الاله من سفله بيكر, هل يمكن ان يكون بينكر قد تطور من سلفه الاله؟ يبدوا ذلك اقل احتمالا بالنسبة لي. وقد دفعني للتفكير بذلك بينما كنت اقرأ للسيكولوجي الامريكي جوليان جاينس كتابه اصل الوعي بإنهيار العقل الثنائب التشريعي, كتاب غريب كما ينبئ عنوانه عنه. احد تلك الكتب التي هي إما نفايات بكاملها او انتاج لعبقري . ولاشئ بينهما! . ربما الاحتمال الاول هو ما اراهن عليه.

لاحظ جاينس بأن اكثر الناس يدركون عملياتهم الفكرية كنوع من المخاطبة بين "الأنا" ونصير داخلي آخر في الرأس. واليوم نعلم بأن كلا "الصوتين" يعودان اليه , وعندما لانعرف ذلك فإننا نعامل على اننا مرضى نفسيين. حدث ذلك لفترة

وجيزة مع ايفلين ووف, حيث قال لصديق: انا لم اراك منذ فترة طويلة, ولكني ايضا انا قابلت بعض الناس لانني – هل تعلم ؟ – كنت مجنونا لفترة" بعد شفائه كتب ووف قصة محنة جلبرت بينفولد , حيث وصف فيه فترة الهلوسة, والاصوات التي سمعها في رأسه.

جاينس يقترح نظريتهُ بأنه في وقت ما قبل 1000 ق م لم يكن الناس منتبهين الى وجود الصوت الاخر – نفس الصوت الذي سمعه جلبرت بينفولد – يأتي من الشخص نفسه. بل انهم ظنوا بأنه كان صوت الاله: ابولو مثلا, او عشتار او يهوه او , اغلب الظن, اله محلي منزلي, يعطي نصائحا او اوامرا, جاينس استطاع تحديد منطقة صوت الالهه في القسم المعاكس للقسم المتحكم بالقدرة على السماع. ان الكتاب, بالنسبة لجاينس, هو تحول تاريخي. عن الفترة التاريخية التي عرف فيها البشر بأن الاصوات التي تبدوا خارجية هي في الحقيقة داخلية. جاينس يذهب حتى لابعد من ذلك بتحديد الن الفترة الزمنية لذلك الحدث هي نفسها الفترة التي بدأ فيها وعي الانسان بالظهور.

يوجد مخطوط مصري قديم عن الاله الخالق بتاه, والتي تصف الالهة المختلفة الاخرى كأوجه مختلفة ل"صوت" او "لسان" بتاه. والترجمة العصرية رفضت كلمة "صوت" واستبدلتها بـــ "المفاهيم المجسمة" لعقل بتاه. جاينس رفض تلك القراءة المثقفة , وفضل ان يأخذ المعنى الحرفي بشكل جدي. الالهة كانت هلوسات صوتية, تتكلم داخل رأس الانسان. يذهب جانيس بإقتراحاته لابعد من ذلكبأن الالهة تطورت من ذكريات الملوك الميتين, والذين لايزالون, كما يقال, يتحكمون بأشيائهم من خلال الاصوات التخيلية في رؤوسهم. وبغض النظر عن كونك تجد لذلك اي مصداقية , فإن كتاب جاينس مثير للفضول بشكل كاف ليستحق مكانته بين كتب البحث الديني.

والان, لنعد الى الامكانية التي استعرتها من كتاب جاينس لبناء النظرية عن ان الالهة و "البينكرات" تتقارب من ناحية التطور الفكري, لكن العكس من نظرية الفكر البيدومورفيوسيسي لم تحصل فجائيا في التاريخ, بل تطورت بشكل تدريجي بالتراجع نحو الطفولة عندما اعتبرت اصوات الهلوسة والضهورات المفرقعة كأشياء غير حقيقية . بشكل يعاكس فرضية البيدومورفوسيس, الالهة المهلوس بها اختفت من عقول الكبار اولا, وبعدا بدأت بالاختفاء في فترات ابكر وابكر حتى الطفولة, وفي ايامنا لم يبقى الا ظواهر مثل بينكر او الرجل النفسجي الصغير. المشكلة مع هذه الفرضية بأنها لاتفسر بقاء الاله عند البالغين في يومنا هذا. ربما كان من الافضل ان لانعامل الالهة كأسلاف بينكر, او العكس بالعكس, ولكن ان نعتبر كلاهما كأعراض جانبية لنفس الظاهرة النفسية. الالهة والبينكرات لديهما القدرة على تحقيق الطمأنينة, و اعطاء توجيهات واضحة لتجربة افكار جديدة. وبهذا لانكون قد ابتعدنا كثيرا عن الفصل الخامس والاعراض الجانبية لنظرية تطور الدين.

العـزاء

حان الوقت لنواجه الدور المهم الذي يلعبه الدين في عزائنا: والتحدي الانساني فيما لو لم يوجد الدين, لايجاد شئ يحل محله. العديد من الناس الذين يعترفون بأنه ربما لايوجد اله, وانه ليس ضروريا للاخلاقيات, يرجعون بما يظنون انه الورقة الرابحة: الزعم النفسي او العاطفي للحاجة لاله: لو رميت بالدين بعيدا, يسألون بشكل مشاكس , فما الذي ستضعه ليحل محله؟ ما هو الشي الذي ستوفره للمرضى, او المفجوعين الباكين, او المجرمين المعزولين عن المجتمع والذين يعتبرون الله صديقهم الوحيد المتبقي؟

اول شئ يقال هنا هو شئ لسنا بحاجة لقوله. ان قدرة الدين على عزاء الناس لايجعله حقيقيا. وحتى لو اننا قدمنا تنازلا كبيرا: وحتى لو تبين بشكل حاسم بأن الايمان بوجود الاله ضروري وأساسي للحالة النفسية والعاطفية: وان كل الملحدين مصابون بقلق انتحاري بسبب الشعور بالذنب الكوني – فلن يساهم اي مما سبق وبأي شكل مهما كان صغيرا كدليل على ان الايمان الديني حقيقي. ربما تكون دليلا يدعم الرغبة بإقناعك لذاتك بأن الله موجود, حتى لو لم يكن موجودا. وكما اشرت سابقا, فإن دينيت في كتابه كسر التعويذة, يفرق بين الايمان بالاله والايمان بالايمان: الايمان بأنه من المرغوب ان نؤمن , حتى لو كان الايمان بحد ذاته خاطئا: " اؤمن ياسيد , فأعن عدم ايماني" مرقس 9:24 . المؤمنون يدفعون لاحتراف الايمان, بغض النظر عن اقتناعهم به ام لا. ربما لو كررت شيئا بشكل كاف, فإنك ستنتجح بإقتناع نفسك بأنه حقيقي. واعتقد اننا جميعا نعرف البعض ممن يسرون بالايمان الديني, ويرفضون اي هجوم عليه, بينما يعترفون بتردد بأنهم لايملكونه بأنفسهم.

ومنذ قرائتي تفريق دينيت, بدأت اجد الفرصة لاستعمال ذلك مراراً و تكراراً. وبالكاد اكون مبالغا عندما اقول بأن غالبية الملحدين الذين اعرفهم يخفون الحادهم خلف واجهة دينية. هم انفسهم لايؤمنون بأي شئ خارق, ولكنهم يحتفظون برقعة ضبابية من الايمان اللاعقلاني .يؤمنون بالايمان. انه لمن المذهل تعداد البشر الذين لايستطيعون التفريق بين (س) شيء حقيقي و (ايمان البشر بكون "س" حقيقي هو امر مرغوب به). او انهم لاينتمون للفئة التي تقع بهذا الخطأ, ولكنهم يعتبرون الحقيقة غير ذات اهمية بالمقارنة مع شعور الانسان.. لا اريد الانتقاص من شعور الانسان,, ولكن لنكن صريحين هنا فيما نتكلم عنه هنا: هل هو الشعورو الاحاسيس, ام الحقيقة. كلاهما مهمان ربما, ولكنهما ليسا نفس الشئ هنا.

في الحالة التي عرضتها, فإن فرضيتي مبالغ فيها بل وخاطئة. ليس لدي ادلة على أن الملحدين لديهم اي ميول عامة نحو التعاسة, او الخوف القلق. بعض الملحدين سعداء . اخرين بؤساء. وبطريقة مماثلة, فإن بعض المسيحيين, اليهود , المسلمين, الهندوس والبوذيين تعساء , بينما اخرين منهم سعداء. ربما تكون هناك ادلة احصائية عن العلاقة بين السعادة والايمان (او عدمه), ولكني اشك بأن هناك تأثير قوي لذلك, وعلى كافة الاحوال, اجد انه من المثير السؤال عما إذا كان هناك سبب جيد للشعور بالاكتئاب لو عشنا بدون اله. وسأنهي هذا الكتاب بالمحاججة, على العكس, بانه من السهل ان نصرح بأنه من الممكن لاحدنا ان يعيش حياة سعيدة ومليئة بدون الخوارق والديانات. ولكن اولا علي ان افحص الزعم القائل بأن الدين يوفر لنا العزاء.

العزاء , تبعا لقاموس اوكسفورد , هو تخفيف الحزن او الضيق النفسي. وسأقسم العزاء الى صنفين.

- اولا: العزاء المباشر المحسوس. عندما يعلق شخص على جبل في الليل فإنه ربما يجد العزاء في كلب كبير من نوع سان برنار, بدون ان ينسى بالطبع جاوبة البراندي المعلقة حول عنقه. طفل باك يمكن ان يعزى بضمة من سواعد قوية وبكلمات تبعث الثقة في اذنيه.
- ثانيا: العزاء بإكتشاف واقع لم يكن يحسب له حساب سابقا, او اكتشاف طريقة جديدة للنظر الى واقع موجود. امرأة قتل زوجها في الحرب ربما تشعر ببعض العزاء عندما تعرف بأنها حامل بطفله, او بأنه مات كبطل. وبإمكاننا ان نحصل على العزاء بإكتشافنا لطريقة تفكير جديدة عن الوضع. يشير احد الفلاسفة بأنه لاشي يستحق الذكر يحصل عندما يموت انسان كبير في السن. فالطفل الذي كان سابقا قد مات منذ فترة طويلة, و ليس بسبب توقفه عن الحياة فجأة بل لانه قد كبر. ان كل واحد من "اعمار شكسبير السبع" يموت ببطء بأنتقاله من مرحلة لاخرى. ومن وجهة النظر تلك, فإن تلاشي الرجل العجوز لايختلف كثيرا عن "موتاته" البطيئة خلال حياته. والرجل الذي لايتذوق وجهة نظر موته ربما يجد وجهة النظر الجديدة كعزاء. وربما لا., ولكن هذا مثال فقط عن العزاء بالتفكير. ان نفي مارك توين للخوف من الموت نو شئ اخر:"انا لااخاف الموت. لقد كنت ميتا لمليارات الاعوام قبل ان اولد, ولم يسبب لي ذلك اية مضايقات". ذلك البيان المختصر لايغير شيئا من الواقع بحتمية الموت. ولكنه يعطينا طريقة جديدة لرؤية تلك الحتمية وربما يكون فيها بعض العزاء. توماس جفرسون ايضا, لم يكن يخاف الموت ولم يكن يؤمن بأي نوع من الحياة الاخرة بحسب ما يرويه كريستوفر هيتشنز: " وعندما بدأت ايامه بالغروب. كتب جفرسون اكثر من مرة لاصدقائه بأنه يواجه النهاية القريبة بدون ان امل او خوف. وهذا يقول لنا تماما وبدون اي شك, بانه لم يكن مسيحيا".

المفكرون المتينون ربما يكون جاهزين لتصريح برتراند راسل القوي. في اطروحته عام 1925 "ما اؤمن به":

> اؤمن بأنني عندما سأموت فإنني سأتتعفن, ولن يبقى شئ مني. لست شابا ولازال احب الحياة. ولكن على ان ازدري الارتجاف برعب من فكرة الزوال. السعادة بذاتها هي سعادة حقيقية لانها ستصل لنهايتها, لايفقد الحب او الفكرة قيمتهما بسبب انهما غير دائمين. الكثيرين من الرجال مضوا محمولين عن السقالة بفخر, وباتأكيد فإن الفخر ذاته يجب ان يعلمنا ان نفكر بمكانة الانسان في العالم. حتى عندما بدأت نوافذ العلم المفتوحة بجعلنا نرتجف بعد الطمأنيية الدافئة للاساطير الانسانية التقليدية, فإن الهواء النقي يأتي بالحماس, ووالمساحات الواسعة لها عظمتها الذاتيه.

لقد تأثرت كثيرا بأطروحة راسل عندما قرأتها في مكتبة المدرسة وكنت في السادسة عشر. ولكنني نسيتها. ومن الممكن ان يكون الولاء اللاشعوري وراء ما كتبته في القسيس الشيطاني عام 2003.

هناك اكثر من مجرد العظمة في تلك النظرة للحياة, تبدو كئيبة باردة من تحت الغطاء الامن للجهل. ولكن هناك الكثير من الانتعاش بالوقوف منتصبا في مواجهة وجها لوجه مع الريح الحادة القوية للاستيعاب: ييتس "الريح التي تعصف عبر الطرقات المليئة بالنجوم"

كيف يمكن ان يقارن الدين مع , مثلا, العلم في تأمين نوعي العزاء؟ لننظر الى الصنف الاول, فمن المعقول جدا بأن ذراع الله القوية, وحتى ولو كانت تخيلية تماما, تستطيع العزاء نبنفس طريقة ذراعي صديق, او كلب السان برنارد مع حاوية البراندي حول عنقه . ولكن بالطبع يمكن للطب العلمي ان يؤمن الراحة – وعموما بشكل اكثر فعالية من البراندي.

لننتقل الان للصنف الثاني, من السهل الايمان بأن الدين يمكن ان يكون فعالا بشكل كبير. والواقعون في كوارث عظيمة, مثل الزلازل, يصرحون غالبا بأنهم حصلوا على العزاء من التفكير بأن ذلك كله جزء من المخطط الالهي الغامض: لاشك بأن شيئا جيدا سيأتي من ذلك مع الوقت. وبالنسبة لمن يخاف الموت, فإن الايمان الصادق بأن هناك 95 روحيا لاتفنى يمكن ان يكون عزاء له – إلا اذا كان يؤمن بأنه سيذهب للجحيم – الايمان الكاذب يمكن ان يكون بكل جزيئاته عزاء كما هو الحال في الايمان الحقيقي, حتى اللحظة التي ينجلي فيها الوهم. وهذا ينطبق على الايمان غير الديني ايضا. ان شخصا مصابا بسرطان مميت ربما يعزى بكذبة من الطبيب بأنه قد شفي, تماما كشخص قيل له بأنه شفي وبشكل صادق. ولايمان القلبي والصادق بالحياة بعد الموت لديه مناعة حتى ضد انجلاء الوهم اكثر من الطبيب الكاذب. ان كذبة الطبيب تبقى فعالة حتى تصبح اعراض المرض غير قابلة للشك. ولكن الايمان بالحياة بعد الموت ليس له نهاية يتحرر فيها.

الاستفتاءات تنبئنا عن ان 95% من شعب الأمريكين يؤمنون بأنهم سيحيون بعد موتهم. لاامتلك نفسي من التساؤل ما هو عدد الافراد من بين من يزعمون ذلك, يؤمنون به فعلا ومن صميم افئدتهم.. لو كانوا فعلا صادقين, الا يجب عليهم جميعا ان يتصرفوا مثل القصة عن رئيس الدير من امبلفورث؟ عندما قال له الكاردينال بازل هيوم بأنه يحتضر, شعر رئيس الدير بالفرح لاجله وقال: "مبروك! انها اخبار سارة فعلا, كم اتمنى ان اتي معك". رئيس الدير, على ما يبدو, كان مؤمنا صادقا. ولكن كون قصته نادرة وغير متوقعة هو السبب الذي يجعلها تشد الانتباه, لدرجة اثارة الدهشة – بالطريقة المشابهة للكرتون الذي تظهر فيه امرأة تحمل يافطة " مارس الحب, لاتمارس الحرب" وهي عارية تماما , وبجانبها رجل يقول لنفسه," هذا ما ادعوه بالصدق!" . لماذا لايتصرف كل المسيحيين والمسلمين بطريقة رئيس الدير عندما يسمعون بأن صديقا قد توفي؟ وعندما يقول طبيب لامرأة مؤمنة بأنه بقي في حياتها شهر واحد فقط. لماذا لا تضيئ بالفرح والتوقعات المفرحة, كما لو كانت قد حصلت على اجازة في سيشيل؟ " لااستطيع الانتظار" . ولماذا لايعطيها زوارها رسائل لتوصلها لمن رحلوا قبلها ؟ " قول للعم روبرت بأنني احبه عندما ترينه . . "

لماذا لايتكلم المؤمنون بتلك الطريقة عندما يكونون في حضرة انسان يحتضر؟ هل لانهم لايؤمنون بتلك الامور ولكنهم يتظاهرون بالايمان بها؟ او انهم يؤمنون بذلك ولكنهم يخافون "عملية" الموت. ولسبب وجيه, الا وهو ان جنسنا هو من الكائنات الوحيدة التي لايسمح لها بالذهاب للبيطري ليضع حدا لبؤسها بدون الم. ولكن في تلك الحالة, لماذا يأتي الاعتراض الاكبر على الموت الرحيم والانتحار من الدين؟ في نموذج "رئيس الدير من للموت, الا تتوقع بأن يكون المتدينون هم الاقل تعلقا بالحياة الارضية؟ ولكن بالرغم من ذلك فإن الحقيقة الصادمة تاتيك عندما تقابل شخصا معارضا بشكل عاطفي لموضوع الموت الرحيم او المساعدة على الانتحار. فإنك تستطيع المراهنة بكمية كبيرة من المال على كونهم متدينين. والسبب الرسمي يمكن ان يكون بأن القتل خطيئة. ولكن لماذا تعتبرها خطيئة اذا كنت تعتقد بصدق بأنها رحلة سريعة للجنة؟

اما موقفي من المساعدة على الانتحار, فإنه مأخوذ من ملاحظات مارك توين, والتي كتبتها سابقا. الموت لايختلف عن عدم الولادة – سأكون تماما كما كنت في ايام وليم الفاتح او ايام الديناصور او التريلوبايت. ليس هناك ما اخافه في ذلك. ولكن "عملية" الموت يمكن , وتبعا لحظنا, ان تكون مؤلمة وغير سارة – تجربة من النوع الذي اصبحنا معتادين كالحماية منه بإلتخدير العام, مثل استئصال الزائدة الدودية. وعندما يكون حيوانك الاليف في حالة احتضار مؤلمة , ستلعن وتوصف بالقسوة اذا لم تأخذه للبيطري ليعطيه تخديرا عاما لايستيقظ بعده. ولكن عندما يمارس طبيبك نفس العلمية الرحيمة عليك او على اي محتضر يتألم, فهو يخاطر بأن يصبح ملاحقا بقضية قتل, وعندما سأحتضر, فإني على ان ارحب بأن تؤخذ حياتي تحت التخدير العام, تماما كما لو كانت زائدة دودية ملتهبة.. ولكنن لن احصل على هذه الحظوة, لانني عاثر الحظ كوني مولود كعضو في محموعة "الهومو سابيان – الانسان الحديث" عوضا عن , على سبيل المثال , كانيس فاميلياريس او فليس كاتوس. على الاقل, هذا هو الواقع إلا في حال انتقالي لمكان اكثر تنورا مثل سويسرا, هولندا او اوريغون, لماذا تلك الاماكن المتورة نادرة الوجود؟ غالبا بسبب النفوذ الديني.

ربما يقال , اليس هناك فرق هام بين سماحك بنزع زائدتك الدودية ونزع حياتك؟ في الحقيقة لا, ليس هناك فرق اذا ماكنت ستموت قريبا على كل حال. وكنت ممن لديهم الايمان الصادق بالحياة بعد الموت. لو كان لديك هذا الايمان, فإن الموت لايعدو عن كونه ممرا من هذه الحياة لحياة اخرى. ولكن عندما يكون الممر مؤلما, فأن الحاجة تبدو اقل اهمية في عبوره بدون التخدير العام. ان اؤلئك الذين يرون في الموت نهاية بدلا عن كونه ممرا هم الذين يجب عليهم بسذاجة ان يرفضوا الموت الرحيم والمساعدة على الانتحار. إلا ان اؤلئك هم الذين يدعمون الفكرة.

(في دراسة عن الموقف من الموت بين الملحدين الامريكان وجد مايلي : 50% ارادوا الاحتفال بذكرى حياتهم , 99% ايدوا فكرة المساعدة على الانتحار من قبل مختص للذين يرغبون بذلك . 75% ارادوها لانفسهم , 100% رفضوا اي علاقة بمستشفيات داعمة للافكار الدينية.)

وبنفس السياق, ما هي استنتاجاتنا من ممرضة متمرسة من معارفي, ممن لديها خبرة عمر في ادارة بيت للعجزة, حيث الموت حدث يتكرر غالبا؟ لقد لاحظت عبر السنين بأن الافراد الاكثر خوفا من الموت هم المتدينون, يجب ان تدعم ملاحظتها بالاحصاءات ولكن , على فرض بأنها على حق, فما الذي يحدث هنا؟ مهما كان الامر فإنه لايدعم قدرة الدين على طمأنة المتحضرين. في حالة الكاثوليكيين, ربما يخافون البرزخ؟ القديس الكاردينا هيوم ودع صديقا بالكلمات التالية: " حسنا, وداعا اذن. اراك في (البرزخ), على ما اعتقد. " ما اعتقد ,هنا, تبدو لي كغمزة من الشك في تلك العينين اللطيفتين العجوزتين.

ان التلقين عن حياة البرزخ يكشف لامعقولية عمل العقل عند رجال الدين. انه نوع من جزيرة ايليس, غرفة انتظار لارواح الموتى بذنوب لاتكفي لارسالهم للجحيم, ولكنهم لايزالون يحتاجون للتطهير والفحص قبل ان يتم ايداعهم في المنطقة خالية الذنوب في الجنة. وفي العصور الوسطى درجت عادة بيع "الانغماس" من قبل الكنيسة مقابل المال. وهذا يعني الدفع خصم عدد من الايام في البرزخ, والكنيسة وبكل دقة (وبفرضية تقطع الانفاس) اصدرت شهادات موقعة تحدد عدد ايام العطلة المشتراة. كنيسة الروم الكاثوليك مؤسسة قام ربحها ربما على كلمة ابدعت خصيصا لاجلها "الحرام". ومن بين كل الاموال التي ربحتها بالاحتيال, فإن بيع "الانغماس" يجب ان يعتبر بالتأكيد على احدى الدرجات العليا من النصب في التاريخ, مثيل قروسطي للغش النيجيري على الانترنت ولكن بنجاح اكبر بكثير.

وحتى مؤخرا عام 1903, فإن البابا النقي العاشر على الاكثار من ايام الراحة من البرزخ التي يستحقها كل من في التدرج الرئاسي: الكاردينالات, مئتي يوم, رؤساء الاساقفة مئة يوم, الاساقفة خمسون يوما فقط. وفي هذا الوقت على كل الاحوال, لم يكن الانغماس يباع بالمال, وحتى في القرون الوسطى , فلم يكن المال هو العملة الوحيدة التي يستطيع البشر دفعها للخلاص من البرزخ. بإستطاعتك الدفع من خلال الصلوات ايضا, صلواتك انت خلال حياتك او صلوات الاخرين من اجلك بعد موتك. والمال يستطيع شراء الدعاء. ولو كنت غنيا, فبأستطاعتك شراء روحك الى الابد. ان كليتي في اكسفورد, الكلية الجديدة, انشأت في 1379 (كانت جديدة حينها) من قبل احد اعظم المحسنين في ذلك القرن, ويليام اوف ويكيهام, اسقف ونشستر, ان اسقفا من العصور الوسطى يمكن ان يصبح بيل غيتس عصره, ويتحكم بما يوازي "طريق المعلوماتية" (نحو الله), ويحشد الاموال الطائلة. ابرشيته كانت واسعة بشكل استثنائي, وقد استعمل ويكيهام غناه ونفوذه لتأسيس مؤسستين تعليميتين عظيمتين, احداها في وينشستر والاخرى في اوكسفورد. التعليم كان مهما لويكيهام, ولكن , وبكلمات التاريخيين عن الكلية الجديدة, فإنه نشر عام 1979 وفي الذكرى الستمائية للتأسيس, بأن الهدف الرئيسي للكلية" كعطاء عظيم ليشفع لروحه. لقد اعطى لخدمة الكاهن وعشرة مساعدين وثلاثة مستخدمين وستة عشر مغنيا بالكورال, وامر بأنه في حالة فشل الكلية ماليا بأن يكونوا هم الوحيدين الذين يبقى دخلهم ساريا". ويكيهام ترك الكلية الجديدة بأيدي الهيئة الادارية, مجموعة ذاتية الانتقاء والتي استمرت بالوجود كعضو واحد لاكثر من ستمئائة عام. والمفترض انه واثق بأننا ايضا سنستمر بالصلاة لروحه عبر القرون.

واليوم يوجد قسيس واحد(انثى.. ماذا سيكون موقف الاسقف ويليام من ذلك) في الكلية وكذلك مستخدم واحد, والصلوات المكثفة لويكيهام في البرزخ عبر القرون تقلصت الى صلاتين في العام. وحده الكورال هو الذي يبقى قويا وموسيقاه ساحرة بالتأكيد. حتى انني اشعر ببعض الذنب, كأحد الاعضاء من الهيئة الادارية, لخيانة الامانة. وبمفهوم زمانه فإنه ويكيهام مساو لشخص غني في ايامنا من الذين يهبون الكثير من المال لمؤسسة تضمن له تجميد جسده وابقاءه معزولا عن الهزات الارضية, والحروب النووية, والاخطار الاخرى, حتى زمن لاحق حيث يكون الطب قد توصل الى معرفة كيفية ارجاعه وشفاء العلة التي كان يشكو منها. ولكن هل نحن "الرفاق" اللاحقين على اتصال مع المؤسس؟ لو كانت الاجابة بنعم فنحن اذن في صحبة جيدة. المئات من المحسنين ماتوا واثقين ممن وظفوهم , ودفعوا لهم , ليصلوا لهم في البرزخ. لاستطيع تملك نفسي من التساؤل كم من الاعمال الفنية والكنوز المعمارية في القرون الوسطى بدأت كعربون من اجل الابدية ,والتي تمت خيانتها الان.

ولكن ما يسحرني فعلا عن التلقين عن البرزخ هو الادلة التي اتى بها رجال الدين عنها: ادلة ضعيفة بشكل صارخ لتبدوا اكثر كوميدية من الثقة التي ترافقها. ان المدخل لقسم للبرزخ في الموسوعة الكاثوليكية فيه جزء يسمى "البراهين". والادلة الاساسية على وجود البرزخ هو ما يلي. لو ان الميت ذهب للجنة او جهنم ببساطة على اساس ذنوبه على الارض, لما كان هناك اي معنى للصلاة والدعاء من اجله. "ولماذا الدعاء للميت, اذا لم يكن هناك ايمان بأن قوة الدعاء لتؤمن بعض العزاء لاولئك الذين ليسوا في منطقة الرؤيا للاله" . ونحن فعلا ندعوا للميت, اليس كذلك؟ وبالتالي فالبرزخ يجب ان يكون موجودا, وإلا فإن الدعوات ليس لها معنى!. وهذا البرهان هو مثال جدي على ما يجري في عقول علماء الدين من العقلانية.

تلك النتيجة الخاطئة الهائلة, على مقياس اعرض, توجد في نشرة اخرى عن الحجة العزائية. يجب ان يكون هنالك اله, هكذا تبدأ, لانه لو لم يكن , فإن الحياة ستكون خالية , وعديمة المعنى, وقاحلة, صحراء معدومة الهدف وتافهة. كيف يمكن ان يكون من الضروري ان يسقط المنطق عند الحاجز الاول؟ ربما تكون الحياة فارغة. ربما يكون دعائنا للميت عديم الفائدة. وافتراض العكس يفترض انه الحقيقة للنتيجة التي نريد اثباتها. ان المنطق القياسي هنا لف ودوران واضح.. الجياة بدون زوجتك يمكن ان تكون حقا لاتحتمل. قاحلة وفارغة, ولكن مع الاسف فإن ذلك لايعني توقفها عن كونها ميتة. هناك شئ طفولي في الافتراض بأن شخصا اخر (الاهل في حالة الاطفال, والاله في حالة البالغين) لديه مسؤلية اعطاء حياتك معنى وهدف. انها كلها قطعة من الطفولية لهؤلاء الذين, في اللحظة التي يلوون بها كاحلهم, ينظرون حولهم لايجاد شخص ليقاضوه. احد ما يجب ان يكون مسؤولا عن سلامتي, واخر يجب ان يلام عندما اتألم. اهي طفولية مشابهة تلك التي تختبى حقيقة وراء "الحاجة" للاله؟ هل نعود الى بينكر مرة اخرى؟

وجهة نظر البالغين , على العكس من ذلك, هي بأن حياتنا مليئة بالمعنى, مليئة ومدهشة بقدر ما نختار لها ان تكون. ونستطيع ان نجعلها مدهشة بالتأكيد. لو اعطى العلم العزاء من النوع اللامادي, فإنه يأخذني الى موضوعي النهائي.. الالهام.

الالهام

انها مسألة ذوق شخصي وتبرير ذاتي, والذي يفتقر للاسف بشكل ضيئل للتأثير الناتج عن استعمال عن استعمال اللهدة الخطابية عوضا عن المنطق. لقد فعلت ذلك مسبقا , والكثيرون فعلوا ذلك ومن ضمنهم , كأمثلة من العصر الحديث, كارل سيغان في النقطة الزرقاء الباهتة, إي أو ويلسون في بيوفيليا. مايكل شرمر في روح العلم وباول كورتس في تاكيدات . وفي كتابي حل قوس قزح كنت قد جربت ان استعرض كم نحن محظوظين بأننا نعيش, لمعرفتنا بأن غالبية البشر الذين يمكن ان ينشأؤوا من ياناصيب الدي ان اي في الواقع لن يولدوا اطلاقا. ولهؤلاء المحظوظين بشكل كاف ليكونوا هنا . صورت مدى الحياة القصيرة لنا كبقعة ضوء تزحف على مسطرة زمن عملاقة. كل ما هو قبل وبعد تلك البقعة يقع في ظلام الماضي الميت او المستقبل المجهول. ونحن محظوظون بشكل غير عادي لنجد انفسنا داخل بقعة الضوء تلك مهما كان زمن وجودنا ضئيلا تحت الشمس. ولو ضيعنا ثانية منه مدعين الضجر او الضيق (كالطفل). الا يمكن ان نرى في ذلك فيه تحقير لهؤلاء المليارات من الذين لم تتوفر لهم الحياة في المقام الاول؟ والعديد من الملحدين قالوها بأفضل مما قلتها انا, ان المعرفة بأن لدينا حياة واحدة فقط يجعلها اغلى بكل المعاني. ان وجهة نظر الملحد بذلك تناصر تأكيد الحياة وتحسينها, وبدون ان يلوث عقله بوهم ذاتي, او التفكير الاملي, او الشعور بالرأفة على الذات وعلى ان الحياة تدين لهم بأي شئ. كتبت اميلي ديكنسون:

ان كونها لن تأتي ثانية
هو ما يجعل الحياة حلوة بهذا الشكل.

لوان فناء الله سيحدث فجوة , فإن كل من البشر سيملؤها بشكل مختلف. وطريقتي تضمنت جرعة كبيرة من العلم, المسعى الامين والمنظم لايجاد الحقيقة عن العالم الواقعي. وارى ان مساعي البشر لفهم الكون كتعهد لبناء النموذج. كل منا يبني , في رأسه, نموذجا للعالم الذي نجد انفسنا فيه. والنموذج الاصغر للعالم هو النموذج الذي احتاجه اسلافنا للبقاء. والانتخاب الطبيعي هو الذي بنى برنامج المحاكاه ونقحه, وجعله يتأقلم مع العالم المحيط بأسلافنا في السافانا الافريقية: عالم ثلاثي الابعاد من عناصر متوسطة الحجم, تتحرك بسرعات متوسطة بالنسبة لغيرها. و كمكافأة غير متوقعة, فأن ادمغتنا صارت قوية بشكل كاف لاستيعاب عالم اكثر غنى من ذلك المتوسط النفعي الذين احتاجه اسلافنا من

اجل البقاء. الفن والعلم يمثلان تلك المكافأة. دعوني ارسم الصورة الاخيرة, لاقناعكم بقوة العلم في تفتيح المخ وارضاء النفس.

ام البراقع

احد احزن الاشكال التي نراها في شوارعنا في هذه الايام هي صورة لامرأة متشحة بلباس اسود لاشكل له من قمة رأسها حتى اخمص قدميها, تستطلع العالم من خلال شق ضيق. ليس البرقع اداة لظلم المرأة وقمع حريتها وجمالها وحسب: وليس فقط رسالة شنيعة عن السيطرة الذكورية والامتلاك المهين للانثى. اريد هنا ان استخدم الشق في البرقع كرمز لشئ اخر.

ان اعيننا ترى العالم من خلاق شق ضيق ضمن طيف المجال الكهرطيسي. اللضوء المرئي لايعدو عن كونه بصيصا ساطعا في الطيف المظلم الواسع. الذي يمتد من موجات الراديو في النهاية الطويلة واشعة غاما على النهاية القصيرة. ومن الصعب تقدير الضيق ومن التحدي ان نتحمله. لنتخيل برقعا عملاقا, وبشق الرؤيا فيه عبارة عن انش واحد. فلو كان القسم العلوي فوق الشق يمثل النهاية للموجات القصيرة والقسم السفلي من اللباس الاسود تحت الشق يمثل النهاية الطيفية للامواج الطويلة للضوء الغير مرئي.. فما هو طول البرقع الذي يقع الطيف المرئي فيه عند الشق بعرض الانش الواحد على نفس المقياس؟ من الصعب شرح ذلك بدون أستعمال المقاييس اللوغاريتيمة, لاننا نتكلم عن اطوال هائلة. والفصل الاخير من كتاب كهذا ليس بالمكان المناسب للبدء برمي معادلات لوغاريتمية يمنة ويسرة, ولكن يمكنك ان تصدقني بأن ذلك البرقع سيكون ام البراقع جميعها. والنافذة بعرض انش واحد للضوء المرئي لاتتعدو عن كونها جزء مهملا في الاميال العديدة التي تمثل القسم الغير مرئي من الطيف الموجي بدأ من الامواج الراديوية وانتهاء بأشعة غاما في قمة الرأس. وما يفعله العلم لنا هو انه يفتح تلك النافذة ويوسعها لدرجة ان ما هو محبوس داخل ذلك اللباس الاسود سيصبح خارجه بالكامل تقريبا ومعرضا نفسه وحواسه لحرية منعشة ومنشطة.

التلسكوبات البصرية تستعمل عدسات ومرايا لمسح السماء, وما تراه هو عبارة عن نجوم تشع ضوء يقع في حيز الامواج الضيق مما ندعون بالامواج المرئية. ولكن تلسكوبات اخرى "ترى" موجات اكس او الموجات الراديوية, وتقدم لنا صورة عن سماء بديلة لسماء الليل. وعلى مقياس اصغر فإن بعض الكاميرات مع فلتر مناسب تستطيع "رؤية" الاشعة الفوق بنفسجية واخذ صور لزهور ترينا مجالا غريبا من الخطوط والبقع والتي هي مرئية , وتبدو وكأنها "مصممة لذلك" , لعيون الحشرات والتي لاتستطيع عيننا المجردة رؤيتها ابدا. عيون الحشرات لديها نافذة طيفية مشابهة لعيننا, ولكنها مزاحة بشكل بسيط للاعلى على البرقع: والحشرات عميان بالنسبة للضوء الاحمر ومبصرون للاشعة الفوق البنفسجية لما سميته في احدا محاضراتي في الكلية الملكية "الحديقة الفوق البنفسجية".

ان الاستعادرة بموضوع النافذة الضيقة, والتي تنفبح لاستقبال طيف اعرض, تخدمنا في مجالات علمية اخرى. اننا نعيش في مركز المتحف المجوف للمقادير, نرى العالم بأعضائنا الحسية وجهازنا العصبي مهئ لمعرفة وفهم مجال ضيق متوسط فيما يتعلق بحجوم تتحرك بسرعات متوسطة. نجن في نطاقنا عندما يتعلق الامر بأشياء تتراوح بين بضعة كيلومترات (منظر من رأس الجبل) الى اعشار الميليمترات (رأس دبوس). وخارج ذلك النطاق تبدو حتى مخيلتنا معاقة, ونحتاج لمعونة الاجهزة والرياضيات – والتي نستطيع لحسن الحظ تعلمها واستعمالها. ان حيز الاحجام, المسافات او السرعات التي ترتاح بها مخيلتنا لاتعدو عن نطاق صغير, يقع في متوسط نطاق عملاق من الامكانيات , من المقاييس الذرية الغريبة في نهايته الصغيرة الى النطاق الفلكي للفيزياء الاينشتاينية في نهايته العظمى.

ان مخيلتنا قاصرة بشكل يائس عن التعامل مع مسافات خارج النطاق المتوسط المألوف لاسلافنا. نحاول ان نتخيل الالكترون بشكل مرئي ككرة صغيرة, في مدار حول مجموعة كرات اكبر تشكل البروتونات والنيوترونات. ولكنها ليست كذلك على الاطلاق . الالكترونات ليست كرات صغيرة, انها ليست مثل اي شئ نستطيع التعرف عليه. وليس من الواضح ان كلمة "مثل" تعني اي شئ عندما نحاول الاقتراب من افق الحقيقة البعيد . مخيلتنا ليست معدة بعد لاختراق الجوار الكوانتي. ولاشئ في ذلك النطاق يتصرف بالطريقة التي تتصرف بها المادة – التي تطورنا لمعرفتها – وقوانيها.

ولا نستطيع التعامل مع الاشياء التي تسير بسرعة قريبة لسرعة الضوء. والحواس العامة تخذلنا, لان الحواس العامة تطورت في عالم حيث لاتتحرك الاشياء بسرعة عالية, وليس فيها اشياء صغيرة جدا او كبيرة جدا.

في نهاية بحث شهير عن "العوالم الممكنة", كتب البيولوجي العظيم جي بي هالدين,"والا, فإن شكي الخاص هو ان الكون ليس فقط محيرا اكثر مما نفترض, وانما محير اكثر مما نستطيع ان نفترض ... وانا اشك بأن الكون أغرب مما نتصور ولكنه أغرب مما نستطيع ان نتصوره حتى, أتوقع بانه توجد اشياء اكثر في السماء والارض . اكثر من التي حلمت بها أي فلسفة ما او تقدر ان تحلم بها.

ان من اهديت هذا الكتاب لذكراه قد كسب عيشه من غرابة العلم, ودفعها لتكون كوميدية .وما يلي مأخود من نفس الخطاب الذي اقتبست منه سابقا في هذا الكتاب في كامبريدج عام 1998: "ان الواقع بأننا نعيش في قعر بئر الجاذبية على سطح كوكب يغطيه غاز ويدور حول كرة نووية ملتهبة على بعد تسعين مليون ميل واعتبارنا ان ذلك طبيعي يجب ان يعطينا فكرة عن مدى انحراف الاعتبارات لدينا". وبينما لعب كتاب الخيال العلمي على ساحة غرابة العلم لرفع مستوى احساسنا بغموضه, استعمل دوغلاس ادم نفس الافكار لاضحاكنا (والذين قرأوا كتابه دليل المسافرين عبر المجرة ربما يفكر بـــ" دافع اللااحتمالات اللانهائية, مثلا) . الضحك جدليا ربما يكون افضل رد فعل على بعض الغرائب المحيرة في الفيزياء الحديثة, وافكر بعض الاحيان بأن البديل لها , هو البكاء.

فيزياء الكم, الذروة المخلخلة في انجازات العمل للقرن العشرين, تعطينا نبوءات دقيقة بشكل مدهش عن العالم الحقيقي. ريتشار فاينمان شبه دقة قياس المسافات بنسبة قياس عرض امريكا الشمالية بأرتياب بقدر عرض شعرة من رأس انسان. وهذا النجاح في التنبؤ يجعل نظريات فيزياء الكم حقيقة بشكل ما, حقيقة كأي شئ نعرفه, حتى اكثر الوقائع شيوعا مما نعرفه. ورغم ذلك فإن الافتراضات التي تتطلبها النظريات الكمية, لاعطاء تلك الدقة في التنبؤ, غامضة لدرجة ان فاينمان العظيم بذاته اجبر على التصريح بالعبارة التالية (هناك العديد من الروايات عن تلك العبارة وما سأذكره هو التعبير الاكثر اناقة):" او فكرت بأنك تفهم نظرية الكم .. فأنت لاتفهم نظرية الكم". (وهناك تعبير مشابه لنيلز بور" ايا منا لم يصعق بنظرية الكم فإنه لم يفهمها).

نظرية الكم محيرة لدرجة ان الفيزيايين يلجأوون لبعض "التفسيرات" المتناقضة لها. ويلجأون هي الكلمة الصحيحة. دافيد دويتش, في كتابه نسيج الحقيقة : يتخذ تفسير "العوالم المتعددة" لنظرية الكم, ربما لانها اسوأ ما يمكن ان تقول عنها بانها تبذير غير معقول. انها تسلم بوجود عدد كبير ويتزايد بسرعة من الاكوان, متواجدة بشكل متواز ولايمكن لاحدها اكتشاف الاخر الا من خلال الكوة الضيقة لتجارب الميكانك الكمي. وفي بعض تلك الاكوان انا ميت منذ زمن, وفي جزء صغير منها, فانت لك شارب اخضر , وهكذا.

وتفسير "كوبنهاغن البديل" هو مسلمة اخرى من نفس النوع – ليست تبذيرا, ولكنها متناقضة بشكل صارخ. ارفين شرودينغر سخر منها بمثاله عن القطة. وقطة شرودينغر محبوسة في علبة مع نظام قاتل فيها يقدحه حدث ميكانيكي كمي. وقبل فتح العلم, فإننا لانعرف اذا كانت القطة ميتة ام لا. بحسنا العام, ولكن بالرغم من ذلك فإن القطة اما حية او ميتة بداخل العلبة. وتفسير كوبنهاغن يناقض الحس العام. وكل ما لدينا قبل ان نفتح العلبة هو الاحتمال. وفي اللحظة التي نفتح بها العلبة, فان التابع الموجي يسقط ونبقى مع حدث واحد: القطة ميتة, او القطة حية. وحتى لحظة فتح العلبة فأن القطة ليست بحية وليست بميتة.

وتفسير "العوالم المتعددة" لنفس الحدث هو ان القطة في احد الاكوان ميتة , وفي الاخر حية. لايرضى احد التفسيرن الحس العام او الحدس لدى الانسان. والفيزيائيبن المفتولي العضلا ت لايأبهون. وما يهمهم هو العمل الرياضي, وان التنبؤات تصدق بالتجربة. ومعظمنا نبدوا ممنثين بالنسبة لهم. ونبدوا وكأننا نحتاج الى تمثيل مرئي لما يحري "في الحقيقة". وانا افهم, على فكرة, بأن شرودينغر بالاصل قد عرض مسألة التجربة الفكرية للقطة بهدف استعراض ما بدا له سخيفا في تفسير كوبنهاغن.

البيولوجي لويس والبريت يؤمن بأن الحيرة في الفيزياء الحديثة هي فقط قمة جبل الثلج. العلم بشكل عام, بعكس التكنولوجيا, يعارض الحس العام. اليكم احد الامثلة المفضلة: كل مرة تشرب فيها كأسا من الماء, يوجد احتمال جيد بأن تبتلع على الاقل جزيئا واحدا قد مر في مثانة اوليفر كروموبل. ذلك لايعدو عن كونه نظرية احتمالات بدائية. لان عدد الجزيئات في كأس الماء اكبر بما لايقاس من عدد الكؤوس في العالم. وبالتالي فكل 1859 مرة نمسك فيها كأسا مليئا بالماء, فإن ننظر للنسبة العالية لجزيئات الماء الموجودة في العالم. بالطبع لايوجد اي شئ مميز فيما يختص بكروموبل, او المثانات. لم تتنفس جزيئا من الازوت من الذي تنفسته الاغوانة الثالثة على يسار شجرة السيكاد الطويلة؟ الست سعيدا

لكونك تعيش في عالم حيث يمكن اطلاق تخمينات كهذه ولديك الملكات لمعرفة السبب؟ وكذلك امكانية تفسيرها للاخرين, وليس كرأي او ايمان ولكن كأمر يرغمون على تقبله عندما يفهمون وجهة النظر العقلانية لطرحك؟ وربما يكون هذاه السمة هي ما قصده كارل ساغان عندما شرح الدافع لكتابة الكون الملعون بالاشباح: العلم كشمعة في الظلام: " عدم شرح العلم يبدو لي كشئ منحرف. فعندما تقع في الحب, فإنك تود اخبار العالم. هذا الكتاب هو تصريح شخصي, يعكس قصة حب حياتي للعلم".

التطور لاشكال الحياة المعقدة, ووجودها في كون يتبع القوانين الفيزيائية , مفاجئ بشكل رائع بالتأكيد – هل يمكن ان يكون كذلك لو لم تكن المفاجأة شعورا موجودا فقط في الادمغة التي هي عبارة عن ناتج عن تلك العملية المفاجئة. اذن, هناك الحس الانثروبي, وبه لايجب ان يكون وجودنا مفاجئا. اود التفكير باني اتكلم بالنيابة عن زملائي من البشر واصر على ان ذلك , بالرغم من كل شئ, مفاجئ للغاية.

فكر بالموضوع. على كوكب واحد, وربما وحيد في الكون, جزيئات, والتي بشكل طبيعي لاتفعل اي شئ معقد اكثر من قطعة صخر. جمعت بعضها في قطع بحجم الصخرة بتعقيد هائل يجعلها قابلة للركض, القفز, السباحة, الطيران, الرؤية, السمع, التقاط واكل قطع معقدة اخرى تتحرك, وفي بعض الاحيان قابلة للتفكير والشعور, والوقوع في الحب مع قطع اخرى من المواد المعقدة. نحن نفهم الان كيف حدثت تلك الخدعة, ولكن فقط منذ عام 1859. قبل ذلك كانت تبدو محيرة جدا جدا بالتأكيد, والشكر لداروين, فإنها بالكاد محيرة. داروين امسك بالنافذة الضيقة للبرقع وسحبنها فاتحا اياها, وترك طوفان من الفهم يتدفق , جديد يثير الشغف , قوته ترفع الروح الانسانية لم يصل لها ربما احد قبله – الا ربما معرفة كوبرنيكوس بأن الارض ليس مركز الكون.

"قل لي" : سأكل الفيلسوف العظيم لودفيغ ويتغينشتاين صديقه," لماذا يقول الناس دائما بأنه كان من الطبيعي للانسان ان يفترض بأن الشمس تدور حول الارض عن افتراضه بأن الارض تدور؟" اجاب الصديق," حسنا, من الواضح ان ذلك حدث لانه كان يبدو وكان الشمس تدور الارض" واجاب ويتجنشتاين,"حسنا, كيف كان يجب ان تبدو لتبدو وكأن الارض تدور؟" بعض الاحيان اقتبس هذه العبارة من ويتجنشتاين في محاضراتي, واتوقع ان يضحك المستمعون, ولكن بدلا عن ذلك يقعون في سكوت الصدمة.

ان العالم المحدود الذي تطورت فيه ادمغتنا, تبدو الاشياء الصغيرة اكثر حركة من الكبيرة التي تبدو وكأنها الخلفية الثابتة للحركة. وعندما يدور العالم, فإن الاشياء التي تبدوا كبيرة لاننا قريبة مثل الجبال والاشجار والابنية, وحتى الارضية بذاتها, كلها تتحرك بتواقت مع بعضها ومع الذي يلاحظ الحكرة, وبحركة نسبية بالنسبة للاجرام السماوية مثل الشمس والنجوم. ان ادمغتنا التي تطورت تعطينا وهما عن حركاتهم عوضا عن الجبال والاشجار على السطح.

اود الان ان اتابع الكلام عن النقطة اعلاه, عن ان الطريقة التي نرى بها العالم, والسبب الذي نشعر بسببه بأن بعض الاشياء سهلة الفهم بشكل حدسي والاخرى صعبة , هي ان ادمغتنا نفسها هي اعضاء تطورت: كومبيوترات , تطورت لتساعدنا على البقاء في العالم –سأستعمل كلمة العالم المتوسط– حيث الاشياء المهمة للبقاء لم تكن كبيرة او صغيرة جدا: في عالم كانت الاشياء فيه اما ساكنة او تتحرك ببطء بالنسبة لسرعة الضوء: وحيث يمكن اعتبار الاحتمالات الصغيرة كمستحيلات. ان نافذة البرقع الفكري ضيقة لاننا لم نحتاج لاعرض منها لتساعد اسلافنا على البقاء.

العلم علمنا, بعكس كل الحدس التطوري, بأن ما يبدو صلبا كالكريستال والحجر هو في الحقيقة مكون بكليته من الفراغ. والتشبيه المألوف الذي يمثل الذرة كذبابة في منتصف ملعب رياضي. والذرة التالية لها تقع خارج الملعب. اصل واكثف واقسى حجر, اذن , في "الحقيقة" هو تقريبا فراغ تام, تنتشر فيه بعض الجزيئات البعيدة عن بعضها لدرجة انه يمكن ان نهملها. لماذا اذن تبدو الصخرة صلبة وتعطينا الشعور بأنها منيعة؟

لن احاول تخيل ماذا ستكون اجابة ويتجنشتاين على سؤالي. ولكن , كبيولوجي تطوري , سأجيب بالشكل التالي. ان ادمغتنا تطورت لتساعدن اجسامنا لايجاد طريقها عبر العالم الذي هو على المقياس الذي تتعامل به تلك الاجسام. لم نتطور للتجول في عالم الذرة. ولو كان الامر كذلك, فلربما كانت ادمغتنا قادرة على رؤية الحجارة على انها مليئة بالفراغ. الحجارة تبدوا صلبة وقاسية لايدينا لان ايدينا لاتستطيع اختراقها ليس له علاقة بالمسافات التي تفصل الجزيئات التي تشكله او حجومها. ولكنها تتعلق بحقل القوى المتعلق بتلك الجزيئات المتباعدة في الاشياء "الصلبة". ومن المفيد لادمغتنا ان تكون احساسا بالصلابة والقساوة, لان ذلك يساعدنا على ان تتحرك اجسامنا عبر عالم تكون فيه الاجسام – التي ندعوها بالصلبة – غير قادرة على احتلال مكان غيرها.

كوميديا صغيرة للراحة هنا – من كتاب : الرجل الذي يحدق بالعنزات لجون رونسون :

"انها قصة حقيقية. في صيف عام . الجنرال البرت ستوبلبين الثالث يجلس خلف مكتبه في ارلنعتون, فرجينيا, ويحدق بالحائط, الذي علقت النياشين العسكرية . انها تعطي تفاصيلا عن ماضيه العسكري الطويل والمميز. انه رئيس المخابرات العسكرية الاميريكية, وستون الف جندي تحت امرته .. .ينظر عبر تلك النياشين الى الحائط. هناك شئ عليه ان يفعله حتى ولو كانت افكاره تعطيه شعوار بالخوف. يفكر بالخيارات التي امامه. يستطيع البقاء في المكتب او يذهب للمكت المجاور. هذا هو خياره. وقد عقد العزم على فعل ذلك. سيذهب للمكتب المجاور ... انتصب واقفا, تحرك من خلف طاولة مكتبه, وبدأ بالمشي. اعني هنا بأنه يفكر بالتالي, ما اكثر الاشياء الموجودة في الذرة؟ فراغ! واسرع الخطى. مما انا مشكل؟ فكر مليا. ذرات! يهرول الان. وما الذي يشكل الحائط او معظمه؟. ذرات! وكل ما علي هو ان ادمج الفراغات .. وبعدها خبط الجنرال انفه بشدة على حائط مكتبه. اللعنة, لقد فشل الجنرال ستوبيلين بالذهاب للمكتب المجاور عبر الحائط".

الجنرال ستوبيلين يمكن ان يوصف كشخص "يفكر خارج الصندوق" وفي موقع لمنظمة يديرها الان مع زوجته بعد تقاعده. تسمى healthfreedonUSA ومكرسة لمنتجات صحية (فيتامينات, معادين, وحموض امينية الخ). زهورات, ومنتجات هوميوباتيه ومغذية ومواد طبية اخرى واطعمة صحية(بدون سماد, او مضادات حيوية). وبدون شركات(مع ان ذلك اجباري بأمر حكومي) تحدد الجرعات وتتحكم بالعلاج وليس هناك اي اشارة الى السوائل الجسدية القيمة.

ولاننا تطورنا في العالم المتوسط فإننا نجد انه من السهل بشكل حدسي ان نفهم افكارا مثل :" عندما يتحرك الجنرال بسرعة متوسطة والتي تتحرك بها اشياء اخرى في العالم المتوسط, ويصطدم بشئ جامد ينتمي للعالم المتوسط كحائط مثلا, فإن تقدمه يتوقف بشكل مؤلم" وادمغتنا ليست مجهزة لتخيل الحال عند النيوترينو وهو يمر عبر الحائط, من خلال الفجوات الواسعة التي يتشكل منها الحائط "فعلا". ولا يستطيع فهمنا التعامل مع ما يحدث عندما تتحرك الاشياء بسرعات قريبة لسرعة الضوء.

الحدس الانساني بدون مساعدة, تطور وتعلم في مدرسة العالم المتوسط, يجد من الصعب ايضا تصديق غاليليو عندما يقول بأن قذيفة مدفع وريشة ,وبعدم وجود الاحتكاك مع الهواء, ستصلان للارض بنفس اللحظة عند وقوعهما من برج عال. ذلك لانه في العالم المتوسط, يوجد احتكاك الهواء بشكل دائم. ولو تطورنا في الفراغ, لتوقعنا ان تصل الريشة وقذيفة المدفع في نفس اللحظة. نحن مقيمون وتطورنا في العالم المتوسط, وهذا يحد من قدراتنا التخيلية. النافذة الصغيرة لبرقعنا تسمح لنا , إلا في حالة كوننا موهوبين بشكل خاص ومتعلمين بشكل جيد, ان نرى العالم المتوسط فقط.

هناك بعض الحاجات التي يجب علينا نحن الحيوانات ان نعيش معها وليست في العالم المتوسط, ولكنها في العلم الميكروي للذرات والالكترونات ايضا. الاشارات العصبية التي نفكر من خلالها ونعتمد عليها في تخيلاتنا تقع في العالم الميكروي. ولكن اسلافنا في الغابات لم يحتاجوا لعمل اي شئ بخصوص ذلك, لم يتخذوا قرارات ابدا, من التي يمكن ان يساعد على اتخاذها الفهم للعالم الميكروي. ولو اننا كنا بكتريا ونكافح بشكل دائم ضد حركات الجزيئات حولنا, سيكون الامر مختلفا. ولكننا المتوسطيون كبيرون جدا في الحجم لنلاحظ الحركة الصغيرة. وبالشكل ذاته فإن حياتنا محكومة بالجاذبية ولكننا لانأبه تقريبا لقوة الشد السطحي المرهفة في السوائل. ان حشرة صغيرة ستحتفظ بتلك الاولوية ولن تجد ان قود الشد السطحي مرهفة ابدا.

ستيف غراند, في كتابه الخلق: الحياة وكيفية صناعتها. يقسو بشكل ما على ارائنا بالمادة نفسها. لدينا الميل للتفكير بأن الاشياء الصلبة فقط هي "حقا" اشياء. "الامواج الكهرطيسية وتموجاتها في الفراغ تبدوا "غير حقيقية". علماء القرن التاسع عشر الفيكتوريين تخيلوا بأن الامواج يجب ان تكون امواجا في وسط ما. ولم يعرف ذلك الوسط. لذلك اخترعوا واحدا واطلقوا عليه اسم الاثير المضئ. ولكننا نجد المادة "الحقيقية" مريحة لفهمنا فقط لان اسلافنا تطوروا للبقاء في العالم المتوسط, حيث المادة تكون بناء مفيدا.

من ناحية اخرى, حتى نحن المتوسطون نستطيع ان نرى بأن الدوامة المائية هي "شئ" ببعض مايشبه حقيقة الحجر, حتى ولو ان المادة في الدوامة تتغير بإستمرار. وفي الصحراء التنزانية, وتحت ظل اول دونيو ليغاتي, البركان المقدس في ماساي, توجد كومة هائلة الكبر من الرماد منذ الانفجار عام 1969. وتأخذ شكلها من الريح. ولكن ماهو جميل هو انها

تتحرك كجسم. انها مايعرف بالبارشان (تلفظ باهكاهن). الكومة كلها تمشي عبر الصحراء بإتجاه الغرب وبسرعة حوالي 17 مترا في العام. وتحافظ على شكلها الهلالي وتزحف بإتجاه القرون. الريح تهب وتحمل الرمل عاليا وعندما تصل حبة الرمل للقمة تهبط الاسفل على المنزلق الحاد داخل الهلال.

وبالواقع, فحتى البارشان يبدو ك"شئ" اكثر من موجة. الموجة تبدو وكأنها تتحرك بشكل افقي عبر البحر, ولكن جزيئات الماء تتحرك عموديا. وبنفس الشكل, فإن الامواج الصوتية ربما تسافر من المتكلم للسامع, ولكن جزيئات الهواء لاتفعل ذلك: لان ذلك سيصبح ريحا وليس صوتا. وقد اشار ستيف غراند بأننا اشبه بالامواج من كوننا "اشياء" دائمة. ودعا قراءه للتفكير:

> ..." بتجربة من الطفولة. شئ مما تذكره بشكل واضح, شئ بإستطاعتك رؤيته, الاحساس به, وحتى ربما الاحساس برأئحته, كما لوكنت هناك. وبالنظر لامر كهذا, فقد كنت هناك في ذلك الوقت, اليس كذلك؟ وإلا فكيف يمكنك ان تذكره؟ والان اليكم القنبلة: انك لم تكن هناك. ولا ذرة واحدة من جسمك اليوم كانت هناك عندما حصلت تلك الحادثة ... المادة تسيل من مكان لاخر وتتجمع بشكل مؤقت لتشكلك. وبذلك فمهما كنت , فإنك لست المادة التي تتكون منها. واذا لم يكن بإستطاعة ذلك ايقاف الشعر في مؤخرة العنق لديك, فإقرأ هذا ثانية حتى يحصل ذلك , لانه ذلك مهم"

إن "بالحقيقة" ليست كلمة نستطيع استخدامها بثقة بسيطة. ولو ان للنيوترينو دماغا تطور من اسلاف نيوتريونية الحجم, لقال بأن الصخور "بالحقيقة" تتكون غالبا من فضاء فارغ. لدينا ادمغة تطورت في العالم المتوسط لاسلافنا, الذين لم يستطيعوا المشي عبر الصخور, وبالتالي فإن "بالحقيقة" خاصتنا ليست "بالحقيقة" التي تكون فيها الصخور صلبة. "بالحقيقة", بالنسبة لحيوان, هي ما يحتاج دماغة لها ان تكون, وذلك لمساعدته على البقاء. ولان انواع الكائنات المختلفة تعيش في عوالم مختفة, سيكون هناك انواع اشكالية من "بالحقيقات".

مانراه في العالم الحقيقي ليس العالم الحقيقي بدون تزويق ولكنه نموذج للعالم الحقيقي, منظم ومعدل بمعلومات الحواس – نموذج مبني بشكل مفيد للتعامل مع العالم الحقيقي. طبيعة هذا النموذج تعتمد على نوعنا كحيوانات. الحيوان الطائر يحتاج لعالم بنموذج مختلف عن الحيوان الماشي. والحيوان الزاحف او الطائر. ان المفترس نموذج مختلف عن الضحية, وحتى لو كانت عوالمهم متقاطعة. دماغ القرد يجب ان يكون له برنامج يحاكي الاغصان والحجوم الثلاثية الابعاد. بينما دماغ حيوان البوتمان لايحتاج برنامج ثلاثي الابعاد, لانه يعيش على سطح مستنقع في العالم الثنائي الابعاد لادوين ابوت. ودماغ حيوان المول يستدعي برنامجا مخصصا للتعامل مع ما تحت الارض. وجرذ المول العاري ربما كان له برنامج مشابه لحيوان المول. ولكن السنجاب, على الرغم من انه يعيش كما جرذ المول, ربما كان له برنامج اشبه ببرنامج القرد عن العالم الذي حوله.

لقد استعرضت في كتابي, صانع الساعات الاعمى وغيره, بأن الوطاويط يمكن ان "ترى" بإذانها. ونموذج العالم الذي تحتاجه, لاجل تمكينها من التوجه خلال العالم الثلاثي الابعاد لالتقاط الحشرات, يجب ان يكون مماثلا بالتأكيد للنموذج الذي يحتاجه الطائر لتنفيذ نفس العلمية. الواقع بأن الوطواط يستعمل الصدى لتعديل معطياته للمنوذج, بينما يستعمل الطائر الضوء , هو فقط مسألة عرضية. واقترحت بأن الوطاويط, يفهمون رموزا مثل "احمر" و"ازرق" كأشكال داخلية لرموز تتعلق بالصدى, مثل القوام السمعي لسطح ما : تماما كما يفهم الطائر اشكال تمثل اطوال امواج الضوء الطويلة والقصيرة. والنقطة هنا هي ان طبيعة النموذج محكومة بكيفية استعمالها من قبل من يحس المنوذج . ودرس الوطواط هو مايلي. ان التشكيل العام للنموذج الادراكي – على عكس المتغيرات التي تتغير دائما بحسب الاحساسات العصبية – لاتعدوا عن كونها تبينات لطريقة الحيوان في العيش, ولاتختلف عن الجناح او الرجل او الذيل.

هالداين, في مقاله عن "العوالم المحتملة" والذي اقتبست منه اعلاه, قال شيئا مماثلا عن الحيوانات التي تسيطر حاسة الشم على عوالمها. كتب بأن الكلاب تستطيع التمييز بين نوعين متشابهين جدا من الحموض الدسمة – حمض الكابريليك وحمض الكابريوك– وكل منهما ممدد بنسبة واحد في المليون. والفرق الوحيد بين هذين الحمضين هو ان سلسلة كابريليك اطول من سلسلة كابريوك بذرتي كربون فقط. وتحمين هالداين, بأنه ربما كان من الممكن للكلب ان يصنف الحموض "بحسب ترتيب وزنها الجزيئي بناء على رائحتها, تماما كما يصف انسان اوتار البيانو بحسب اطوالها بناء على النوطات".

هناك حمض دسم اخر, كابريك, مماثل للحمضين الاخرين, مع ذرتي كربون اضافيتين في السلسة الجزيئية. وربما يستطيع الكلب الذي لم يتعرف على حمض كابريك بعد ان يتخيل رائحته ولن يسبب له هذا مشكلة اكبر من التي نحصل

عليها عندما نتخيل ترومبيت يعزف نوطة اعلى من التي سمعناها مسبقا. وبالنسبة لي يبدو معقولا جدا افتراض بأن الكلب , او الكركدن يمكن ان يعالجا مزيجا من الروائح كما هو الحال في الهارموني الموسيقي.وربما يكون هناك تنازعات(شمية). رما لايكون هناك لحن, لان اللحن مبنيى على نوطات تبدأ او تنتهي مع توقيت محدد, على عكس الروائح.. وربما تستطيع الكلاب والكركدنات ان تشم بالالوان. ونفس الجدل يمكن ان يحصل في حالة الوطاويط.

ومرة اخرى. فإن المفاهيم التي ندعوها بالالوان هي ادوات تستعملها ادمغتنا لاعطاء مواصفات هامة لتمييز العالم الخارجي. الاشكال المفهومة – ما يدعون الفلاسفة بـــ كواليا – ليس لها معنى ذاتي متصل بطول معين لموجة الضوء. بل انها مجرد لافتات متوفرة للدماغ, والتي تبني على اساسها حقيقتها الخارجية, وذلك لصنع التمايزات والتي تعني بشكل خاص شيئاً ما للحيوان المعني بالامر. وفي حالتنا, او حالة الطير, فأنها تعني اختلاف طول الموجة الضوئية. وفي حالة الوطاويط, فأنا افترضت, انها ربما تعني اختلاف السطح بإختلاف نوع موجة الصدى او قوامها, ربما حمراء بالنسبة للسطح اللامع, وزرقاء بالنسبة للمخملي, وخضراء للمادة الخشنة. وفي حالة الكب او الكركدن, فلماذا لاتكون رائحة؟ ان قدرة تخيل عالم غريب للوطاويط او الكركدنات, عالم زاحف البحيرة او جرذ المول, عالم البكتريا او الصراصير, هي واحدة من المميزات التي امنها لنا العلم بشده للقماش الاسود لبرقعنا ودفعنا لنشاهد المجال الاعرض هناك في الخارج وذلك لاجل سعادتنا.

ان الاستعارة عن العالم المتوسط – عن المجال الوسطي للظواهر التي تضيق من سطح الشق لمجال رؤية البرقع لدينا – يمكن تطبيقها ايضا على مجال او "طيف" اخر. يمكننا ان نضع سلما ل اللااحتمالية, وبنافذة ضيقة مشابهة للتي نرى من خلالها ضمن حدود امكانياتا الحدسية والتخليلة. وعلى طرف ذلك السلم اللااحتمالي نحد ما ندعوه بالمستحيل. المعجزات احداث بعدم احتمالية عظيمة التطرف. كأن يلوح تمثال مادونا بيده لنا. ان الذرات التي يتكون منها هذا النصب تتذبذب للامام والخلف . وبسبب وجود عدد كبير منها, وبسبب عدم اتفاقها المسبق على الحركة بإتجاه واحد, فإن اليد, كما نراها في العالم المتوسط, تبقى ساكنة صخرية. ولكن الذرات المهتزة في تلك اليد يمكن ان يحدث لها وان تتحرك كلها في اتحاه واحد في نفس الوقت. ومرة اخرى , واخرى ... وفي هذه الحالة ستتحرك اليد, وسنراها تلوح لنا. ذلك يمكن ان يحدث, ولكن احتمالات عدم الحدوث كبيرة جدا, بحيث انك لو قررت ان تكتب النسبة عند بداية الكون , فإنك لن تنته بعد من كتابة الاصفار في يومنا هذا. ان القدرة على حساب احتمال كهذا– احتمال ان نحدد ما يعني قرب – المستحيل هو مثال اخر على التحرر الحسن الذي يؤديهالعلم للروح الانسانية.

ان التطور في العال المتوسط قد زودنا بأمكانية مريضة للتعامل مع احداث بعدم احتمالية عالية. ولكن في الفضاء الكوني الواسع, في الازمنة الجيولوجية, فإن الاحداث التي تبدوا مستحيلة تصبح حتمية. العلم يفتح النافذة الضيقة التي تعودنا رؤية طيف الاحتمالات من خلالها. لقد تحررنا بالحسابات والعقلانية وصار بإمكاننا التعامل من مجالات احتمالية كانت في زمن ما خارج نطاقنا او انها مملوكة من قبل التنانين. وقد اصبحنا قادرين على استخدام عرض النافذة كما في الفصل الرابع, حيث تعرضنا للاحتمالات عن نشوء الحياة وكيف يمكن لحدث بإحتمال قريب للمستحيل ان يحصل بوجود عدد كاف من الكواكب ووقت طويل بشكل كاف: وحيث تعرضنا لطيف امكانيات الاكوان الممكنة, ولكل منها قوانينه وثوابته, وكذلك الضرورة الانثروبية التي جعلتنا نوجد في احد قلة من الاماكن الرفيقة للحياة.

كيف يمكننا تفسير هالداين "محير اكثر مما نستطيع الظن"؟ محير اكثر من الاستطاعة على الظن, مبدئيا؟ ام فقط محير اكثر من استطاعتنا على الظن, بالاخذ بعين الاعتبار محدودية عقولنا المتطورة كصنعة من العالم المتوسط؟ هل نستطيع, بالتمرين والتدريب, ان نعتق انفسنا من العالم المتوسط, ونمرق برقعنا الاسود, ونصل لمستوى حدسي – ورياضي – لفهم الامور الصغيرة جدا, والكبيرة جدا والسريعة جدا؟ لاعرف الاجابة على ذلك, ولكنني اطير من الفرح لكوني احيا في الوقت الذي تدفع فيه الانسانية حدود الفهم. والافضل من ذلك ربما سيكون اكتشافنا بأنه ليس هناك حدود لذلك.

انتهى

- **Adams, D. (2003).** ***The Salmon of Doubt.*** **London: Pan.**
- **Alexander, R. D. and Tinkle, D. W., eds (1981).** ***Natural Selection and***
- ***Social Behavior.*** **New York: Chiron Press.**
- **Anon. (1985).** ***Life - How Did It Get Here? By Evolution or by***
- ***Creation?*** **New York: Watchtower Bible and Tract Society.**
- **Ashton, J. E, ed. (1999).** ***In Six Days: Why 50 Scientists Choose to***
- ***Believe in Creation.*** **Sydney: New Holland.**
- **Atkins, P. W. (1992).** ***Creation Revisited.*** **Oxford: W. H. Freeman.**
- **Atran, S. (2002).** ***In Gods We Trust.*** **Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **Attenborough, D. (1960).** ***Quest in Paradise.*** **London: Lutterworth.**
- **Aunger, R. (2002).** ***The Electric Meme: A New Theory of How We***
- ***Think.*** **New York: Free Press.**
- **Baggini, J. (2003).** ***Atheism: A Very Short Introduction.*** **Oxford:**
- **Oxford University Press.**
- **Barber, N. (1988).** ***Lords of the Golden Horn.*** **London: Arrow.**
- **Barker, D. (1992).** ***Losing Faith in Faith.*** **Madison, WI: Freedom From**
- **Religion Foundation.**
- **Barker, E. (1984).** ***The Making of a Moonie: Brainwashing or Choice?***
- **Oxford: Blackwell.**
- **Barrow, J. D. and Tipler, F. J. (1988).** ***The Anthropic Cosmological***
- ***Principle.*** **New York: Oxford University Press.**
- **Baynes, N. H., ed. (1942).** ***The Speeches of Adolf Hitler,*** **vol. 1.**
- **Oxford: Oxford University Press.**
- **Behe, M. J. (1996).** ***Darwin's Black Box.*** **New York: Simon &**
- **Schuster.**
- **Beit-Hallahmi, B. and Argyle, M. (1997).** ***The Psychology of Religious***
- ***Behaviour, Belief and Experience.*** **London: Routledge.**
- **Berlinerblau, J. (2005).** ***The Secular Bible: Why Nonbelievers Must***
- ***Take Religion Seriously.*** **Cambridge: Cambridge University Press.**
- **Blackmore, S. (1999).** ***The Meme Machine.*** **Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **BOOKS C I T E D OR R E C O M M E N D E D 381**
- **Blaker, K., ed. (2003).** ***The Fundamentals of Extremism: The Christian***
- ***Right in America.*** **Plymouth, MI: New Boston.**
- **Bouquet, A. C. (1956).** ***Comparative Religion.*** **Harmondsworth:**
- **Penguin.**
- **Boyd, R. and Richerson, P. J. (1985).** ***Culture and the Evolutionary***
- ***Process.*** **Chicago: University of Chicago Press.**
- **Boyer, P. (2001).** ***Religion Explained.*** **London: Heinemann.**
- **Brodie, R. (1996).** ***Virus of the Mind: The New Science of the Meme.***
- **Seattle: Integral Press.**
- **Buckman, R. (2000).** ***Can We Be Good without God?*** **Toronto:**
- **Viking.**
- **Bullock, A. (1991).** ***Hitler and Stalin.*** **London: HarperCollins.**
- **Bullock, A. (2005).** ***Hitler: A Study in Tyranny.*** **London: Penguin.**

- **Buss, D. M., ed. (2005).** ***The Handbook of Evolutionary Psychology.***
- **Hoboken, NJ: Wiley.**
- **Cairns-Smith, A. G. (1985).** ***Seven Clues to the Origin of Life.***
- **Cambridge: Cambridge University Press.**
- **Comins, N. F. (1993).** ***What if the Moon Didn't Exist?*** **New York:**
- **HarperCollins.**
- **Coulter, A. (2006).** ***Godless: The Church of Liberation.*** **New York:**
- **Crown Forum.**
- **Darwin, C. (1859).** ***On the Origin of Species by Means of Natural***
- ***Selection.*** **London: John Murray.**
- **Dawkins, M. Stamp (1980).** ***Animal Suffering.*** **London: Chapman &**
- **Hall.**
- **Dawkins, R. (1976).** ***The Selfish Gene.*** **Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **Dawkins, R. (1982).** ***The Extended Phenotype.*** **Oxford: W. H.**
- **Freeman.**
- **Dawkins, R. (1986).** ***The Blind Watchmaker.*** **Harlow: Longman.**
- **Dawkins, R. (1995).** ***River Out of Eden.*** **London: Weidenfeld &**
- **Nicolson.**
- **Dawkins, R. (1996).** ***Climbing Mount Improbable.*** **New York: Norton.**
- **Dawkins, R. (1998).** ***Unweaving the Rainbow.*** **London: Penguin.**
- **Dawkins, R. (2003).** ***A Devil's Chaplain: Selected Essays.*** **London:**
- **Weidenfeld & Nicolson.**
- **Dennett, D. (1995).** ***Darwin's Dangerous Idea.*** **New York: Simon &**
- **Schuster.**
- **Dennett, D. C. (1987).** ***The Intentional Stance.*** **Cambridge, MA: MIT**
- **Press.**

- **Dennett, D. C. (2003).** ***Freedom Evolves.*** **London: Viking.**
- **Dennett, D. C. (2006).** ***Breaking the Spell: Religion as a Natural***
- ***Phenomenon.*** **London: Viking.**
- **Deutsch, D. (1997).** ***The Fabric of Reality.*** **London: Allen Lane.**
- **Distin, K. (2005).** ***The Selfish Meme: A Critical Reassessment.***
- **Cambridge: Cambridge University Press.**
- **Dostoevsky, F. (1994).** ***The Karamazov Brothers.*** **Oxford: Oxford**
- **University Press.**
- **Ehrman, B. D. (2003a).** ***Lost Christianities: The Battles for Scripture***
- ***and the Faiths We Never Knew.*** **Oxford: Oxford University Press.**
- **Ehrman, B. D. (2003b).** ***Lost Scriptures: Books that Did Not Make It***
- ***into the New Testament.*** **Oxford: Oxford University Press.**
- **Ehrman, B. D. (2006).** ***Whose Word Is It?*** **London: Continuum.**
- **Fisher, H. (2004).** ***Why We Love: The Nature and Chemistry of***
- ***Romantic Love.*** **New York: Holt.**
- **Forrest, B. and Gross, P. R. (2004).** ***Creationism's Trojan Horse: The***
- ***Wedge of Intelligent Design.*** **Oxford: Oxford University Press.**
- **Frazer, J. G. (1994).** ***The Golden Bough.*** **London: Chancellor Press.**
- **Freeman, C. (2002).** ***The Closing of the Western Mind.*** **London:**
- **Heinemann.**
- **Galouye, D. F. (1964).** ***Counterfeit World.*** **London: Gollancz.**
- **Glover, J. (2006).** ***Choosing Children.*** **Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **Goodenough, U. (1998).** ***The Sacred Depths of Nature.*** **New York:**

- **Oxford University Press.**
- **Goodwin, J. (1994).** ***Price of Honour: Muslim Women Lift the Veil of***
- ***Silence on the Islamic World.*** **London: Little, Brown.**
- **Gould, S. J. (1999).** ***Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness***
- ***of Life.*** **New York: Ballantine.**
- **Grafen, A. and Ridley, M., eds (2006).** ***Richard Dawkins: How a***
- ***Scientist Changed the Way We Think.*** **Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **Grand, S. (2000).** ***Creation: Life and How to Make It.*** **London:**
- **Weidenfeld & Nicolson.**
- **Grayling, A. C. (2003).** ***What Is Good? The Search for the Best Way***
- ***to Live.*** **London: Weidenfeld & Nicolson.**
- **Gregory, R. L. (1997).** ***Eye and Brain.*** **Princeton: Princeton University**
- **Press.**
- **Halbertal, M. and Margalit, A. (1992).** ***Idolatry.*** **Cambridge, MA:**
- **Harvard University Press.**
- **B O O K S C [T ED OR R E C O M M ENDE D 383**
- **Harris, S. (2004).** ***The End of Faith: Religion, Terror and the Future of***
- ***Reason.*** **New York: Norton.**
- **Harris, S. (2006).** ***Letter to a Christian Nation.*** **New York: Knopf.**
- **Haught, J. A. (1996).** ***2000 Years of Disbelief: Famous People with the***
- ***Courage to Doubt.*** **Buffalo, NY: Prometheus.**
- **Hauser, M. (2006).** ***Moral Minds: How Nature Designed our***
- ***Universal Sense of Right and Wrong.*** **New York: Ecco.**
- **Hawking, S. (1988).** ***A Brief History of Time.*** **London: Bantam.**
- **Henderson, B. (2006).** ***The Gospel of the Flying Spaghetti Monster.***
- **New York: Villard.**
- **Hinde, R. A. (1999).** ***Why Gods Persist: A Scientific Approach to***
- ***Religion.*** **London: Routledge.**
- **Hinde, R. A. (2002).** ***Why Good Is Good: The Sources of Morality.***
- **London: Routledge.**
- **Hitchens, C. (1995).** ***The Missionary Position: Mother Teresa in***
- ***Theory and Practice.*** **London: Verso.**
- **Hitchens, C. (2005).** ***Thomas Jefferson: Author of America.*** **New**
- **York: HarperCollins.**
- **Hodges, A. (1983).** ***Alan Turing: The Enigma.*** **New York: Simon &**
- **Schuster.**
- **Holloway, R. (1999).** ***Godless Morality: Keeping Religion out of***
- ***Ethics.*** **Edinburgh: Canongate.**
- **Holloway, R. (2001).** ***Doubts and Loves: What is Left of Christianity.***
- **Edinburgh: Canongate.**
- **Humphrey, N. (2002).** ***The Mind Made Flesh: Frontiers of Psychology***
- ***and Evolution.*** **Oxford: Oxford University Press.**
- **Huxley, A. (2003).** ***The Perennial Philosophy.*** **New York: Harper.**
- **Huxley, A. (2004).** ***Point Counter Point.*** **London: Vintage.**
- **Huxley, T. H. (1871).** ***Lay Sermons, Addresses and Reviews.*** **New**
- **York: Appleton.**
- **Huxley, T. H. (1931).** ***Lectures and Essays.*** **London: Watts.**
- **Jacoby, S. (2004).** ***Freethinkers: A History of American Secularism.***
- **New York: Holt.**
- **Jammer, M. (2002).** ***Einstein and Religion.*** **Princeton: Princeton**
- **University Press.**

- **Jaynes, J. (1976).** ***The Origin of Consciousness in the Breakdown of***
- ***the Bicameral Mind.*** **Boston: Houghton Mifflin.**
- **Juergensmeyer, M. (2000).** ***Terror in the Mind of God: The Global***
- ***Rise of Religious Violence.*** **Berkeley: University of California Press.**
- **Kennedy, L. (1999).** ***All in the Mind: A Farewell to God.*** **London:**

- **Hodder *&c* Stoughton.**
- **Kertzer, D. I. (1998).** ***The Kidnapping ofEdgardo Mortara.*** **New York:**
- **Vintage.**
- **Kilduff, M. and Javers, R. (1978).** ***The Suicide Cult.*** **New York:**
- **Bantam.**
- **Kurtz, P., ed. (2003).** ***Science and Religion: Are They Compatible?***
- **Amherst, NY: Prometheus.**
- **Kurtz, P. (2004).** ***Affirmations: Joyful and Creative Exuberance.***
- **Amherst, NY: Prometheus.**
- **Kurtz, P. and Madigan, T. J., eds (1994).** ***Challenges to the***
- ***Enlightenment: In Defense of Reason and Science.*** **Amherst, NY:**
- **Prometheus.**
- **Lane, B. (1996).** ***Killer Cults.*** **London: Headline.**
- **Lane Fox, R. (1992).** ***The Unauthorized Version.*** **London: Penguin.**
- **Levitt, N. (1999)** ***Prometheus Bedeviled.*** **New Brunswick, NJ: Rutgers**
- **University Press.**
- **Loftus, E. and Ketcham, K. (1994).** ***The Myth of Repressed Memory:***
- ***False Memories and Allegations of Sexual Abuse.*** **New York: St**
- **Martin's.**
- **McGrath, A. (2004).** ***Dawkins' God: Genes, Memes and the Meaning***
- ***of Life.*** **Oxford: Blackwell.**
- **Mackie, J. L. (1985).** ***The Miracle of Theism.*** **Oxford: Clarendon Press.**
- **Medawar, P. B. (1982).** ***Pluto's Republic.*** **Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **Medawar, P. B. and Medawar, J. S. (1977).** ***The Life Science: Current***
- ***Ideas of Biology.*** **London: Wildwood House.**
- **Miller, Kenneth (1999).** ***Finding Darwin's God.*** **New York:**
- **HarperCollins.**
- **Mills, D. (2006).** ***Atheist Universe: The Thinking Person's Answer to***
- ***Christian Fundamentalism.*** **Berkeley: Ulysses Books.**
- **Mitford, N. and Waugh, E. (2001).** ***The Letters of Nancy Mitford and***
- ***Evelyn Waugh.*** **New York: Houghton Mifflin.**
- **Mooney, C. (2005).** ***The Republican War on Science.*** **Cambridge, MA:**
- **Basic Books.**
- **Perica, V. (2002).** ***Balkan Idols: Religion and Nationalism in Yugoslav***
- ***States.*** **New York: Oxford University Press.**
- **Phillips, K. (2006).** ***American Theocracy.*** **New York: Viking.**
- **Pinker, S. (1997).** ***How the Mind Works.*** **London: Allen Lane.**
- **Pinker, S. (2002).** ***The Blank Slate: The Modern Denial of Human***
- ***Nature.*** **London: Allen Lane.**

- **Plimer, I. (1994).** ***Telling Lies for God: Reason vs Creationism.***
- **Milsons Point, NSW: Random House.**
- **Polkinghorne, J. (1994).** ***Science and Christian Belief: Theological***
- ***Reflections of a Bottom-Up Thinker.*** **London: SPCK.**
- **Rees, M. (1999).** ***Just Six Numbers.*** **London: WeidenfeJd & NicoJson.**

- **Rees, M. (2001).** ***Our Cosmic Habitat.*** **London: Weidenfeld &**
- **NicoJson.**
- **Reeves, T. C. (1996).** ***The Empty Church: The Suicide of Liberal***
- ***Christianity.*** **New York: Simon & Schuster.**
- **Richerson, P. J. and Boyd, R. (2005).** ***Not by Genes Alone: How***
- ***Culture Transformed Human Evolution.*** **Chicago: University of**
- **Chicago Press.**
- **Ridley, Mark (2000).** ***Mendel's Demon: Gene Justice and the***
- ***Complexity of Life.*** **London: Weidenfeld & Nicolson.**
- **Ridley, Matt (1997).** ***The Origins of Virtue.*** **London: Penguin.**
- **Ronson, J. (2005).** ***The Men Who Stare at Goats.*** **New York: Simon &**
- **Schuster.**
- **Ruse, M. (1982).** ***Darwinism Defended: A Guide to the Evolution***
- ***Controversies.*** **Reading, MA: Addison-Wesley.**
- **Russell, B. (1957).** ***Why I Am Not a Christian.*** **London: Routledge.**
- **Russell, B. (1993).** ***The Quotable Bertrand Russell.*** **Amherst, NY:**
- **Prometheus.**
- **Russell, B. (1997a).** ***The Collected Papers of Bertrand Russell,*** **vol. 2:**
- ***Last Philosophical Testament, 1943-1968.*** **London: Routledge.**
- **Russell, B. (1997b).** ***Collected Papers,*** **vol. 11, ed. J. C. Slater and**
- **P. Köllner. London: Routledge.**
- **Russell, B. (1997c).** ***Religion and Science.*** **Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **Ruthven, M. (1989).** ***The Divine Supermarket: Travels in Search of the***
- ***Soul of America.*** **London: Chatto & Windus.**
- **Sagan, C. (1995).** ***Pale Blue Dot.*** **London: Headline.**
- **Sagan, C. (1996).** ***The Demon-Haunted World: Science as a Candle in***
- ***the Dark.*** **London: Headline.**
- **Scott, E. C. (2004).** ***Evolution vs. Creationism: An Introduction.***
- **Westport, CT: Greenwood.**
- **Shennan, S. (2002).** ***Genes, Memes and Human History.*** **London:**
- **Thames & Hudson.**
- **Shermer, M. (1997).** ***Why People Believe Weird Things: Pseudoscience,***
- ***Superstition and Other Confusions of Our Time.*** **New York: W. H.**
- **Freeman.**
- **386 T H E G O D D E I, U S 1 O N**
- **Shermer, M. (1999).** ***How We Believe: The Search for God in an Age***
- ***of Science.*** **New York: W. H. Freeman.**
- **Shermer, M. (2004).** ***The Science of Good and Evil: Why People***
- ***Cheat, Gossip, Care, Share, and Follow the Golden Rule.*** **New**
- **York: Holt.**
- **Shermer, M. (2005).** ***Science Friction: Where the Known Meets the***
- ***Unknown.*** **New York: Holt.**
- **Shermer, M. (2006).** ***The Soul of Science.*** **Los Angeles: Skeptics Society.**
- **Silver, L. M. (2006).** ***Challenging Nature: The Clash of Science and***
- ***Spirituality at the New Frontiers of Life.*** **New York: HarperCollins.**
- **Singer, P. (1990).** ***Animal Liberation.*** **London: Jonathan Cape.**
- **Singer, P. (1994).** ***Ethics.*** **Oxford: Oxford University Press.**
- **Smith, K. (1995).** ***Ken's Guide to the Bible.*** **New York: Blast Books.**
- **Smolin, L. (1997).** ***The Life of the Cosmos.*** **London: Weidenfeld &**
- **Nicolson.**
- **Smythies, J. (2006).** ***Bitter Fruit.*** **Charleston, SC: Booksurge.**

- **Spong, J. S. (2005). *The Sins of Scripture.* San Francisco: Harper.**
- **Stannard, R. (1993). *Doing Away with God? Creation and the Big***
- ***Bang.* London: Pickering.**
- **Steer, R. (2003). *Letter to an Influential Atheist.* Carlisle: Authentic**
- **Lifestyle Press.**
- **Stenger, V. J. (2003). *Has Science Found God? The Latest Results in***
- ***the Search for Purpose in the Universe.* New York: Prometheus.**
- **Susskind, L. (2006). *The Cosmic Landscape: String Theory and the***
- ***Illusion of Intelligent Design.* New York: Little, Brown.**
- **Swinburne, R. (1996). *Is There a God?* Oxford: Oxford University**
- **Press.**
- **Swinburne, R. (2004). *The Existence of God.* Oxford: Oxford**
- **University Press.**
- **Taverne, R. (2005). *The March of Unreason: Science, Democracy and***
- ***the New Fundamentalism.* Oxford: Oxford University Press.**
- **Tiger, L. (1979). *Optimism: The Biology of Hope.* New York: Simon**
- **& Schuster.**
- **Toland, J. (1991). *Adolf Hitler: The Definitive Biography,* New York:**
- **Anchor.**
- **Trivers, R. L. (1985). *Social Evolution.* Menlo Park, CA: Benjamin/**
- **Cummings.**
- **Unwin, S. (2003). *The Probability of God: A Simple Calculation that***
- ***Proves the Ultimate Truth.* New York: Crown Forum.**
- **Vermes, G. (2000). *The Changing Faces of Jesus.* London: Allen Lane.**
- **BOOKS CITED OR RECOMMENDED 387**
- **Ward, K. (1996). *God, Chance and Necessity.* Oxford: Oneworld.**
- **Warraq, I. (1995). *Why I Am Not a Muslim.* New York: Prometheus.**
- **Weinberg, S. (1993). *Dreams of a Final Theory.* London: Vintage.**
- **Wells, G. A. (1986). *Did Jesus Exist?* London: Pemberton.**
- **Wheen, F. (2004). *How Mumbo-Jumbo Conquered the World: A Short***
- ***History of Modern Delusions.* London: Fourth Estate.**
- **Williams, W, ed. (1998). *The Values of Science: Oxford Amnesty***
- ***Lectures 1997.* Boulder, CO: Westview.**
- **Wilson, A. N. (1993). *Jesus.* London: Flamingo.**
- **Wilson, A. N. (1999). *God's Funeral.* London: John Murray.**
- **Wilson, D. S. (2002). *Darwin's Cathedral: Evolution, Religion and the***
- ***Nature of Society.* Chicago: University of Chicago Press.**
- **Wilson, E. O. (1984). *Biophilia.* Cambridge, MA: Harvard University**
- **Press.**
- **Winston, R. (2005). *The Story of God.* London: Transworld/BBC.**
- **Wolpert, L. (1992). *The Unnatural Nature of Science.* London: Faber**
- **& Faber.**
- **Wolpert, L. (2006). *Six Impossible Things Before Breakfast: The***
- ***Evolutionary Origins of Belief.* London: Faber & Faber.**
- **Young, M. and Edis, T., eds (2006). *Why Intelligent Design Fails: A***
- ***Scientific Critique of the New Creationism.* New Brunswick: Rutgers University Press.**

شكر و تقدير الى كل من ساهم بأصدار النسخة العربية و الترويج لها و نشرها

تستطيع طباعة نسختك من هذا الكتاب و تقديمه كهدية لكل من تعرف

تستطيع أرسال هذا الكتاب من خلال البريد الالكتروني

تستطيع نقل أفكاره الى كل من حولك

تستطيع التفكير بنفسك

تحية حب و أحترام

بسام البغدادي

Al.Baghdady@gmail.com